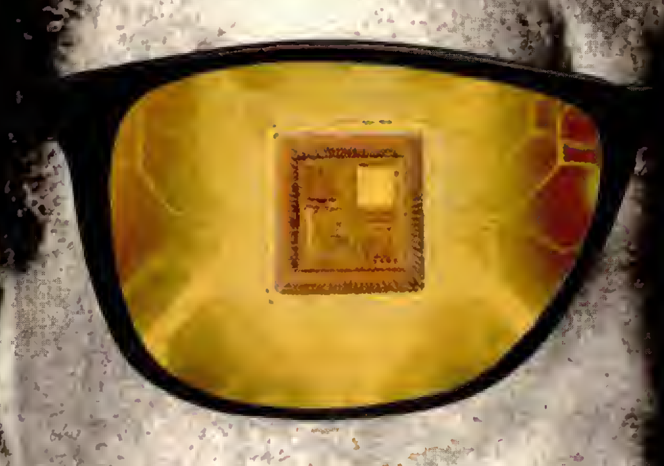
الفيصل

مجلة ثقافية شهرية - العدد 234 - ذو الحجة 1416هـ - أبريل (نيسان) 1996م
ALFAISAL MAGAZINE - ISSUE 234 APR./MAY.



الميكنة الفسيولوجية
للأعضاء البشرية من القلب إلى العين

نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي لمحمد الصغير

مخطوطة كتاب «نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي» وكما هو جلي - فالمقصود الحادي عشر.

المؤلف محمد الصغير بن محمد بن عبدالله الأفراني الأصل المراكشي الوطن، المتوفى سنة 1138هـ.

موضوع الكتاب تاريخ مراكش في (عصر الشرفاء السعديين).

تقع هذه النسخة الخطية منه في (150 ورقة) وهي بحالة جيدة بشكل عام باستثناء بعض الأوراق المصابة بتقصف أو تلوث خفيف. الكتابة والجدولة بألوان مختلفة وبخط مغربي حسن.

الناسخ لم يذكر اسمه مع أنه ذكر أنه فرغ من كتابتها في الخامس والعشرين من محرم سنة 1139هـ، وهذا مما يزيد في قيمة هذه المخطوطة إذ إن كتابتها تمت قريبا جدا من وفاة المؤلف.



المخطوطة من مقتنيات جامعة الملك سعود

أعد هذه النبذة

أبو زكريا صالح بن سليمان الحجي

في العدد القادم:

- لغة وظيفية أم تعلم وظيفي!
- أسس في منهجية التفكير.
- انقذوا الأطفال!



دعائم الفكر المعاصر

تسعدني كل شهر «إطلالة» مجلة الفيصل الغرّاء، وما تحتويه من فكر ثاقب ومعان قيمة. وأهنئكم على النجاح في استمرار نشر الثقافة العربية الإسلامية والعالمية بمقالات في الفقه والعلم وأسرار الكون والطب والآداب والفنون وغيرها من دعائم الفكر المعاصر. وفي عدد شهر رمضان بالذات سعدت بقراءة مقالة الدكتور خضر الشيباني في زاوية «على موعد» التي كتبها بعنوان «تأملات في أحوال الزمان»، وما جاء في المقالة من تحذير للشباب من مخاطر الطرق التي يسير فيها ضعاف النفوس، وتأكيد أهمية بناء الإنسان الذي يؤسس بنيانه بثقة وكرامة وعزة وكرم، والذي يضع في اعتباره أن أهم ما يفعله هو ما ينفع الناس.. مزيداً من الرقي والازدهار لـ «الفيصل»

فاروق الباز

الرسالة من العالم العربي المسلم د. فاروق الباز، المتخصص في علم الأرض (الجيولوجيا) والفضاء، ومدير مركز الاستشعار عن بعد، جامعة بوسطن، الذي كان مسؤولاً عن اختيار مواقع هبوط سفن «أبوللو» على سطح القمر، وشارك في التدريب العلمي لرواد الفضاء.

ود. الباز من العقول العربية المهاجرة التي لاتزال على صلة وثيقة بعالمها العربي والإسلامي من طريق الجهود العلمية التي يشارك فيها، والندوات والمحاضرات التي يلقيها في الجامعات والمراكز العربية والإسلامية.

أين ساعة «على موعد»

لديّ سؤال واقتراح، أما السؤال فهو: كان شعار زاوية على «موعد» في الصفحة الأخيرة من «الفيصل» يشتمل على ساعة مرسومة، وأعتقد أنكم كنتم تعنون بذلك الشعارمدى قيمة الوقت ونفاسته، وهو الأمر الذي لا أشك أنكم تهتمون به وتبذلون ما استطعتم لنشر مفهوم احترام الوقت والمواعيد، فلماذا قمتم بحذف هذه الساعة؟

وأما الاقتراح فهو محاولة إجراء حوار شامل مع الشيخ علي الطنطاوي - أمد الله في عمره -، واستكتاب بعض الأقلام المشهورة الأخرى مثل د. محمد عمارة و د. محمد سليم العوا.

محمد خويرو

منزل حرب - تونس

بين السائل والمجيب

أشكر لكم ما تبذلونه من جهد لإخراج المجلة بالصورة التي عليها الآن، وإنني بوصفي قارئًا للمجلة وشاهدًا على تطورها المستمر، وحرصًا مني على دوام التطور، أقترح إضافة باب آخر جديد يهتم بالإجابة عن تساؤلات القراء الثقافية، ويكون عنوان هذا الباب بين السائل والمجيب ، أو لكل سؤال جواب، أو غيرهما من العناوين التي تشير لمضمون الباب.

وإنني على ثقة - بإذن الله تعالى - أن هذا الباب سيلقى ترحيبًا واهتمامًا كبيرين من قراء المجلة.

أبو بكر مصطفى رشاد الوليلي

منفوحة القديمة - جنوب شارع العشرين

صيدلية الصديق - الرياض

الثقافة الدعوية.. وقضايا الإعاقة

أعجبتني الصياغة العصرية الجيدة للموضوع الذي عرضه د. عبدالعزيز عبدالله الحميدي في العدد (232) عن إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي، إنها رسالة مفيدة لمن أراد أن يدعو إلى الخير منطلقًا من معرفة مؤسسة، ودراية بمتطلبات الدعوة، فليس بالنيات الطيبة وحدها يتحقق هدف نشر الإسلام، بل يجب أن نتعرف الطرف الآخر - أو الأطراف الأخرى - التي تحول من دون وصول صوت الحق إلى مقاصده لترفع الغشاوة عن العيون.. بل يجب أن نتعرف إمكاناتهم والطرائق المثلى لمجابهة خططهم.. أرجو مضاعفة جرعات مثل هذه الموضوعات التي تعمق الثقافة الدعوية وتؤصلها.

ولي طلب آخر، أرجو أن تولوا قضايا الإعاقة، مزيدًا من الاهتمام، فهي تعني قطاعات عريضة في البلدان العربية والإسلامية المختلفة التي تنشر فيها «الفيصل»، فنسبة الحوادث المعيقة في تزايد مطّرد، والضحايا من الأعمار المختلفة، لذا، فإن نشر كل جديد حول تخفيف وطأة هذه الكارثة يلبي رغبات قراء كثيرين. على المستوى الشخصي مثلاً، لقد تعرض ابني البكر لحادث صعق كهربائي أدى إلى بتر يديه وأصابع قدميه، إلا أنه ولله الحمد يستطيع المشي على قدميه، وهكذا، أنا وغيري كثيرون، نتوق إلى قراءة بحث علمي في «الفيصل» عن الأطراف الصناعية وتطورها، والدول الرائدة في هذا المجال، والكلفة المالية، والفوائد التي يجنيها مستخدم تلك الأطراف الصناعية.

عبدالسلام أحمد بن إدريس

حلب - سوريا

ص.ب 7337.

«البريد» زاوية تستقبل فيها المجلة رسائل القراء، ويمكن أن ترد على بعضها، وتترك الردّ على بعضها الآخر للقراء

يمكن أن تقوم المجلة بتحرير بعض الرسائل من أجل مساحة الصفحة، أو لزيادة الإيضاح

فقط الرسائل التي ترد بعناوين وأسماء ترسل باسم المحرر (زاوية بريد المجلة) ص.ب(٣) الرياض ١١٤١١

التفهم الإنسانية

إطلالة



حالف التوفيق القائمين على المهرجان الوطني الحادي عشر للتراث والثقافة حين اختاروا موضوع «الإسلام والغرب» محوراً لندوات النشاط الثقافي هذا العام، إذ يحتل هذا الموضوع مساحة كبيرة من الأهمية، وتتركز فيه بؤرة الاهتمام، ونحن نستشرف آفاق القرن الحادي والعشرين، محاولين تبيّن الصورة التي سيكون عليها، مع تطلع متفائل لأن يكون قرناً تختفي فيه كثير من السلبيات التي شابت مسيرة الإنسانية في هذا القرن الذي نعيش فيه، والذي حفل بصراعات دامية بين بني البشر على اختلاف انتماءاتهم ومشاربهم، أدت إلى إزهاق الأرواح وتدمير كثير من مظاهر البيئة الطبيعية. ويكفي أن هذا القرن شهد حربين عالميتين بأحدث أنواع أسلحة الدمار، خلّفتا آثاراً مأساوية على الصعيدين المادي والنفسي، إضافة إلى الحروب والصراعات الداخلية والإقليمية التي تنشأ لأسباب مختلفة، وإن كانت تتفق في أنها تهلك الحرث والنسل، وتدمر اليوم ما بناه الإنسان بالأمس، ليظل يدور في حلقة مفرغة من الصراع الذي لايحتكم إلى مبدأ، ولايكترث بقيم.

ويأتي هذا الحوار بين «الإسلام والغرب» الذي شارك فيه لفيف من المفكرين والمثقفين العرب والغربيين امتداداً لحوارات سابقة، توضح وجود رغبة مشتركة عند قطاعات كبيرة في الجانبين بهدف أن يعرف كل منهما الصورة الحقيقية للآخر، تلك الصورة التي تشوهت بسبب تباعد المنابر والاعتماد على أفكار وطروحات سابقة كانت لها منطلقاتها وأهدافها، وخاصة في الجانب الغربي، الذي اعتمد في تكوين صورته عن الإسلام والمسلمين على كتابات تمت في ظل ظروف تاريخية في الماضي، كانت تحكمها أهداف وتطلعات معينة، قد تحققت بالفعل، حين احتلت الدول الغربية جل بلدان العالم العربي والإسلامي، واستطاعت أن توظف خيرات هذه البلدان وثرواتها في دفع تيار تقدمها المادي.

وقبل ذلك، كانت الحروب الصليبية تعميقًا للهوة بين الإسلام والغرب، إذ تدثر قادة أوربا بالدين لإقناع العامة بجدواها وأهميتها في الحفاظ على هويتهم الدينية التي يحاول الكفار المسلمون - بحسب زعمهم - تهديدها وتذويبها، وقد استطاعوا بهذا الادعاء إخفاء الدوافع الاقتصادية التي كانت وراء غزو الشرق الإسلامي وإخضاعه، وقد كان صموئيل هنتينغتون صاحب مقالة «صدام الحضارات» صادقًا مع نفسه حين أشار في ثنايا كلمته في الجنادرية إلى تلك الدوافع التي كانت من أسباب الحروب الصليبية، كما اعترف غيره من مفكري الغرب بأن صورة الإسلام والمسلمين إبّان القرون الوسطى وما بعدها كانت تؤخذ من أفواه العامة من البحارة والتجار والمغامرين الذين اتصفوا بضحالة الثقافة وقلة المعرفة، وكانوا ينقلون صوراً مشوهة عن قيم المسلمين وعاداتهم وتقاليدهم، وكانت نظرة بعضهم إلى عبادات المسلمين نظرة خاطئة، تصورها طقوساً وثنية، واعتمد البابوات على هذه التصورات في رسم صورة الإسلام حتى أنكروا النبوة على الرسول صلى الله عليه وسلم، ونسبوا إليه القرآن الكريم، ونفوا أن يكون وحيًا، بل جعل بعضهم الإسلام هرطقة من الهرطقات النصرانية، واتخذوا الأدب وسيلة لنشر هذه الأفكار والتصورات المشوهة الواهمة عن الإسلام وعن الرسول الكريم، كما تقول المستشرقة الألمانية أنّا ماري شيمل: «فإن محمداً أثار الخوف والكراهية، بل حتى الاحتقار في العالم المسيحي أكثر من أي شخصية تاريخية أخرى، ودانتي في كتابه «الكوميديا الإلهية» عبّر عما أحس به عدد لا يحصى من المسيحيين في القرون الوسطى عندما حَكَمَ على محمد [صلى الله عليه وسلم] بوصفه في الدرك الأسفل من جهنم». ولاتزال كثير من دوائر المعارف الأجنبية تضم هذه المغالطات بين دفاتها، ولاتزال تعاد طباعتها من دون أي تصحيح لما فيها من أخطاء واضحة وتصورات ملفقة، ومن ذلك أن تقول الموسوعة الأمريكية THE RANDOM HOUSE ENCYCLOPEDIA: إن محمداً [صلى الله عليه وسلم] مؤسس الدين الإسلامي، وإن الإسلام دين أوجده محمد. وهكذا في موسوعات أمريكية أخرى، وفي موسوعات بريطانية وهندية وغيرها، نجد تعريفات غريبة للإسلام والمسلمين وللرسول صلى الله عليه وسلم، مما يتضح معه الخطأ الفادح الذي ارتُكب في رسم صورة الإسلام في أذهان غير المسلمين. وإذا كان من المقبول - إلى حد كبير - أن تكون هناك أخطاء في الماضي وسوء في فهم حقيقة الآخر، حين كانت أسباب التواصل تتعذر لبدائية وسائل الاتصال والانتقال، فإنه لم يعد مسوّغًا ولا مستساغًا أن تظل في الأذهان صور مستقاة من ذلك الماضي المتخلف اتصالاً ومعارف، في عصر اصطُلح على تعريفه بعصر انفجار المعلومات أو عصر ثورة الاتصالات التي حولّت العالم إلى قرية كونية صغيرة.

أما فيما يتعلق بالجانب الإسلامي، فإن كثيراً من الحجب تجعل كثيرين منا لايرون الغرب على حقيقته، ولاسيما إذا اقتصرت تلك الرؤية على بعض مظاهر الإباحية فيه التي تتنافى مع المبادئ والقيم الإنسانية، وهذه النظرة الأحادية تُغيِّب مظاهر إيجابية كثيرة سواء في المفاهيم أو السلوك العملي، إذ لايمكن تصور قيام هذا التقدم المادي الكبير على أسس واهية، وإنما لابد له من ركائز ومقومات، ينبغي لنا أن نكتشف كنهها، ونتعرفها عن قرب، كما لايمكن إغفال وجود مفكرين وعلماء منصفين لهم رؤيتهم الموضوعية للإسلام ولإسهام المسلمين في دفع عجلة الحضارة الإنسانية، ومما لايمكن إنكاره أن بعض المستشرقين كان لهم دور في إبراز جوانب خفية في العطاء الحضاري للمسلمين، وهكذا لايستقيم الأمر ولاتتضح الرؤى حين تعتمد النظرة للآخر على التعميم، والأحكام المسبقة، إذ لايمكن إقامة أي نوع من التعاون والتفاعل على أساس هذه النظرة الخاطئة التي تركز على الجوانب السلبية، وتؤدي إلى حيف في الحكم. وهذا التصور الخاطئ يؤثر في حامله قبل أن يؤثر فيمن يتكون عنه هذا التصور لأنه يكون بعيداً عن الواقع، ومضللاً له. فتعرُّفُ كلِّ طرف للطرف الآخر بموضوعية أساسٌ لأي حوار بنّاء، والطروحات التي قدمت في الجنادرية تؤسس منطلقات مهمة لتلمس مسالك الحوار بين الإسلام والغرب، ذلك أن كثيراً من المشاركين - على تباين مشاربهم وتوجهاتهم - أضاؤوا جوانب مهمة من القضية بتناول صريح، وإن كان بعضهم ظل يراوح داخل دائرة مغلقة، إلا أن الأفكار التي برزت في الأوراق والمداخلات استحوذت على اهتمام الجمهور، وفتحت منافذ للتواصل بين المؤسسات الثقافية والمثقفين والمفكرين من الجانبين لاستكمال ما بدأ في الجنادرية.

وهذا الحوار الذي تمّ يمثل تطبيقًا لمفهوم إسلامي راسخ، لأن التعارف بين الشعوب والقبائل دعوة إسلامية صريحة، من أجل تبادل المصالح والوقوف على أرضية مشتركة بهدف التعاون في إعمار الأرض والقيام بمسؤوليات الاستخلاف فيها، ومن ثَمَّ، فإن التواصل الحضاري القائم على الاحترام والذي ينبذ كل أنواع التفرقة ويرفض كل صور العنصرية مبدأ أصيل يتيح للمسلم أن يتعامل مع غيره من بني البشر - مهما تباينت انتماءاتهم واختلفت عقائدهم - وأن يتحاور معهم من غير حواجز أو تعقيدات.

وهذا الإعلاء من شأن الحوار في الحضارة الإسلامية إنما ينبع من إنسانيتها التي تستمدها من تعاليم الإسلام وقيمه التي تتميز بروح التسامح والمساواة، تلك الروح التي استظل بها كل من عاش في كنف الحضارة الإسلامية من يهود ونصارى، حتى أصبح منهم أطباء وفلكيون ومهندسون وصيادلة وكتّاب وأدباء، وعلماء في مختلف المجالات. وقد تجلى هذا التسامح الإسلامي في أنه كان مسموحًا لغير المسلمين حضور الدروس العلمية في الجوامع - مثل جامع قرطبة - وفي غيرها من المؤسسات العلمية التي خرّجت كثيرين منهم.

البُعد الغائب..

وقد تجلى انفتاح الحضارة الإسلامية على غيرها من الحضارات في استفادتها من الإرث العلمي والتقدم المادي للأمم الأخرى، ويكفي أن فلاسفة العرب المسلمين أطلقوا على فلاسفة الإغريق صفة المعلمين الأوائل، أو الحكماء، اعترافًا بما أفادوه من علومهم وأفكارهم.

إذًا، فالحوار مفهوم رسّخه الإسلام فكرًا وتطبيقًا، شريطة أن يكون منطلقًا من مفاهيم وقيم إنسانية، تتسم بالحكمة والعدل والعفة والشجاعة، وتبعد عن التعصب والهوى والمكابرة.

ويصعب كثيرًا حصر ما جاء في المحاضرات من أفكار وطروحات ومناقشتها، ولكن يمكن الوقوف على شذرات منها، ولاسيما أن ظروف السفر والعمل قد حالت دون متابعتها عن كثب، فاعتمدت على ما جاء عنها في وسائل الإعلام المختلفة.

تعد محاضرة «الخطر الإسلامي على الغرب بين الحقيقة والوهم» التي شارك فيها كل من صموئيل هنتينغتون وجون سبوزيتو وهشام ملحم أكثر المحاضرات التي أثارت الجدل ووجدت الإقبال من جموع المثقفين، ولعل مرد ذلك إلى ما أثارته مقالة هنتينغتون «صدام الحضارات» من ردود أفعال متباينة، وإذا كان طرحه في الجنادرية جاء هادئًا، فإن ذلك لا ينفي أن بعض أفكاره تستحق التحليل، لأن لها مثيلاً في أذهان مفكرين غربيين آخرين، وقد كان قوله إن أسباب الصراعات والحروب والمذابح التي ترتكب ضد المسلمين في البوسنة والهرسك والقوقاز وفلسطين راجعة إلى الأزمات السكانية والاقتصادية وارتفاع نسبة السكان المسلمين، من أكثر الآراء التي واجهت الاعتراضات، وهذا الرأي يدعونا إلى طرح أسئلة كثيرة تتناول حقيقة خوف الغرب من تزايد أعداد المسلمين، وهل لهذا الخوف ما يسوّغه؟، وهل هذا من الأسباب التي جعلت هنتينغتون يطرح مفهوم «صدام الحضارات»؟، ولماذا تتقارب الحضارتان الإسلامية والكونفوشيسية ـ كما يطرح هنتينغتون ـ لمواجهة الحضارة الغربية، مع أن الأولى أن تكون المسافة أقصر بين الإسلام والنصرانية التي يعتنقها الغرب؟، ويؤدي بنا هذا الطرح إلى الربط بينه وبين ما أثير في مؤتمر السكان بالقاهرة ومؤتمر المرأة في بكين من مقترحات وسياسات ترمي إلى تحجيم الزيادة السكانية في العالم الإسلامي تحت دعاوى زائفة. وقد أوضحت هذه المحاضرة ما بين المفكرين الغربيين من تباين في الأفكار، إذ أشار سبوزيتو إلى وهم ما يتردد عن الزيادة السكانية مخالفًا بذلك رأي هنتينغتون، موضحًا أن العنصرية هي السبب فيما يتعرض له المسلمون من مظالم. وأوضح إنصافه للمسلمين حين نفى عنهم تهمة العنف، مؤكدًا أنه «لابد من التمييز بين ما يقوم به بعض المسلمين من استغلال للدين وبين الإسلام».

وقد ذكر السفير السويدي أنجمر كارلسون أن تعداد المسلمين في أوربا في تزايد، وقد بلغ الآن 25 مليون نسمة. وهذا يثير سؤالاً حول حجم الدور الذي يمكن أن يتاح لهؤلاء المسلمين في المجتمع الغربي؟ ولماذا تختلف نظرة الغرب إلى المسلمين عن نظرته إلى الأقليات الأخرى، مع أنهم يعدّون أكثر تلك الأقليات التزامًا بالقوانين، واتباعًا لقواعد السلوك السوي؟ ويتضح ذلك من انخفاض نسبة الجريمة بينهم بالموازنة مع الأقليات الأخرى، فهل وجود هؤلاء المسلمين في الغرب يمثل وسيلة للتقارب أم يعد سببًا للتباعد والتباغض؟ وفي رأي هنتينغتون «فالعالم أصبح قرية صغيرة والتفاعل بين الناس من حضارات مختلفة في ازدياد، وهذا الازدياد في التفاعل ينشئ الشعور الحضاري والاهتمام بأوجه التشابه والاختلاف، فالهجرة العربية إلى فرنسا نشطت الشعور بالفارق الحضاري بين العرب والفرنسيين، وجعلتهم أكثر استقبالاً للمهاجرين الأوربيين الكاثوليك، وكذلك صنعت بالأمريكيين الذين يستقبلون الاستثمارات الكندية والأوربية ويتضايقون من اليابانية». ووفق هذا المفهوم الذي يطرحه هنتينغتون، فإن هناك رفضًا للآخر من دون محاولة لتعرف ما يحمله من مفاهيم وقيم في مجتمعات ترى أن العدالة كما ينص عليها القانون أكثر فضائلها، بالإضافة إلى بلوغها مدى بعيدًا في درجات الحرية، حتى غدت قوانينها تبيح كثيرًا من السلوكيات التي تتعارض مع الفطرة السوية، وقد كان الأجدر أن تكون هذه الحرية سبيلاً لتعرف الآخرين حتى ولو كانت النظرة المسبقة لهم دونية، ويرونهم أقل منهم قدرًا في سلم التحضر. وإذا كانت الدراسات الغربية تتجه إلى دراسة الفلسفات والمجتمعات غير الإسلامية بإعجاب وبتواضع التلاميذ، كما هو الحال في اتجاههم إلى معرفة أسباب تفوق اليابان بتمحيص أساليبها الإدارية والتأثيرات الاجتماعية التي تعتمل فيها، فإن من المفيد للغربيين معرفة العالم العربي والإسلامي الذي يرتبطون معه بمصالح مختلفة منذ أمد بعيد، ولقد كان من المأمول أن تكون مراكز الدراسات الإسلامية المنتشرة في الغرب وسيلة لتقديم الصورة الحقيقية للإسلام والمسلمين، ولكن توجهها نحو الاعتماد ـ في الغالب ـ على مصادر غير صحيحة يجعلها تسهم في بعض الأحيان في تشويه الحقائق، وترسيخ الانطباعات الخاطئة في الأذهان.

إننا اليوم أحوج من أي وقت مضى إلى تبني موقف جديد يتيح لكل دول العالم التكاتف والتعاون من أجل إعمار الأرض وإسعاد المجتمعات الإنسانية مهما تباينت تاريخيًا وجغرافيًا وانتماءً، ولاسيما أن الواقع يوضح أن حاجات المجتمعات بعضها إلى بعض تظل قائمة، على رغم ما قد يكون بينها من اختلاف في درجات التقدم. فالدول المتقدمة ماديًا وتقنيًا تظل في حاجة ماسة إلى ما لدى الدول التي تقل عنها في مستويات التقدم من عمالة ومواد خام، وفي الوقت نفسه تمثل أسواقًا لمنتجاتها، إضافة إلى إفادتها من كثير من العقول العلمية التي تهاجر إليها لأسباب مختلفة.

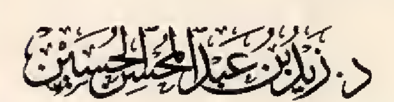
وقد تداخلت المصالح بين الدول تداخلاً كبيرًا غير مسبوق نتيجة تقدم وسائل الاتصال، ومن المفترض أن ينعكس هذا التقارب في المسافات إيجابيًا على مستوى التفاهم الإنساني، من طريق التبادل الفكري والثقافي القائم على الإقناع من دون قسر أو جبر، وعلى احترام الخصوصيات ومواطن التمايز، وفي الوقت نفسه يرسي مبادئ إنسانية عليا تنبذ كل أشكال ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، وتستهجن أي صورة للاستعلاء والتكبر والنظرة الدونية للآخرين، ومن ثم يتكون إحساس مشترك بلفظ كل من يخرج عن تلك المبادئ.

وبما أن الغرب يفترض في نفسه التحضر والريادة في مضمار تعميق المفاهيم الإنسانية التي ترمي إلى صالح البشرية، فإن الصدق والموضوعية في طرح هذه المفاهيم يقتضيان إجراءات وممارسات عملية تؤكدهما، بمعنى أن الريادة تفرض على صاحبها أن يقف من الآخرين الذين يقلون عنه تقدمًا ومدنية، موقف المعلم من التلميذ، بكل ما يحمله هذا الموقف من استعداد لإفادة الآخرين وتوخي مصالحهم، والنظر إلى القضايا التي تطرح بمنظور إنساني يتجرد من كل مظاهر التحيز والمحاباة مما يفرض على الغرب أن يسخر آليات تفوقه من تقنية وإعلام وغيرهما من أسباب القوة لترسيخ المفاهيم والقيم الإنسانية، لأن استخدام أسباب القوة في التسلط والهيمنة، ما هو إلا مظهر من مظاهر الأمة المهزومة من الداخل التي لاتثق بمقوماتها، وتخشى زوال قوتها.

وتقتضي الرؤية الإنسانية نبذ كل مظاهر التعصب والعنصرية، إذ لا يمكن توقع استقامة حياة الإنسان على هذه الأرض، وتوجه جهوده نحو الاضطلاع بمسؤوليات إعمارها، بينما تضع أمم نفسها في موقع الفوقية، فمثل هذا المنظور العنصري يتعارض تمامًا مع ما ينادي به الغرب من مبادئ العدل والمساواة وهو لا يؤدي إلا إلى مزيد من الحروب والفواجع، بإباحته الاعتداء على حقوق الآخرين، مما يترتب عليه تأخر الإنسان الذي يدمّر ما يقيمه من صروح المدنية، ويخرب البيئة التي يعيش فيها ويعتمد عليها في الحصول على رزقه.

وإنسان هذا العصر في كل مكان أحوج ما يكون اليوم إلى المعايير الموضوعية التي ينظر من طريقها إلى المشكلات التي تهدد بقاءه واستمراره، إذ لم تعد مجالات التعاون تقتصر على تبادل السلع والمواد والأفكار، وإنما هناك تحديات كثيرة مشتركة تقتضي جهدًا مشتركًا لمواجهتها.

ولعل الخلل الذي تعانيه البيئة بسبب جور الإنسان وأنانيته من أكبر تلك التحديات، وهو ـ بلا ريب ـ يتعارض تمامًا مع دعاوى التحضر والمدنية، مما جعل الأصوات المتعقلة تعلو محذرة من الخطر الذي يحيق بكوكب الأرض الذي يمتلئ بأنواع مختلفة من الظلم ومحاولات الهيمنة والسيطرة.



الفيصل

العدد 234 ـ السنة 20 ـ ذو الحجة 1416هـ ـ أبريل/ مايو 1996م

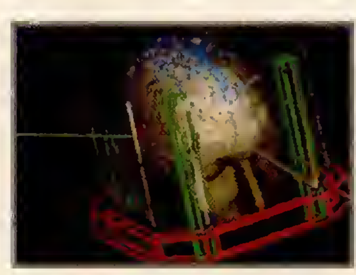
من هدي الحج

الحج بوصفه شعيرة تسمو بالنفوس، وتجسد الإسلام سلوكًا وعبادات، مناسبة متجددة للمراجعة، واستخلاص الموجهات السامية التي تباعد بين المسلمين وموجبات (الوهن) و (الغثاء)، فواقع المسلمين اليوم يلح على ضرورة استثمار موسم الحج أفضل ما يكون الاستثمار بتدبر الأحوال الراهنة والوقوف على العلاج الناجع، والتداعي إلى ما يجمع ويؤلف بين القلوب.

د. محمد بن لطفي الصباغ قدم (من هدي الحج)، حديثًا عن مناسك الحج وصورًا من وحدة العقيدة والتجرد.

طالع ص 115

فتح جديد في طب الإعاقة

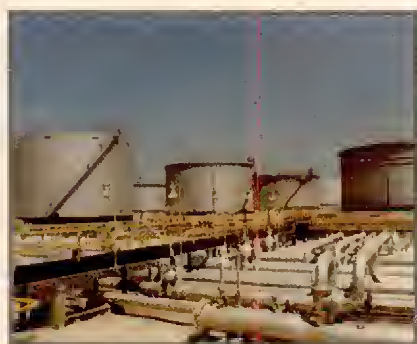


يشهد عالم الطب تطورات مذهلة تفتح أبوابًا جديدة واسعة أمام المعاقين لتمكينهم من التغلب على مشكلات الإعاقة، ومضاعفة تفاعل هذه الفئة وإسهامها الإيجابي في نشاطات مجتمعاتها. «الميكنة الفسيولوجية للأعضاء البشرية» تقنية طبية يعكف العلماء على وضع اللمسات الأخيرة في تجاربها التطبيقية؛ بهدف التوفيق بين الدماغ والأعضاء الاصطناعية التي يزودون بها المعاقين، ومن المنتظر أن يقطف ثمرات هذه الجهود العلمية قطاع كبير من المشلولين والمكفوفين وفاقدي حاسة السمع، وذلك من طريق المؤالفة بين الحاسوب والجهاز العصبي..

أحمد شاكر عضيمة يجلّي أبعاد هذه التطورات الطبية.

طالع ص 12

قصة التحولات الكبرى بين أرشميدس والعم بيلي



الاكتشافات الكبرى تحدث صدمات يتساوى وقعها مع حجم التحولات التي تحدثها في أي حقل من حقول المعرفة، فعندما توصل أرشميدس إلى إرهاصات قانون الطفو العام، خرج وهو يصيح: وجدتها وجدتها، وكذلك فعل الأمريكي سميث بيلي لدى رؤيته بواكير «زيت الصخر» تتدفق من أول بئر للنفط، ورددت معه أمريكا: البترول .. البترول، ومن ذلك التاريخ (1859م) انتشرت حمى البترول التي غيرت وجه العالم، وأخذ النفط عن جدارة مسمى «عصب الحياة».

عبد الإله بو بكر السويلمي يسلط الضوء على «قصة الإنسان والنفط»، والتضحيات الجسيمة التي واكبت اكتشاف الذهب الأسود، وتطور آليات الحفر والتنقيب حتى قيام جيل الشركات العملاقة.

طالع ص 102

أدب وفكر

لغة

اقتصاد

استطلاع

تراث وتاريخ

رئيس التحرير

د. زيد بن عبد المحسن الحسين

من كتاب العدد

فضيلة الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بن جبرين

- من مواليد القويعية، السعودية 1349.
- تخرج في معهد إمام الدعوة عام 1381هـ.
- حصل على الماجستير عام 1390هـ، ثم على الدكتوراه عام 1407هـ.
- عمل مدرسًا في معهد إمام الدعوة عقب تخرجه، ثم تولى التدريس في كلية الشريعة عام 1395هـ، وأشرف على عدة رسائل ماجستير.
- صار عام 1402هـ عضو إفتاء في رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ولايزال بها حتى الآن.
- له بحث بعنوان «التدخين مادته وحكمه في الإسلام» قدّمه في مؤتمر مكافحة التدخين الذي نظمته الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة عام 1402هـ، وله مقالات منشورة.

محمد عبدالخالق محمد

- من مواليد دنقلا، السودان 1948م.
- حصل على بكالوريوس التربية في اللغتين العربية والإنجليزية، جامعة الخرطوم عام 1974م.
- نال شهادة ماجستير في تعليم العربية للناطقين بغيرها عام 1977م من معهد الخرطوم الدولي للغة العربية.
- عمل عضواً في هيئة تدريس كلية المعلمين ببخت الرضا في السودان، كما عمل خبيراً منتدبًا من قبل المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة لدى وزارة التربية والتخطيط بدولة موريشيوس.
- يعمل منذ عام 1980م بمعهد اللغة العربية التابع لجامعة الملك سعود بالرياض.
- شارك في مؤتمرات وندوات وبرامج إذاعية عن تعليم اللغة العربية، وأسهم في إنشاء رابطة ترقية اللغة العربية لمعلمي العربية في جنوب إفريقيا.
- شارك في الموسوعة العربية العالمية عام 1984م مترجمًا ومراجعًا وكاتبًا.
- من مؤلفاته: دراسة تقابلية بين اللغتين العربية والإنجليزية على المستوى الصوتي، وتدريس مهارة الكلام، واختبارات اللغة.

د. جلال السعيد مصطفى الحفناوي

- من مواليد كفر الشيخ، مصر 1960م.
- حاصل على الدكتوراه في الأدب الأردي، من قسم اللغات الشرقية، كلية الآداب، جامعة القاهرة 1995م؛ وكانت الأطروحة بعنوان «فن السيرة عند شبلي النعمان دراسة وترجمة لسيرة الفاروق».
- يعمل حاليًا مدرسًا بقسم اللغات الشرقية، كلية آداب القاهرة.
- له بحث منشور عن غاندي بعنوان «غاندي كما تصوره الصحافة المصرية»، واشترك في ندوة الأدب بين مصر والهند.

د. أحمد عبدالقادر صلاحية

- من مواليد دمشق، سورية 1965م.
- حاز الدكتوراه في الأدب الأندلسي، جامعة دمشق 1995م، بأطروحة عنوانها: «صور الخيال في الشعر الأندلسي».
- عيّن معيداً في جامعة البعث (حمص) 1987م، وعمل باحثًا ومحررًا في «معجم العماد» في اللغة والعلوم والفنون والأعلام عام 1990م.
- من مؤلفاته: كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار لابن غانم المقدسي (دراسة وتحقيق بالاشتراك) 1989م، شعر ابن شخيص الأندلسي (جمع وتقديم) 1992م، غريب القرآن على حروف المعجم لابن عُزيز السجستاني (دراسة وتحقيق) 1993م، وصف البحر في الشعر الأندلسي 1994م، الشعر العربي الأندلسي بين المشرقية والأندلسية - قيد الطبع، شعر أبي مروان الجزيري الأندلسي (جمع وتحقيق) - قيد الطبع - شراع - مجموعة شعرية (مخطوطة).
- له بحوث ومقالات وقصائد وقصص قصيرة منشورة في المجلات والصحف المحلية والعربية، كما شارك في عدة ندوات أدبية إذاعية وصحفية.



الأطباء والتدخين التناقض الفاضح

كثيرًا ما يحدث أن يراجع مريض طبيبًا فيكون ضمن وصفاته العلاجية التي ينصحه بها الإقلاع عن التدخين، ويقدم قائمة من المخاطر التي يسببها النيكوتين في القلب والرئتين والشرايين، إضافة إلى المضار الاجتماعية والاقتصادية للتدخين، ولكن أحيانًا يفاجئ الطبيب مريضه، وهو ما يزال يشخص المرض ويدقق في أعراضه، بأن يشعل لفافة دخان (سيجارة)، وينفث دخانها في الهواء، وبذلك يقع في التناقض «فهو ينهى عن فعل ويأتي مثله»

مؤخرًا، بدا أن هناك توجهاً قوياً بين الأطباء والعاملين في الحقل الطبي، للخروج من التناقض الذي أوقعهم فيه تعاطيهم التدخين، فقد أصبح المزيد من الأطباء والمرضين ميالين إلى تطبيق ما يعظون به غيرهم، فقد انخفضت نسبة التدخين بين هؤلاء المهنيين الصحيين انخفاضًا كبيرًا، وحسب تقرير ورد في مجلة الجمعية الطبية الأمريكية يحلل معلومات حصل عليها لمدة سبعة عشر عامًا؛ أن نسبة الأطباء الذين كانوا يدخنون لفافات الدخان (السجائر) عام 1991م بلغت فقط 3,3٪، في حين كانت 18,8٪ في السبعينيات من هذا القرن، أما نسبة المرضين المدخنين فقد انخفضت من 31,7٪ إلى 7,3٪.





حقيقة علاقة الملح بضغط الدم

يقول كثير من الخبراء بأن الإفراط في تناول الملح يعد سببًا جزئيًا على الأقل لانتشار ظاهرة ارتفاع ضغط الدم، ولكثير من الوفيات الناجمة عن السكتة الدماغية والأمراض القلبية في الولايات المتحدة. إلا أن هنالك بعض الدراسات توضح أن الصلة ضعيفة بين استهلاك المرء للملح وارتفاع ضغط دمه، وإن كان من الملاحظ أن انتشار ضغط الدم أوسع في المجتمعات التي تستهلك الملح بكميات كبيرة، إلا أن ذلك لايعني أن كل فرد يتناول الملح يصاب بارتفاع ضغط الدم؛ لأن هناك عوامل أخرى تسهم في ذلك، مثل الإجهاد، وعدم ممارسة التمارين الرياضية بالإضافة إلى تدخين لفافات التبغ (السجائر)، فقد أجرى الدكتور ديريك دينتون في معهد هاوارد فلوري للفسيولوجيا والطب التجريبي في جامعة ميلبورن بأستراليا تجربة عملية للوقوف على مدى تأثير تناول الملح في ارتفاع ضغط الدم مستخدمًا ثلاثة عشر من الشمبانزي الحيوان الأقرب للإنسان من الناحية (البيولوجية)، واستمرت التجربة مدة تزيد على عشرين شهرًا. وقد لاحظوا عندما أضافوا الملح إلى طعام العينة من الشمبانزي أن الدم ارتفع بدرجة كبيرة عند ثمانية من تلك الحيوانات؛ حتى وصل إلى 90/150. في حين أن المستوى الطبيعي للضغط عند الشمبانزي من 70/110 إلى 80/120. أما في التجارب التي كان يتم بها التحكم بنسبة الملح فلم يرتفع ضغط مجموعة الحيوانات.

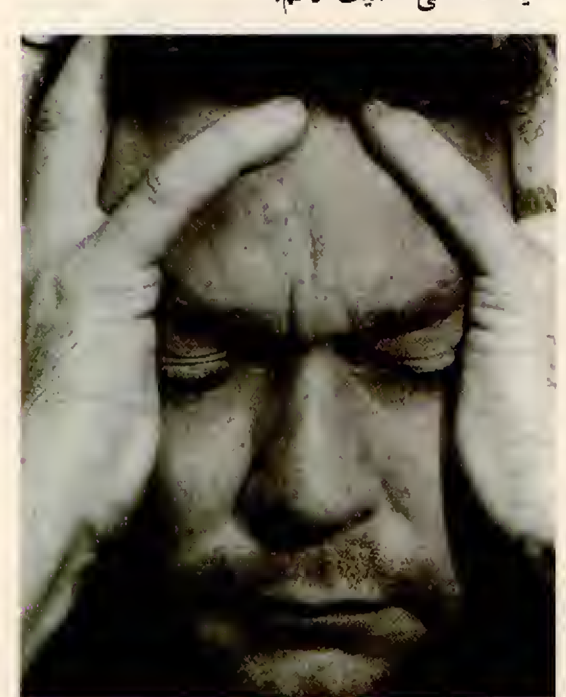
وبعد ستة أشهر من تلك التجربة وإيقاف إضافة الملح، عاد ضغط دم حيوانات الشمبانزي إلى مستوياته الاعتيادية قبل التجربة، ويقول الدكتور جفري أ. كتلر من المعهد الوطني لأمراض القلب والرئة والدم إن نتائج البحث هذه هي نتائج مؤثرة جدًا.

ويضيف بأن أثر الملح في الغذاء هو موضوع يحتاج إلى توضيح وتفسير متواصلين.

عصابة الرأس علاج للشقيقة

يشيع لدى كثير من الشعوب استخدام عصابة للرأس عند الشكوى من الشقيقة (الصداع النصفي)، وقد طوّر الدكتور نازيات فيجايان طبيب الأمراض العصبية والمختص بأمراض الصداع في ساكرا مينتو بكاليفورنيا هذه الفكرة بعد أن لاحظ أن بعض المرضى يضغطون على أصداغهم لتخفيف الألم، إذ صنع عصابة من مواد مطاطية مرنة لتحقيق ضغط مستمر على مواضع الألم، كما يمكن أيضًا إدخال أربطة مطاطية مستديرة من أجل مزيد من الضغط على أكثر المواضع ألمًا.

وقد أجريت حديثًا دراسة على عينة من ثلاثة وعشرين شخصًا بينت أن تلك العصابة خففت آلام الصداع لدى 87٪ من العينة، ويقول فيجايان إنه يحصل توسع في الأوعية الدموية في أثناء نوبة الصداع النصفي، وإن وضع تلك العصابة يضغط على الأوعية مما يساعد على تخفيف الألم.



استخدام الفئران في صناعة الحاسوب



الفأر حيوان قارض يشتهر بأسنانه الحادة التي كثيرًا ما تسبب الدمار في المنازل والمصانع، بل في الشوارع أيضًا. هذا هو الانطباع الشائع عن الفئران، إضافة إلى استخدامها في التجارب المعملية، ولكن لفريق من العلماء الأمريكيين (من أصل هندي) رأيًا آخر، وهو أن في الاستطاعة توظيف الأسنان الحادة للفئران في مجال لم يخطر على بال أحد من قبل، ألا وهو مجال تصنيع رقائق الحاسوب. فهذا الفريق من العلماء يرى أن قوة الرقائق المصنّعة من أسنان الفئران والأبقار - أيضًا - تفوق قوة الرقائق الحالية بآلاف المرات. ومن المؤمل أن يحدث هذا الاكتشاف تطورًا كبيرًا في هندسة أشباه الموصلات، بحيث تزداد سرعة الحاسوب.

وقد أدت محاولة العلماء إلى تقليل حجم الرقائق المجهرية باستخدام أشباه موصلات من السيلكون وغيره إلى زيادة التكاليف



بمقدار خمسة أضعاف، ولذلك اتجه العلماء إلى إجراء تجارب لإنتاج رقائق مجهرية من مواد تستخلص من الخلايا الحيوية، كما اتجه العلماء إلى زيادة سرعة الحاسوب بابتكار مادة بروتينية تحقق هذا الهدف، وقد أفاد الفريق العلمي الذي يقوده د. فينكامتشان أن الرقائق البروتينية المصنعة من أسنان الفئران يمكنها أن تزيد من سرعة الحاسوب في إجراء العمليات المعقدة.

مركبات البروميد والتلوث البيئي



إن على أصحاب المحلات التجارية الذين يُسوِّقون المنتجات الزراعية الانتباه إلى خطورة الخضروات التي تخالطها المركبات العضوية، وبخاصة مركب (البروميد الميثيلي). فقد وجه مجموعة من العلماء، وعلى رأسهم الكيميائي ماريو مولينا الحاصل على جائزة نوبل، تحذيرًا للمزارعين من المركبات الكيماوية التي تستعمل في المزارع المحمية، إذ يعتقد أن مركب البروميد الميثيلي يدمر طبقة الأوزون الواقية لجو الأرض، ويستخدم هذا المركب على نطاق واسع في تطهير التربة التي تستخدم لزراعة فواكه وخضروات معينة ولاسيما الفراولة والبندورة، كما أن معظم نباتات البيوت المحمية لاتمتص هذا المبيد الحشري الذي تبين أن له أثرًا سيئًا، إذ يتسبب في عدد من الأمراض، وقد يؤدي في بعض الأحيان إلى حدوث وفيات بين عمال المزارع، ويبدو ـ كذلك ـ أنه أكثر ضررًا بطبقة الأوزون من المركبات الكيماوية الأخرى المعروفة بأثرها الضار في طبقة الأوزون.

ويحذر قانون حماية البيئة من إنتاج هذا المركب.

تلوث البحار ظاهرة تهدد العالم

عندما مات أحد حيتان العنبر الذي يبلغ طوله ثلاثة عشر مترًا على أحد الشواطئ الشمالية للدنمارك قام العلماء بالترتيبات اللازمة لفحص هيكله العظمي، إلا أن الفحوصات التي أمر بها موظفو الوكالة الدنماركية الوطنية للغابات والطبيعة قد كشفت عن نتائج تثير القلق فقد وجد في أمعاء ذلك الحيوان الثديي كميات كاديوم ذات تركيز عال يعادل عشرين ضعفًا من المستوى الطبيعي في أمعاء الأسماك، وكميات زئبق تعادل ضعف المستوى الطبيعي، وهذا يعني أنه يجب التخلص منه في موقع خاص بالنفايات السامة. وقد أثار ذلك الذعر بين كثير من الدنماركيين، الذين يرون أن ذلك دليل على التلوث الشديد لبحارهم، وأنه ينبغي للحكومة أن تتخذ إجراءات صارمة لمنع التلوث الصناعي، إلا أن علماء النبات يحذرون من القفز إلى الاستنتاجات، ويقول عالم النبات كارل كينزي في المتحف النباتي في كوبنهاجن بأنهم لايعرفون إلا القليل عن المحتويات الطبيعية للكاديوم في أمعاء حيتان العنبر، ويضيف بأن كل ما يعرفونه هو أن الغذاء الرئيس لهذا النوع من الحيتان هو الأخطبوط، وأن الأخطبوط في مناطق معينة يحتوي على نسبة طبيعية عالية من الكاديوم.





استعاد وعيه بعد سبع سنوات

أصيب توني بلاند في حادث، فقد في إثره وعيه، وامتد فقده لوعيه مدة سبع سنوات، سعت خلالها السلطات الصحية إلى أخذ موافقة المحكمة العليا في شمال إنجلترا على إيقاف التغذية الصناعية التي تبقيه على قيد الحياة، إلا أن زوجته عارضت الفكرة بإصرار، وفي أثناء ذلك استعاد المريض وعيه، وقد أدت استعادة توني لوعيه بعد هذه المدة الطويلة إلى إثارة الجدل حول حق الأطباء في إنهاء حياة المريض في الحالات المماثلة، كما أثيرت الشبهات والشكوك حول مصداقية تقاريرهم. ولاسيما أن توني فقد وعيه نتيجة خطأ حدث في أثناء تخديره في عملية عادية.

في جبال الهملايا: المغامرة تنعش الاقتصاد



تعرضت سلسلة جبال الهملايا لعدد من الانهيارات الثلجية والانزلاقات الأرضية أودت بحياة ستة وخمسين - على الأقل - من القرويين النيباليين والمرشدين والمتزلجين من السياح. ويبحث المسؤولون النيباليون في الأساليب التي يمكن بها تفادي مثل هذه الكارثة مستقبلاً، لما للسياحة التي تعتمد على رياضة التزلج الذي يمارسه كثير من السياح من أثر في الإنعاش الاقتصادي لبلادهم.

وتبدأ القصة بحدوث أربعة انزلاقات منفصلة نتيجة الثلوج التي ألقى بها إعصار خليج البنغال على جبال الهملايا وانهمار الأمطار الغزيرة، وكانت منطقة جوكيو الواقعة بالقرب من جبل إيفرست أكثر المناطق المنكوبة، إذ دفن ثلاثة عشر من السياح اليابانيين واثنا عشر من المرشدين السياحيين تحت الثلوج، على عمق ثمانية أقدام، وقد توالت بعد ذلك الكوارث، فقد دفن سبعة أشخاص آخرين أسفل كانشينجوجا أعلى ثالث قمة في العالم.

وقد تفاوتت المواقف إزاء هذه الأحداث، فقد تولى مرشدون إنقاذ الوفود السياحية التي يرافقونها، إذ قاموا بفتح الطريق بأيديهم المجردة من دون استخدام أي أدوات، مما ساعد في إنقاذ أكثر من خمسمئة شخص كانوا محاصرين أفرج عنهم بوساطة الحوامات، بينما رفض آخرون المشاركة في عمليات الإنقاذ مادامت من دون مقابل.

والمعلوم أن هناك شركات من أوربا وأمريكا تتولى الإعداد للرحلات السياحية لهذه المناطق، ومع أنها تعد تجهيزات للطوارئ إلا أنها لاتكفي لمهام الإنقاذ السريع، ومع ذلك لايزال يُصرُّ هواة المغامرة على ارتياد جبال الهملايا، ولاسيما المناطق الأكثر خطورة فيها.

طور جديد فى عالم الطب

الميكنة الفِسيُولوجيّة للأعضاء البشرية

أحمد شاكر عضيمة

مع بداية هذا العام 1996م، بُذلت محاولات علمية ترمي إلى أن يستعيد ستة أشخاص مشلولون قدرتهم على المشي بفضل جهاز إلكتروني صغير يتم غرسه في النخاع الشوكي، كما يتم صنع أذرع بمفاصلها وشبكيات صناعية للعين، هذا بالإضافة لزرع أعصاب حية على السيليسيوم. وهكذا فإن عصر ميكنة الأعضاء البشرية قد بدأ.

منذ مدة وجيزة تم اختيار ستة أشخاص من بلدان أوربية مختلفة بغية إخضاعهم لعملية جراحية من نوع خاص. العملية مدهشة ومثيرة، تتمثل في إعادة بعض القدرات الحركية لأشخاص مشلولين بفضل جهاز إلكتروني صغير يقوم بإصدار الأوامر إلى بعض العضلات بدلاً من النخاع الشوكي الذي فقد القدرة على القيام بوظيفته. فهل يعد هذا استهلالاً لدخول عصر الميكنة البيولوجية البشرية (HOME BIONIQUE)؟ وبعبارة أخرى إن العلماء يحاولون التوفيق بين الأعضاء الاصطناعية والدماغ الذي يعد مركز الأوامر لدى الإنسان من جهة، وجسمه من جهة أخرى.



كفّ اصطناعي لتعويض الكف الطبيعي المبتور يمكن تحريكه بطريقة إلكترونية شديدة التعقيد

ولقد اجتمع لفيف من العلماء في شهر أكتوبر / تشرين الأول من عام ١٩٩٤م، بدعم من برنامج البحوث الأوربي (أوريكا) لكي يقوموا بتنفيذ المرحلة النهائية لمشروع كاليس CALIES (تحريك الأعضاء بوساطة المحرض الكهربائي بالاستعانة بالحاسوب). وغاية المشروع زرع أجهزة تحريض كهربائي صغيرة في النخاع الشوكي لستة أشخاص مرضى بالشلل في العضوين السفليين بغية تمكينهم من النهوض والتجول بوساطة العصا. ولابد من الإشارة في هذا الصدد إلى



وشبكة التحقيق

أعصاب إلكترونية: تمكن المشلولين من استعمال أعضائهم وهذا ما ستحققه المؤالفة بين الحاسوب والجهاز العصبي

أن هذا لايعني انتهاء دور الكرسي المتحرك.

إن الأشخاص المقصودين في هذا المشروع فقدوا جميعًا «القدرة على استعمال أعضائهم السفلية نتيجة حوادث أدت إلى تعطل بعض وظائف النخاع الشوكي. ومنذ عام ١٩٩٢م تشكلت جمعية طبية لهذا الغرض في كل من البلدان الأوربية مؤلفة من طبيب مشرف على التدريب وطبيب جراح، وتم تجهيزها بالمتطلبات كافة.

يبلغ عدد المشلولين في أوروبا 300000 مشلول، وفي فرنسا وحدها يوجد 30000 مشلول شللاً نصفيًا و 600 مشلول شللاً كليًا، ويبلغ متوسط أعمارهم 31 سنة، مما يعني أنهم في عز شبابهم. ويعود سبب إصابتهم بالشلل إلى آفة خطيرة تصيب النخاع الشوكي وتختلف من شخص إلى آخر وتؤدي إلى فقدانهم للإحساس وتخريب قنوات الاتصال التي تربط الدماغ بالعضلات. وهذه الآفة لاتعطل الحركات الإرادية وحدها، بل إنها تأتي أيضًا على الوظائف الآلية للعضلات المفرزة التي تساعد على القيام بطرح المفرَزات كالبول والغائط بالإضافة للجهاز التناسلي.

ومن ناحية أخرى، يطرح فقد الإحساس مشكلات خطيرة، فالجراثيم التي تهاجم الجسم يوميًا لايكون أمامها أي رقيب. وهكذا يرتبط حل مشكلة هؤلاء المرضى بابتكار طريقة لإصدار الأوامر في منطقة العضو المصاب.

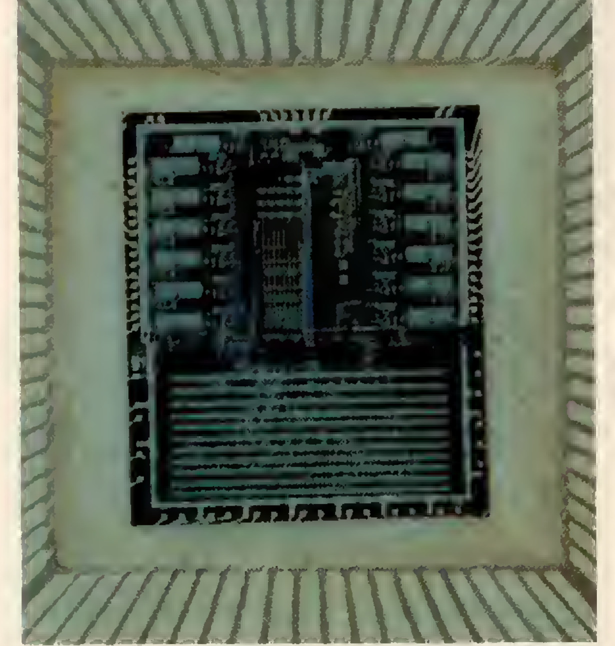
يوجد مركز الجملة العصبية في الدماغ والنخاع الشوكي. أما في الجسم فهناك امتدادات للأعصاب تدعى العصبونات مهمتها توصيل إشارات الأوامر للعضلات. ويترك استئصال

عصبون أملاً في إعادة النمو، ولهذا فإن قطع أحد الأصابع ثم إعادة وصله بعملية التطعيم يمكن أن يؤدي إلى استعادة الإصبع لوظيفته في حين أن الآفة التي تصيب النخاع الشوكي لا أمل في الشفاء منها. والسؤال الذي يطرح نفسه على الخبراء: لماذا لا نحاول زرع طعم من النخاع الشوكي قبل أن نلجأ إلى ميكنة حركة أعضاء الإنسان؟.

إن الجواب عن هذا السؤال واضح. ذلك أن كل محاولات التطعيم باءت بالإخفاق حتى الآن. وهناك طريقة بيولوجية أخرى تدعى تنشيط النمو العصبي NEUROTISATION تم تطويرها في روسيا بشكل خاص، وهي تقوم على مبدأ المطّ المناسب لأعصاب النخاع الشوكي التي توجد فوق المنطقة المصابة، وبهذه الطريقة نكون قد حرضنا نمو تلك الأعصاب بشكل نأمل معه استطالتها حتى تتجاوز المنطقة المصابة.

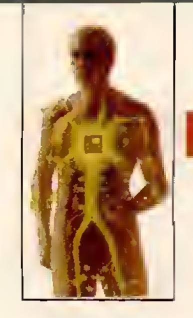
ولكن هذه التقنية لم تعط نتائج مشجعة حتى الآن. ونظراً لأنه قد تبين بأن طرائق البحث البيولوجية طويلة وشاقة فقد اتجهت الأنظار نحو الطريقة الكهروحيوية BIO- ELECTRIQUE.

ويخضع المتطوعون لمشروع كاليس لتدريبات فسيولوجية قبل إجراء العملية ترمي إلى تقوية عضلاتهم من جهة، ولتعليمهم التنقل في وضع قائم بوساطة العصا من جهة أخرى. وتتم عملية تقوية العضلات بالتحريض الكهربائي الجلدي



الجهاز الإلكتروني الصغير (PUCE) الذي سوف يُمكّن الإنسان المعاق من المشي. تم غرسه في النخاع الشوكي لستة أشخاص متطوعين. وهو يصدر الأوامر إلى العضلات بوساطة أسلاك وأقطاب كهربائية.

جهاز نقل الأوامر والشبكة المتفرعة عنه: هكذا سوف يتم التطعيم بحيث يحمل المريض عصا ركبت عليها الأزرار الضاغطة التي تصدر الأوامر، ويتولى حاسوب ضبط أوامر المشي والحركة وهو حاسوب صغير جداً موضوع في علبة صغيرة يمكن ربطها بالحزام. وهو يقوم بتغذية جهاز مزروع في النخاع الشوكي حيث يعمل على نقل التحريضات الكهربائية إلى الأعصاب والعضلات بوساطة ٢٤ قناة تنتهي بأقطاب.



بجهاز خاص يوضع على سطح الجلد.

أما التدريب على الانتصاب القائم فيتم بوساطة آلة خاصة لتعليم المشي صممت في جامعة مومبوليه MONTPELLIER في فرنسا وتحتوي هذه الآلة على سبعة محركات كهربائية توضع على امتداد كل من الساقين. وقد خصص للخصر محركان، ومحركان للركبتين، وآخران لتحريك العرقوب.

ويتعلم المرضى طريقة المشي بوساطة أزرار مثبتة على العصا. وتتم عملية نقل التعليمات إلى حاسوب خارجي بإصدار الأوامر إلى المحركات وتعلق الآلة بالجسم حول الخصر.

وبغية الحد من آلام العملية سوف تطبق تقنية جراحية تم الإعداد لها مسبقًا تتمثل في الإقلال ما أمكن من فتح الجروح، أما فيما يتعلق بالأدوات المزروعة فسيتم زرعها بمساعدة جهاز الإنارة ENDOSCOPE

والسؤال الآن: ما الآلة التي سيتم زرعها في الجسم؟

إنها علبة إلكترونية مركزية تتفرع منها أسلاك كهربائية معزولة يبلغ عددها أربعين سلكًا تقوم بتغذية أربعين قطبًا. وهذه العلبة كتيمة مصنوعة من مادة الخزف الذي يمكن أن يتقبله الجسم. ويعادل حجم العلبة حجم علبة كبريت تقريبًا. ويوجد ضمن العلبة جهاز إلكتروني صغير تم صنعه خصوصًا لهذا المشروع من قبل شركة MXM في مدينة أنتيب الفرنسية (ميناء على البحر المتوسط). وتوجد حول الجهاز مكثفات ومقاومات، ويتم تلقي الأوامر عبر الجلد بوساطة وشيعة، ثم ترسل تلك الأوامر، عن طريق علبة خارجية تحتوي أيضًا على وشيعة مرسلة. ويحدث نوع من المزاوجة التحريضية COUPLAGE IN-DUCTIF بين الوشيعتين الخارجية والداخلية المزروعة في الجسم وفقا لمبدأ المحول الكهربائي.


جهاز إلكتروني لتعويض حاسة السمع المفقودة

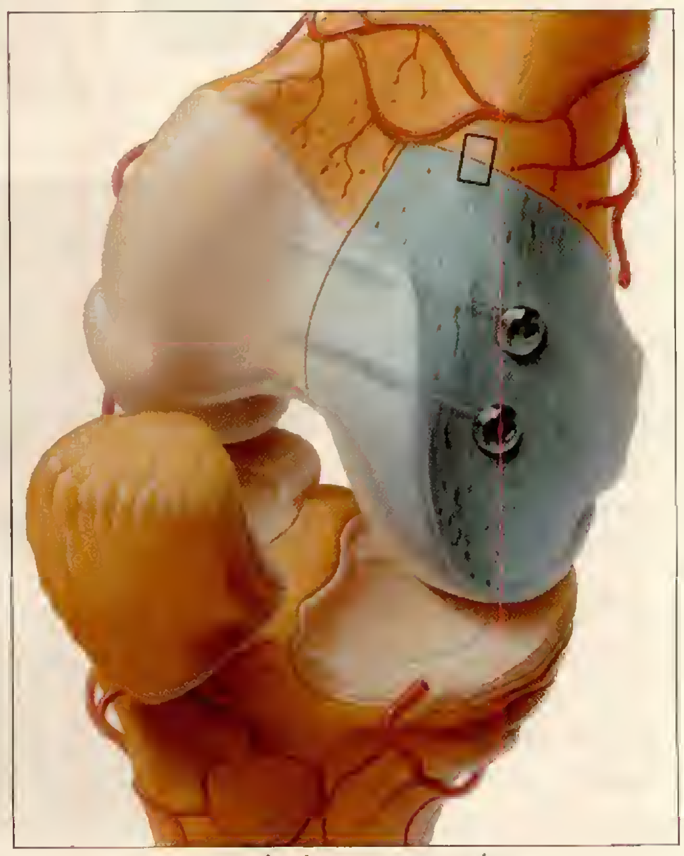
وباختصار، ينبغي للمريض، عقب إجراء العملية مباشرة، أن يحمل عصا مجهزة في أعلاها بأزرار كبس لنقل الأوامر التي يصدرها حاسوب صغير مربوط في حزام المريض. وهو يعمل على نقل التعليمات والطاقة الكهربائية الملائمة بوساطة موجات كهرومغناطيسية للجهاز الإلكتروني المزروع داخل الجسم. ويصدر الجهاز الداخلي نبضات كهربائية تقوم بإصدار الأوامر للعضلات المعنية بأوامر النهوض والمشي، وتوجد هذه العضلات جميعًا على مستوى الخصر والركبة. ويتضمن الخصر العضلات التي تتحكم بعملية المشي. وهكذا، فإن الإنسان مبتور الساقين على مستوى الفخذ يستطيع المشي بالأعضاء الاصطناعية استنادًا إلى مبدأ ميكانيكي بحت.


تتواصل تجارب العلماء من أجل تأهيل المعاقين لمواجهة الحياة

ومع أهمية هذا الجهاز الإلكتروني المزروع في الجسم والصعوبة المتأتية من زرعه، ألا يمكننا أن نتساءل: لماذا لانكتفي بتحريض العضلات بوساطة الأسلاك الكهربائية التي توضع فوق الجلد مباشرة؟ والجواب هو أن هذا النوع من التحريض صعب للغاية ولايمكن أن نراقب بوساطته أكثر من ثلاث أو أربع عضلات. يضاف إلى ذلك أن شدة التيار الكهربائي اللازمة للتحريض ستكون أكبر من أن يتحملها الجسم، ولعل من أهم مزايا النظام الكهربائي المصغر المزروع هي السماح للمريض بالمشي على نحو صحيح من دون أن يترنح. ويمكن استعمال الجهاز مدة طويلة. ولابد من الاشارة إلى أن للتحريض الكهربائي استعمالات أخرى كإصدار الأوامر للمثانة بالتبول ومكافحة الآلام بزرع أقطاب توصل مباشرة إلى بعض المناطق في الدماغ.

كيف يجري نقل الفكر إلى المادة؟

إن المحركات الكهربائية التي تحرك يداً اصطناعية تكون قوية ودقيقة ويمكن عدّها أقوى من العضلات، إلا أن المشكلة تكمن في إدارة الحركات بشكل منسجم، وفي الواقع، فإننا عندما نقبض على كأس موضوعة على الطاولة، تسهم عشرات من العضلات في آن واحد بهذه الحركة، والأوامر التي تصدر عن الدماغ يتم تنفيذها في جزء من الثانية.

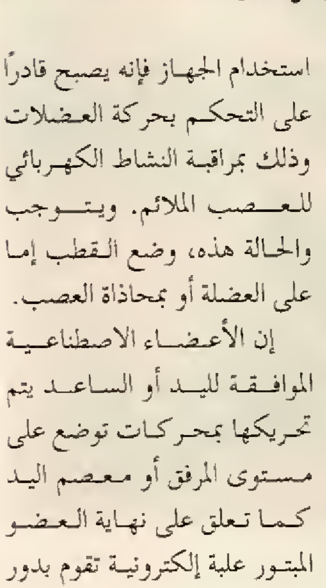


إعانة الأطراف السفلية تجد اهتماماً كبيراً من العلماء



ساق اصطناعية تنفذ أوامر الحركة المنقولة من جهاز إلكتروني مربوط على الخصر. وهذه التقنية بلغت درجة عالية من الكمال.

إن الأعصاب التي تحرك العضلات تكون عادة إفرادية النشاط، وهي ككل الأعصاب تعمل بالنبضات الكهربائية حيث تحدث فيها اهتزازات وتحريضات تتوالى بشكل مستمر. وإذا ما قام المريض بالتدرب الكافي على



استخدام الجهاز فإنه يصبح قادراً على التحكم بحركة العضلات وذلك بمراقبة النشاط الكهربائي للعصب الملائم. ويتوجب والحالة هذه، وضع القطب إما على العضلة أو بمحاذاة العصب.

إن الأعضاء الاصطناعية الموافقة لليد أو الساعد يتم تحريكها بمحركات توضع على مستوى المرفق أو معصم اليد كما تعلق على نهاية العضو المبتور علبة إلكترونية تقوم بدور



المراقبة بوساطة أربعة أقطاب. والمهم في هذا المجال هو التحكم في سرعة المحركات الكهربائية وذلك بتحليل التحريض الكهربائي الملائم، هذا وتجري معالجة المعلومات عن طريق أجهزة إلكترونية دقيقة، تقوم بوظائف أخرى إضافية.

ومثال ذلك ما نجده في الساعد الاصطناعي الذي وضعته الشركة الأمريكية أوتاه UTAH حيث تتم تغذية المرفق بحركة ترجح في أثناء المشي من دون أن يتدخل صاحب الساعد، وتبعًا لذلك فإن حركة السير والسرعة تراقب بوساطة جهاز موضوع على الساعد.

ولقد طرحت الأعضاء الاصطناعية المذكورة في الأسواق فسجلت نتائج مشجعة. وهذا التقدم من شأنه أن يتيح في المستقبل استعمالات أكثر كمالاً للتحكم في مراقبة العضلات.

إن تقنية التحكم بتحريك العضلات الكهربائية لن تصل إلى النجاح المنتظر منها، حيث يأمل العملاء مستقبلاً بالتوصل إلى إمكان مراقبة الإشارات العصبية.

كيف تقوم الآلة بمخاطبة الدماغ؟

إن الأذن وسيلة مهمة للاتصال بالعالم الخارجي. وقد تمت معالجة الصمم بجهاز خاص حيث يتم زرع الحلزون في الأذن الداخلية. ولكي نفهم كيفية معالجة الأذن لابد من أن نفهم آلية السمع. إن الأمواج الصوتية تؤدي إلى اهتزاز طبلة الأذن وعظيمات السمع في الأذن الوسطى، وتنتقل تلك الاهتزازات إلى السائل الذي يملأ الحلزون في الأذن الداخلية ويقوم الحلزون بتحليل الصوت إلى ذبذبات تتحول بوساطة الخلايا العصبية إلى نبضات كهربائية تنتقل بعدها إلى الدماغ عن طريق الأعصاب السمعية.

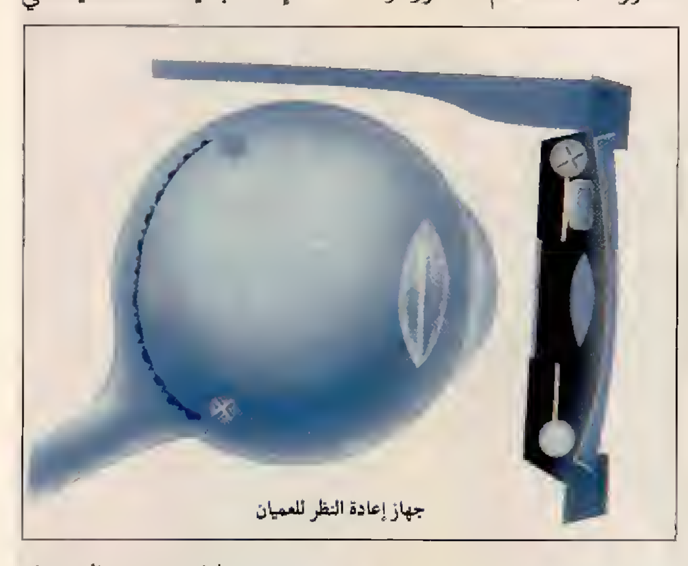
وعندما يتلف الحلزون أو أي عضو يقع خلفه فإن تأثيرات الصوت لايمكن أن تتحول إلى إشارات كهربائية، وهكذا فإن المريض يصاب بالصمم التام، ومع ذلك فإن عصب السمع يكون سليمًا في ٩٥٪ من الحالات.

وهكذا فإن بالإمكان تحريض العصب السمعي كهربائيًا إذا استطعنا الوصول إلى الخلايا العصبية. وهذا الدور الذي يقوم به الطعم المزروع الذي يوضع في الحلزون. يعد الطعم المذكور أول جهاز اصطناعي يحقق التماس بين الجهاز الإلكتروني والجهاز العصبي البشري.

نحو اتصال مباشر بين الحاسوب والأعصاب

العميان سوف يبصرون، والمشلولون سوف يسَيّرون على أقدامهم، هل هذا خيال أم هو حلم صعب التحقيق؟

إن الشبكية الاصطناعية التي ستسمح للعديد من العميان بالرؤية مع إطلالة القرن الواحد والعشرين قيد التجريب الآن من قبل العديد من الخبراء المشرفين على تنفيذ برامج البحوث العملية المتعلقة بهذا الموضوع. وهذا ما أعلنه الدكتور فيات WYATT من معهد ماساشوسيتس التكنولوجيMIT في بوسطن مؤخرًا حين قال: إن المشكلة الأساسية تكمن في وصل العصب بالمادة لخلق حوار



جهاز إعادة النظر للعميان



في تقنيات الميكنة الفيسيولوجية للأعضاء أصبح بالإمكان زرع عصب على السيليسيوم لتحقيق المؤالفة بين الأعصاب والمادة.



بينهما دون أن تتعرض لمشكلة رفض الجسم للمادة.

إن شبكية العين مع طبقات الخلايا العصبية الخمس التي تتألف منها (خلايا استقبال الضوء الحساسة للألوان والأخيلة والخلايا اللمفاوية التي تنقل الإشارات إلى العصب PIGMENTOSA) مع بقاء العصب البصري والمركز البصري سليمَيْن فإن مجرد التحريض لخلايا استقبال الضوء والخلايا اللمفاوية والعصب البصري يسمح بمرور المعلومات من العالم الخارجي إلى الدماغ. يطلق على هذه التقنية مبدأ هذه الأساليب النجاح فإن معظم حالات العمى سيكون لها العلاج الأكيد. إلا أنه لابد من الإشارة إلى أن النتائج الأولية جعلت بالإمكان تحقيق بؤرة من الأقطاب من شأنها تحريض بضع مئات من الخلايا اللمفاوية الشبكية مما يتيح لنا

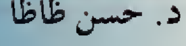
الميكنة الفسيولوجية ترمي إلى تحقيق حياة طبيعية للمكفوفين

البصري) تعالج المعلومات البصرية التي تنتقل بعدئذ إلى المركز البصري CORTEX بوساطة 500000 ليفة التي يتألف منها العصب البصري. وفيما يتعلق بالمكفوفين الذين يعانون من تلف الشبكية (تشوه النقطة الصفراء في الشبكية أو ما يسمى RETIMITIS زراعة الشبكية وتعني إقامة اتصال دقيق بين الخلايا العصبية الشبكية. وهذا هو الهدف من الموضوع.

هناك عدة أساليب ممكنة لتحقيق هذا الهدف يجري الآن اختبارها، وهي تعتمد أساساً على ظاهرة التحريض الكهربائي. وإذا ما كتب لأحد زرع الشبكية بالشكل المطلوب. إن البؤرة المذكورة مصنوعة من ورقة رقيقة جداً من شبه معدن السيليسيوم تغرس فيها الأقطاب وتوضع على شبكية العين. أما الشبكية المستقبلية فيتم تثبيتها على النظارات وهي تتألف من بؤرة مجمعة للنور تلتقط الإشارات الضوئية التي تحول إلى نبضات، ويتم نقل المعلومات إلى بؤرة التحريض المثبتة على شبكية العين بوساطة وشيعة تحريض مغناطيسي، كما أنها تنقل الطاقة. إن التجارب التي أجريت على تحريض أعصاب معزولة أظهرت أن المرضى يستطيعون بالتأكيد رؤية النقاط المضيئة، مما يثبت أن الشبكية الاصطناعية من الممكن تركيبها وأصبح بالإمكان زرعها. ولقد أجرى الدكتور فيات دراسات حول سمّية المواد المزروعة كالسيليسيوم والبوليامبد وأقطاب الذهب والبلاتين ومدى تقبل الجسم لها بعد أن قام بتطبيق تجاربه على شبكية الأرنب. وقد تبين له تقبل الأنسجة الحية لتلك المواد طوال سنتين. ويفكر العلماء بزيادة عدد الأقطاب الكهربائية التي سوف يتم إدخالها إلى العين نظراً لأن مئة قطب في الميليمتر المربع لاتتيح إلا قراءة بضعة أحرف. فالمهم في هذه الحالة زيادة عدد الأقطاب.

وعلى الصعاب التي تواجه عملية الاتصال بين المادة والأعصاب، فإن البحث الطبي يزداد أهمية وتقدماً في هذا المجال، وما من شك في أن المكفوفين سيكونون من أوائل المستفيدين من تلك البحوث.

اليهود والحرب...



د. حسن ظاظا

من يتصفّح تاريخ الحرب عند اليهود منذ أقدم العصور وإلى الآن يقف مبهوراً أمام كثرة هذه الحروب، حتى يخيَّل إليه أن الحرب هي الوضع الطبيعي! فهي القاعدة، والسلام هو الشذوذ، أو هو ـ كما يقول الكاتب المسرحي الفرنسي في القرن الماضي ـ المدة التي تفصل بين حربين. ولم يكن هذا الكاتب جان جيرودو يهودياً، بل كان نصرانيًا كاثوليكيًا. ولكنه منذ بدأ يتعلم التاريخ في المدرسة الابتدائية لاحظ أن أكثر من ألّفوا في هذا العلم قد وضعوا كل تفصيلاته في إطار من الدم البشري الذي يسيل أنهارًا في شتى ألوان الصراع بين بني آدم، ثم ينتهي كل منها بفاصل من السلام الهشّ المتهالك، في أثر (موقعة فاصلة) تظل مطبوعة في ذاكرة الأمم، ومحوراً تدور من حوله الأغاني والأشعار والأساطير، بحيث تبهر الأبصار على مرّ العصور، فلا يرى الناس في هذا الوهج ما حققه العقل البشري من فتوحات وانتصارات في العلم والفن والحضارة والثقافة. وغالبًا ما يُسرع الناس إلى القول بأن الحرب قضاء قضاه الله على عباده.

وإذا كان الصليبيون وهم خارجون لقتال المسلمين في العصور الوسطى يكتبون على راياتهم ودروعهم «الله يريد ذلك»، فقد سبقهم اليهود القدماء إلى هذا التسويغ نفسه، والأمم الوثنية القديمة كانت تجعل من «واجبات» الصنم الذي تعبده أن يَهْزِم أعداءها مهما بلغوا من كثرة العدد وقوة البأس، فإذا ما انهزم أحد الفريقين كان أول ما تصنعه فلوله المغلوبة أن تحطم صنمها عقابًا له، وأن تعبد صنم المنتصرين! ونحن نذكر صياح كفار مكة في انتصارهم على المسلمين في غزوة أحد، إذ كانوا يهتفون «اعْلُ هُبَلْ» الذي كانوا يعتقدون أنه رئيس أصنام الكعبة وأوثانها، مع أنه مستورد من الشام، وهُبَل ليس إلا «أبولو» الصنم اليوناني الروماني ـ المعروف، فكان المسلمون يردّون عليهم هاتفين (الله أعلى وأجلّ!).

ومعلوم أن كل شيء ـ من خير أو شر ـ يحدث في هذا العالم إنما يتم بعلم الله تعالى وإرادته، وله في ذلك حكَم. لكن أي صراع تسبقه أسباب، وفي الحروب تكون الأسباب سياسية في المقام الأول، والسياسي الماهر هو الرجل الحكيم الثاقب الذكاء، الذي يعرف كيف يقيس الأمور، ويتبين الأسباب قبل أن يفاجأ بالنتائج.

اليهود.. متفقون مع اختلافهم!

وسنرى أن الحكمة والذكاء والبصيرة النيّرة الكاشفة لم تكن دائمًا ملازمة لليهود. كانوا دائمًا ينتظرون معجزة، فإذا لم تقع اتَّهَمَ بعضُهم بعضًا بالتفريط في حق الله حتى يسوّغوا هزائمهم، وكان كثير من هزائمهم من النوع الساحق الماحق. فيبكون ويولولون ويتمرغون في التراب، وكثيراً ما يعاتبون الربّ لأنه لم يتدخل في المعركة! وفي كتابهم الكثير من أخبار هذه الهزائم، وقد اخترت منها نصًا مفصلاً يتضمن خطبة لقائد الجيش المهاجم لهم، يحلل فيه تخبطهم في إدراك الموقف الذي انتهى بهزيمتهم هزيمة منكرة. كانوا منقسمين إلى دولتين: الأولى مملكة إسرائيل، في شمال فلسطين، والثانية مملكة يهوذا في الجنوب. وكان يحكم في مملكة إسرائيل خلفاء ضابط منشق على سليمان عليه السلام، وكانت عاصمتها في السامرة، في حين استمرّ الحكم في مملكة يهوذا في سلالة داود وسليمان عليهما السلام، وكانت مدينة القدس عاصمة لهم، ونحن إذ ذاك قرابة عام سبعمئة قبل الميلاد، وبعد بعثة موسى عليه السلام بسبعمئة سنة أيضًا. وكانت كل واحدة من المملكتين تحارب الأخرى وتتهمها بالفسوق والكفر، ولم يكن بينهما إجماع إلاّ على معاداة سكان البلاد الأصليين: الفلسطينيين. وكانت المملكتان مرتبطتين ولاءً بالعراق، خاضعتين للإمبراطورية الأشورية، بعاصمتها «نينوى» في شمال البلاد، التي تسمى الآن «الموصل» ثم انقلبت كلتاهما على أشور، وانحازت إلى مصر. ولأن مصر كانت على حافة الحرب مع الأشوريين، فكان لابُدّ من أن يقوم الإمبراطور الأشوري بمعاقبة المملكتين اليهوديتين في فلسطين. يقول النصّ (سفر الملوك الثاني: الفصل الثامن عشر): «في السنة الثالثة من حكم هوشع بن أيله ملك إسرائيل، اعتلى عرش يهوذا «حزقيًا بن آحاز» وكان ابن خمس وعشرين سنة عند توليه المُلك، الذي بقي فيه تسعًا وعشرين سنة في أورشليم (القدس). واسم أمّه «أبيّه بنت زكريا». فالتزم القويم أمام الرب، مثل ما سار عليه سلفه القديم داود. فأزال رُبَى الأوثان ودمّر الأنصاب، واجتثّ أحراش الفُسُوق وسحق

الحية النحاسية؛ لأن بني إسرائيل كانوا يقدسونها ويسمونها «نحُشْتانْ» أي (الحَنَش المعظم)، ووثق بالرب إله إسرائيل، ولم يكن بعده مثله في جميع ملوك يهوذا ولا فيمن كانوا قبله. وتمسّك بالربّ، ولم يَحِدْ عن أتباعه وطاعة شرائعه التي فرضها على موسى. وكان الربّ معه. وحيثما توجّه يتصرّف بحكمة. وتمرّد على ملك أشور ولم يخضع له. وضرب الفلسطينيين حتى غزة وتخومها، من بُرج الحُرّاس إلى المدينة المحصّنة. وفي السنة الرابعة للملك حزقيا، التي هي السنة السابعة ليوشع بن أيله ملك إسرائيل، زحف سَلْما نَصَّر ملك أشور على السامرة، وحاصرها، ثم استولى عليها بعد ثلاث سنين، أي في السنة السادسة لحزقيا، وهي السنة التاسعة لهوشع مَلِك إسرائيل، أُخِذَت السامرة. وأجْلى ملك أشور الإسرائيليين إلى أشور، وأنزلهم في حَلَخ، وعلى الخابور - نهر جوزان - وفي بلاد الميديين، لأنهم عصوا كلام الربّ إلههم، ونقضوا عهده، وكل ما أوصاهم به موسى عبدالله لم يسمعوه، ولم يعملوا به، وفي السنة الرابعة عشرة للملك حزقيا، زحف سنْحَاريب مَلك أشور على مدن يهوذا المحصَّنة وأخذها فأرسل حزقيا ملك يهوذا إلى ملك أشور في لَكيش (تل الدوير بفلسطين) يقول له: إنني أخطأتُ، فارجع عنيّ! ومهما طالبتني به نقَدْتُهُ لك. ففرض ملك أشور على حزقيا ملك اليهود ثلاثمئة قنطار فضة وثلاثين قنطار ذهب. فأدى إليه حزقيا كل الفضة الموجودة في بيت الربّ، وفي خزائن بيت الله. ففي ذلك الوقت نزع حزقيا الذهب عن أبواب هيكل الرب، وعن الدعائم التي كان حزقيا نفسه قد ذهّبها، ودفع كل ذلك إلى ملك أشور.

ولكن ملك أشور أرسل تَرْتان، ورَبْسَاريس، وربْشاقه من لكيش إلى الملك حزقيا على رأس جيش كبير، إلى أورشليم (القدس). ولما وصلوا، تقدموا حتى وقفوا عند قناة البركة العليا على طريق ساحة القصّار (الساحة المخصصة لغسل الأقمشة) ونادوا الملك!. فخرج إليهم إلياقيم بن حلقيا (قيّمَ الهيكل) وشِبْنَه (الكاتب) ويُوآخ بن آساف (المسجّل). فقال لهم رَبْشاقه: قولوا لحزقيا! هكذا يقول الملك العظيم ملك أشور: ماهذا الاتكال الذي إليه ركنت؟ وقلت ليس إلا كلامًا شفويًا، ولي تدبير واقتدار على الحرب! والآن، على مَنْ اتكلت حتى تمرّدت عليّ؟ لقد اتكلت على هذه البوصة المشروخة، على مصر، التي من اعتمد عليها نشبَت في كفه فادمتها! هكذا فرعون ملك مصر لكلّ من يعتمدون عليه. فإن قلت لي إنما اعتمدنا على الله إلهنا.. ألم يدمّر حزقيا معابده ومذابحه، ثم قال لليهود ولأورشليم أمام هذا المذبح فقط في أورشليم تسجدون، والآن أدِر المعركة مع سيدي ملك أشور، وأنا أقدم لك ألفَيْ فرس.. إن استطعت أن تجد لها عندك فرسانًا! وأنىَّ لك أن ترد وجه قائد واحد من أصغر رعايا مولاي، وتعتمد على مصر لأجل مراكب وفرسان؟ ثم الآن أتراني بمعزل عن أمر الله، إذا علوت على هذا المكان لأدمره؟ الله قال لي اصعد على هذه الأرض، وخرِّبها! فقال إلياقيم بن حلقيا وشبنه ويوآخ لربشاقه: فضلاً، كلمّ خَدَمَكَ - يقصدون أنفسهم... تأدبًا - باللغة الآرامية، فإننا نفهمها، ولا تكلمنَا باليهودية على مسامع الناس الواقفين على السور.

كانت مملكتا اليهود إسرائيل ويهوذا تحارب الواحدة منهما الأخرى وتتهمها بالفسوق والكفر، ولكن كان إجماعها على معاداة الفلسطينيين سكان البلاد الأصليين

فقال لهم ربشاقه: أتظنون أن مولاي أرسلني إليكم وإلى مولاكم لأقول هذا الكلام؟ أليس إلى الناس الواقفين على السور الذين سيأكلون برازَهم ويشربون بَوْلَهُم، معكم؟ ثم وقف ربشاقه وصاح بصوت مرتفع وتكلم باليهودية قائلاً: اسمعوا كلام الملك المعظم، ملك أشور! هكذا يقول الملك: لايخدعنكم حزقيا، لأنه لايستطيع إنقاذكم من يده. ولايجعلكم حزقيا تتكلمون على الربّ قائلاً: سينقذنا الرب إنقاذًا! ولا نسلّم هذه المدينة إلى ملك أشور! ولاتسمعوا حزقيا، فهكذا يقول ملك آشور: اعقدوا معي صلحًا، واخرجوا إليّ، وليأكل كل واحد من كرمته، وكل امرئ من تينته، وليشرب كل منكم من ماء بئره، حتى آتي وآخذكم إلى أرض كأرضكم أرض حنطة ونبيذ، أرض خبز وكروم، أرض زيتون وعسل، وعيشوا ولا تموتوا، ولا تسمعوا لحزقيا، لأنه يغركم قائلاً: الربّ ينقذنا! هل أنقذ كل إله من آلهة الأمم أرضه من يد ملك أشور؟ أين إله حماة وأرواد؟ أين آلهة سفروائيم وهَيْنَعْ وعَيّ؟ هل أنقذوا السامرة من يدي؟ مَنْ منْ آلهة الأرض جميعًا أنقذ أرضه من يدي؟ حتى ينقذ الرب أورشليم من يدي؟ فسكت الناس. ولم يجيبوه بكلمة؛ لأن ملكهم أمرهم قائلاً: لاتردّوا عليه.. وجاء إلياقيم بن حلقيا القيمّ على الهيكل، وشبنه الكاتب، ويوآخ بن أساف المسجِّل إلى حزقيا - وثيابهم ممزّقة - وأخبروه بكلام ربشاقه. (سفر الملوك الثاني - الفصل الثامن عشر كله).

اللاويون والعنصرية العرقية

وهذا النص الطويل يفرض نفسه على كل دارس للحرب في الفكر اليهودي لأسباب كثيرة من أهمها:

1- أنه يعلن بداية النهاية للوجود اليهودي في فلسطين. فالزحف الأشوري على مملكة إسرائيل الشمالية في حكم الإمبراطور «سلما نصّر» ثم «سنخاريب» انتهى بتحطيم مملكة إسرائيل نهائيًا، بعد أن هلك أهلها وضاعوا بين قتيل وأسير ومفقود. وأولئك المفقودون فرّوا من السامرة بأعداد كثيفة جدًا، وتفرقوا في جميع أنحاء الأرض، وذكر الأخباريون اليهود أنهم كانوا عشرة أسباط أو قبائل من الاثنى عشر سبطًا من بني إسرائيل، بحيث لم يبق منهم إلاّ السِبْطان الجنوبيان في مملكة يهوذا بعاصمتها أورشليم (القدس) مع بقايا من سبط «اللاويين» عشيرة موسى وهارون، الذين لم يكن لهم إقليم محدّد، بل ظلوا منتشرين في داخل جميع الأسباط يمارسون الكهانة والإمامة، بوصفهم ورثة الوصاية الدينية عن موسى وهارون، وهي عنصرية عرقية ضيقة الحدود حرّمت على أنبياء اليهود أنفسهم الإمامة والزعامة، فأصبحوا - في الأغلب الأعمّ - يمثلون (حزب المعارضة) الدينية ضد الكهنة اللاويين، والمعارضة السياسية ضد الملوك اليهود أيضًا، لدرجة أن نبيًا واحدًا من أولئك الأنبياء كان من سلالة الكهنة اللاويين هو «إرميا»، وقد نصّ على ذلك في مستهلّ سفره، وكأنه يفخر بانتمائه إلى المعارضة، مع كونه مستحقًا للكهانة الرسمية في الدولة! وقد أعود إليه في مقال قادم عن حروب اليهود في التاريخ أيضًا. ولم يُفلت من الإرهاب اليهودي القديم، إذ اغتاله بعض المتعصبين، وهو هارب من الإحراق

والتدمير والقتل والأسر عندما سقطت «أورشليم» عاصمة مملكة يهوذا، أما جيوش بختنصّر البابلي الكلداني، وكان إرميا يدعو إلى إقرار السلام بالمفاوضة، ولكن اليهود كانوا يفضلون معجزة من السماء على مائدة المفاوضات! وسفر إرميا يبدأ بقوله: كلام إرميا بن حلقيا من الكهنة الذين في «عناثوث» من إقليم بنيامين (إرميا 1:1).

2 - إن هذا النص يبيّن لنا السبب المباشر لإشعال نار هذه الحرب، وهو انحياز حزقيا ملك يهوذا إلى مصر، التي كانت العدوّ التقليدي للإمبراطوريات التي تقوم في الشرق الأوسط: قاتلوا الحيثيين الذين سيطروا على آسيا الصغرى (مكان تركيا الحالية)، وقاتلهم الهكسوس القادمون من شبه جزيرة العرب بسلاح جديد هو الخيل، بعد استئناسها وترويضها، واحتلوا مصر وحكموها بأسرة فرعونية، ويرجح أنهم أعطوا بني إسرائيل حق القدوم إلى مصر للتزود بالغذاء في زمن قحط، وربما هي التي دفعت بالهكسوس إلى وادي النيل، ثم طُرد الهكسوس وأتباعهم من بني إسرائيل.. ثم حاربوا البابليين والأشوريين مرارًا، وكان اليهود يتدخلون في النزاع لمكاسب يطمعون فيها، مما جلب عليهم في النهاية دمارًا رهيبًا، سنتناوله في بعض هذه البحوث.

3 - يُستفاد من هذا النص أن دولة اليهود القديمة هذه كانت لها لغتان: أولاهما «اليهودية» والثانية «الآرامية» فأما الأولى فهي لهجة يهودية عامية متطورة عن العبرية الدينية، عبرية التوراة، وكان السامريون يتحدثون بلهجة مختلفة، ويكتبونها بأبجدية مختلفة أيضا، ويزعمون أنها اللغة الحقيقية التي أنزلت بها التوراة على موسى والتي كان يتحدث بها خليفته يوشع بن نون! أما الآرامية فكانت «لغة المثقفين» من اليهود وغيرهم من سكان الشرق الأوسط من الوثنيين في سورية وفلسطين ولبنان، والشعوب المقيمة على ضفاف الدجلة، والفرات، ثم تسربت إلى إيران المجوسية وإلى الهند شرقًا، وإلى مصر غربًا. فالوفد اليهودي يتكلم بها كما يتكلم بها القائد الأشوري، ولكنه أبى إلاّ استعمال اللهجة اليهودية بهدف إعلاميّ، هو تخويف العامة من الحرب.

4 - اختار القائد مكانًا مهمًا لضمان سلامة جنوده، والتمكن من قطع الماء عن المدينة المحاصرة حتى تسرع بالتسليم. وكان هذا المكان (الاستراتيجي) قناة البركة العليا.

5- كان يسخر من الدروشة الدينية لليهودية عندما يقولون إن الربّ هو الذي يختار لهم، فيردّ القائد الأشوري بأن الذي أحضره من نينوى بالعراق إلى أسوار أورشليم في فلسطين ليدمر المدينة على رؤوس أصحابها، هو الربّ نفسه ولم ينس أن يهدد الجميع بالحصار وما فيه من جوع وعطش، لا يجدون فيه طعامًا ولا شرابًا إلا برازهم وبولهم، وعبّر عنهما بكلمتين عبريتين أكثر غلظة مما ترجمتهما به، حرصًا على ألا أخدش بصر القارئ بألفاظ هذا القائد العنيفة المقززة!

وأخيرًا وقع الحصار على أورشليم، واستمر مدة طويلة. والغريب في تلك الحوادث أن مملكة إسرائيل الشمالية، ومملكة يهوذا الجنوبية كان في كل منهما نبي من أكبر أنبياء بني إسرائيل وأفصح خطبائها. كان هوشع النبي في السامرة، وكان إشعيا النبي في أورشليم، كل منهما يعظ وينصح ويحذر وينذر، ويصب اللعنات على المخالفين لأوامر الله ونواهيه، وعلى الشامتين بيني إسرائيل من الجيران لكن بلا فائدة. فاندحرت إسرائيل، وفاست يهوذا من الحصار، وانضم إلى إشعيا فيها داعية آخر من بقايا السامرة، هو النبي ناحوم. وتظهر عقيدة المسيح المخلّص المنتظر في محيط الأخطار المحدقة باليهود حتى إذا جلس الإمبراطور الإيراني «قورش» على عرشه يهدد بابل وأشور في العراق رأى فيه اليهود المسيح المخلص المنتظر، على كونه مجوسيًا، ولم يكن من سلالة سليمان وداود! وقد تكرّر لهم مُخلّصون في حروب طاحنة، منهم بريطانيا في الحرب العالمية الأولى (1914-1918) وأمريكا في الحرب الثانية (1939-1945) التي رأوا فيها الفناء المحقق من النازية الهتلرية، ولكن العرب - والفلسطينيين خاصة هم الذين دفعوا الثمن الباهظ من أمنهم وأوطانهم وكرامتهم!

وهنا أسئلة تطرح نفسها بإلحاح، وبكثير من الفضول والاستغراب: لماذا بدأ اليهود تاريخهم مكروهين مطرودين؟ ولماذا صحبتهم هذه اللعنة مع مسيرة التاريخ إلى الآن؟ حتى الذين سالموهم أو عايشوهم أو صادقوهم هل يفعلون ذلك تسامحًا وإنسانية، أم انبهارًا وإعجابًا بالعدد الكبير منهم الذين نبغوا في شتى نواحي النشاط الإنساني، أم لمصالح فرضتها ظروف سياسية أو حربية أو اقتصادية معينة؟ وكأنهم يرون رأي الكثير من حكماء العرب إذ كانوا يقولون: أحبب صديقك هَوْنًا ما، عسى أن يصير عدوك يومًا ما، واكره عدوك هَوْنًا ما، عسى أن يصير صديقك يومًا ما، وأخذ شعراؤهم - أي العرب - هذا الخاطر فقالوا:

وكُلُّ وفيقَيْ كلّ رحْلٍ وإن هُما
تعاطَى القَنَا موتاهما.. أخَوَانِ

وقال المتنبي:

ومِنْ نكد الدنيا على الحرّ أن يَرَى
عَدُوًا له، ما مِنْ صداقته بُدُّ

فلمَ هذا العداء الظاهر أو الكامن لليهود، الذي تبلور مع الزمن فأصبح سلوكًا وفلسفة سياسية واجتماعية بمقوته يسمونها (اللاسامية)؟، وواضح أن التسمية أوروبية وأمريكية، وما كان للعرب أن يفكروا فيها لأنهم ساميون صلبيةً وأصالة، ربما أعرق في الانتساب إلى سام بن نوح من اليهود، ولكن الأوربيين لم يروا جماعات من سلالة سام بن نوح تساكنهم وتجاورهم إلاّ اليهود، فهم في نظرهم أبناء سام الدخلاء عليهم، المستوطنون لبلادهم، ولكن أيكفي هذا لكل مَنْ نادوا بمبدأ «اللاسامية» سرًا أو جهرًا؟ وتزداد حيرة السائل إذا عرف أن اليهود حوّلوا الشريعة التي جاء بها موسى إلى ديانة قومية عنصرية لا تفرض على المؤمنين بها دعوة الناس كافة إلى اعتناقها، بل الأمر على العكس: إذا جاء أحد أبناء الأديان الأخرى والأمم الأخرى «الجوييم» أي «الكفار» في مفهوم اليهود - يستوي في ذلك المسلم والنصراني والبوذي والهندوسي والكنفوشي وعابد الكواكب وبروج السماء، ومن يسجد للحيوانات والأسماك والزواحف والطيور، والذي لا دين له على الإطلاق - إذا جاء واحد من أولئك إلى عالم من علماء الدين اليهود يطلب منه إدخاله في اليهودية، فإن الوصية التي عنده هي أن ينفّر هذا الغريب من الدين اليهودي مشيرًا إلى كثرة الأوامر والنواهي الشرعية عندهم - 613 شريعة أكثرها من النواهي والمحظورات والباقي فرائض وواجبات. وعليه أن ينبه هذا (الكافر) على أن هذا الشعب اليهودي «اختاره» الله للصعاب والأحزان والتجارب الأليمة والمحَن الفادحة، ثم يضيف إلى ذلك أن هذا (الكافر) إذا تهوّد لن تكون له كل حقوق اليهودي الأصيل، بل يعد «جارًا» لبني إسرائيل، أو من الموالي كما شاع هذا الوصف بين العرب الخلّص بعد انتشار الإسلام في معظم شعوب الأرض وقبائلها. على ذلك فليس عند اليهود تبشير، بل يحلّ محلّه التنفير. فلماذا هذه

الحـواجـز؟ ولماذا الـشـعـور بخطورة هـؤلاء الناس؟ وليست هذه الـظاهرة الغريبة وليدة الأمس. بل نراها تَطُل علينا منـذ فجـر التـاريخ. فسـيـدنا إبراهيم عليـه السلام أبونا وأبـوهم وأبو الوحدانية، وقـد رأيناه يُلقى في النار وهو في العـراق، وعندما نجـا منها آثر الـفرار بعقيدته وإيمانـه من تلك الأمة الكافرة، . فاتجـه غربًا إلى الشـام، وبالتـحـديد إلى فلسطين، أرض كنعـان. ولكنه وجد القحط جاثمًا بكل ثقله، فواصل المسيرة إلى مـصـر هو وزوجتـه «سـارة» ويبـدو أن سـمـعـة المصريين في استحلال أعراض النساء واغتصابهن من أزواجهن كانت منتشرة في العراق، المنافس السياسي والعسكري بوادي النيـل، وأنهم كـانوا يقـتلون زوج المرأة ليظفـروا بها، ولاسيمـا إذا كان من الأجـانب. فأمر إبراهيم سارة إذا سئلت عن الرجل الذي معها أن تقول إنه أخوها لا زوجهـا، لينجو من القتل. وكانت سارة ـ على سنها ـ محتفظة بشبابها ونضـارتها. قال الراوي: فـاحـتجـزها فرعون فـي قصـره، وأغـدق على إبراهيم خيرات كـثيرة من الغنم والبقر والحمير والعبيد والجواري. أما فرعون فقـد همّ بمعاشرة سارة، وإذا بالربّ يُنزل به وبمصر (ضربات عظيـمة) فـسّرها علماء اليهود بالوباء. واكـتشف فرعون أن ذلك كله بـسـبب سـارة زوجـة إبراهيم، وليـست أخـتـه كـمـا زعم، وأبدَت هي زعمه. فغضب فـرعون وقال لإبراهيم « ما هذا الذي صنعت بي؟ لماذا لم تخبرني أنها امرأتك؟ لمـاذا قلت هي أختي، حتى أخذتهـاوكدت أن أعـاشـرها كـزوجـة؟ والآن ها هي ذي زوجـتك، فـخـذها، وارحل! وأوصـى فـرعـون عليـه رجـالاً يحـرسونه في خـروجه هو وامرأته وكل ما كـان له» (التوراة ـ سـفـر التكوين 12: 16 - 20). وعـاد إبراهيم أدراجه إلى فلسطين.

ومرة أخرى نلتقي حَفيدَه يعقوب بن إسحق ـ الذي سمـاه الرب «إسرائيل» أي قـوة الله، يتزوج من بلدهم الأصلي ـ العراق ـ ويقيم في بيت حـمـيـه «لابان» ثم ينشب بينهما خـلاف مالي يقرر على أثره يعـقـوب الهجـرة نحـو أرض كنعـان هاربًا من وجـه «لابان» مـصطحبًـا زوجـتيـه الأخـتين «ليا وراحيل» وخادمتيهما «زِلْفَة وبِلْهَـة»، ومن النسوة الأربع أنجب اثني عشر ولداً ـ يوسف والأحد عشر كوكبًا ـ وبنته «دينا» وسـاق مـعـه كل ثروة «لابان» من المـاشـيـة. وحـدثـت مطاردة مثيـرة بين لابان وأبنائه لاسترداد الماشـيـة. ولكنه أفلح في تخـويفـهـم من غـضـب الله الذي أمره بالرحيل. «وأقام يعقوب في أرض غُربة أبيه «أرض كنعان» (التوراة، سفر التكوين 37: 1) وكان اغترابه هذا في شكيم القريبة من نابلس.

ثم نعود مرة أخرى لنجد يعقوب وآله جميعًا في «أرض غُربة» أخـرى،، وهي مصر، بـعد أن نال فيـها ابنه يوسف الحظوة التي نعرفها وأصبح في آن واحد مستشاراً للدولة الفرعونية، ووزيراً لفرعـون لشؤون الزراعـة، والماليـة والتـمـوين، والتجارة الخـارجـيـة، وباختـصـار استجـاب له فرعون عندما قـال «اجعلني على خزائن الأرض!»

وتمرّ مدة من الزمن وبنو إسرائيل في مصر، وفيها يولد موسى عليه السـلام، وكان أخوه هارون قد ولد قبله بثلاث سنين. وكان بنو إسرائيل قـد كثروا جدًا، كمـا كثـر فيـهم الأثرياء... ثم قام ملك جـديد على مـصـر لم يكن يعـرف يوسف. فـقـال لشعبـه: إن إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا. فهيّا نحتَلْ عليهم لئلا يزيدوا، فـيكون إذا وقعت حـرب أنهم ينضمـون إلى أعـدائنا فـيـحـاربوننا ثم يـرحلون عن هذه الأرض» (التوراة ـ سـفر الخروج 1: 8 - 10) ولأن القرآن الكريم لم يـحـدد التـاريـخ الزمني لهـذه الحـوادث، وكذلك الـتوراة، ولم يذكـر اسم الفرعـون الذي قاد هذه (اللاسامية) الموغلة في القـدم، فإننا نشعر أن هذا الفرعون الجـديد قد حكم بعد تحرير مصـر من حكم الهكـسوس الساميين، الذين احتلوا مصـر وحكموها من عام 1750 إلى عام 1580قبل ميلاد المسيح، ويرجح الأثريون أن وفـادة يعـقوب ويوسف وهجـرة بقـيـة بنـي إسرائيل إلى مـصـر تمت في مـدة احـتـلال الساميين هذه التي تشغل الأسرتين الخامسة عـشرة والسادسة عشرة من تاريخ الدولة الفرعونية الوسطى. وأن حـركـة التـحـرير وطرد الهكـسـوس التي قـادها أحـمس الأول من العاصمـة القديمة طيبـة شهـدت فراعنة عظماءَ مثل تحتمس الثالث وأخناتون وغيرهما (دائرة معـارف لاروس الفرنـسية). ومـهـمـا يكـن من شيء فإن هذه اللاسامية المبكرة كـانت لها مسوغاتها الاقتـصادية والسيـاسية والعـسكرية، وأنا لا أدافع عن اللاسامية بل أبين أنها لاتنشـأ عن فراغ كما أكد ذلك المفكر اليهودي الفرنسي برنار لازار في كـتابه الكبير عن «اللاسامية».

وفي حداثة موسى عليه السلام ـ وقبل أن يبعث ـ كان يبدو عليه طابع السـاميين، مما أغرى هذا المصري المعادي للسامية أن يصب جـام عداوته على أحد بقايا السـاميين الباقين في مـصر فلكزه موسـى وقتله ثم لاذ بالفرار إلى أرض مدين حيث خدم النبي شُعيبًا وتروج إحدى بناته.

لكن ألم يكن لليهود وطن خـاص بهم يعيشون فيـه بمنأى عن هذه الكراهيـة من شـعـوب العـالم؟ الواقع أنهم ما كـان لهم وطن ثابت. إذ ظهروا على مسرح التاريخ على شكل عشيرة صغيرة في عصـر كانت البداوة فيـه ـ أو ما بقي منها ـ لهـا أماكن تستوطنهـا وتحميـها، بالسلاح أحـيانًا، أو بسياسـة الأحلاف كـثـيرًا، أو بـالولاء لقوة كـبـيـرة تتـنفـع بوجود البـدو على تخومها، أما العـشائر الصغيرة المستـضعفة فإنها كانت تندمج في مجـمـوعات أكثر عـددًا فيتكون من ذلك (شـعـب)، خـصـوصًـا في المراحل التي انتقل فيها الناس من حياة الصيادين والرعـاة إلى حيـاة القـبائل المسـتـقرة داخل حـدود معينة. والذين فاتتهم تلك الفرصـة عاشوا يصارعون الفناء إمـا بالاندمـاج في غـيـرهـم أو بالانطفـاء العنصري من الوجـود كمـا انطفـأ السومريون في العراق، والميـديون في أعـالي الدجلة والفـرات بين العراق وتركيا وإيران وأرمينيا، وسورية، وكـما ذاب الآراميون وضـاعوا في خضم الإمبراطوريات الفـتية التي ارتـفـع شـأنهـا في الشـرق الأوسط قـديمًا، فـأصبـحـوا فـي النهاية من شـذّاذ الآفـاق، لصوصًا وقطاع طرق، وكتّابًا ومتـرجمين يخدمون الدواوين في الحكومات المجاورة، لدرجة أن التـسمية (آرامي) انقلبـت مع الزمن إلى سبّـة، وأصـبـح الآرامي هو الإنسـان الضـائع الذي لا حـسب له ولا نسب ولا أصل ولا فصل، أصبح شيئًا يشبه مـدلول (الغَجَر) أو (النَّوَر) أو (الجـيـّـان) في أوروبا. ونقف هـنا عند نص في التـوراة المنسـوبة إلى مـوسى، أرجـو أن

«اللاسـاميـة» مـفـهـوم أوربي، وليس عربيًا، لأن العرب أعرق في الانتسـاب إلى سـام بن نوح من اليهود

اليهود والحرب...

يساعدنا على فهم ذلك بوضوح. يقول: «كان أبي (آراميًا) من الرُحّل. فهبط مصر، وتغرّب فيها، في نَفَر قليل من الناس. فأساء إلينا المصريون، وقسَوا علينا، وأرغمونا على عبودية صعبة، فلما صرخنا إلى الرب، إله آبائنا، سمع الربّ صوتنا، ورأى مشقتنا وتعبنا وضعفنا. فأخرجنا الربّ من مصر بيد قوية، وذراع ممدودة، ومخاوف عظيمة، وآيات معجزات، وأدخلنا هذا المكان، وأعطانا هذه الأرض، أرضًا تفيض لبنًا وعسلاً» (سفر التثنية 26: 5-9). واستغرقت رحلتهم هذه - مع موسى وهارون - أربعين سنة، هي أعوام (التيه) ولم يكن الطريق مجهولاً لهم بل كانت - في الغالب - تعترضهم قبائل وعشائر من الكنعانيين والمدينين والمؤابين والعمالقة، فتقطع عليهم الطريق، فلا يستطيعون العبور. فيخيّمون في انتظار فرج الله، وكثيرًا ما كانوا يشتاقون إلى العودة إلى مصر والوقوع من جديد تحت نير العبودية، بل لقد حنّوا إلى عبادة الأصنام، فانتهزوا فرصة اعتكاف موسى أربعين ليلة لتلقي الشريعة من ربه، فصنعوا لهم عجلاً من ذهب مما أغضب موسى فرمى بألواح الشريعة أرضًا فتحطمت! ومات موسى وهارون قبل أن يدخلوا أرض الميعاد. وكان عليهم أن يستعدوا مباشرة للحرب، بعد الوقائع التي واجهوها في الطريق لأن عندهم أمرًا إلهيًا بإبادة كل سكان فلسطين كما يقولون، وهم (الشعوب السبعة التي يرث أبناء إسرائيل أرضهم بتفويض إلهي رآه إبراهيم في المنام، وأوصى به الرب موسى)، ووقعت المهمة على عاتق خليفته وقائد الجماعة يوشع بن نون الذي وقف فيهم خطيبًا على الضفة الشرقية من نهر الأردن (مقابل أريحا) وقال: «تقدموا إلى هنا واسمعوا كلام الربّ إلهكم! ثم قال يوشع: بهذا تعلمون أن الله الحيّ في وسطكم، وسيطرد من وجهكم طردًا الكنعانيين والحيثيين والحوّيين والفرزّيين والجرجاشيين والأموريين واليبوسيين.. إن تابوت عهد سيد كل الأرض عابرٌ أمامكم في الأردن، فانتخبوا الآن اثني عشر رجلاً من أسباط إسرائيل، رجلاً واحدًا من كل سبط، فإذا ما استقرت بطون أقدام الكهنة حاملي تابوت الربّ سيّد الأرض كلها في مياه الأردن انشقت مياه الأردن المنحدرة من أعلى ووقفت مرة واحدة!» (سفر يوشع 9:4 - 14). وهكذا عبر موسى البحر ويوشع النهر مع شعب الله المختار.. الباحث دائمًا عن المعجزات، ناسيًا أن كل ما في الكون، في كل لحظة، معجزة لو كانوا يفقهون. وأمام أريحا احتاج الأمر إلى معجزات أخرى حتى يتمكنوا من دخول هذا البلد، أول بلد احتله بنو إسرائيل في فلسطين، وأول بلد جَلَتْ عنه الصهيونية المعاصرة، والمعجزات ليست وقفًا على بني إسرائيل وحدهم. بل إن يوشع بن نون وجد من المناسب أن يتسلل نفر من رجاله للقيام بالتجسس، واتصلوا ببيت يدار للدعارة في أريحا وسخرّوا لخدمتهم الزانية التي تمارس «المهنة» على أطراف أريحا، وفي شريعة الحرب كل شيء مباح!.

والآن أراني أتقدم حثيثًا نحو ختام الحديث، وأتبين أن هذا الكلام الطويل لم يكن إلا مقدمة لفكرة الحرب عند اليهود، وهي فكرة واكبت تاريخهم من أقدم العصور إلى الآن، لأنهم كانوا دائمًا وأبدًا يحلمون بالسيطرة على البشر جميعًا، حتى جعلوا من يعقوب بن إسحق بطل الأبطال وأقوى الأقوياء، مع كون التوراة نفسها تقدمه في أول أمره فتى ضعيفًا نحيفًا أجرد أمرد يخاف من أخيه التوأم عيسو الذي كان قويًا هائل المنظر بكثافة شعره وضخامة عضلاته، ولكن هذا الضعيف يصبح معجزة وأسطورة عند ذريته. قال الراوي: وقام في تلك الليلة، فأخذ امرأتيه (ليا وراحيل) وجاريتيه (بلهة وزلفة) وأبناءه الأحد عشر، فعبر مخاضة يَبّوق، أخذهم وأجازهم الوادي، وأجاز ما كان معه، وبقي يعقوب وحده. فصارعه شخص حتى مطلع الفجر. ورأى أنه لايقدر عليه! فلمس مفصل وركه، فانخلع مفصل يعقوب في مصارعته له. وقال: أطلقني! لأنه قد طلع الفجر! فقال: لا أُطلقك أو تباركني. فقال له: ما اسمك؟ قال: يعقوب! قال: لن يكون اسمك يعقوب فيما بعد، بل «إسرائيل» لأنك إذ قويت مع الله فعلى الناس أيضًا تنتصر !! فسأله يعقوب وقال: عرّفني اسمكَ؟ فقال: لِمَ تسأل عن اسمي؟ وباركه هناك. وسمّى يعقوب هذا المكان «فنو إيل» وقال:إنني قد رأيت الله، وجهًا لوجه، ونجتْ نفسي! وأشرقت له الشمس عند عبوره «فنو إيل» وهو يعرج بوركه. ولذلك لا يأكل بنو إسرائيل عِرْق النَسَا الذي مع مفصل الورك إلى هذا اليوم، لأن مفصل ورك يعقوب الذي على عرق النسا هو الذي حصل له اللمس (سفر التكوين 32- 22-32) وواضح قوله إلى هذا اليوم أن القصة متأخرة جدًا من عصر يعقوب، بل عن عصور الفقه اليهودي المعاصر لموسى، والأنبياء اليهود الذين أتوا بعده. واليهود أنفسهم يقرؤون هذه الطرائف - وقد يتعبدون بها - لكنهم يقبلونها على علاّتها ويرون فيها إشادة بقوة الأمة كلها، وجلدها على الصراع والقتال.

كان لدولة اليهود القديمة لغتان، أولاهما اليهودية الدينية، والثانية «الآرامية»، وكانت لغة المثقفين في الشرق الأوسط

وهكذا نجد إسرائيل يحمل هذا الاسم بدلاً من يعقوب، ويحمله قومه من بعده إلى «إسرائيل» المعاصرة لنا، تذكيرًا بأن الوعد الإلهي جعل من هؤلاء الناس «أمة لاتُقهر». وأمام هذا التحدّي كانت «اللاسامية» من جانب أعداء بني إسرائيل نداء بكذبهم في هذه الأسطورة. وكيف يهزم يعقوب الله سبحانه وتعالى في مباراة مصارعة بالليل، ولو كان هذا صحيحًا لكان المكان المسمى «فنو إيل» أولى بالقبلة والهيكل المركزي لليهود من أورشليم (القدس)! والمسافة في الفكر اليهودي قصيرة جدًا بين الخرافة.. والمعجزة. لكن كان على العالم أن يتجرّع مرارة هذا الصلف والغرور والكبرياء من جانب اليهود لآلاف السنين، وكان على اليهود أن يحافظوا على هذه المنزلة الرفيعة! أن ينغمسوا في حروب لاتعنيهم، وفي خيانات وجرائم لم يأمر بها يعقوب ولا موسى بل نُحلتْ وصدّقتها عوامّ اليهود فذاقوا بسببها أهوال المذابح والهزائم وآلام الهجرة والشتات، وتضييع كل شيء بين عشية وضحاها. ولأنهم كانوا المخترعين الأول للعصبية العنصرية والدينية، فقد كان جزاؤهم من جنس عملهم.

مفهوم الانتماء والالتزام في التصور الإسلامي

محمد المنتصر الريسوني

ترمي هذه الدراسة إلى بحث مفهوم الانتماء والالتزام في التصور الإسلامي المتمثل في الكتاب الكريم والسنة المطهرة أولاً، وبحثه أيضًا في الفكر الاشتراكي والوجودي، لكون الفكر الاشتراكي احتضن أكثر من غيره مفهوم الالتزام، وعمل على توضيح معالمه وخاصة في الأدب والفن، فكان مايسمى بالواقعية الاشتراكية في الفن، ولكون هذا الفكر كان يستهوي بعض العقول لما يتضمنه من شعارات براقة ومقولات جذابة، لكن هذا الاستهواء اليوم أخذ يتقلص بصورة واضحة، بالإضافة إلى أن هذا الفكر كان مذهبًا سياسيًا تبنتْه دول وعملت على فرضه بالحديد والنار، وحاولت أن تُصدِّره بشتى الطرق إلى الآفاق، لذلك راح يوجّه الآداب والفنون فانتقلت آثاره إلى أقلام من يحمل بطاقة انتساب للإسلام، مما أفضى بها إلى توظيف الرؤية الاشتراكية في الأدب والفن تعلقًا بالجديد وإعجاباً بلذته الزائلة، ولو كان يحمل في خلاياه بذور الشر.

ولكون الفكر الوجودي هو الآخر له من يتغنى به ويذود عنه، ويرى أنه المذهب الفكري الحق الذي يجب على البشرية أن تجعله منارتها تمشي في ضوئها، ولكون هذا الفكر أيضًا أحد الإفرازات الفكرية التي تمخضت عن تفاعلات الفكر الغربي الجاهلي.

وكل ماقدمناه جعل الدراسة تبحث المفاهيم الثلاثة وتضع بداهة موازنة بينها فتخلص منها إلى المفهوم الحق للانتماء والالتزام، وأن هذا المفهوم الحق احتضنه الإسلام ليس غير، وذاك بَدهي، فالإسلام آخر وحي الله سبحانه للبشر، فهو لذلك منهج معجز يلبي شوق الإنسان الروحي والمادي في كل وقت وفي كل مكان.

مفهوم الانتماء والالتزام في الفكر الاشتراكيّ والوجوديّ

أ ـ في الفكر الاشتراكيّ:

لقد كان للمذاهب الفكرية والاتجاهات الفنية والمدارس الأدبية والأجواء الحضارية التي تنفست فيها فتكيفت بألوانها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الأثر الكبير في توجيه الأدب، والإسهام في إبراز مفهوم الانتماء والالتزام، وآية ذلك أن الواقعية أدبًا وفنًا كان لها حظ كبير في أواخر القرن التاسع عشر المسيحي في الدعوة إلى الانتماء ـ أي تمثل الواقع والاقتناع بالانتساب إليه لكونه جزءاً من الإنسان ـ وفي الدعوة إلى الالتزام بموقف معين منه في الأعمال الأدبية، وقد ارتكزت الواقعية على واقع الإنسان في إطاره الاجتماعي والفكري والحضاري، مما جعل مفهوم الالتزام ينمو ويزدهر رد فعل للرومانسية كما كانت الرومانسية رد فعل للكلاسيكية(1).

وننبه هنا ـ ونحن بصدد تعرف مفهوم الانتماء والالتزام في الفكر الاشتراكي ـ، على أننا سوف لانفرق بين الاشتراكية والشيوعية في تصورهما

للانتماء والالتزام، ذلك أن الاشتراكية والشيوعية يمثلان مرحلتين للمذهب الماركسي. وبرهان هذا أن الاشتراكية مرحلة لإقرار النظام الشيوعي، أي إن الاشتراكية كانت تضطلع بأعمال مهمة - في نظر الماركسيين - لتحقيق أكبر أمنية وأحلى حلم، وهو محو الطبقية وتولّي البروليتاريا الإدارة السياسية وتأميم مصادر الثروة، ومن ثم تظهر الشيوعية في صورتها الواضحة فتلغي الحكومة نهائيًا وتلغي الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج(2)، ويعيش لذلك الناس في جنة النعيم قبل البعث والنشور والحساب والعقاب، ولسنا الآن بصدد نقد هذا الخيال الماركسي، ولكن مانقوله هنا أن ما كان يُدعَى بالدول الشيوعية إن هو إلا تجاوز في التعبير ليس غير، إذ إن هذه الأحلام الشيوعية لم تتحقق لكونها تتنافى وسنن الكون الربانية التي صاغ الله تعالى عليها هذا الكون العظيم.

فما الانتماء والالتزام في الفكر الاشتراكي؟

إن الفكر الاشتراكي لايمدنا بتعريف واضح عن الانتماء على حدة، بوصفه مرحلة ممهدة للالتزام لموقف فكري معين، إنما الذي يمدنا هو تصوره الخاص للالتزام.

يُعَرَّفُ الالتزامُ في الواقعية الاشتراكية بأنه مشاركة الشاعر - بفكره وشعوره - قضايا قومه الوطنية والإنسانية، وما يعانون من آلام ومايتطلعون إليه من آمال(3). وهذا التعريف لايخرج عما قاله معجم لاروس Larousseبأن الالتزام هو المشاركة في القضايا السياسية والاجتماعية، وأن الملتزم هو الذي يتخذ موقفًا في النزاعات السياسية والاجتماعية معبراً عن إيديولوجية طبقة ما أو حزب أو نزعة (الأدب الملتزم - الكتاب الملتزم - الفكر الملتزم)(4).

وحين نستفتي حقيقة الالتزام في الفكر الاشتراكي أو الشيوعي من حيث واقعها الحياتي نجدها تعني الانتساب إلى هذا الفكر والتزام مبادئه ولو عن طريق القوة، وهو، لذلك، لايعني الالتزام وإنما يعني الإلزام، وليس أدل على ذلك من اضطهاد كبار كتاب السوفييت لأنهم عَبَّروا عن أفكارهم بحرية، من هؤلاء باسترناك كاتب رواية «الدكتور جيفاكو»(5) فالأدب الشيوعي يعيش في جو من الإرهاب السياسي والقمع البوليسي.

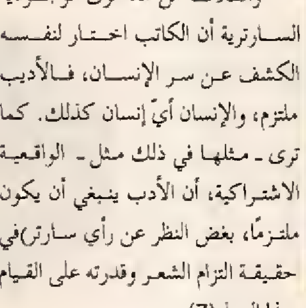
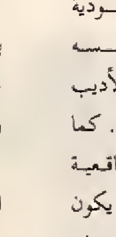
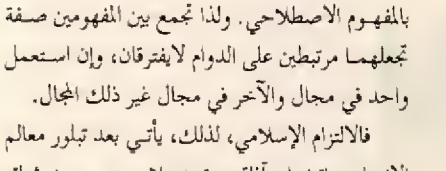
ووصاية البيروقراطية تهيمن على كل مرافق الحياة الفكرية، مما يحفز هذا الأدب إلى ترويج المفاهيم الشيوعية من دون اقتناع بها، لأن اضطهاد الفكر إحدى الوسائل الشيوعية لإنشاء جيل من المفكرين يدورون في فلك الاسترقاق الفكري الذي يسميه دعاة الإرهاب الواقعية الاشتراكية، ويجبرون الأدباء على تدعيم البنيان الاشتراكيّ، وهم في قرارة أنفسهم لاينتمون إلى هذا الفكر ولايريدون أن ينتسبوا إليه بأي صورة من الصور.

هكذا نجد الانتماء والالتزام في الفكر الاشتراكي أو الشيوعي يتنفسان في مناخ رهيب كل مافيه يعيش على القرف، ويدفع إلى الغَثَيان، ويؤكد انفصام مفهوم الانتماء والالتزام عن الواقع التطبيقي، مما يجعل الإنسان ينظر إلى التعريف السابق نظرة الارتياب والتشكك، فإن رأينا الفن السوفييتي يعبر عن الواقع السوفييتي فإنما هو في الحق، يعبر عن واقع غير حقيقي مادام كل شيء هناك يعيش في جو مسدود وخانق، برغم مايزعمه م. ب. بسكين - مستشهداً بكلام فاسلوف - من أن موضوع الفن السوفييتي هو الواقع السوفييتي في تنوعه الجمالي(6).

ب - الانتماء والالتزام في الفكر الوجودي:

للوجودية جذور قديمة وقديمة جدًا ترجع إلى عهد سقراط، غير أن الوجودية الحقيقية لم تظهر في صورة قائمة الذات إلا مع كيركجارد (1813-1855م) في القرن التاسع عشر الميلادي، ثم راحت تأخذ صورتها الكاملة على يد نيتشه (1844-1900م) وكامو (1913- 1968م)، ولكنها اتخذت في فلسفة جان بول سارتر (1905-1980م) مكانة خاصة، إذ برزت في صيغتها الأدبية في مؤلفاته وفي مؤلفات غيره، ومن خلال هذه الفلسفة راح (سارتر) يقدم لنا نظريته في الالتزام في كتابه «الأدب الملتزم».

وتتمثل فلسفة (سارتر) في أن الإنسان مصدر الوجود، فهو الذي يعطي الأشياء معانيها، فلاقيمة لأيّ شيء غير الذات الإنسانية، لذلك يعد حراً يصنع وجوده.

د. عماد الدين خليل

وانطلاقًا من هذا ترى الوجودية السارترية أن الكاتب اختار لنفسه الكشف عن سر الإنسان، فالأديب ملتزم، والإنسان أيّ إنسان كذلك. كما ترى - مثلها في ذلك مثل - الواقعية الاشتراكية، أن الأدب ينبغي أن يكون ملتزمًا، بغض النظر عن رأي سارتر في حقيقة التزام الشعر وقدرته على القيام بهذا العمل(7).

فما مفهوم الانتماء والالتزام في الفكر الوجودي؟

يتمثل الالتزام - والانتماء مرحلة ممهدة له كما سبق - في الفكر الوجودي في أنه مشاركة الكاتب في الحياة لتغيير مايراه معيبًا؛ فهو لذلك مسؤول عن كل شيء، فلافرق بين هذا التعريف والتعريف السابق إلا فيما يختلف فيه الفكران من حيث فلسفة كل واحد منها.

مفهوم الانتماء والالتزام في التصور الإسلامي

حين نقول الانتماء والالتزام فإننا نعني - بعيداً عن كل التعقيدات الفلسفية - أن الانتماء موقف فكري يتخذه الإنسان مع نفسه قبل أن يمتد به إلى مرحلة التطبيق التي هي مرحلة الالتزام، ذلك أن المنتمي المسلم إنسان ذو تصور نظري واضح عن فكرته التي يؤمن بها كل الإيمان بمحض إرادته ومن دون إرهاب، تلك الفكرة الشمولية التي تتلخص في أن إسلامه: عقيدة وشريعة ومنهج حياة، فريد في نمطه، متميز في حقائقه، يلبي أشواق الروح في الإنسان وتطلعاته المادية، الأمر الذي يجعله حاملاً لرسالة سامية ومسؤولية عظيمة إزاء نفسه وإزاء أمته الإسلامية، وإزاء كل مايحفل به هذا الكون من حركة مستمرة، تفرض عليه أن يستثمر الحياة في جميع مرافقها، ويعمل في جميع أوجه النشاط الإنساني تبعًا لشمولية التصوير الرباني للإنسان والكون والحياة. لأجل هذه المزايا كلها يجد المنتمي المسلم نفسه منجذبًا إلى الاقتناع الجازم بأن فكرته التي يؤمن بها تحفزه إلى تطبيقها في واقع الناس، وفي واقع الحيوان، وفي واقع النبات، وفي واقع الجماد، لهذا كان للانتماء بهذا المفهوم علاقة بالانتماء في المفهوم اللغوي الذي هو الانتساب إلى الأدب، إذ المنتمي مرتبط بفكرته ارتباط الابن بأبيه.

ومعروف أن المفهوم اللغوي دائمًا له علاقة بالمفهوم الاصطلاحي. ولذا تجمع بين المفهومين صفة تجعلهما مرتبطين على الدوام لايفترقان، وإن استعمل واحد في مجال والآخر في مجال غير ذلك المجال.

فالالتزام الإسلامي، لذلك، يأتي بعد تبلور معالم الانتماء، واتضاح آفاقه، وتبين ملامحه، وبروز شياته في نفس المنتمي المسلم.

أ- في القرآن الكريم :

يتضح من هذا أن العلاقة، إذاً، بين الانتماء

والالتزام علاقة التحام تام دائمًا لاتقبل الانفصام، إذ إن أحدهما ـ وأقصد الالتزام ـ إذا انفصم عن الآخر فقد مارمي إليه عملية الالتحام بين الطرفين من استشراف آفاق وضيئة، وآية ذلك أن أي انفصام بين الانتماء والالتزام سيحدث خللاً بينًا في حركة الالتحام الحميم، وتنتفي، لذلك، مرامي الانتماء والالتزام في التحامهما البناء، وامتزاجهما الصادق ويتولى شرح هذه القضية بوضوح تام ـ لانجده مشروحًا بهذا الشكل في الفكر الاشتراكي أو الوجودي ـ كتابُ الله تعالى حين يقول عن الشعراء: *وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالاَيَفْعَلُونَ، إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَاظُلِمُوا، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ* **الشعراء**: 224-227.

فالقرآن الكريم في هذه الآيات يرسم المناخ، الذي يحياه من ليس له انتماء والتزام من أصحاب الكلمة المجنحة؛ سواء الشاعر أو القصاص أو المسرحي أو كاتب الخاطرة الفنية أو المذكرات الأدبية، ومـاالشاعر في النص القرآني إلا أنموذج لصاحب الريشة الفنية.

ونلحظ أن هذا المناخ الذي يحدثنا عنه القرآن الكريم مناخ معتم موبوء مجذوم، لأن المفَن(8) غير الصادق لايتورع عن الضرب في التّيه والإدلاج في العبث، والإمعان في الشذوذ كما هو المنتمي عند كولن ولسن سواء في كتابه «اللامنتمي» أو في كتابه «مابعد اللامنتمي»، لأجل ذلك عبر القرآن الكريم بقوله المعجز *أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ. وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالاَيَفْعَلُونَ*.

وهذا هو الحق في صورته الصادقة؛ لأن الشاعر المداح، أو غير المداح من الشعراء المزورين يختلق الكذب ويزور الحقائق، ويمعن في تزييف الواقع لدرجة تحمل على السآمة والتضجر، والشاعر الغزل يهتك الأستار، ويمزق الوقار ويجرح السمعة. والقصّاص، بفعل هذا أو ذاك فلايتورع عن الإسهام في تزكية الباطل بكل أنواعه، ويدعو إلى الانسلاخ عن جميع المواضعات الأخلاقية، والترويج لأفكار فاسدة مخربة ومفاهيم ملحدة كما هو ديدن بعض الشعراء والقصاصين في العالم العربي الذين انسلخوا عن عقيدتهم فراحوا يدسون لشرع الله الدسائس، بدافع من أيديولوجيتهم الماركسية الحاقدة في كتاباتهم الأدبية، غير مبالين بمشاعر شعوبهم الصغيرة وأمتهم الإسلامية الكبيرة.

ولم يطلق القرآن الكريم حكمه بصفة عامة، إذ استثنى من الحكم أصحاب الكلمة المجنحة الذين ارتبطوا بهذا الدين بالانتماء والالتزام، ودانوا له بالولاء، ولم يدينوا لغيره، فاستقاموا على الطريق السويّ يجاهدون في سبيل الله، كحسان بن ثابت الأنصاري، وكعب بن مالك، وعبدالله بن رواحة، من شعراء الدعوة الإسلامية؛ ممن سماهم القرآن الكريم: الصالحين، وهذه الصفة الكريمة الطيبة تشمل كل شعراء المسلمين (والمفنين) المؤمنين عبر الزمن ولاتقتصر على هؤلاء فقط، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يقول الأصوليون.

وحين نتأمل النص القرآني السالف نجده يحتوي التنصيص على الانتماء والالتزام معًا، فقوله تعالى: *إلا الَّذِينَ آمَنُوا* تصريح بموقف فكري اتخذه شعراء الدعوة، وهو انتماؤهم إلى الإسلام حين أعلنوا ارتباطهم بالإيمان وانخراطهم في زمرة المؤمنين بعد

المفَن غير الصادق لا يتورع عن الضَرب في التيه والإدلاج في العبث والإمعان في الشذوذ

اقتناع. وقوله تعالى: *وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ* تصريح بالتزامهم الموقف الفكري الذي أملاه عليهم انتماؤهم لهذا الدين مما جعلهم أسوياء يقومون بالعمل الصالح في شتى مجالات الحياة.

وقد يظن بعضهم أن الإسلام بهذه الآيات يحارب الشعراء أو يحارب الفن على العموم، وفي الحق أن مثل هذا الظن لامحل له من الإعراب ـ على حد تعبير النحاة ـ لأن الإسلام لايحارب الشعر أو الفن، ولو كان يحاربه مااتخذ الشعر أداة فعالة لنشر الدعوة الإسلامية، وسلاحًا لرد كل اعتداء عليها، ألم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يشجع حسان بن ثابت الأنصاري على مواجهة الجاهلية المتسلطة بعنجهيتها، المتنفشة بتصوراتها الفاسدة، واتخذه شاعره فكان يقول

جان - بول سارتر

له «أجب عني، اللهم أيده بروح القدس»(9)، وكان يقول مشجعًا على التصدي لكبرياء الكفر، وغواية الضلال قائلاً: «اهجوا بالشعر إن المؤمن يجاهد بنفسه وماله، والذي نفس محمد بيده، كأنما تنضحوهم بالنبل»(10).

إن الشعر أو الفن الحق عمومًا في تصور الإسلام ـ وأستثني بالطبع النحت(11) ـ له مكانته المرموقة وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به أبي بن كعب «إن من الشعر لحكمة»(12).

والقرآن الكريم ـ وهو المعجزة الكبرى الخالدة ـ شاهد حق على مكانة البلاغة في الإسلام، لأنه نفسه معجزة بلفظه ومعناه، يعد قمة القمم من دون شك، وفي الإعجاز البياني تحدّى الإنس والجن، فما استطاع الإنس والجن معارضته، فتكسرت كل القدرات على صخرته، وتهيبت كل الملكات مطاولته فارتدت إلى نفسها تجتر الخيبة، وتلعق الخسران، فإذا كان القرآن الكريم قمة القمم في الإعجاز البياني، فكيف يحارب الإسلام الشعر أو الفن على العموم؟

بجانب ذلك فإن القرآن الكريم احتفل أيما احتفال بالمشهد الجمالي في الكون فحفز الإنسان إلى التملي بما يتضمنه الوجود من مشاهد الجمال الفاتن الآسر، وقد اضطلعت كثير من الآيات القرآنية بلفت الإنسان إلى هذه الناحية الجمالية في الكون(13)، من ذلك قوله تعالى: *إِنَّا جَعَلْنَا مَاعَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً* **الكهف** : 7.

إن الإسلام لايحارب الفن، وإنما يحارب المنهج الذي ينهجه، منهج العبث والكذب والتزوير والتيه والدعارة، وكل ماينافي قيم الحق وخصائص التوحيد التي ترتكز عليها عقيدته، لأجل هذا البهتان الذي يسلكه الفن غير الملتزم صوَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم الشعر الكاذب بأنه أضر من القيح، وفضّل أن يمتلىء جوف الإنسان به من أن يمتلىء بهذا البهتان، لأن مضاعفات البهتان تتسبب فيما لايمكن أن يتسبب به القيح، إذ القيح يقتصر ضرره على الفرد، والشعر الكاذب يتعدى ضرره إلى المجتمع، فيسهم في هدم كيانه، وتخريب بنيانه، فاستمع إلى هذا في قوله صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه أبو هريرة «لأن يمتلىء جوف رجل قيحًا يريه خير من أن يمتلىء شعرًا»(14).

ولايقتصر حديث القرآن الكريم عن الانتماء والالتزام فيما يتعلق بالشاعر أو قُلْ فيما يتعلق بصاحب الكلمة المجنحة؛ إنما يمتد حديثه عن ذلك إلى كل

المؤمنين وذلك حين يقول تعالى: *يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَالاتَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاتَفْعَلُونَ* **الصف**: 2 ، 3. وحين يقول عن المنافقين *يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَالَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ*.**آل عمران** : 167. وحين يقول عن الأعراب الذين تخلفوا عن مناصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم *سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَالَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ*. **الفتح**:11.

لاريب أننا نلحظ بوضوح تام في هذه الآيات الكريمات أنّ القرآن الكريم يشدد النكير على من لايستقيم على الطريق، ولايلتزم ما تعهد أن ينتمي إليه من مبادىء، ويرتبط بها ارتباطًا وثيقًا على نحو مايجب أن تكون عليه شخصية المسلم من تميز بالصدق والاستقامة، وتفرّد عمقها بالخير، كما يتفرد ظاهرها بالخير، مما يحقق معه الالتحام بين الانتماء والالتزام التحامًا فريدًا، لأن أيّ انفصام يطرأ على هذه الصورة سيحدث تصدّعًا في الشخصية المسلمة، ذلك أن الانتماء في تصور الإسلام وحده لايكفي إذا لم يصحبه الالتزام، فماذا تُجدي النظرية دون التطبيق؟ إن النظرية في الحقيقة إذا لم تر النور، وتكسر طريق العزلة لتتحرك في الواقع فلا فائدة فيها، ومنهج الإسلام في جوهره حَرَكي لايقبل أبدًا العيش في ظل السكون المطبق، ويرفض أن تُضرب عليه الأسوار، وتُبنى في وجهه السدود، أو أن يحنّط ليوضع في مُتحف، إنه منهج بتكوينه الرباني حيوي لايرضى بالوصاية، ويثور على عملية التبعيض أو الترقيع، ونقصد بذلك محاولة بعضهم، ممن يجهلون سر هذا الدين العظيم أو يتغافلون عنه لمرض في نفوسهم، أن يجعل منه صديقًا مقربًا في مجال، وعدوًا لدودًا في مجال آخر، أو أن يسعى إلى أن يوفق بينه وبين غيره من المناهج الأرضية في كثير من المواقف، لعله بذلك يقرب الشقة بين منهج الله تعالى المعجز الفذ، ومناهج البشر القاصرة التي أملتها الأهواء الإنسانية المتعددة على واضعيها، وماشت من هذه الترقيعات التي يتغنّى بها مُستَلَبون، جاهلين أو متجاهلين أن هذا الأمل يستحيل تحقيقه، لأن الضدين لايجتمعان ـ كما هو مقرر في علم المنطق ـ فالنور نور والظلمة ظلمة، ولايمكن أن يجتمع نور وظلمة.

ولقد صدق الله تعالى في قوله، وقوله الحق: *إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامِ*. آل **عمران**:19فليس هناك، إذاً، دين وسط بين الإسلام والكفر، فإما إسلام، وإما جاهلية، *فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ*. **الكهف**:29.

إن دعوة القرآن الكريم إلى تحقيق الالتحام بين الانتماء والالتزام دعوة في الحقيقة إلى بناء خلقي فريد عجيب يجب أن ترسو عليه ضمائر المؤمنين، ذلك البناء الذي يوحّد بين الجماعة المسلمة، ويكوّن منها خلية إسلامية ذات أنسجة واحدة يتدفق في تلافيفها دم واحد نقي، تشكل حقيقة الانتماء وحقيقة الالتزام في صورة فذة غير مسبوقة، كتلك الصورة التي كان عليها المجتمع الإسلامي الأول في المدينة المنورة الذي قال تعالى فيه منوهًا مادحًا مشيدًا: *كُنْتُم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَت لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ* **آل عمران**:110.

إن هذه الأمة ماظفرت بمدح الله تعالى ـ وهو أعظم مدح بالطبع ـ إلا لأن الانتماء والالتزام تحققا في واقعها الحياتي، فصاغاها صياغة لم يُسْبَقْ لها نظير ولن يأتي بعدها نظير، حتى إنها نالت رضى الله تعالى وتلك هي علامة الفلاح الكبرى في الدنيا والآخرة.

العلاقة بين الانتماء والالتزام في المفهوم الإسلامي علاقة التحام تام دائمًا لا تقبل الانفصام

ولو أننا استعرضنا ماصوره القرآن الكريم من معالم للنفس الإنسانية في إشراقة نقاوتها، أو في غواية انحرافها، وفي جمال استوائها أو في قبح شرودها لتألف لدينا من ذلك دراسة قائمة الذات، ويكفي أن نشير إلى ماسلطه من أضواء على مواقف المنافقين المخزية التي فضحتهم ومزقت أقنعتهم. من ذلك قوله تعالى: *وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ*. **النساء**: 81 ومن ذلك مارسمه عن النفس اليهودية الخبيثة المتغطرسة حين قال: *أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُم وَأَنْتُم تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ*. **البقرة**:44.

وكل هذه المشاهد التي يرسمها القرآن الكريم للنفس الإنسانية في توقحها وخبثها تقدم العبرة للمؤمنين، وتحرك في أعماقهم مشاعر الخير وتربيهم تربية عجيبة على نمط فريد ـ كما ربّي الجيل الأول ـ تنعكس على مراياها الصقيلة حقائق الانتماء في صورتها المثلى، وآفاق الالتزام في مظهرها المثالي.

فمهما يكن من حال فإن القرآن الكريم يقدم عبر آياته المضيئات الصورة الحية للانتماء والالتزام في تلاحمهما، وامتزاجهما امتزاجًا لايقبل أبدًا أيّ نوع من أنواع الانفصام، أو أي صنف من أصناف التقاطع، أو أي شكل من أشكال التباغض، فمرة يتحفنا بذلك من خلال مايعرضه لنا من مواقف المؤمنين، وعلى رأسهم رُسُل الله تعالى، ومرة يتحفنا بذلك من خلال مايعرضه لنا من مواقف الكافرين من دعوة الرسل في كل زمن وكل أرض تصوّر سقوط الإنسان في حَمأة الشيطان، الشيء الذي يكشف عن انتماء والتزام آخَرَين ندعوهما الانتماء والالتزام الجاهليَّيْن، لأن أصحابهما يؤلفون بالتفافهم حول الباطل الصف الجاهلي، وذلك بالطبع، يبرز في الجانب الآخر الصف الإسلامي الممثل للانتماء والالتزام الإسلاميين، إذ بضدها تتبين الأشياء.

ب ـ في السنة المطهرة:

تتولى السنة المطهرة أيضًا الاضطلاع بالدعوة إلى تحقيق التفاعل بين الانتماء والالتزام بوصفها المصدر الثاني للشريعة، تُفصّل المجمل وتخصص، وتشرح مايحتاج إلى شرح، وتبين مايفتقر إلى بيان ليفهم من هو محدود الفهم الأهدافَ والمراميَ، ويزاد من هو نيّر الفهم فهمًا للمقاصد والغايات، فعن سفيان بن عبدالله الثقفي قال: قلت: يارسول الله قل لي في الإسلام قولاً لاأسأل عنه أحداً بعدك ـ وفي حديث أبي أسامة غيرك ـ قال: قل: آمنت بالله ثم استقم»(15)، وعن أبي سعيد قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطيع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»(16)، وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «آيةُ المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان»(17)، وقال صلى الله عليه وسلم: «أنا أعلمكم بالله، وإن المعرفة فعل القلب لقوله تعالى: *وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُم*. **البقرة**:225.



محمد قطب

حين نمعن النظر في هذه النصوص نُلفي أنها تتولى تفسير قضية الانتماء والالتزام تفسيراً واضحًا جداً، ذلك أنها تحتوي الدعوة إلى تحقيق التلاحم بين حقيقتي الانتماء والالتزام والتنافر بينهما مما يؤكد أن فصم أحدهما عن الآخر ـ والمقصود فصم الالتزام عن الانتماء ـ يعد إخلالاً بالإخلاص للمبادىء، ويصنف من يرتكب ذلك في طبقة الخائنين أو المنافقين، لأنه يظهر غير ما يبطن، وهو من دون شك أخطر من الكافر، لأن الكافر ـ عندي ـ يعمل في ضوء الشمس فأي دس منه يمكن أن ينفضح، على حين أن المنافق يعمل في جنح الليل، وعتامة الظلمة فلا نأمن دسّه وخبثه فيدفعك إلى أن تتوقى شره، وتحذره برصد حركاته قبل أن يدبر مايدبر من مكائد، وعلامة المنافق ـ كما قرر ذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أنه إذا حدث كذب فلايظهر حقيقته، وإذا وعد أخلف، فمواعيدهُ مواعيد عرقوب، وإذا ائتمنه أحد خان الأمانة ونكث العهد، فهذه الأعمال المقيتة كلها تضرب سداً منيعًا بين الانتماء والالتزام فتكشف المنافق على حقيقته.

والحق أن المنطقة التي تجري في حلبتها عملية التفاعل بين حقائق الانتماء والالتزام هي القلب، ذلك أن القلب مُسْتَقر الإشعاع الإيماني، أو مُسْتَقر ظلمة الضلال حين تسود جنباته بسبب انصياع الإنسان لوساوسه التي يزرعها فيه الشيطان بشتى طرائقه وأساليبه، ويبين ذلك قوله تعالى: *وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا*. **الشمس**:7، 10، ويبّنه كذلك قوله تعالى: *وَلَكِن يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُم*. **البقرة**:225.

مما سبق بيانه نستنتج أن الانتماء يعني الانتساب إلى جماعة المسلمين، وأن الالتزام تطبيق لما تؤمن به تلك الجماعة، الأمر الذي يمتّن الأواصر داخل كيان هذه الجماعة ويجعلها متماسكة البنيان مرصوصة الصف، لايحس فيها الفرد بالغربة، إذ تسكن وجدانهم جميعًا مبادىء واحدة، وتظهر آثارها على السلوك العملي، والممارسات اليومية في صورة جميلة محببة مشرقة تحفز من ليس له انتماء لهذا الدين والتزام لمبادئه إلى أن ينجذب إليه انجذابًا حين يشهد التطبيق العملي للمنهج الإلهي، ويلحظ تحركه في الواقع الملموس بطريقة تبعث على الدهشة والإعجاب، كما تحقق ذلك في صورة فذة عند الجيل الأول من المسلمين، ومن أتى بعدهم من المؤمنين، وذلك من العوامل المهمة التي دفعت الفتوحات الإسلامية إلى الأمام تشرق بنورها في كل ربع من ربوع العالم، وتزرع فيه الخير والسلامة والاطمئنان، لأن الناس عاينوا الصدق التام في التوفيق بين النظرية والتطبيق، وبعبارة أخرى: عاينوا الإخلاص في التوفيق بين الانتماء والالتزام، ورأوا من ذلك مايعد فريداً في بابه لم تعرفه أمة من أمم الأرض منذ أن كانت الأرض، وذلك حين كان الفاتحون المسلمون ينسابون في أقصى الأرض هداة رحماء لاتهمهم مصالحهم الخاصة، وإنما الذي يهمهم هو أن تسود كلمة الله وتزدهر، وتمتد ظلالها ناضرة وارفة إلى كل بقعة، إذا القلب ملأه الإيثار ولاشيء غير الإيثار، والنفس أخصبها الحب ولاشيء غير الحب فامّحت الفروق، فلاسيد ولامسود ولامستعبِد(19) ولامستعبَد (20).

كل هذا حدث بالفعل نتيجة التلاحم الحميم الذي ربط بين الانتماء والالتزام في حياة المسلمين ربطًا محكمًا(21)، وكان أصحاب الكلمة المجنحة كـ (حسان) من شعراء الدعوة الإسلامية من الذين عبّروا خير تعبير عن هذا التلاحم الفذ، وجعلوا من الأداة الشعرية أداة قادرة طيعة ريضة تترجم عن انتمائهم للعقيدة الجديدة، وعن التزامهم مبادئها، فكانوا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، لا من الذين يهيمون في كل واد ويقولون مالايفعلون.

ولعل هذا هو الذي دفع بعض نقاد الشعر العربي ورواته ومؤلفيه كالأصمعي إلى القول بأن شعر حسان كان في الجاهلية أجود منه في الإسلام معللاً ذلك بقوله «طريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان، ألا ترى أن حسان بن ثابت كان علا في الجاهلية والإسلام، فلما دخل شعره في باب الخير ـ من مراثي النبي صلى الله عليه وسلم وحمزة وجعفر رضوان الله عليهما وغيرهم ـ لان شعره، وطريق الشعر هو طريق شعر الفحول مثل امرىء القيس وزهير والنابغة، من صفات الديار والرحل والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء، وصفة الخمر والخيل، والحروب والافتخار، فإذا أدخلته باب الخير لان»(22).

هذا الرأي، وإن كان على غير حقيقته، فإنه يتضمن قضية هي أن التزام الشاعر الإسلامي قدّم للناس تصوراً جديداً لم يألفوه في الشعر الذي فتح أحضانه منذ أن تفتقت لهاة الشاعر العربي لأغراض، فيها من الباطل والعبث مايغري النفس التي مرنت على الشعر غير الجاد، فصعب عليهم حينذاك أن يقبلوا الشعر النقي الجاد، وأطلقوا الأحكام دون استبطان النصوص الشعرية بروح جديدة غير الروح القديمة التي كانوا يتعاملون بها مع النصوص الشعرية العابثة.

مهما يكن من أمر فقد عملت السنّة المطهرة على بيان حقيقة الانتماء والالتزام مفصّلة ماأجمله القرآن الكريم في بعض الجوانب كما هي عادتها.

ج ـ في النقد الإسلامي الحديث:

لايكاد يختلف مضمون الانتماء والالتزام عند النقاد الإسلاميين المحدَثين عما جلاه لنا الكتاب والسنة سالفًا، فعند المفكر الإسلامي الشهيد سيد قطب ـ رحمه الله ـ أن الفن لابد أن ينفعل بقيم الإسلام التي لها تصور معين للحياة، ذلك أن عقيدة الإسلام ضخمة تملأ فراغ النفس والحياة، يقول مفصلاً شارحًا (الإسلام تصور معين للحياة تنبثق منه قيم خاصة، فمن الطبيعي إذن أن يكون التعبير عن هذه القيم أو عن وقعها في نفس الفنان ذا لون خاص، وأهم خاصية للإسلام أنه عقيدة ضخمة جادة فاعلة خالقة منشئة تملأ فراغ النفس والحياة وتستنفد الطاقة البشرية في الشعور والعمل، وفي الوجدان والحركة، فلا تُبقي فيها فراغًا للقلق والحيرة، ولا للتأمل الضائع الذي لاينشىء سوى الصور والتأملات)(23).

وعند شقيقه الأستاذ محمد قطب أن الفن هو التعبير الموحي عن الحياة، لذلك يلتقي مع الدين لأنه منهج شامل للحياة يقول (والفن ـ من ناحية أخرى ـ هو التعبير الموحي عن هذه الحياة، ومن ثم يلتقي الدين والفن التقاء كاملاً في الحسّ السليم، حين يكون الفن قائمًا على التصور الإيماني للوجود وللمشاعر والسلوك والوجدان) (24).

وعند الدكتور عماد الدين خليل أن يمتلك الإنسان تصوراً شاملاً سليمًا عن الكون والحياة والإنسان يحفز إلى التزام قيمه عفويًا يقول: «هذا هو مفهوم الإسلام للالتزام الفني: أن يمتلك الفنان أولاً تصوراً شاملاً متكاملاً صحيحًا للكون والحياة والإنسان، يوازيه انفتاح وجداني دائم وتوتر نفسي لاينضب له مَعين إزاء الكون والحياة والإنسان، ومن بعد هذا يجيء الالتزام عفويًا متساوقًا منسابًا، علاقته بالعطاء الفني لاتقوم مطلقًا على القسر والتكلف والإكراه» (25).

حين نعقد موازنة بين هذه النصوص عند النقاد الإسلاميين الثلاثة لانجد اختلافًا بيّنًا، إذ الثلاثة يقررون أن المفَن إذا انفعل بقيم الإسلام التزمها في عمله الفني لما لها من فعالية وتأثير لايوجدان في غيرها، ولكن الأستاذ محمداً والأستاذ عماداً حاولا محاولة طيبة

جدًا في الاضطلاع ببيان الالتزام الإسلامي في الفن تفوق ماقام به الشهيد سيد قطب ـ رحمه الله ـ في هذا المضمار، ذلك أن الأستاذين المذكورين حددا حقيقة الالتزام بانفعال روح الفن وامتلاكه للتصور الإسلامي الصحيح؛ تلك الحقيقة التي هي في حاجة إلى بيان شاف وشرح تام، على حين أن سيّدًا لم يعط البيان الكافي عن ذلك، لا لقصور في تصور سيد ـ رحمه الله ـ للالتزام في الفن الإسلامي فهذا غير وارد أبدًا ـ بل لأنه في تلك المرحلة من حياته حين كتب كتابه (النقد الأدبي) لم تكن قد تحددت لديه معالم الالتزام على الصورة التي تبينت له فيما بعد حين كتب تفسيره (في ظلال القرآن) الذي يقول فيه عند تفسيره قوله تعالى: *والشعراء يتبعهم الغاوون...* والصور التي يتحقق بها الشعر الإسلامي والفن الإسلامي كثيرة غير هذه الصورة التي وجدت وفق مقتضياتها، وحسب الشعر أو الفن أن ينبع من تصور إسلامي للحياة في أي جانب من جوانبها ليكون شعرًا أو فنًّا يرضاه الإسلام.

ومفرق الطريق أن للإسلام تصورًا خاصًا للحياة كلها وللعلاقات والروابط، فأيما شعر نشأ من هذا التصور فهو الشعر الذي يرضاه الإسلام(26).

موازنة بين المفاهيم الثلاثة:

عندما نضع مفهوم الانتماء والالتزام في الفكر الاشتراكي، وفي التصور الإسلامي في كفة الموازنة نجد البون شاسعًا بين المفهومين ـ وإن اتفقا في جوانب كالاهتمام بقضايا الحياة اليومية، في كل ميدان ـ لأن كليهما ينطلق من منطلق يختلف عن الآخر من الجذور، ذلك أن مايدعو إليه الفكر الاشتراكي غير مايدعو إليه التصور الإسلامي؛ لأن الأول يستمد مبادئه من الباطل، ويتمثل فيما يروجه من أفكار لاتلائم فطرة الإنسان، كمحاربة نزعة الملكية الفردية التي هي إحدى الحقائق الفطرية في الإنسان، ورفض الجانب الروحي في الإنسان الذي لايمكن للبشر أن ينسلخ عنه بحال، وكل ذلك راجع إلى أن هذا المذهب مذهب مادي ينكر وجود الله تعالى، بل يؤمن بأن المادة هي الإله كما قال (ماركس): (لاإله، والحياة مادة).

والثاني يستمد مبادئه من الحق، ويتمثل في أنه يرتكز أساسًا على الإيمان بالله، ثم مايتفرع عن ذلك من قضايا متعددة تؤلف فيما بينها منهج الإسلام الخالد في كل جانب من جوانبه مما لانقع عليه في أيّ دين سماويّ، وأيّ مذهب أرضي؛ من ذلك مثلاً تناغمه العجيب مع طبيعة البشر في كل عصر، وفي كل مكان وتلبيته لنداءات الفطرة البشرية سواء الروحي منها أو المادي.

فالانتماء والالتزام في التصور الإسلامي ارتباط بمبدأ، ثم التزامُهُ في الواقع الحياتي، فالأديب يلتزمه في عمله الأدبي، ويلتزمه كذلك في ممارساته الحياتية، كما يلتزمه أي مؤمن آخر، ويكون ذلك في جو حر نقي لاتسوده رهبة ولايهيمن عليه قمع أو إكراه، بل تسوده المحبة والوداد والحرية، وتعطره كلمة الله: *لاإِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ* . **البقرة: 256**، ذلك أن الإسلام لايبغي من الناس أن يؤمنوا به من طريق الإرهاب، ولو أراد ذلك مااستطاعت قوة في الأرض أن تقف في طريقه، وماعرفنا عبر التاريخ الإسلامي أن حاكمًا مسلمًا أجبر الناس على الإسلام، وإنما كانوا فقط يطلبون من الذين لم ينضووا تحت لوائه ألا يتعرضوا لمسيرة الدعوة الإسلامية، ويتركوا المسلمين يباشرون عملهم في الدعوة إلى الله، فإذا تعرضوا لهم حكّموا حينذاك السيف في رقابهم، وإن التطبيقات العملية للمسلمين في فتوحاتهم تشهد لهم بذلك، على حين كان يعيش الانتماء والالتزام في محنة في ظل الفكر الاشتراكي أو الشيوعي، إذ اضطهدت كلُّ وسائل الإرهاب والقمع البوليسي في العالم الشيوعي الحرية، وأحصت عليها أنفاسها، وألقت بدُعاتها إلى سجون (سيبريا) حيث كان ينتظر الحرية ظلام التعذيب وصقيع التنكيل.

وعندما نضع أيضًا مفهوم الانتماء والالتزام في الفكر الوجودي السارتري وفي التصور الإسلامي في كفة الموازنة نلقي البون شاسعًا كذلك، لأن الوجودية تجعل الإنسان هو كل شيء حين تجعل منه إله نفسه، يمتلك من الحرية مايمتلك، لأجل أن يحقق ذاته، انطلاقًا من أن الخالق سبحانه غير موجود يرعاه ويدبر شأنه، بعكس الإنسان في الإسلام، فهو يحتل مكانة عظيمة في الكون، غير أنه يستمد قوته من الله تعالى، ولايستمدها من ذاته باعتباره مخلوقًا ناقصًا، وباعتبار أن مآله الموت، لذلك فهو مكلف في الكون لتحقيق الإرادة الربانية، وليس مخلوقًا متشائمًا كما في وجودية كولن ولسن.

هكذا نجد أن المفاهيم الثلاثة ـ المفهوم الاشتراكي، والمفهوم الوجودي، والمفهوم الإسلامي ـ لايمكن أبدًا أن تلتقي، لكون كل واحد منها يرتكز على أساس مغاير للآخرين، الأمر الذي يجعل الالتقاء مستحيلاً.

ولقد أحسن من قال:

إثبات ضدين معًا في حال

أقبح مايؤتى منَ المحال

وخلاصة القول: إن حقيقة الانتماء في التصور الإسلامي هي الاقتناع بالارتباط الفكري والشعوري برسالة منهج الإسلام، وشموليته الكونية. وحقيقة الالتزام فيه هي: التطبيق العملي للارتباط الفكريّ في واقع الحياة، وفي الأدب والفن.

الهوامش:

1- مدخل إلى تاريخ الآداب الأوربية للدكتورعماد حاتم، ص 345 ومابعدها، ط 1979م.

2 - اقتصادنا، محمد باقر الصدر، ص10 ومابعدها، ط ..../1973م.

3 - النقد الأدبي الحديث، للدكتورمحمد غنيمي هلال، ص 485، ط 4، 1969م.

4 - المرجع السابق، طبعة 1961م.

5- الأدب الشيوعي، ماهر نسيم، ص 101، ط، دار المعارف 1959م.

6- كتاب الجمال في تفسيره الماركسي، بقلم عدد من الفلاسفة السوفييت، ترجمة يوسف الحلاق، ص 204، ط دمشق 1968م.

7- رد الدكتور عزالدين إسماعيل على سارتر في هذا بكتابه الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، فصل الالتزام والثورة، ص373 ومابعدها ط 2 عام 1972م.

8- تجنبًا من الوقوع في الخطأ الشائع استعملنا المفن عوض الفنان، لأن المفن في اللغة هو صاحب المهارة الفنية، وأما الفنّان فهو الحمار الوحشيّ له فنون في العدو، وقد أشرت إليه في كتابي المذكور باب (ف).

9- أخرجه مسلم وأبو داود.

10- أخرجه الإمام أحمد.

11- بالمناسبة أعلن تراجعي عما ذهبت إليه في بحث نشرته تحت عنوان (الدين والفن) بمجلة (المعرفة) السورية التي تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد القومي العدد 52، السنة الخامسة، عام 1966م، ص87 ومابعدها عن حليّة مزاولة فن النحت بعد أن تبيّن لي الحق باستنطاق النصوص الشرعية والتأمل في مراميها ومقاصدها والحمد لله على فضله.

12- رواه البخاري.

13- يمكن مراجعة هذا في البحث الذي نشرته بمجلة المعرفة السورية سالفة الذكر.

14- أخرجه البخاري، وفي رواية أخرى للبخاري أيضًا عن ابن عمر «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحًا خير من أن يمتلىء شعرًا». ومعنى يريه في الحديث من ورى القيح الجوف إذا أفسده.

15- أخرجه مسلم.

16- أخرجه مسلم.

17- رواه البخاري.

18- رواه البخاري.

19- بكسر الباء اسم فاعل.

20- بفتح الباء اسم مفعول.

21- من ذلك قصة فتح سمرقند(أيام عمر بن عبدالعزيز التي فتحها قتيبة بن مسلم دون أن يسلك في ذلك طريقة الشرع من إعلام أهلها أولا ثم دعوتهم إلى الحرب، فرفعت الشكوى إلى الخليفة فأمر بخروج الجيش الإسلامي من البلد، وقد حفزتني طرافة الحادثة إلى صياغتها قصة نشرتها ضمن مجموعتي القصصية «الحب في الله»نشرت عام ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

22- الموشح للمرزباني، تحقيق الأستاذ محمد علي البجاوي، ص 85، 1965م، وانظر كذلك مع اختلاف في العبارة، في الشعر والشعراء، لابن قتيبة، ج 2، ص 224، دار الثقافة بيروت، 1969م.

23- النقد الأدبي أصوله ومناهجه، ص 103و104، ط 4 عام 1960م.

24- منهج الفن الإسلامي، ص105، دار القلم (بدون تاريخ).

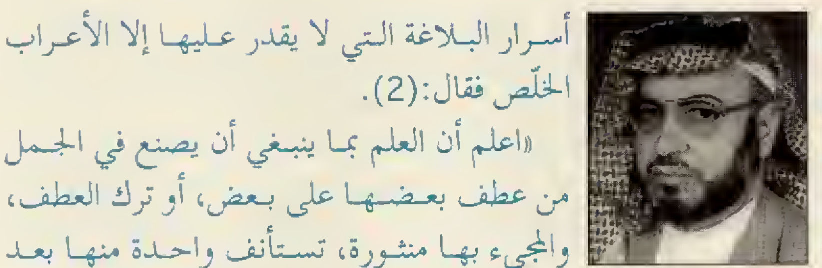
25- مقدمة مسرحية «المأسورون» ص 24 و25، ط 1، 1970/1390م.

26- ج 6 ص 246، 248، ط6.

من الأخطاء اللغوية الشائعة:
الإفراط في استعمالِ "الواو"

د. محمود عمّار

حروف العطف من أدوات اللغة التي تربط بين أجزاء الكلام، ولها أثر في التلوين العاطفي للفكرة المعروضة،(1) وتساعد الكاتب على إفراغ الطاقة الانفعالية، واستيعاب المعنى الذي يعبر عنه، وتتيح مجالاً لتنويع الاستخدام الوظيفي، وتعدُّ ظاهرة لحرية التعبير في اللغة، وتوليد الأنماط المناسبة، ولهذا جعلها عبدالقاهر الجرجاني من أسرار البلاغة التي لا يقدر عليها إلا الأعراب الخلّص فقال:(2).



«اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف، والمجيء بها منثورة، تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة، ومما لا يأتي لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخلّص».

ويقف عبدالقاهر ـ رحمه الله ـ وقفات دقيقة جليلة في استعمال واو الحال (3)وتركها، وأثرها في كل موضع، وما تحتاج إليه من الحسِّ اللغوي، حتى يقول:(4) «وفي تمييز ما يقتضي الواو مما لا يقتضيه صعوبة، ويظهر الحسن واللطف في مجيء المضارع المنفي حالاً من غير الواو في قول أعشى همدان:

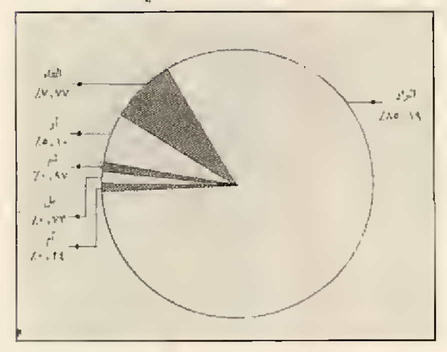
وكان سفاهةً منِّي وجهْلاً

مسيري «لا أسيرُ إلى حميم»

ثم يقول: وهو كثير إلا أنه لا يهتدي إلى وضعه بالموضع المرضيّ إلا من كان صحيح الطبع» ويصور دقة استعمال هذه أو تركها وغموض مواضعها وحاجتها إلى الحسّ المرهف بقوله:(5) «فمحال.. لا يكون لذلك سبب وعلة، وفي الوقوف على العلة في ذلك إشكال وغموض. ذلك لأن الطريق إليه غير مسلوك، والجهة التي منها تعرف غير معروفة».

وقد دلت الدراسة الميدانية التي أجراها الدكتورمحمد علي الخولي؛ حول التراكيب الشائعة في اللغة العربية المعاصرة على كثرة استعمال حروف العطف،(6) إذ احتلّت نسبة (9,5٪) تقريبًا من عدد مفردات اللغة المستعملة، ونحو (30٪) من مجموع الحروف عامة.

وتأتي واو العطف في مقدمة الحروف انتشارًا وتداولاً، فهي تشكل (25,5٪) تقريبًا، من استعمال الحروف عامة، وتحظى بنصيب الأسد بين حروف العطف، إذ يشكل استعمالها (85,20٪) تقريبًا، بالنظر إلى استعمال بقية هذه الحروف. كما يوضحه الشكل الآتي:



التوزيع النسبي لحروف العطف (انظر الشكل).

ويرجع د. الخولي كثرة استعمال الواو إلى الأسباب الآتية:

1- سهولتها في الكتابة، إذ تتكون من حرف واحد.

2- الحاجة إليها للتعبير عن معاني الإضافة، والتعدد والمشاركة، وهي معان شائعة يحتاج إليها كثيرًا.

3- قابلية الواو للاستعمال مع الأسماء، والأفعال، والحروف، والجمل، والفقرات. فهي قد تعطف اسمًا على اسم، أو فعلاً على فعل، أو حرفًا على حرف، أو جملة على جملة، أو فقرة على فقرة.

4- شيوع استعمالها في بداية الجمل، وبداية الفقرات من دون أن تكون هناك حاجة ماسة إليها. (مما يدخل في موضوعنا).

5- يمكن أن نضيف سببًا خامسًا إلى ما سبق هو إفراط الكتّاب المعاصرين في استخدامها في

كتاباتهم وأحاديثهم بمناسبة أو من دون مناسبة، وإقحامها بين عناصر الكلام المترابطة، أو الفصل بها بين المتلازمين اللذين لا يفصل بينهما في العربية - كما سأبين - فشاعت وانتشرت حتى أصبحت - على حد تعبير أحد الكتاب - (7) «وسادة أسلوبية رثّة، يتكئون عليها، ويبالغون في استعمالها، حتى درجة اللجاجة، فيكادون يُزهقون روح هذا الحرف، ويُعطِّلون وظيفته التي أوجدتها له أساليب العربية الفصحى في شعرها ونثرها»، فنأتي في كتاباتهم للتعبير عن انقطاع الفكرة وسرعة الانتقال، وعدم الامتلاء بالموضوع، وشح المادة المساعدة، وعدم إدراك العلاقات الأسلوبية في الكلام، وما تنبني عليه الجملة العربية.

وقد علل عبدالقاهر الجرجاني شيوع الواو دون غيرها بقوله:(8) «واعلم أنه إنما يعرض الإشكال في الواو دون غيرها من حروف العطف؛ وذلك لأن تلك تفيد مع الإشراك معاني، مثل أن الفاء توجب الترتيب من غير تراخ، و(ثم) توجبه مع تراخٍ، و(أو) تردد الفعل بين شيئين، وتجعله لأحدهما لا بعينه» فلوضوح هذه المعاني يقل اللبس فيها بخلاف الواو.

وقد عدّ الفيروزآبادي(9) من استعمالات الواو سبعة وعشرين موضعًا، وحين تكون الواو للعطف تكون كلمة مستقلة تؤدي وظائف متنوعة(10). وقد تكفلت كتب حروف المعاني وكتب النحو أيضًا بعرض الاستعمالات (المشروعة) لهذه الواو، وما عداها يعد تقحمًا أو خروجًا عن أصول العربية(11).

وقبل بضع سنوات كلفني أحد النوادي الأدبية التحكيم في مسابقة القصة فأذهلتني الكثرة المفرطة لاستخدام الواو في إحدى القصص، وإقحام هذا الحرف بين الأركان المتلازمة في التركيب، ووضعه في مواضع لا يفيد فيها أي معنى. ومن ذلك:

1- إقحام الواو بين الفعل والفاعل. مثل: سبق وأن ذكرت، سبق وقلت لك، أعجبني وأن حضرت. هذه الواو مقحمة بين الفعل (سبق - أعجب) وبين الفاعل، المكوّن من (أن) ظاهرة أو مقدرة مع الفعل.

ولا معنى لهذه الواو إطلاقًا، إذ لا يفصل بها بين الفعل والفاعل لأنهما كالشيء الواحد، والعطف يقتضي المغايرة. ولو كان هذا من قبيل العطف لظل الفعل الأول من غير فاعل. والمعنى يوجب أن يكون ما بعده فاعلاً.

2- وقوعها بين الفعل ومفعوله: في مثل: أذاكر بتركيز خاصة وأن الامتحان اقترب، أميل إلى الدراسة خاصة وأني أحب النحو، وغير ذلك مما يستعمل فيه (خاصة وأنَّ).

فهذه الواو مقحمة لا معنى لها بين الفعل المحذوف (أخصّ) الذي دلَّ عليه المصدر (خاصة) وبين المفعول الذي هو مؤول من (أنَّ) وما بعدها. والتقدير: وأخصّ بخاصة حبي النحو(12).

3- وقوعها بين الصفة والموصوف في مثل: تحدث عن مظاهر النمو والتي يظهر أثرها في ....، إن الطالب المجتهد والذي يصغي لمعلمه يحقق آماله، استطاع اللاعبون والذين بذلوا أقصى جهدهم الحصول على الكأس، تبث الإذاعة على موجة وطولها كذا..

فهذه الواو مقحمة بين الموصوف (مظاهر النمو، الطالب المجتهد، اللاعبون، موجة) وبين الصفة (التي، الذي، الذين، طولها كذا..) والصواب: مظاهر النمو التي، الطالب المجتهد الذي، اللاعبون الذين، موجة طولها كذا لأن هذه الواو لم تفد شيئًا في سياق التعبير. فهي زائدة لا وظيفة لها بل أخلّت بالمعنى لأنها قد تفيد الحديث عن شيئين، والمقصود الحديث عن شيء واحد.

4- وقوعها بين الفعل ومتعلقة الجار والمجرور: في مثل: قمنا وبمبادرة من القسم بعقد اللقاء الأول، عقد اللقاء الأول الشهر الماضي وفي قاعة المكتبة، كان اللقاء بنّاءً وبحضور المسؤولين، إن هذه القاعة وبسبب اتساعها استوعبت كل المطلوب، بدأ الاحتفال الساعة التاسعة وعلى مسرح الكلية، عملنا وبصدق على نجاح الحفل.

وهذا الأسلوب أكثر من أن يحصى، وقد انتشر حتى ألفه الناس، وساغوه ولم يعد يلقى - غالبًا - هجنة أو استغرابًا من الكثيرين، ويتكرر في النص الواحد على مسافات متقاربة. من غير أن يلتفت إليه الكاتب.

الواو في (وبمبادرة، وفي قاعة المكتبة، وبحضور المسؤولين، وبسبب اتساعها، وعلى مسرح الكلية، وبصدق) مقحمة لا تفيد معنى، ولا تؤدي وظيفة، وفيها خروج على أسلوب العربية. وحقها الترك. حتى إن الكلام يبدو أكثر تسلسلاً وترابطًا من دونها.

5- وقوعها بين الظرف والعامل فيه. خاصة إذا تقدم الظرف. ومن ذلك العبارة التي يتبادلونها في الأعياد: كلّ عام وأنتم بخير.

وقول أحدهم مفاخرًا بولده: كلّ عام وولدي الأول.

وقول المعلم لطالب متأخر: كلّ صباح وأنت تتأخر.

وقول موظف يحسم من راتبه: كلّ شهر وراتبي يحسم منه.

وقول باحث: ويوجد اتجاه ومنذ زمن بعيد، وبعد أن تم تداخل بين الطبيعة وترتيباتها الخيرة من جهة وبين المواد المصطنعة من جهة أخرى (13).

والأصل أن الواو لا تفصل بين الظرف والمظروف فهي في هذه المواضع زائدة لا محل لها، ولا حاجة إليها والصواب حذفها. فيقال: كلَّ عام أنتم بخير، كلَّ عام ولدي الأول، كلَّ صباح أنت تتأخر، كلَّ شهر راتبي يحسم منه، يوجد اتجاه منذ زمن بعيد، بعد أن تم تداخل....إلخ قال تعالى: كُلَّ يومٍ هو في شأن. **الرحمن**:29. وكثير من المذيعين والمتحدثين ينطقون (كل) في هذه الجمل بالرفع ظنًا منهم أنها مبتدأ، وليست كذلك. وإنما هي نائبة عن الظرف المضاف إليه فتعرب إعرابه. ولا معنى لكونها مبتدأ لأنها لم توضع للحمل عليها. وليس هناك خبر تتم به الفائدة.

6- وقوعها بين (ولاسيما) والاسم الواقع بعدها. من مثل قولهم: كافأت عليًا لاسيما وأنه مخلص، استوعبت الدرس لاسيما وأنه مشروح، شجعت اللاعبين لاسيما وأني أجالسهم، أحب الرياضيين لاسيما وأني منهم.

فالاسم المؤول الواقع بعد (ولاسيما) في هذه الجمل. إما أن يعرب تمييزًا أو مضافًا إليه، أو خبرًا لمبتدأ محذوف تقديره هو. وكل هذه الحالات مما لا يسبق بالواو. إذ يقع فيها الفصل بين المتلازمين. فهي واو زائدة، وحقها الترك فيقال: ولاسيما أنه مخلص، ولاسيما أنه مشروح، ولاسيما أني أجالسهم، ولاسيما أني منهم.

7- وقوعها بعد (حتى) في مثل: سأذهب إلى الامتحان حتى ولو كنت مريضًا، سأعاقبه حتى وإن اعتذر، لم أجد راحة حتى ومع توافر كل الأسباب، كافأت المدرسة الطلاب حتى والذين لم يحضروا الحفل.

8- وقوعها قبل (حتى) في مثل: سأزور الطائف وحتى لو كنت مشغولاً، أقدر هذا الزميل وحتى إن أخطأ، اشتريت الكثير من الكتب وحتى مع تناقص نقودي، زرت جميع المرضى وحتى الذين لا أعرفهم.

فهذه الواو التي جاءت قبل (حتى) أو بعدها، لا وجه لها في التراكيب العربية فحتى للغاية والواو للتشريك وهما مختلفان. والكلام يتم من دون الواو. وما علينا إلا أن ننطق بهذه الجمل مرة بالواو، ومرة

دونها نحسّ انسياق الكلام، في الحالة الثانية، ويصبح المعنى أكثر وضوحًا واستقامة.

ويظهر لي أن وقوع الواو بعد (حتى) أكثر انتشارًا من وقوعها قبلها.

9- وقوعها بين (ما) المصدرية وصلتها في مثل: آمل أن تكون رسالتي معبرة عن شعوري، كما وآمل أن نلتقي قريبًا، أثنيت على حديثه كما وأنني كتبت مقالاً عن مزاياه. أشكر الطلاب الذين قاموا بالجهد كما وأشكر الأساتذة الذين أشرفوا عليهم.

فقد فصل بين (ما) المصدرية في هذه الجمل وصلتها بالواو. وهما كالكلمة الواحدة، والكلمة الواحدة لا يفصل بين أجزائها، (14) والصواب أن يقال: كما آمل أن نلتقي، كما أنني كتبت مقالاً، كما أشكر الأساتذة. فالواو فضلة لا فائدة منها، ولا حاجة إليها.

10- أن يعطف بها الشيء على نفسه: من الأساليب الحديثة التي انتشرت في اللغة العربية المعاصرة، وتداولها الأدباء والكتاب لإبراز المبالغة أو التوكيد عطف الشيء على نفسه من مثل: هو محب للأدب وللأدب وحده، وقصر جهوده على الصحافة وعلى الصحافة وحدها، وكان معجبًا بالرياض وبالرياض فحسب، وكان مشجعًا ومشجعًا جدًا للفريق، ورأيته متحمسًا ومتحمسًا للغاية من أجل هذه الفكرة. احتل المركز الأول والأول بلا منازع بين زملائه.

فالواو وما بعدها فضول وحشو في الكلام لا لزوم لها، ويستقيم المعنى من دونها لأن العطف يقتضي المغايرة، والمغايرة لا تتفق مع كون الكلمة معطوفة ومعطوفًا عليها ولم يفد العطف معنى جديدًا، أو يضف فائدة.

والأسلوب كله مولّد مبنيّ على المبالغة والتوكيد، وفي العربية أساليب متعددة لتصوير درجات الفعل. ويكفي في المعنى المقصود هنا أن نلحق الصفة بالمعطوف عليه فيتم المعنى فنقول: هو محب للأدب وحده، وقصر جهوده على الصحافة، وكان معجبًا بالرياض فحسب وكان مشجعًا جدًا للفريق، ومتحمسًا للغاية من أجل الفكرة، واحتل المركز الأول بلا منازع.

11- وقوعها بعد فعل يقتضي المفاعلة وفاعله ضمير مستتر: فمن الأساليب الشائعة المتداولة قولهم: هذه المقررات لا تتناسب ومستوى الطلاب، وهذا الأسلوب لا يتلاءم وعقول التلاميذ، والألعاب لا تتوافق وميول الأطفال، والموقف السابق يتنافى وأخلاقكم الفاضلة، ويتعارض وطباعكم النبيلة.

فهذه الواو لم تقع موقعها الصحيح. فلو كانت عاطفة فإن الأفعال التي قبلها رفعت ضميرًا مستترًا يعود على المبتدأ، ولا يجوز العطف على الضمير المرفوع المتصل إلا بإعادته منفصلاً. أو بوجود فاصل ما. قال ابن مالك:

وإنْ على ضمير رفعٍ متصلْ
عطفتَ فافْصلْ بالضمير المُنفصلْ
أو فاصلٍ ما وبلا فصلٍ يردْ
في النَّظْم فاشيًا، وضعفَه اعتقدْ

وليست الواو للمعية لأن الفعل قبلها يقتضي المشاركة لأنه من المفاعلة والمفاعلة تخرج ما بعد الواو عن كونه فضلة، وتوجب أن يكون معطوفًا على ما قبله كما في قولك: تقاتل زيد وعمرو.

وللتخلص من هذه الواو يستبدل بها بعضهم كلمة (مع) فيقولون: لا تتناسب مع مستوى الطلاب، لا يتلاءم مع عقول التلاميذ، لا تتوافق مع ميول الأطفال.....وهكذا. وهذه التعبيرات ليست أصح من التعبيرات السابقة. لأن (مع) تضم الشيء إلى الشيء، أو تفيد اصطحابهما في الزمان أو المكان عند وقوع الفعل، ولهذا لا تلي الفعل المقتضي للمشاركة إلا سماعًا وهناك غير طريقة لإصلاح التعبيرات السابقة:

أ ـ التخلص من المفاعلة القاضية بوقوع الفعل من الطرفين (تفاعل) وتحتاج إلى فاعلين متعاطفين، وعندئذ يصبح الفاعل الثاني (المعطوف) مفعولاً به فيقال: هذه المقررات لا تناسب مستوى الطلاب، ولا تلائم عقول التلاميذ، ولا توافق ميول الأطفال، والموقف السابق ينافي أخلاقكم، ويعارض طباعكم.

ب ـ وجود ضمير الرفع المنفصل فيقال: هذه المقررات لا تتناسب هي ومستوى الطلاب. وهذا الأسلوب لا يتلاءم هو وعقول التلاميذ. وكذا في بقية الأمثلة.

جـ ـ وجود فاصل بين الفعل والواو فيقال: هذه المقررات لا تتناسب في الوقت الحاضر ومستوى الطلاب. وهذا الأسلوب لا يتلاءم ـ تمامًا ـ أو بوضعه القائم ـ وعقول التلاميذ وكذا في بقية الأمثلة.

12- وقوعها قبل ضمير الفصل في مثل: الإسلام وهو الدين الذي حرر البشرية، الحج وهو القصد، زيد وهو الفاضل، الحضارة وهي أسلوب التعامل بين الناس.

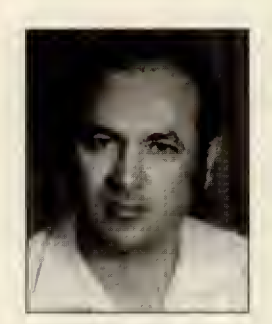
فالواو قبل هذه الضمائر زائدة مقحمة، لأنها ضمائر فصل يقع بها التفريق بين ما هو خبر وما هو تابع، وتفصل بين المبتدأ والخبر، أو ما أصله مبتدأ وخبر، وتعرب حروفًا لا محل لها من الإعراب إذا أعربت ضمائر فصل. والصواب في التعبيرات السابقة أن تقول:

الإسلام هو الدين، الحج هو القصد، زيد هو الفاضل، الحضارة هي أسلوب التعامل.

13- وقوعها في أول الكلام: كأنها تعطف على شيء في ذهن المتحدث. وهو أسلوب يستعمله كتّاب القصة وأصحاب الشعر الحديث كثيرًا. فتتصدر القصة أو القصيدة جملة مبدوءة بواو العطف ففي مجموعة قصصية بعنوان «بيان الرواة في موت ديما»،(15) نجد قصة بعنوان «وأزرع حبة شمس» وأخرى تبدأ بقوله «.. وبعد أن تعطرت من زجاجة قديمة» وثالثة تقول «.. وهكذا أحسست أني حنظلة» وآخر يستهل إحدى قصصه بقوله: (16)وأخاف أن أخسر، لقد غدت التضحية عظيمة. ومثل ذلك قولهم في مطلع المقال أو القصة: وتظل الإشارة موحية، أو وتبقى نشوة الذكرى في النفس، أو ويداعب الأجفان الحلم. إلى غير ذلك.

فهذه الواو التي تقع في أول الحديث لا تتفق مع

هذا الحرف الصغير الحجم، الخفيف النطق، الأصل فيه أن يوضع بمقياس دقيق ليؤدي وظيفة في البناء اللغوي وفي الدلالة المعنوية حتى لا يختل نظم الكلام ويضطرب نسيجه



د. محمد علي الخولي

الأخطاء اللغوية الشائعة:

الإفــراط في اســتــعــمــال الواو

الأساليب العربية، لأنها وضعت في الأصل للعطف. ولم يسبقها شيء تعطف ما بعدها عليه. والأفصح حذفها.

14- وقوعها بعد (بل) الإضرابية. في مثل: يجب الاهتمام بالنحو بل وبجميع المواد، أحب مدرس الرياضيات بل وكل المدرسين، التعزيز لا يدعم السلوك فحسب بل ويدعم الذات أيضًا، لا يوجد خلافات تربوية بل وعداء في الرأي كما هو في موضوع العقاب، أنصحك أن تهتم ليس بعينيك فقط بل وبأذنيك كذلك، أدعوك إلى أن تزور ليس الرياض فقط بل والطائف.

فإقحام الواو في هذه المواضع لا وجه له في العربية. وهو مخالف لما أُثر من شعر العرب ونثرها. لأن (بل) تفيد الإضراب عن السابق، والواو تفيد الجمع والتشريك، وهما متعارضان والكلام يستقيم من دون هذه الواو، والمعنى يتم. أو تسقط (بل) أصلاً عند إرادة الجمع.

وأكثر ما يشيع هذا الأسلوب في الكتب المترجمة إذا لم يتنبه المترجم لذلك، كما يشيع كثيراً فيما يقدم الطلاب من بحوث ورسائل تأثراً بالأسلوب الأعجمي.

15- وقوعها بين المبتدأ والخبر في بعض ما صدر ب (لا) النافية للجنس: من مثل: لا بد وأنه قادم، لاريب وأن الدرس مهم، لا محالة وأن المجد ناجح، لا جرم وأنك تبذل جهدك، لا ضير وأنك مجتهد.

فهذه الجمل المصدرة ب (أن) في تأويل مصدر مجرور بمن المحذوفة، والجار والمجرور في محل رفع خبر (لا) النافية للجنس، فليس لهذه الواو موضع بل يجب حذفها لأنها مقحمة بين المبتدأ والخبر، والكلام يتم من دونها.

16- وقوعها في الخبر بعد إلا والمبتدأ نكرة بعد نفي في مثل: مامن أحد إلا وجزع، مامن طالب إلا ويرغب في النجاح، مامن كتاب إلا ومفيد، ما طالب إلا وكتبه معه، مادرس إلا وعنوانه دالٌ عليه.

فهذه الجمل الواقعة بعد الواو كلها في محل رفع على أنها أخبار لمبتدآت ولا يفصل بين المبتدأ وخبره بالواو. لأن الخبر هو عين المبتدأ في المعنى. والعطف يقتضي المغايرة وفي ذلك اختلاف وتناقض.

ولو جعلنا هذه الواو للحال. لظل المبتدأ بلا خبر، وحاجة المبتدأ إلى الخبر أقوى من حاجة صاحب الحال إلى الحال. ولظلت جملة الحال بلا عامل. وعلى ذلك فالصواب:

ما من أحد إلا جزع، ما من طالب إلا يرغب في النجاح، ما من كتاب إلا مفيد، ما من طالب إلا كتبه معه، ما درس إلا عنوانه دالٌ عليه.

ويذهب العدناني في معجم الأخطاء الشائعة (ص27 إلى جواز ما من أحد إلا وخرج مستأنسًا بما جاء في المغني من أن (الواو) تزاد بعد (إلا) لتأكيد الحكم المطلوب إثباته إذا كان في محل الرد والإنكار.

إن تكوين جملة المبتدأ والخبر ـ على نحو ما سبق ـ يأبى هذه الزيادة، وليس في المغني عبارة تسمح بهذا التركيب.

17- وليس من الزيادة وقوعها في أول الجملة الحالية بعد إلا: وقد جاءت في القرآن الكريم في غير موضع ومن ذلك: لا *تموتُنَّ إلا وأنتم مُسلمونَ* البقرة132، **آل عمران**:102 ولا *يأتون الصلاةَ إلا وهُم كُسالى ولا يُنفقونَ إلا وهُمْ كارِهُون* **التوبة**:54. *وماأهلكنا من قرية إلا ولها كتابٌ معلوم* **الحجر**:4، *وماكُنّا مُهلِكي القُرى إلا وأهلُها ظالمُونَ* **القصص**:59.

فهذه الجمل كلها في موضع نصب على الحالية. فهي فضلة في الإعراب بخلاف مابعد إلا في الجمل السابقة (رقم 16) لأنها أخبار فهي عمدة في الكلام. ولهذا جاءت من دون الواو في قوله تعالى: *وإنْ من قرية إلا نحن مُهلكُوها قبل يوم القيامة* **الإسراء**:58 لأنّ جملة «نحن مهلكُوها» خبر. وأما قوله تعالى: *وَمَا أهلكْنا من قرية إلا لَهَا منذرون* **الشعراء**:208 فهي حال أو صفة. قال الزمخشري في التعليق على الآية: «فإن قلت كيف عزلت الواو عن الجملة بعد إلا ولم تعزل عنها في قوله (وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم)؟ قلت: الأصل عزل الواو لأن الجملة صفة لقرية، وإذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف كما في قوله: *سبعة وثامنهم كلبهم* **الكهف**:22.

18- وليس من الزيادة وقوعها في جواب الشرط ـ فيما زعموا ـ في مثل:(17) *إذا السماءُ انشقّتْ وأذنتْ لربّها وحُقّت وإذا الأرضُ مُدّت، وألقتْ مافيها وتخلّتْ، وأذنتْ لربها وحُقّت* **الانشقاق**:1-5. *فلمّا أسلما، وتلّه للجبين، وناديناهُ* **الصافات**:103، *حتى إذا جاؤوها، وفُتحتْ أبوابُها* **الزمر**:73.

فقد زعموا أن الأفعال «أذنت، وألقت، وتلّه، وفتحت» هي جواب الشرط، والواو التي قبلها مقحمة في جواب الشرط. وهم يتفقون على أن الزيادة في القرآن الكريم هي زيادة في الإعراب، وليست زيادة يمكن الاستغناء عنها.

والصحيح أن هذه المعطوفات داخلة في الشرط لتوسيعه، وليضم أكثر من صفة وأكثر من قرينة كما في قوله تعالى: *إذا زُلزلت الأرض زلزالها، وأخرجت الأرضُ أثقالها، وقال الإنسان مالها.....يومئذ تحدث أخبارها* **الزلزلة**:1-4.

وحذف جواب الشرط يجعل النفس تذهب في تأويله كل مذهب، ويجعل السياق حيًا متحركًا يوحي بالمعاني. لهذا آثر القرآن الكريم حذف جواب الشرط في الآيات السابقة، وسوغ ذلك كونه مفهومًا قريبًا من الذهن، فالقرآن الكريم كالآية

أصبحت الواو وسادة أسلوبية رثة يتكىء عليها الكُتاب حتى يكادون يزهقون روح هذا الحرف ويعطلون وظيفته

الواحدة في دلالة بعضه على بعض(18). وقدّروا الجواب في سورة الانشقاق بوجود الفاء في قوله: *فأمّا من أوتي كتابه بيمينه* أو بتقدير الفاء مع الآيات اللاحقة للشرط (19). وليس من إقحام الواو في جواب الشرط استشهدوا به من قول امرىء القيس في وصف دبيبه:

فلمّا أجزنا ساحة الحيِّ وانتحى
بنا بطن حقف ذي ركام عقنْقلِ

لاقتران (انتحى) بالواو، بل هو من قبيل العطف، وتوسيع الشرط، فالشرط يضم الفعلين (أجزنا وانتحى) بمتعلقاتهما، والجواب في البيت التالي حيث يقول:

هصرتُ بفوْدي رأسها فتمايلتْ
عليّ هضيم الكشح، ريًا المُخلخلِ

19- ومن خلل استعمال الواو إسقاطها، والكلام يقتضيها: كما في ذكر الصفات المغرقة، أو الأقسام التي تلي الموضوع، أو الأجزاء التي تلي الأصل في مثل: أشهر مدن المملكة الرياض، الدمام،

الإفـراط في اسـتـعـمـال الواو

مكة، جدة، تضم الكلية أقسامًا متعددة: العلوم الدينية، اللغة العربية، الرياضيات، العلوم، الاجتماعيات، وقولهم: الكلمة: اسم، فعل، حرف، يطل على البحر المتوسط: آسيا ـ أفريقيا ـ أوروبا.

ولعل هذا الأسلوب قد نقل إلى العربية بالترجمة من اللغات الأجنبية، ففي الإنجليزية مثلاً لايضعون حرف العطف (And) إلا مع آخر المعدودات، ويكتفون بذكر الصفات أو الأسماء متوالية ووجود حرف العطف عند ذكر الأخير منها.

وقد حذا بعض كتاب العربية هذا الحذو فجعل لايذكر واو العطف إلا في آخر المعدودات، والأصل أن تعطف الواو والصفات أو الأسماء المتفرقة مع اجتماع منعوتها فيقال: أشهر مدن المملكة: الرياض والدمام ومكة المكرمة وجدة. وهكذا.....

20- ومن خلل استعمال الواو إسقاطها من الاسم الموصول الثاني الواقع صفة إذا تكرر، مثل:

كانت الفائدة التي استفدتها منك، التي سمعتها الآن في غاية الأهمية.

الرجل الذي كان معنا، الذي تحدث في الاجتماع شخصية بارزة.

الطلاب الذين لعبوا بإخلاص، الذين كافأتهم الكلية جديرون بذلك.

التقدم الحضاري الذي اكتنف الحياة، الذي نرى أثره تجب الإفادة منه.

فالواو قبل الاسم الموصول الثاني واجبة من أجل عطف الجملة الثانية على الأولى(21)، فيقال: والتي سمعتها، والذي تحدث في الاجتماع، والذين كافأتهم الكلية، والذي نرى أثره. قال تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى، الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى، وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ **الأعلى**: 1-4.

21- ومن خلل استعمال الواو: سقوطها من جواب يتضمن النفي والدعاء. فنسمع كثيرًا: لا بارك الله فيك، لا جزاك الله خيرًا، لا طال عمرك لا أثابك الله. متصلة من غير سكتة بين النفي والدعاء، تشعر أن النفي جواب، والدعاء استئناف. أو واو بين النفي والدعاء، لتحقيق هذا المعنى، وهذه الواو في هذا الموقع مستحسنة، مستحبّة، حتى لا يتحول الكلام من الدعاء للمخاطب إلى الدعاء عليه. وقال البلاغيون في وصفها: إنها أحسن من الواوات على صدوغ الحسان. والصحيح في هذه العبارات أن يقال: لا وبارك الله فيك، لا، وجزاك الله خيرًا، لا، وطال عمرك، لا، وأثابك الله.

وقد وقع مثل ذلك لأبي بكر الصديق فنبه المتحدث على هذه الواو. وسأل عمر بن الخطاب رجلاً: هل كان كذا؟ فأجابه الرجل: لا أطال الله بقاءك. فقال عمر رضي الله عنه: قد عُلِّمتم فلم تعلّموا. هلاّ قلت: لا، وأطال الله بقاءك(22).

22- ومن خلل استعمال الواو سقوطها من (ولاسيما) في مثل: قابلت الموظفين لاسيما المدير، أشجّع الطلاب لاسيما المقصِّر، كُرِّم المتسابقون لا سيما المتفوقون، أعجبتني مدن المملكة لا سيما الرياض.

وهذا أسلوب شائع متداول لدى الكتّاب، حتى إنه قد يتكرر عند أحدهم مرتين أو ثلاثًا في الصفحة الواحدة. والصواب في كل ذلك (ولاسيما) لأن الواو واجبة ولا يصح الاستغناء عنها أو سقوطها عند الأكثرين. قال ثعلب: من استعمله (يعني: ولاسيما) على خلاف ما جاء في قول امرىء القيس:

ألا رُبَّ يوم لك فيهن صالح
ولاسيما يومٌ بدارة جُلْجُلِ

فهو مخطىء(23).

هذه الأنماط اللغوية تعدُّ ظواهر أسلوبية شائعة، وسمات تعبيرية معاصرة تحفل بها لغتنا العربية، سواء بين العامة أو المثقفين، أو المختصين في بعض الأحيان، فقد أكثر الكتّاب والمتحدثون من هذه النماذج، واستسهلوا استخدامها، وهجروا الأسلوب الفصيح، وربما تأثروا في بعض ذلك باللغات الأعجمية، وأسرفوا في توظيف هذه النماذج في السياقات اللغوية.

والواو في هذه المواضع مقحمة، زيدت بين عناصر متلازمة في الاستعمال اللغوي، أو ناقصة يفتقر إليها التركيب الفصيح، مما أخرج هذا الحرف العريق النشيط عن الأصل الأصيل الذي وضع له، والوظيفة التي حددتها له اللغة كالربط بين أجزاء الكلام، وإحكام الصلة بين العناصر المتباعدة نسبيًا، لكن بينها وشيجة ما، وقد أوضح عبدالقاهر الجرجاني ذلك فقال:(24).

«ولا تقول: زيد قائم وعمرو قاعد. حتى يكون عمرو بسبب من زيد، وحتى يكونا كالنظيرين والشريكين، وبحيث إذا عرف السامع حال الأول عناه أن يعرف حال الثاني. يدلك على ذلك أنك إذا جئت فعطفت على الأول شيئًا ليس منه بسبب، ولا هو مما يذكر بذكره، ويتصل حديثه بحديثه لم يستقمْ. فلو قلت: خرجت اليوم من داري. ثم قلت: وأحسن الذي يقول بيت كذا (قلت) ما يضحك منه، ومن هنا عابوا أبا تمام في قوله:

لا والّذي هُو عالمٌ أن النّوى
صبرٌ، وأنَّ أبا الحُسين كريمُ

«وذلك لأنه لا مناسبة بين كرم أبي الحسين، ومرارة النوى، ولا تعلّق لأحدهما بالآخر، وليس يقتضي الحديث بهذا الحديث بذاك».

فهذه الواو: الصغيرة الحجم، الضئيلة الجسم، الخفيفة النطق، السريعة الاستعمال، الكثيرة التداول.... الأصل فيها أن توضع بمقياس دقيق، وميزان حسّاس، وتوزيع متقن، وحسّ مرهف، وذوق لمّاح، لتؤدي وظيفة في البناء اللغوي، وفي الدلالة المعنوية، ويظلّ لها الإشعاع الكافي في إحكام الربط، وتلوين العاطفة، وإفراغ المشاعر، وتجسيم الأحاسيس، فإذا زادت في الكلام أو نقصت طاشت كفة الميزان أو هبطت، واختلّ نظم الكلام واضطّرب نسجه.

الهوامش:

1- في الأدب والنقد ص28، د. محمد مندور - دار نهضة مصر 1977م.
2- دلائل الإعجاز ص149، عبدالقاهر الجرجاني، نشر: محمد رشيد رضا 1380/6هـ.
3- يقول عبدالقاهر ص145: وتسميتنا لها (واو الحال) لا يخرجها عن أن تكون مجتلبة لضم جملة إلى جملة.
4- مرجع سابق ص142.
5- مرجع سابق ص144.
6- التراكيب الشائعة في اللغة العربية ص158-161، د. محمد علي الخولي - دار العلوم بالرياض 1402/1هـ.
7- مجلة القافلة، عدد رجب 1411هـ ص44 مقال: ابتذال الواو في الاستخدام.
8- دلائل الإعجاز - مرجع سابق ص150.
9- انظر القاموس المحيط: حرف (الواو).
10- مجلة القافلة، عدد رمضان 1415هـ ،ص48 مقال: تعثر الأدوات في أساليب المعاصرين.
11- انظر على سبيل المثال: رصف المباني في شرح حروف المعاني ص473-502 للمالقي، تحقيق د. أحمد الخراط، دار القلم بدمشق 1405/2، ومغني اللبيب 354/2 - 368 لابن هشام، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الكتاب العربي..بيروت - دون.
12- أخطاء الطلاب الشائعة ص55 للباحث. دار المسلم بالرياض 1415/1هـ.
13- مجلة الخفجي، عدد شعبان 1415هـ ص18 مقال: عصير الفواكه والخضار.
14- رصف المباني - مرجع سابق ص381.
15- بيان الرواة في موت دنيا - محمود تراوري الصفحات 19، 39، 53 مطبوعات نادي الطائف الأدبي 1414هـ.
16- الانحدار (قصص قصيرة) ص9 محمد الشقحاء مطبوعات نادي الطائف الأدبي - دون.
17- انظر: رصف المباني - مرجع سابق ص487 وفتح القدير 406/5 للشوكاني، دار الفكر بيروت، والجامع لأحكام القرآن الكريم 270/19 للقرطبي. تحقيق مصطفى السقا - دار الفكر بيروت.
18- الجامع لأحكام القرآن الكريم 271/19.
19- انظر تفصيل ذلك في فتح القدير كالسابق.
20- انظر: رصف المباني كالسابق. وديوان امرىء القيس ص115 تحقيق جماعة من الأدباء - دار الكتب العلمية بيروت 1403/1هـ.
21- مجلة القافلة، عدد ذي الحجة 1413هـ ص 48، «صفحة في اللغة».
22- أخطاء مشهورة ص17 الفريق يحيى بن عبدالله المعلمي، دار المعلمي للنشر - الرياض 1409هـ.
23- معجم القواعد العربية ص549 عبدالغني الدقر، دار القلم بدمشق 1406/1هـ وديوان امرىء القيس ص112.
24- دلائل الإعجاز - مرجع سابق ص150-151.

دراسة نقدية

الصورة في نظرية الخيال لدى الشعراء الأندلسيين

د. أحمد عبدالقادر صلاحية

يقوم هذا البحث باقتفاء آراء الشعراء الأندلسيين في الصورة الشعرية، ويقص أثر مفردات الصورة في الشعر الأندلسي بوصفها إحدى العناصر البالغة الأهمية في مفردات نظرية الخيال لدى الشعراء الأندلسيين التي اهتم بها الشعراء اهتمامًا فائقًا، ويقدِّم هذا البحث أطروحات جديدة عن الشعر الأندلسي ناجمة عن قراءة موسعة ومتأنية لدواوينه، مفادها أن نظرية الشعر الأندلسي تقوم على الخيال، وأنه ـ بتجليه في الصورة والإبداع والاختراع وما أشبه ذلك ـ عماد النظرية الأندلسية، محاولاً إثبات ذلك ـ نظريًا وتطبيقيًا ـ وتوضيح مدى اتساع وعي الشعراء لجوهر الشعر: الخيال، وتبيين آرائهم وأحكامهم وقواعدهم النقدية التي ظهرت في أشعارهم، قبل ـ أو بعد ـ أن أصبحت سلوكًا شعريًا ـ واقعًا أو مثالاً ـ لكون قسم منهم شعراء وعلماء في آن معًا.

فإن مما يميز الشعراء الأندلسيين من أضرابهم المشرقيين هو أن أغلبهم شعراء مثقفون ثقافة عالية، حتى إن بعضهم كانوا من العلماء في كل فن، ولن أقف عند ذلك فهو أشهر من أن يدلل عليه، ولكنني أخلص من ذلك إلى أن الشعراء الأندلسيين قد امتزج فيهم الشعر فطرة وتحكيكًا وسجية وتثقيفًا وطبعًا وعلمًا، بل إن الشعراء الأندلسيين هم الذين ذكروا أن للشعر علمًا خاصًا به، وهم الذين صاغوا مصطلح «علم الشعر» في أشعارهم، لذلك فهذا المصطلح ليس مصطلحًا أوروبيًا انتقل إلينا بوساطة الترجمة في العصر الحديث، كما يظن بعض الدارسين المحدثين، بل هو اصطلاح عربي نقدي ذاع حتى دخل الشعر الأندلسي، فقد ورد في قول ابن حمديس (ت:527هـ):

ووجدت «علم الشعر» أخفى من هوى
لم تُفشه عينٌ لعينِ رقيبِ(1)

وقد لاحت في أشعارهم ونثرهم ـ خطرات نقدية وشذرات ثاقبة في علم الشعر وصناعته تثبت انتقالهم إلى طور فني جديد منذ القرن الرابع، وفيه لم تَعُد الاستفادة من صور الأقدمين كافية، ولابد للشاعر في حرم الإبداع من قربان وشموع من ذوب القلوب، يقول ابن اللَّبانة (ت:507هـ):

من كان يُنفق من سواد كتابه
فأنا الذي من نور قلبي أُنفقُ(2)

ونموذج على الفن الشعري الأندلسي والأثر الكبير للخيال المبدع فيه حتى في الصور المكررة: صورة الفراش المحترق بالنار، فإذا كان الشعراء المشرقيون يشبهون أعداءهم أو أنفسهم أو قلوبهم بالفراش وهو يتلاشى في اللهب، في علاقة ثنائية كقول جرير (ت:110هـ) مثلاً:

وما مستنيرُ الخُبث إلا فراشةٌ
هَوَتْ بين مؤجّ الحريقين ساطع(3)

فإن الشعراء الأندلسيين يجعلون بفنهم وخيالهم تلك العلاقات الثنائية ثلاثية، فالمشبه به الفراش يرتبط بعلاقة أخرى مع الشوق، والنار ـ أيضًا ـ ترتبط بعلاقة أخرى مع الغرام لتغدو الصورة الثنائية المنفصلة لوحة خيالية مركبة العناصر كقول ابن سهل (ت649هـ):

إن فؤادي فَرَاش شوقكم
صادف نار الغرام فاحترقا(4)

لذلك كله فقد تشربوا حب الخيال بوصفهم شعراء، وأدركوا أهميته القصوى بوصفهم ذوي ثقافة وعلم ومعرفة، وسجل بعضهم ذلك في كتبهم بوصفهم مؤلفين موسوعيين.

الصورة

الصورة أو الصورة الفنية أو الشعرية «هي وساطة الشعر، أي الوحدة الأساسية في بنائه، فالشعر بناء لغوي يقوم أساسًا على التشكيل الصوري، وليس من شعر جيد لا يجعل الصورة الفنية الوحدة الأساسية في تشكيله»(5)، وقد سبق لي أن عالجت طبيعة الصور الفنية في الشعر العربي عامة والأندلسي خاصة (6)؛ لكونها من أهم قضايا نقد الشعر العربي وأخطرها، وأثبتُّ إدراك النقاد العرب والفلاسفة مفهومها، وبينت جذورها التراثية.

ويحاول البحث هنا أن يتقدم مرحلة أخرى أكثر أهمية ليرصد معالجة الشعراء الأندلسيين ذاتهم - في أشعارهم - مفهوم الخلق الشعري ومدى اعتماده على التشكيل الصوري.

ولابد من الإشارة - أولاً - إلى أن الدلالة اللغوية للجذر «صور» هي التشكيل بصورة أو جعل الشيء ذا صورة، وبذلك تقترب من بعض دلالة الخيال اللغوية والأدبية والنقدية، وهي بذلك أقرب المرادفات للخيال، وثمة بعض الأمثلة على جنوح بعض الشواهد إلى الدلالة اللغوية، يقول ابن هانئ:

وقد صَوَّرتْ نفسي لِيَ الفتح صورة
وشامته(7) لي من غير نظرة شائم(8)

ويقول ابن حمديس:

لله ما صوّر في فكرتي
بَرْدُ المنى منها وحَرّ الغرام(9)

أما الدلالة الأدبية النقدية لدى الشعراء الأندلسيين فتتمثل في كونها مولودة الخيال والوجه المرئي منه، وكونها الطريقة المثلى للتعبير عن الأفكار، وثمة براهين قاطعة على اهتمام الشعراء الأندلسيين بها وكونها عماد الأندلسية، لإدراكهم أن الشاعر، بوصفه منبعًا للخيال، هو الأقدر على خلق الصور وإبداعها، ولعله ليس أدل على فهم الشعراء هذه الحقائق من قول ابن حمديس:

واذا أردت بأن تُصوّر للمنى
صورًا فسلّمْها لفكرةِ شاعر(10)

ويمدح أبو حيان المفسر النحوي العالم الشاعر (ت:745هـ) صديقين له شاعرين، ويثني على قريحتيهما ويعرج - لكونه عالمًا - على طريقة نظمهما الشعر، وطريقة عمل الشعر عامة، فنجد هذه الطريقة قائمة في الذهن أساسًا على إبداع الصور، ومن ثم يصف معناها باللطف ولفظها بالرائق المتأنق، وهي من صفات الأندلسية في الشعر، يقول:

أقاما لها في الذهن أبدع صورة
لطيفة معنى رائق اللفظ مونق(11)

وقد يلبس الشاعر لبوس الناقد المنظر الخبير بالعملية الإبداعية فيصدر الأوامر ويسدي النصائح في علم الشعر وعمله، يقول ابن حمديس:

زِنْ بديع الكلام وزنًا مُحرّرْ
مثلما يوزن النُّضَار المشجَّرْ(12)
روحُ معناك، جسمُه منك لفظ
وعلى كل صورةٍ يتصوّر
فإذا ما مقالُ غيرك أضحى
عَرَضًا، فليكن مقالُكَ جوهر(13)

إنها نظرات ثاقبات لامثيل لها في النقد، ومع أن وظيفة الشعراء تختلف عن وظيفة النقاد، فإن لبعض الشعراء الأفذاذ آراء في الشعر ورؤى في طبيعته تفوق مقاييس أغلب النقاد وموازينهم، فابن حمديس هنا لايجعل أي كلام موزون شعرًا بل بديع الكلام، والبديع - كما سنرى - يطلق على المخترع من الصور والخيال، وعندما يمثّل لذلك ينتقي الذهب أغلى المعادن ليقابل اللفظ الشريف، ولكنه ليس سبائك، فلا تكفي جودة الألفاظ وانتقاؤها ورصفها لصنع الشعر، بل عليها أن تكون مصوغة على أشكال لاتنتهي، لذلك جعل الذهب على هيئة الشجرة، وينظر - أيضًا - إلى تحرير الوزن وتقويمه بدقة كما يدقق الصائغ في وزن الذهب، ثم يشرّح الشعر بمبضع جراح خبير، ويرصد أهم أجزائه المكونة وهي: المعنى واللفظ والصورة، ويفاجئنا برأي نقدي عظيم القيمة مفاده أن الشعر مرآة صاحبه، وأن أجزاءه الباطنة والظاهرة تناسب أجزاء الإنسان الباطنة والظاهرة، فيرى أن معنى الشعر هو روح معنى صاحبه، وروح المعنى تركيب استعاري جديد ظهوره، بعيد غؤوره يسند إلى الإنسان الشاعر، ثم يذكر بنية جسم الشعر ووحدته التركيبية وهو اللفظ، ويسنده - كذلك - إلى الإنسان الشاعر بل يجعله بعضًا منه، وبذلك يختلف تصويره اختلافًا كبيرًا عن تشبيه اللفظ والمعنى بالجسم والروح، وهذان العنصران يعبر بهما عن المراد بأشكال كثيرة جدًا وصور لاتنتهي، لذلك فإن الشاعر المبدع يتميز من غيره بإبداعه أشكالاً كثيرة فاتنة خلابة للمعنى الواحد وللمعاني المتعددة، وتكون هذه الصور مسبار إبداع الشعر وشعريته، ثم يستفيد من مصطلحات علماء الكلام «الجوهر والعرض» ليقرر أن الشاعر أو الشعر الجيد يهتم بحقائق الأشياء وجواهرها، أما سواه فيهتم بقشور الأشياء وأعراضها، ولعل هذا الحكم النقدي يشابه ما أطلقه العقاد في الديوان على شعر أحمد شوقي يقول: «إن

مصطلح «علم الشعر» ليس مصطلحًا أوروبيًا، بل هو مصطلح نقدي عربي ذاع في النقد العربي حتى صاغه الأندلسيون في أشعارهم

الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء لا من يعددها ويحصي أشكالها وألوانها»(14).

إن انفتاح طرائق التعبير وتنوع أساليبه يعني اتساع الخيال وانعدام حدوده، وذلك التنوع في التعبير يقصده الشعراء عمداً للدلالة على خصب أخيلتهم ومن ثم تفوقهم الشعري، يقول ابن بقي (ت:540هـ):

هو الشعر أجري في ميادين سبقه
وأفرج(15) من أبوابه كل مبهم(16)
وسل أهله عني هل امتزت منهم
بطبعِي وهل غادرتُ من مترَدَّمِ
سلكتُ أساليب البديع فأصبحت
بأقوالِيَ الرُّكبان في البيد ترتمي(17)

يكتفي الشاعر بتعريف الشعر بأنه الشعر وحسبك به من علم شامخ، ويصور نفسه في حلبة سباق الشعر ـ وحيداً ـ يجري من دون منافس، موحياً بتفوقه وتفرده، ومن ثم يقوم بما لم يستطع به سواه فيفتح كل ما كان مغلقاً من أبواب الشعر مستعصياً على سابقيه، أي إنه يأتي بالجديد الفائق معنى وصورة، ثم يستشهد بأهل العلم بالشعر وأصحاب التبصر فيه على امتيازه وتفرده من سائر الشعراء، وعلى استنفاده أساليب الشعر وصوره مستفيداً من قول عنترة المشهور:

هل غادر الشعراء من متردم(18)

ناسباً القيام بفعل المغادرة إلى نفسه، ثم يعلل هذا الزعم بأنه عَبَر طُرُق الإبداع جميعها حتى غدا شعره متفرداً خليقاً بأن تتناشده الركبان فتروّح عن أنفسها مشقة السفر ووعثاء الفيافي.

وكذلك يزعم ابن عبدون (ت:529هـ) بأنه وصل إلى آفاق الكلام جميعها ولملم أجمل ما فيها، يقول:

طَبَّقتُ آفاق الكلام فلم أدع
زهراً يَرِفّ ولا جُمَاناً ينظم (19)

وتتحول هذه المعاني التي تصب في غرض الفخر إلى غرض المديح، فيوصف الممدوح بأنه يجدد مذاهب الشعر التي يسلكها في كل قصيدة، وفي ذلك مدح باتساع الخيال وغزارته إلى درجة أنه لم يترك ما يقال بعده، يقول ابن هاني:

وفي كل يوم فيه للشعر مذهب
على أنه لم يُبقِ قولاً لقائل(20)

وينقل ابن حمديس هذه الصفات من الممدوح إلى مُدّاحه الفحول، يقول:

فكأن المدّاح فيه قروم(21)
ملأ الخافقين(22) منه الهدير
بقواف هُدُوا إليهن سُبْلاً
ضل عنهن جرول وجرير(23)

يشير البيت الثاني إشارة ذكية إلى اختلاف شعري الأندلس والمشرق، وتفوّق الأول على الأخير الذي أسمعت بدائعه المشرق والمغرب هديرها، بنسبة هداية السبيل إلى جميع الشعراء الأندلسيين، والضلال عن هذه القوافي الثمينة لكبيري شعراء العصر الراشدي والأموي، ولعل انتقاء ابن حمديس هذين الشاعرين اللذين تكثر في شعريهما الصور اللفظية، أو اللذين لم تكن الصور الفنية غرضا أساسياً يسعيان إليه ـ لعل ذلك كان مقصوداً ليبين تباين أسلوب شعريهما، وليقابل اقتصاد قدامى الشعراء المشرقيين في الصور بإفراط الشعراء الأندلسيين في الخيال ـ تبعاً لأندلسيتهم وولعهم الشديد بالصور الفنية الجديدة، هذا الولع الذي غدا سجيّة في الأدباء وطبعاً في جبِلّتهم، وعادة في شعرهم ونثرهم، يلمح مثل هذا في مدح ابن هاني، يقول:

وما عبته إلا بأني وصفته
وشبّهته يوماً من الدهر بالقطر(24)
وماذاك إلا أن ألسننا جرت
على عادة التشبيه في النظم والنثر(25)

بعد هذا الطواف الموسع في آراء الشعراء الأندلسيين الشعرية في الصورة التي نجمت عن تنخّل مفردات الصورة في دواوينهم ودرسها يتضح بعد هذا بجلاء عمق فهمهم حقيقة الصورة في الشعر ودلالتها على عدم انتهاء طرائق التعبير، واهتمامهم الكبير بها بوصفها إحدى الدعائم الأساسية لنظرية الشعر الأندلسية. كما يتجلى من وفرة تلك المفردات وثراء دلالتها في معجم شعراء النقدي أثر نسغ الصورة في شجرة الشعر الأندلسي وقيمته البالغة إذ من دونه تذبل هذه الشجرة وتفقد لونها وتموت.

الهوامش

1- ديوان ابن حمديس ـ صححه وقدّم له د. إحسان عباس ـ دار صادر ـ دار بيروت ـ بيروت 1960م. ص 59.
2- ديوان ابن اللّبانة ـ جمع وتحقيق د. محمد مجيد السعيد ـ جامعة البصرة ـ البصرة ـ 1977م. ص 73.
3- ديوان جرير ـ شرح ديوانه ـ شرح محمد إسماعيل الصاوي ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ د.ت. ص366.
4- ديوان ابن سهل ـ تقديم د. إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ـ 1980م. ص253.
5- صلاحية، د. أحمد عبد القادر ـ البحر في الشعر الأندلسي ـ رسالة ماجستير ـ جامعة دمشق ـ دمشق ـ 1990م. ص117. وقد نشر بحث الصورة الفنية في مجلة جامعة دمشق، بعنوان «جوانب من الصورة الفنية في النقد العربي الحديث» مجلة جامعة دمشق ـ المجلد (8) العددان (29 - 30) ـ عام 1992م (91 - 110).
6- المرجع نفسه ص117 وما بعدها.
7- شام: نظر إليه من بعيد.
8- ديوان ابن هاني ـ شرح كرم البستاني ـ دار صادر ـ دار بيروت ـ بيروت ـ 1964م. ص 310 وانظر ـ كذلك ص270.
9- ديوان ابن حمديس ص459.
10- ديوان ابن حمديس ص209.
11- مونق: معجب يسر ويفرح، وانظر ديوان أبي حيّان ـ تحقيق د. أحمد مطلوب، و د.خديجة الحديثي ـ مطبعة العاني ـ بغداد ـ ط1ـ 1969م. ص319.
12- النضار المشجر: الذهب المنقش بهيئة الشجر
13- ديوان ابن حمديس ص459.
14- العقاد ـ عباس محمود ـ (وزميله المازني) ـ الديوان ـ مكتبة السعادة ـ مصر ـ ط2 ـ 1921م ـ 16/1.
15- أفرج: أفتح.
16- مبهم: مغلق مرتج.
17- ديوان ابن بقي ـ جمع محمد محمود جرار ـ رسالة ماجستير ـ الجامعة الأردنية ـ الأردن ـ 1976- 1977م. ص355.
18- ديوان عنترة ـ تحقيق محمد سعيد مولوي ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط2 ـ 1983م ص186.
19- ديوان ابن عبدون ـ تحقيق سليم التير دار الكتاب العربي ـ دمشق ـ ط1ـ 1988م. ص180.
20- ديوان ابن هاني ص306.
21- القرم: الفحل الذي يترك من الركوب والعمل أو هو ما لم يمسه الحبل.
22- الخافقان: المشرق والمغرب.
23- ديوان ابن حمديس ص248.
24- القطر: المطر.
25- ديوان ابن هاني ص154.



الشاعر هل يصلح مؤرخًا؟

د. محمود جبر الربداوي

قال أبو تمّام:

غـدت تسـتجيـر الدمع خـوف نوى غـدِ ... وعــاد قـتــادًا(1) عندهـا كلُّ مَـرْقَـدِ
وأنـقــذهـا من غـــمــرة الموت أنـه ... صـــدود فــراقٍ لا صـــدود تعـمّــدِ
فـأجـرى لـهـا الإشـفـاق دمـعًا مـورّدًا ... من الـدم يجـري فــوق خــدٍّ مُـوَرَّدِ
هي الـبـدر، يُغنيـهـا تودُّد وجــهـهـا ... إلـى كــل مَـن لاقــتْ، وإنْ لـم تـوَدَّدِ
ولكنني لـم أحــوِ وفــرًا مـجـمَّـعًـا ... فــفــزتُ به إلا بـشــملٍ مـبــدّدِ
ولـم تعطني الأيام نومًــا مــسكّنًا ... ألَذُّ بـه إلا بـنـومٍ مـشـرَّدِ
وطول مُـقَـام المرء في الحي مُـخْلِقٌ ... لديـاجـتـيـه(2)، فـاغـتـرِبْ تَتَجـدَّدِ
فـإني رأيت الشـمسَ زِيدتْ مـحـبَّـةً ... إلى الناس أنْ ليستْ عليـهم بسـرمـدِ
حَلَفـتُ بربِّ البـيض(3) تدمى مـتونهـا ... وربِّ القنا المُنْآد والمُتَـقَـصِّـدِ
لقد كفَّ سيفُ الصامتيِّ(4) محمدٌ ... تـبــاريح ثأر الـصــامـتيِّ مـحـمَّـدِ
رمـى بـك الـلـه بـابَـكًـا وولاتَـهُ ... بقـاصمـةِ الأصلاب في كل مـشهـدِ
رآك سـديـد الرأي والـرمح في الوغـى ... تأزَّرُ بالإقــدام فــيــه وترتـدي
ولـيس يُجلّي الكربَ رأيٌ مـسـدَّدٌ ... إذا هـو لـم يُؤْنَسْ برمـحٍ مُـسَـدَّدِ
وقـائعُ، أصْلُ النصـر فـيـهـا وفـرعُـه ... إذا عُـدِّدَ الإحـسـانُ أو لـم يُعَـدَّدِ
فـمـهـمـا تـكن من وقـفـةٍ بعـدُ لاتكن ... سـوى حَـسَنٍ مما فـعـلت مُـرَدَّدِ
مـحـاسنُ أصناف المغنّين جـمـةٌ ... ومـا قـصـبـات السـبق إلا لَمَعْبَـدِ
رأى بـابَكٌ منك التي طلعتْ لـه ... بنَحسٍ وللدين الحنيف بأسـعُـدِ
وإني لأرجـو أن تُقلَّد جـيـدَه ... قـلادة مـصـقـولِ الغـرار(5) مُـهَنَّدِ

يتجادل المثقفون في هذا الزمان في قيمة الشعر مصدرًا تاريخيًا، ويقلّل المؤرخون من جدوى الشعر في رصد الأحداث التاريخية، ويحتج هؤلاء وأولئك بأن صدر النثر أرحب من صدر الشعر لكتابة التاريخ، محتجين أيضًا بأن ضيق الساحة الشعرية الذي تفرضه القافية الموحَّدة والوزن الموحَّد، كلاهما يقف حائلاً دون استيعاب تفاصيل الحدث التاريخي المتشعب الأطراف المتعدّد الأسباب، هذا فضلاً عن أن هدف الشاعر من الخطاب الشعري يختلف عن هدف المؤرخ من الخطاب التاريخي، كما أن عناية الشاعر بالجانب الفني في شعره يجور على الجانب الفكري في عمله ذلك، ولكنْ مع كل هذه المسلَّمات يرى المدافعون عن الشعر أن كثيرًا من الشعراء رصدوا أحداث عصرهم بصدق ودقة أكثر من المؤرخين، فمثلاً صورة فتح عمورية في شعر أبي تمام أوضح وأجلى منها في أي مصدر تاريخي آخر، وكذلك صور وقائع حرب سيف الدولة التي نجدها في سيفيات المتنبي، ومثل ذلك كثير.

فإذا تذكرنا أن المؤرخ يكتب الحدث التاريخي، في بعض الأحيان من وجهة نظر السلطة التي يعايشها، أدركنا أن الشاعر يتمتع بقسط يسير من الانفلات عن ضوابط السلطة، وإن كنا نعترف بأن الشاعر في كثير من الأحيان يظل مشدودًا إلى بعض عناصر السلطة من القادة والأمراء الذين يمدحهم فيغدقون عليه الأموال والأرزاق ومعطيات الحياة الضرورية والترفيهية، ولكنه، مع هذا كله، يظل متمتعًا بنصيب من الحرية بصفته فنانًا، لا يتمتع بمثلها المؤرخ.

نقدم هذا القول بين يدَيْ قصيدة أبي تمام في تمجيد أبي سعيد محمد بن يوسف الطائي، وقبل أن نستشف صورة أحداث العصر من خلال هذه القصيدة علينا أن نعرف مَن أبو سعيد هذا؟ فتجيبنا كتب الأدب والتاريخ بأن أبا سعيد هذا هو محمد بن يوسف الطائي، أحد قادة الخليفة المعتصم، الذي انتدبه الخليفة ليكون على رأس جيش يكون طليعة للجيش الكبير الذي جهّزه المعتصم بقياة (الإفشين) سنة 220 هـ ليقمع الفتنة الانفصالية الكبرى التي تزعمها (بابك الخرّمي)، وهي فتنة سياسية مذهبية، بدأت تمردًا عسكريًا دام زهاء عشرين سنة، أرهقتْ جيوش الخلافة العباسية في زمن المأمون والمعتصم، ثم انتهت بقتل بابك وتشريد أتباعه. وقام محمد بن يوسف بالمهمة الاستطلاعية التي أوكلها إليه الخليفة خير قيام، فتوجه إلى أرض (ميدان المعركة)، وأعاد بناء الحصون التي كان قد خربها بابك في معارك سابقة بين (زنجان وأردبيل) وألحق خسائر فادحة بجيش بابك في عدة معارك فرعية، وأقام في (الشريط الحدودي) بينه وبين بابك عدة حصون لتكديس السلاح (مسالح)، ونظّم البريد العسكري لتسهيل مهمة الاستخبارات العسكرية التي جعل لها مراصد استطلاعية في قمم الجبال لمراقبة تحركات العدو، على الرغم من شدة الثلوج التي تغطي هذه القمم، كما رتب المهمات التموينية التي كانت تسمى مهمات (الميرة) مع ترتيب المهمات المساندة لخدمات المؤن والذخيرة التي يُطلق عليها في زمننا هذا المهمات (اللوجستية) وذلك بين العاصمة سامرا وعقبة حلوان، وبين حلوان وأذربيجان، ورسم خرائط تحركات الجنود في حالتي الكرّ والفرّ عبر الجبال والشِّعاب، كل هذه المهمات العسكرية التي تميّز بها القائد الطائي ضمنتْ النصر لجيش الإفشين، فتغلبت قوى الخلافة على بابك في مدينة (البذ) حصن بابك الحصين، ثم اقتيد إلى دار الخلافة فصلبه المعتصم ليكون عبرة لكل من تُسوّل إليه نفسه بالتمرد على خلافة المسلمين.

إن الحنكة العسكرية التي تميّز بها القائد محمد بن يوسف، والتي تتوجت بالنصر على أعتى حركة انفصالية على الخلافة العباسية، كانت جديرة بالثناء، قمينة بالمدح من قِبَل شاعر الخليفة المعتصم: أبي تمام، وبخاصة أن أبا سعيد أحد ممدوحي أبي تمام المفضلين لديه، وفي أول الجزء الثاني من ديوانه الذي شرحه التبريزي عدة قصائد دالة في مدح هذا القائد الذي كان أبو تمام يرتاده في مواقعه ويرحل إليه

بين الفينة والفينة في الثغور (المنطقة الحدودية) في الشرق القصيّ من الخلافة.

وإذا تركنا جانب الرصد التاريخي الذي استجليناه في القصيدة، والتفتنا إلى الجانب الفني فيها طالعتْنا مهارة أبي تمام الفنية التي كانت تحاول الاستفادة من المنهج التقليدي للقصيدة العربية وتطعيمه بالمنهج التجديدي الذي سلكه في الكثير من شعره، فليس جديداً أن نقول إن هذه (المدحة) تسير على النهج القديم لقصيدة المدح من حيث المطلعُ الغزلي والترصيع بالحكمة، والوصول إلى المدح الذي هو بيت القصيد فيها، والمستحوذ على أكثر أبياتها، ولكنّ الغزل الذي طالعنا به ليس كغزل شعراء الأعراب: من وقوف على الأطلال، ووصف للرحلة والراحلة، فهذه تقاليد تجاوزها الزمن في العصر العباسي، ولكن الذي لم يتجاوزه الزمن هو موضوع الغزل، فهو موضوع خالد متجدد، يصلح لكل زمان ومكان (كما ذكر ابن قتيبة). وغزل أبي تمام، في هذه القصيدة وفي الكثير من قصائده غيرها، بعكس صورة الغزل كما عرفه الشعراء السابقون، فغزل أولئك الشعراء القدامى يظهرهم لنا عاشقين مولّهين، يجرون وراء المرأة التي يلاحقهم طيفها، فيقلقهم، ويقض مضاجعهم؛ ولكن غزل أبي تمام يعكس هذه الرؤية، فيجعل المرأة هي المشوقة المستهامة، وهي التي تستجير بدمعها خوف صدود الرجل عنها، وإن كان صدوداً اضطرته إليه ظروف الفراق من أجل كسب العيش، وليس صدودَ القلى والهجران، وهي التي تبكي على الرجل المفارق بعد أن كان في التقليد الغزلي القديم ـ هو الذي يبكي على فراقها، وبتقديري أن الصورة الشعرية للمرأة وهي تبكي أجمل ـ فنياً ـ من صورة الرجل وهو يبكي، وبخاصة إذا كانت من النساء التي وصفهن أبو تمام، حيث قال:

هي البدر، يغنيها تودد وجهها

إلى كل من لاقت، وإن لم تودّد

فتوددُ الوجه الجميل إلى كل من لاقى صورة فنية شجيّة تجعل القصيدة تتودّد إلى كل متلقٍّ يتلقاها، فتشيع في نفسه الحب والألفة والوداد، فالشكل الغزلي في المطالع التقليدية والمطالع التمّامية واحد، ولكنه عند أبي تمام أفرغ من مضمونه القديم ـ كما قال الدكتور شكري فيصل ـ ليُملأ فيه مضمون جديد يتناسب مع حضارة المجتمع العباسي.

وإذا خطوتُ من قسم الغزل في هذه القصيدة الذي استغرق أربعة أبيات، إلى القسم الذي يليه ألفيتُ قسم الحكمة في أربعة أبيات أخرى، حكمة، ولكنها ليست كحكمة زهير وطرَفة، لكنها حكمة التجربة التمّامية، حكمة الاغتراب، وعندما يتحدث أبو تمام عن الاغتراب لايكون قد فارق منهج القصيدة القديم الذي يقوم على وصف الرحلة والراحلة، ولكنّ أبا تمام عوّدنا على إفراغ المنهج القديم من محتواه التقليدي وملئه بمحتوى جديد، فهو هنا يفرغ وصف الرحلة، ويملأ مكانها بوصف الاغتراب، فإذا كانت الرحلة وصفاً لمحسوس، فالاغتراب وصف لمعنى مجرد ومشاعر معنوية.

وأبو تمام أمضى حياته حليف رحلة، وأليف اغتراب، لايستقر في مكان، ولايتخذ بقعة من الأرض وطناً له، فكل بلاد العرب وطنه الكبير، وقد صرّح بهذا عندما قال:

بالشام أهلي، وبغداد الهوى، وأنا

بالرقتين، وبالفسطاط إخواني

عصابة جاورتْ آدابُهم أدبي

فهم وإنْ فُرّقوا في الأرض جيراني

خليفة الخضر، من يَربَع على وطن

في بلدة، فظهور العيس أوطاني

والاغتراب، في رأيه، عماد الحياة، ولذلك تردد مفهوم الاغتراب كثيراً في شعره، وهذا ما جعل بعض النقاد يعجبون أشد الإعجاب بتعابيره عن الاغتراب حتى حبب القاعدين بالاغتراب، «قال المبرّد: قدم عمارة بن عقيل (ابن حفيد الشاعر جرير) بغدادَ، فاجتمع الناس إليه.. وقالوا: ههنا شاعر اسمه أبو تمام يزعم أنه أشعر الناس... فقال: أنشدوني له، فأنشدوه من هذه القصيدة الأبيات الأربعة الغزلية. ثم قطع المنشد، فقال عمارة: زدنا من هذا، فوصل وقال:

ولكنني لم أحوِ وفراً مجمعاً

ففزت به إلا بشمل مبدّد

ولم تعطني الأيام نوماً مُسكّناً

ألذُّ به إلا بنوم مشرّد

فقال عمارة: لله درّه، لقد تقدم صاحبكم في هذا المعنى جميع من سبقه، على كثرة القول فيه، حتى لحبّب الاغتراب، هيه، فأنشده:

وطول مقام المرء في الحي مُخلِق

لديباجتيه، فاغتربْ تتجدّد

فإني رأيت الشمس زيدت محبة

إلى الناس أن ليستْ عليهم بسرمد

فقال عمارة: كَمُلَ والله، إن كان الشعر بجودة اللفظ، وحُسْن المعاني، واطّراد المراد، واستواء الكلام، فصاحبكم هذا أشعر الناس وإنْ كان بغيره فلا أدري»(6).

وبعد حكمة الاغتراب هذه يدخل الشاعر في موضوعه الذي أنشأ قصيدته من أجله، وهو المدح، فيبدؤه بالقَسَم، ولكنه يختار للقسم ما يتناسب مع الحرب التي هي صلب الموضوع، كالسيوف التي تدمى متونها، والرماح التي انحنتْ وتكسّرتْ من طول الصراع ومنازلة الأقران، ويأتي جواب القسم في البيت الثاني، بأن سيف الممدوح أخذ بثأر قائد سبق أن تصدى لبابك الخرّمي، ولكنّ القدر عاجله في المعركة، وهو محمد بن حميد الطوسي الذي رثاه أبو تمام بقصيدته العصماء التي مطلعها:

كذا، فليجلِّ الخطب وليَفدح الأمرُ

فليس لعين لم يَفضْ ماؤها عُذرُ

والممدوح والمرثي ينتميان إلى جدهما الأكبر: الصامت، وكلاهما اسمه محمد قال:

لقد كفّ سيفَ الصامتيّ محمد

تباريح ثأر الصامتيّ محمد

ولا أرى العودة إلى الجانب التاريخي للقصيدة، فهذه فكرة وضّحتُها قبل قليل، ويطالعنا في الجانب الفني البديع الذي أولع به أبو تمام ولعاً شديداً بطباقه وجناسه واستعاراته البعيدة، وكناياته المعمقة، والعبارات المفعمة بالمعاني المركزة، وتمثله بالشعر القديم وتضمين صوره، حتى اتُّهم بأنه يغرف من صور القدامى، فقد قال الصولي: «إن قول أبي تمام: فإني رأيت الشمس زيدت محبة..إلخ... مأخوذ من قول بعض شعراء بني أسد، أو الكُمَيْت:

«ولو لم تَغبْ شمس النهار لمُلّت»(7).

صحيحٌ أن أبا تمام أسرف في استخدام البديع إسرافاً شديداً، لمسه النقاد في مرحلة مبكرة من تاريخ النقد العربي كابن المعتز في مقدمة (بديعه) وبخاصة ما سماه المرزوقي (نوافر الأضداد)(8). هذه الظاهرة التي وقف عندها الدكتور شوقي ضيف في كتابه: الفن ومذاهبه في الشعر العربي وقال: «كل ذلك يدل على أنّ عقل أبي تمام كان مفعماً بنوافر الأضداد، وقد راح يستخدمها في أبياته استخداماً فنياً واسعاً، فإذا هي تتحول إلى لون زاه من ألوان الفن الزاهية»(9).

هذه العناية التي أولاها أبو تمام للبديع عامة ولنوافر الأضداد خاصة جعلت الدكتور عبدالكريم اليافي ينعت أبا تمام بأنه أكبر ممثل لفن (الباروك)، لأن ألفاظه أصبحت تستعمل لا لمعانيها الموضوعة لها بالتدقيق، بل لتناسبها ومراعاة نظائرها وأضدادها... إن تفكيره يصح أن نصفه في العصر الحديث بكونه جدليًا (ديالكتيكيًا) فهو في الشعر يجمع غالبًا بين الأضداد والعناصر المتنافرة المتغايرة»(10). واستشهد الدكتور اليافي بالأبيات الأربعة التي أوردناها في المقطع الثاني قبل قليل، ثم قال بعد تعقيبه عليها: «إننا في نثرنا نظم أبي تمام يُخيَّل إلينا كأنما نلخص كلام (هيغل) في الديالكتيك الذي صنعه، ولو عالج هذا الفيلسوف هذا الموضوع لما أتى بشيء أكثر... بل نحن حين نطالع شعر أبي تمام نجد أنه قد سبق (هيغل) وأمثاله من الفلاسفة بعصور طويلة، فشقّ طريق الديالكتيك المستند إلى صراع الأضداد، فهو في الحقيقة أبو الجدل الحديث، ولكنّ أبا تمام حينما انتهج هذا في شعره كان ذا مذهب شعري مبتكر، وإن مسّ هذا المذهب الشعريُّ الفلسفة، كما أن هيغل بعده بأحقاب كان ذا مذهب فلسفي جديد، وإن كانت دعائمه تستند إلى بعض الاعتبارات الفنية»(11).

وخلاصة القول إن قصيدتنا هذه جمعت في قصتها الجانب التاريخي الذي هو جزء من تاريخ هذه الأمة، ووصفت القائد العسكري بكل حنكته وتجاربه الحربية والمواقع العسكرية التي حدثت فيها المعارك والنتيجة التي تُوِّجت بها المعركة على متمرد استمر تمرده زهاء عشرين سنة، وهذه القصيدة إن لم تكن إضافة للخطاب التاريخي في كتب المؤرخين فهي رديف صادق دقيق للنص التاريخي، هذا فضلاً عن أنها أوقفتنا على بعض خصائص شاعر مجدِّد تميّز بمذهب كان مجال نقاش وحوار ساخن في أوساط المثقفين والنقاد آنذاك، ومايزال.

الهوامش

1- في بعض نسخ الديوان يبدأ القصيدة بقوله: (سَرَتْ) وفي بعضها (غدت) وهي أكثر انسجاماً مع مذهب أبي تمام في الجناس مع لفظة (غد) في آخر الشطر. والقتاد: نبات له شوك صلب.

2- الديباجتان: الخدان، أو اللّيتان، وربما عنى (الخدين) لأنهما في معنى الوجه، وقد يُحتمل أن يكون أجرى الديباجتين مجرى البردين والثوبين. والمراد ما يظهر من أمره، لأن ملبس الإنسان يدل على باطنه.

3- البيض: السيوف، والقنا المنآد والمتقصّد: الرماح المنحنية والمتكسّرة.

4- الصامتيّ محمد الأول: هو الممدوح محمد بن يوسف، والثاني: هو محمد بن حميد الذي قتله بابك ،وكلاهما من بني الصامت أحد أجداد الممدوح.

5- غرار السيف: متنه، وفِرِنْده.

6- أخبار أبي تمام للصولي ص 59 ، 60 ، 61.

7- شرح ديوان أبي تمام للتبريزي 23/2.

8- شرح ديوان أبي تمام للتبريزي 371/1.

9- الفن ومذاهبه في الشعر العربي، الدكتور شوقي ضيف، ص 252.

10- دراسات فنية في الأدب العربي الدكتور عبدالكريم اليافي ص 106.

11- المرجع نفسه ص 112.

المتنبي شاهد على

د. حسين علي محمد

تمثل شخصية "المتنبي" في رواية من "أوراق أبي الطيب المتنبي" دور المثقف الانتهازي، الشاهد على العصر.

أما أنه انتهازي، فلأن مايشغله هو تحقيق الـ "أنا" الضخمة، ويتجسد تحقيق هذه "الأنا" عنده في رغبته أن يعطيه كافور-حاكم مصر- ولاية، يكون أميراً عليها.

يقول المتنبي في بداية الرواية:

"الطريق وحيدة، وواضحة، إلى الفسطاط. الأمن والأمان. الحكم والسلطان. لابد أن يلقاني الأستاذ أبو المسك كافور بما يليق بمنزلتي. ما أتيتُ إلى مصر إلا وقد شغلت الألسن، وعمرت قصائدي مجالس الأنس، واستعانت بي أقلام الكتّاب، وأقوال الخطباء، ولحون القوّالين والمغنين، وسهرت فيها الأعين، وكثر الناسخ لشعري، الغائص في بحري، المفتش عن جمالي ودُرّي، فشرّق شعري حتى ليس للشرق مشرق، وغرّب حتى ليس للغرب مغرب. تكفي ثلاث قصائد، وربما قصيدتان. أتحدّث عن مناقب الأستاذ، ومآثره يهبني ماعجزت مدائحي في سيف الدولة عن تحقيقه، وماكان تلميح رسل الأستاذ به يبدو تصريحاً: ولاية عسكرية في صيدا، أو في ......"(1)

وهو انتهازي أيضاً، حيث نلمحه في النص الروائي-قبل القطيعة بينه وبين كافور- يصف كافوراً بالحاكم الصالح، الذي يبتعد عن مواطن الشبهات ومايُغري بالفساد، ويستمع إلى شكايات الناس، ولا يُقدم على شيء فيه مساس بالحرمة أو الخلق الكَريم، ويصدع بالحق، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر(2).

فإذا أخفق في الحصول على الولاية انقلبت الصورة إلى سواد، وهذا ما تشي به صفحات معظم الرواية.

وفي لحظة من لحظات الكشف يعترف المتنبي بانتهازيته، وأن الولاية هدفه الأسمى، وفي سبيلها دمّر كل شيء من دين أو أخلاق أو عُرْف، فهجا من لا يستحقون الهجاء من أهل مصر، كأنه يطلب منهم على حد تعبير ابن رشدين أن يحققوا له ماعجز عن نيله من ولاية. ويسأله عبد الرحمن السكندري: هل لو وليت صيدا أو مقاطعة في الصعيد كنت تهجو المصريين؟(3).

وأما أنه شاهد على العصر-عصرنا، عصر إنتاج الرواية، لا عصر المتنبي التاريخي- فالأمثلة كثيرة، ولكننا نتوقف عند أربعة شواهد:

أ- الجماعات الوافدة/ إسرائيل:

المتنبي شخصية معاصرة، ترى الجماعات الوافدة التي جاءت تهدد حدود مصر الشرقية، فتسجّل همجيتها، وعدوانيتها، وحبها للسيطرة:

"شنت الجماعات الوافدة هجمة مفاجئة على إحدى قرى الحدود، باغتوا الحامية المصرية فقتلوا أفرادها، ونهبوا البيوت والدور، وسبوا الأطفال والنساء. تلاغطت الأحاديث عن الجماعات الوافدة، تُضايق الناس في معاشهم، وتُنغِّص عليهم حياتهم بإغاراتها المتعددة، تروّع الآمنين، وتسلب الدور، وتدمر المحاصيل، وترتكب جرائم السلب والنهب والإيذاء، وتوسع من دوائر نفوذها"(4).

والروائي يقصد بهذه الجماعات الوافدة دولة إسرائيل، التي أقيمت على أرض فلسطين عام 1948م بمباركة الدول الكبرى - مثل أمريكا وروسيا - وإذا كان هناك من سيعترض على وجود جماعات وافدة تهاجم مصر من جهة الشرق في عهد المتنبي فإن المؤلف - الذي اختار صورة الكتاب المحقق تراثياً - شكلاً فنياً لروايته يقول في الهامش:

"تخلو كل المصادر التاريخية من ذكر الجماعات الوافدة، وما سببته من مضايقات، دفعت كافوراً إلى حربها، والحد من شرورها، ثم الدخول معها في معاهدة صلح، ولعل تلك

هذا العصر

الأحداث من صنع خيال أبي الطيب، أو لعلها كانت أحداثاً هامشية مع بعض قبائل الرُّحَّل جسَّمها المتنبي – لتأله من الإخشيدي– على هذا النحو"(5).

ويأخذ هذا الحدث اهتماماً كبيراً من الرواية، بل يكاد يكون هاجسها الأساسي، وتعنى الرواية بتسجيل خواطر الناس ومشاعرهم– من خلال عيني أبي الطيب المتنبي الثاقبتين– عن هذا الكابوس الذي هاجم المصريين من الشرق:

"ضاعف من كمد الناس وإشفاقهم وحسرتهم، إحساسهم بالخضوع لهذه الجماعات التي أتت من مناطق بعيدة، تنشر الدمار والموت الأسود، وتبشر–عجباً– بالمدنية والتقدم والعلم. غريبة عن البلاد وناسها ودينها، إلا ما كان منها أسافل المجتمع إلى سنوات قريبة. كانوا رقيقاً أو كالرقيق، وإن استطاعوا–في غفلة من الدهر– أن يستولوا على ماليس لهم"(6).

ويتحدث عن مرحلة ما بين الحربين 1967–1973م، فيشير إلى أهوال وفظائع ارتكبتها الجماعات الوافدة، كما يتناول الاستعداد للحرب التي تضع نهاية لهذه الجماعات، يقول في الورقة (97) من أوراق أبي الطيب:

"دخلت أحاديث الحرب – للمرة الأولى – مجلس الأستاذ. جاءت الأخبار بأن الجماعات الوافدة قد تحركت على البلاد من ناحية الحدود، فوصلت إلى ما بعد العريش. كانت المناطق – فيما يلي غزة – في يد العصابات الوافدة، تقطع على المسافرين الطريق، تأخذ أموال الناس، تشنُّ الغارات المفاجئة على مناطق الحدود. قتلت هذه المرة جماعة كثيرة من الجند والأهالي المصريين. بدا كأنها تتهيأ لمواصلة السير داخل الأراضي المصرية. أمر الأستاذ، فاتخذ قادة الجند حيطتهم بتشييد القلاع والحصون على الحدود، وفي مدن الداخل، وإقامة المراكز العسكرية، وشراء السلاح والذخائر، وتجنيد الأمراء. ولبست الجند آلة الحرب"(7).

ثم يتحدث عن بدء المعركة بين جند مصر والجماعات الوافدة، وكيف أن الشعب كله كان يريد المشاركة في الجهاد في سبيل الله.

يقول في الورقتين (109، 110):

"تواترت الأنباء عن معارك في الحدود بين الجند المصريين والجماعات الوافدة، نودي في مصر ونواحيها بأن النفير عام في سبيل الله تعالى، ورسم بشد الخيول، ولبس آلة الحرب. خرج الرجال والشبان إلى الميادين والشوارع والأخطاط، يتصايحون بالحرب، وقدم إلى مصر الفسطاط كثير من أهالي الإسكندرية والصحراء ومدن الصعيد إلى أسوان، يطلبون المشاركة في ردع الغزاة"(8).

ثم يتناول بعد ذلك بالتفصيل فرحة الشعب بتحقيق أول نصر على الجماعات الوافدة "قتلوا أعداداً كبيرة وأسروا أعداداً أخرى، وغنموا غنائم عظيمة من خيول وسلاح وأمتعة وغير ذلك، وأفلحوا في طرد العدو إلى خارج الحدود"(9). ولقد أظهر الناس فرحاً زائداً، ومما زاد في فرحتهم" أن هذه كانت أول هزيمة عرفت للجماعات الوافدة منذ استوطنت مناطق الحدود. طالما شنوا الهجمات المباغتة، وخالفوا شروط السلم، ونقضوا الاتفاقات، وقتلوا وسلبوا ودمروا وحرقوا واستلبوا الثروات، واعتمدوا على أباطيل في الاستيلاء على أراضٍ ليست لهم"(10)

ب – غلاء المعيشة:

وتتناول الرواية الانتفاضة ضد الغلاء في كل عصر في عدة أوراق، ففي الورقة (283) من أوراق أبي الطيب:

"علا صوت الغلاء فأصم الآذان، وشحطت الغلال، وارتفع الخُبز من الأسواق، ووقفت الأحوال. أعلن الناس سخطهم لارتفاع الأسعار، وتعسُّف الكتبة والجباة، وخرج العامة في مظاهرات، يصنعون كلاماً ويلحنونه، معناه وفحواه فقدان الحيلة أمام ارتفاع الأسعار، وصلوا إلى الجامع العتيق في يوم جمعة، وازدحموا عند المحراب، فمات العديد تحت الأقدام"(11).

وفي الورقتين (339-340):

" حمل الأهالى أسلحتهم، ولازموا السهر بالليل في الشوارع والحارات والأزقة، وعلى أبواب البيوت، يطوفون في الأرجاء بالنبابيت والشموم، يعلنون ظلم الأخشيدي وفساده" (12).

وفي الورقتين (352-353) يبين كيف وصل الأمر، فقد عمت الفوضى، واضطربت الأحوال، وأحرق المتظاهرون الكثير من الدور والأبنية "وسوّدت جدران البيوت والمقابر والمساجد ، بعبارات ضد السلام الوشيك" (13).

ولم تنته هذه الثورة العارمة، ولم تلح بوادر الحل في الأفق إلا حينما أبدى كافور مرونة كبيرة، حينما أمر بالقضاء على مسبباتها ودوافعها، حتى لا تقضي على كلّ شيء:

"أمر المَخْصيُّ أعوانه، فنادوا في الناس بالأمن والأمان، والبيع والشراء، شاركهم في المناداة بذلك حملة العمائم لما لهم من سطوة وتأثير سار في الشوارع والأخطاط، رجل على فرس، يقرأ من ورقة، أن الأستاذ قد أزال المظالم، وهو يأمر الناس بتقوى الله، وطاعة أولي الأمر... ونودي... بالأمان، والماضي لايعاد"(14).

لكن كافوراً بعد ذلك أصبح يسمي في أدبياته هذه الانتفاضة عن طريق خطبه وتصريحاته"غضبة اللصوص"، "ورفض تفسير ابن رشدين بأن ما جرى كان تعبيراً عن "غضبة الجياع" على الظروف الصعبة"(15).

ج – الفساد:

ويتناول ذلك الروائي في الورقتين (329-332):

"تفاقمت الأحوال... وحصل للناس من

العنت والضرر مايفوق الوصف... كثر الخوف من الحاضر ومن قادم الأيام. بدا الناس في غاية الذلّ من الفقر والحاجة. وتضاعفت أعداد المتسولة في الشوارع والأسواق، وخرج الجميع إلى الصحراء، أهل الدولة وأرباب السيف والقلم والعلماء والصلحاء والفقراء والرجال والنساء ... روى لي محسَّد، عن الناس في الأسواق: اشتروا طعاماً فاسداً، لا تأكله القطط أو الكلاب. تحادث الناس أن أحد أعوان التهامي تقاضى مقابلاً ضخماً، لقاء تفويتها، ونزولها في الأسواق"(16).

وهذه الفقرة تشير إلى مظاهر كثيرة تحدث في عصرنا هذا:

– فقد ازدادت الأحوال المعيشية سوءاً في دول كثيرة.

– الهجرة إلى خارج البلاد للعمل، وهذه الهجرة شملت جميع الفئات "أهل الدولة وأرباب السيف والقلم والعلماء والصلحاء والفقراء".

– ماشتهر عن بعض كبار المستوردين الجشعين الذين استوردوا الطيور الجارحة، وقالوا للناس إنها لحوم. وهي" طعام فاسد لا تأكله القطط والكلاب".

– الرشا التي تدفع للمسؤولين فيغضون الطرف " تحادث الناس أنَّ أحد أعوان التهامي تقاضى مقابلاً ضخماً، لقاء تفويتها ونزولها في الأسواق".

د – كثرة الديون وكثرة النهب:

يشير الروائي إلى كثرة الديون التي غرقت فيها بعض الدول الفقيرة، ومنها بعض الدول العربية في السبعينيات، واستدانتها من الغرب (النصراني) والشرق (الملحد)، ويشير إشارات خفية في نهاية الفقرة إلى تفنُّن "ابن حترابة" في سرقة المال العام:

"شحت الغلال والبضائع بما أحدثه نقص مياه النيل، قلت الأموال بالتالي، فصارت القروض المادية والعينية واجبة، من بلاد مجاورة وبعيدة، تدين بالإسلام والنصرانية، وبعضها تدين شعوبها بالكفر والزندقة. فلما أفلح ابن حترابة في تأجيل دفع أقساط الديون – في مواعيدها – ذهبت الأموال في تعويض النتائج التي أحدثها غياب وفاء النيل"(17).

– وهناك إشارات أخرى لكافور وكيف تسلل إلى حكم مصر، والطبقات المساعدة له، والتعذيب للمعارضين وصوره البشعة، كلها تشي بأن "المتنبي" كان قناعاً لوجْه بطل معاصر، يواجه عصره، شاهداً أميناً، لا تفلت منه همسة أو نأمة.

عجز المثقف

من الطبعي أن دور المثقف الانتهازي –الذي يقنع بدور الرائي لما يدور في عصره، دون أن يكون فاعلاً فيه أو جزءاً من حركته الفاعلة – يكون دوراً هامشياً.

فالمتنبي – في هذا النص الروائي – معني بإثبات ذاته، وهو يبدو – كالأبطال الرومانسيين – غير قادر على التغيير، وغير قادر على التكيف الاجتماعي. وما يشغله هو تحقيق ذاته، أو إثبات الـ "أنا" الضخمة:

فحينما جاء إلى مصر حرص على أن يدخلها في هيئة مميزة، مع أن أحداً فيها لا يعرفه برسمه.

"حرصت على ركوب الحصان. حرصت على الأمر نفسه لأتباعي: ولدي محسَّد، وتابعي محسود، وقلة من الخدم والعبيد، حتى لا نبدو في الأعين كالآلاف من السابلة والعامة وذوي المهن الحقيرة. أمرت، فأحسن الخدم اختيار جوادي وطهمته وكسوته، فبدأ مليحاً يسر الناظرين. مشاعر الاعتزاز تمور في داخلي لنظرات المتطلعة المشوبة بالإعجاب. تتقلص يداي على المقود. وأطمئن إلى الأتباع والأمتعة في جياد أخرى خلفي. لا يعرفون أبا الطيب وإن حدّسوا عظمة هذا الوافد"(18).

وطبعي بعد ذلك، أن يهتم المتنبي في أوراقه بوصف صورته في أعين الناس ومدى حفاوتهم به، فهو المتنبي الشاعر الأشهر، مالىء الدنيا، وشاغل الناس:

"تسابق الناس إلى لقائي، أظهروا بشاشة وودأ. غمرتني مشاعر الانبساط لما استمعت إلى قصائدي من أفواههم"(19).

وطبعي – أيضاً – أن مثل هذه الذات المتضخمة، التي تشعر بتفوقها وتميزها، لا تشعر بالآخر بالنسبة لها – ولا تُقيم له وزناً. بل تسخر من مجرد محاولة الآخر اقتحام تخوم هذه "الأنا" المتضخمة:

"سألني ابن القاسم ظهر اليوم، وهو يرافقني في طريق العودة إلى البيت:

– على من تنبأت؟

– على الشعراء.

– لكل نبي معجزته.. فما معجزتك؟

قلت:

– هذا البيت:

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى
عدواً له ما من صداقته بُدُّ(20)

وكانت النتيجة الحتمية لهذه الذات المتضخمة أن تقابل أعداءً كُثراً، وألا تحقق ما ترجوه في مصر. كما لم تحقق أحلامها في حلب. وكان على المتنبي في النهاية أن يقنع من الغنيمة بالإياب:

في الطريق قال لي صاحبي ابن يوسف:

– وما رأيك في الجولة القادمة يا أبا الطيب؟ لقد هجرت سيف الدولة وهجوته.. وها أنت ذا تهجر كافوراً، وستهجوه.. أقول: ترى إلى أين سيحل بك المطاف؟..

قلت:

– لم يبق يا ابن يوسف – بعد أن يئست من الملوك، وبعد أن سدوا أبوابهم دوني – إلا أمران لا ثالث لهما: إما أن أنزل من القمة التي صعدت إليها بعد جهد وكد، وأعود إلى ماكنت عليه في بداية أمري، فأستجدي بشعري صغار الناس وطغامهم، أو أن أعود إلى الكوفة، فأقبع في داري، وأهجر الناس جملة، وأقيم بيني وبين الملوك سدّاً فقد كفاني مالقيت منهم، وكفاهم مالقوا مني. ولي الآن ثروة تكفل الراحة والنعيم وهناء العيش"(21).

وهكذا ينتهي دور المثقف الانتهازي بعودته إلى الوحدة، ومحاولة الاستمتاع بالمال الذي يكفل له الراحة والنعيم وهناء العيش. فهل يستطيع؟

الأهمية الفنية للهوامش

تميزت رواية "من أوراق أبي الطيب المتنبي" لمحمد جبريل ببنية فنية مبتكرة، حيث قدّمها مؤلفها من خلال شكل "الكتاب التراثي المحقق" ولذا حمل العنوان جملة: "تحقيق وتقديم: محمد جبريل" وليس "بقلم" أو "تأليف".

والرواية تعد الأولى في محاولة اتخاذ شكل التحقيق (التاريخي)، وإن كانت قد سبقتها رواية تتخذ من التحقيق (الأسطوري) إطاراً لها، هي

رواية "من التاريخ السري لنعمان عبد الحافظ" لمحمد مستجاب(22).

وقد نجح محمد جبريل في استخدام التحقيق التراثي شكلاً فنياً في روايته لأنه أعطى للهوامش "أهمية فنية، فبالإضافة إلى أنها توهم القارئ بالتحقيق استغلها جبريل لوصفه شخوصه ظاهرياً ونفسياً معتمداً على الصدى التاريخي الحقيقي لأكثر الشخصيات وهذا يساعد القارئ على تكوين خلفية واضحة تساعده على معايشة أبطاله بانفعال وعن قرب. ومن هنا فالهوامش ليست لعبة تحديث فقط، ولا تمثل وحدات سرد ثانوية، وإنما هي في مجملها وحدات سرد أساسية ذات إيماءات دلالية تتصل مباشرة بالسرد الروائي الصاعد"(23).

وفي النص المحقق لم يلجأ محمد جبريل إلى وضع تواريخ لأرقام صفحاته، ويعلل ذلك في الهامش بقوله:

"لاحظنا أن المتنبي لم يشر إلى تاريخ كل حادثة بتوقيتها، ربما لأن كتابة المذكرات والسير الذاتية – بصورتها الحالية – لم تكن معروفة آنذاك، وقد فضلنا – بديلاً لذلك – أن نشير إلى الأوراق بأرقامها المسلسلة"(24).

لكننا نرى أن عدم وضع تواريخ للصفحات، والاكتفاء بذكر أرقامها، وإسقاط بعضها، جعلها قادرة على الانطلاق من إسار العصر الذي من المفترض أنها كُتبت فيه لتخاطب عصرنا، ولتكون أكثر حرية وقدرة على البوح والإشارة إلى أشياء معاصرة في عصرنا.

وما أكثر الأشياء العصرية التي أثارتها الرواية من خلال عيني شخصية المتنبي، الذي جعله جبريل مثقفاً انتهازياً، لكنه قدر على أن يجعله -أيضاً – شاهداً على عصرنا نحن باقتدار ومهارة.

الهوامش

1-21- محمد جبريل: من أوراق أبي الطيب المتنبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1988م، الصفحات: 16، 25 ، /146، /147، 44 ، 44 ، 44 ،/ 56 ، 57 /، 60 ، 63 ، 64، 97، 133، 115، 117 ، 121، 108، 109، 118، /12، 13/، 23، 43،/133، 134/.

22– في مناقشة الشكل في رواية محمد مستجاب يُنظر: د. عبد الحميد إبراهيم: الرواية المصرية والبطل الوغد، مجلة "إبداع"، العدد 1، السنة 3، يناير 1985م، ص 120.

23– د. محمد نجيب التلاوي: الرغبة والتحقيق في أوراق أبي الطيب المتنبي، مجلة "الجنوبي"، العدد الأول، أكتوبر 1988م، ص 33 .

24– محمد جبريل: من أوراق أبي الطيب المتنبي، ص 11.



يحيى حقي.. كما عرفتهُ

عبدالله السيد شرف

.. هو رجل.. «على باب الله».. سار في الحياة مبتسماً، مردداً «خليها على الله». نشأ في حي السيدة زينب ـ رضي الله عنها ـ بالقاهرة، فشرب منه البساطة والتلقائية وخفة الظل، وكان لعمله الدبلوماسي أثر في رقته ودماثة خلقه.

ذلك هو يحيى حقي، صاحب القنديل الشهير، والذي ضاق كثيراً بالتصاقه بهذا القنديل ـ بعد ذلك ـ، وكان يقول: ألم أكتب سوى القنديل حتى ينسبونني إليه؟!

لست في موقف المتحدث عن مؤلفات يحيى حقي بالنقد والتحليل.. غير أنني سأتحدث عن هذا الأديب الكبير من خلال صداقة وتلمذة امتدت ما يقرب من خمسة عشر عاماً، قربتني فيها منه، ومدّ لي بساط مودته، وباح لي بما لم يبح به للآخرين، لم تنقطع خلالها رسائله، ومع هذا فلم نلتق سوى مرة واحدة، ولمدة عشر دقائق قبيل رحيله بعام.

من خلال رسائل العم يحيى ـ كما كنت أناديه ـ، أكتب.. ولي أن أتساءل.. هل يمكن أن يعود إلى الوجود أدب الرسائل.. أم إن عصر السرعة والحروب المتلاحقة فتك بالمشاعر الإنسانية، والترابط الوجداني فيما فتك..، ومن ثم فلا عودة لهذا النوع الأدبي..

لم تكن معرفتي بالعم يحيى تتعدى معرفة أيّ قارئ له.. إعجاب به وبأسلوبه السهل الممتع والممتنع، وبدقته المتناهية في اختيار المفردة اللغوية المناسبة، التي يصعب استبدال أخرى بها.. إعجاب بخفة الظل، والتعليقات الظريفة التي تجعلك تبتسم ـ إن لم تضحك ـ مهما كانت عليه حالتك النفسية من ضيق أو اكتئاب.

في نهاية السبعينيات.. عرفته عن قرب: وكان قنديله سبب الاقتراب، والتواصل، فمن إسبانيا وصلت إليّ دراسة عن «قنديل أم هاشم» وموازنتها بقصة «السلم» لكاتب إسباني وكان عليّ أن أرسل الدراسة للعم يحيى.. وتلك كانت البداية.

قال لي: لكأني لم أكتب سوى القنديل.. قلت له: من عادتنا أن ننسب الرجل إلى أكبر أبنائه: فنقول «أبو محمود» أو «أبو محمد»، إن كان أول أبنائه «محمود» أو «محمد» لذلك فالكل ينسبك إلى القنديل لأنه أول أولادك.. ثم أردفت ـ مداعباً ـ ثم من غير المعقول أن ننسبك إلى دماء وطين، أو البوسطجي، أو سارق الكحل..، وضحك الرجل ـ رحمه الله ـ كثيراً ـ كما قال لي ـ وأضاف: أعجبني هذا التخريج الظريف، وأنا راضٍ به.

من الصعب أن نجد كاتباً تنم كتاباته على شخصيته مثلما نجد عند العم يحيى، فهو إنسان بسيط للغاية، يكتب وكأنه يتحدث، دون انفعال أو إسفاف أو حذلقة.. هادئ الطباع، يقطر رقة وإنسانية، لم أعرفه ثائراً إلا مرة واحدة عندما كتب إليّ يطالبني بأن أعيد له مجموعة من الكتب استعارها منه أديب وصحفي ولم يردها، إذ من بين هذه الكتب «كتاب تاريخي» وهو يعتز به، وتحدثت مع الصديق الأديب الذي أقسم لي أن الكتب فقدت منه في أثناء تنقلاته بين العواصم العربية، في مهامه الصحفية، وأبدى الرجل أسفه الحقيقي على ضياع الكتب، وكتبت للعم يحيى، ولأول مرة أجده ثائراً، لقد كتب يهدد بإبلاغ نقيب الصحفيين ووزير الثقافة، ولن يسكت قبل أن يسترد الكتب، وشعرت بالحرج.. الأديب الصحفي يطلب مني أن أصالح العم يحيى، والعم يحيى يصر على أن يأخذ الكتب.

وأسرعت إلى الأوراق.. وكتبت له: نحن عيال عليك، وأنت في منزلة الأب لنا، ومن عادة الابن أن يتدلل على أبيه، ومن غير المعقول أن تشكو أحد أبنائك من أجل كتاب ضاع منه دون قصد..

رحم الله يحيى حقي.. لقد هدأت ثورة الرجل، وعرفت سببها من رسالته التي تسلمتها بعد ذلك، وفيها يقول: لقد أراحتني كلماتك وبدّدت غضبي، وقد نسيت الموضوع، لكن ألم يكن من الواجب أن يسأل عني بعد عودته.. إنه لم يكلف نفسه عناء السؤال عني ولو بالتليفون.. وعرفت لماذا ثار العم يحيى.. لقد كان يعد الصحفي ولده.. فلما جفاه حزن وثار.. وعدت لتطييب خاطره.. ثم عاتبت صديقنا الصحفي على هذا الجفاء وطلبت منه الاتصال بالعم يحيى، وبالفعل اتصل به.. وأحسب أن الود عاد، إذ بعدها بمدة أثنى العم يحيى على كتابات هذا الأديب الصحفي في حوار نشرته له إحدى المجلات الأسبوعية.

وكما كان العم يحيى يحب الابتسام، ويهش للضحوك، كان يحب العربي والعربية لغة وتراثاً وتاريخاً، انظر إليه وهو يتحدث إلى النقاد منبهاً إياهم على ضرورة الالتفات إلى المنهج النقدي العربي، يقول يحيى حقي: ـ (أحب أن أترجاهم ـ أي النقاد ـ أن لايحطوا على الفن كل نظريات النقد المستوردة كلها، فإنها تخنقه، وأن يتفحصوا ـ قبل كل شيء ضمير أمتنا، فإنه يضيق بفصل الفنون والنقد عن مبادئ وأخلاق توارثناها ونعتز بها).

لقد كان يحيى حقي من المتفحصين لتراثنا والمتوقفين طويلاً أمامه، قال لي: (ألم تلاحظ كيف كان العرب يحبون أرضهم ويعتزون بها وبترابها، بل ويعتبرونها قطعة منهم.. إن عشقهم للأرض يتضح في قياسهم لها بأبدانهم وكأنها قطعة من أجسادهم.. الأوربي أو العالم الغربي عامة يقيس الأرض بالمتر والكيلو، أما العربي فهو يقيسها بالشبر والذراع والقدم).، وتعجبت من هذه الملاحظة الذكية التي أشك في أن أحداً قبله فطن إليها، وهي إن دلت فإنما تدل على عشق هذا الأديب للتراث وغوصه في محيطه؛ ولعل حبه للعرب هو الذي جعله يشعر بالسعادة البالغة عند فوزه بجائزة الملك فيصل العالمية أضعاف سعادته بوسام فارس ـ من الدرجة الأولى ـ الذي منحته له فرنسا.

هكذا كان يحيى حقي.. رقيقاً غاية الرقة، إنساناً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان سامية ونبيلة، والحديث عنه يطول، إذ ما ظنك برسائل خمسة عشر عاماً ـ، غير أننا نريد أن نقول له في هذه الكلمة العجلى: إنك مازلت في القلب والذاكرة، ومازال قنديلك ينير الطريق في عالم القصة القصيرة.. رحمك الله.. ورحمنا.

ـ هذه المقالة خص بها الأديب الراحل عبدالله شرف ـ رحمه الله ـ الفيصل قبل وفاته.

مشروعية التداوي بالقرآن

ناصر الدين بحلاق

قال الله تعالى: *قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ* **فصلت:44.**

ليس من شك في أنّ القرآن أُنزل على محمد صلّى الله عليه وسلّم لغرض هو أسمى الأغراض وأنبلها، وهو هداية الناس إلى الحق، وإخراجهم مما هم فيه من دياجير الظلمة إلى ساطع النور، كما أُنزل القرآن ليرشد الناس إلى الأعمال الصالحة، التي تسمو بالفرد والمجتمع إلى مكانة العزّة والكرامة. ومن المتّفق عليه بين العلماء قديمًا وحديثًا أن القرآن جاء شافيًا لأمراض القلوب والصدور، وليخلّص البشرية من جهلها وانحرافاتها وأوهامها وخرافاتها. والمسألة التي نحن بصددها قديمة جديدة، تُطرح في هذه الأيام بجدية وعنف، وهي: هل التداوي بالقرآن فيه شفاء للأبدان؟ وما مدى مشروعيته؟

إن علماء المسلمين قديمًا وحديثًا قد انقسموا إلى فريقين حيال هذه المسألة؛ فمنهم من نفوا ذلك نفيًا قاطعًا، ومنهم من أيّد ذلك تأييدًا تامًا لا مجال للشكّ فيه، وإليك أدلّة كل فريق وحججه، لعل المسألة تتوضح ويرفع عنها ما بها من إشكالات في عقول بعض الناس فيتبين الحق، والحق أحق أن يتبع.

القرآن شفاء من كل داء

يرى الفريق الأول من العلماء المؤيد لشفاء القرآن للأبدان، أن من جملة أسماء الفاتحة غير التوقيفية لهذه السورة المباركة، أنها سميت بالشافية والرُّقية، وسبب ذلك أن مرَّ أحد الصحابة برجل مصروع، فقرأ سورة الفاتحة في أذنه فبرئ، فذكروه لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: «هي أم القرآن وهي شفاء من كل داء» كما روى الدارميّ عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «فاتحة الكتاب شفاء من كلّ سم»، وفي رواية أخرى «في فاتحة الكتاب شفاء من كلّ داء»، ويذكر ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ في كتاب «مدارج السالكين» أن الفاتحة تشتمل على الشفاءين: شفاء القلوب، وشفاء الأبدان، وكثيرًا ما كان يسمع من أستاذه شيخ الإسلام ابن تيمية يقول *إِيَّاكَ نَعْبُدُ* تدفع الرياء، و *إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ* تدفع الكبرياء والعجب، فإذا عوفي منهما، ومن مرض الجهل والضلال بـ *اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ* عوفي من أمراضه وأسقامه، ورَفَل في أثواب العافية، وتمت عليه النعمة، وكان من المنعم عليهم، *غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ* وهم أهل فساد القصد الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه، *وَلَا الضَّالِّينَ* وهم أهل فساد العلم، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه، وحقٌ لسورة تشتمل على هذين أن يُستشفى بها من كلّ مرض، ولمّا اشتملت على هذا الشفاء الذي هو أعظم الشفاءين، كان حصول الشفاء الأدنى وهو شفاء الأبدان بها أولى»(1).

ولعل من المفيد ذكر ماتضمنته الفاتحة لشفاء الأبدان، مما جاءت به السنة، ودلت عليه التجربة؛ فقد أخرج أبوعبيد وأحمد والبخاري ومسلم وأبوداود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن جرير والحاكم والبيهقي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في سرية ثلاثين راكبًا، فنزلنا على قوم من العرب فسألناهم أن يُضيفونا فأبوا، فلُدغ سيد الحيّ، فأتونا فقالوا هل فيكم أحد يَرْقي من العقرب(2) فقلت نعم أنا، ولكن لا أفعل حتى تعطونا شيئًا(3)قالوا: فإنّا نعطيكم ثلاثين شاة، فقرأت عليه الحمد لله رب العالمين سبع مرات، فبرئ وقام كأن لم يكن به قَلَبَة(4)،

فبُعث إلينا بالنُّزل (طعام الضيافة)، وبُعث إلينا بالغنم، فأكلنا الطعام أنا وأصحابي، وأبوا أن يأكلوا من الغنم، وقالوا لاتعجلوا حتى نأتي النبي صلّى الله عليه وسلّم، فأتيناه فأخبرته الخبر، فقال: «ومايدريك أنها رُقْيَة؟» قلت يارسول الله شيء ألقي في روعي قال: "كلوا وأطعمونا من الغنم" وفي رواية "كلوا واضربوا لي معكم بسهم". وأمّا ما دلت عليه التجربة، ففي حياة السلف الصالح، والممارسات اليومية الآن، مؤيدات فعليّة لشفاء الكثير من المرضى، وقد عولجوا بالقرآن فسكنت آلامهم. يقول ابن قيم الجوزية في كتابه «الطب النبوي»، وقد جرّبنا نحن وغيرنا من هذا أموراً كثيرة، ورأيناها تفعل ما لا تفعل الأدوية الحسية، بل تصير الأدوية الحسية عندها بمنزلة الأدوية الطرقية عند الأطباء(5).

جاء في صحيح البخاري ومسلم عن طريق يونس بن شهاب عن عائشة رضي الله عنها، كان النبي ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ إذا اشتكى قرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث، فلمّا اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عنه بيده رجاء بركتها، وروى أبوداود في سننه عن سهل بن حُنيف قال: مررنا بسيل فدخلتُ فاغتسلتُ فيه فخرجتُ محمومًا، فنُمي ذلك إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: «مُرُوا أبا ثابت يتعوّذه»، قال فقلت ياسيدي والرُّقى صالحة فقال: «لا رُقْيَة إلا في نفس أو حُمَة أو لَدْغَة»، وفي رواية «لا رُقْيَةَ إلا من عين أو حُمَة»، والحمة ذوات السموم كلّها. على أنَّ هذا الحديث لاينفي جواز الرقية في غيرها؛ بل المراد منه لارقية أولى وأنفع منها في العين والحمة. وقد ثبت عنه صلّى الله عليه وسلّم أنه استشفى ببعض آيات القرآن العظيم، ومنها بـ *قل هو الله أحد*، وأقرّ على ذلك من فعله من أصحابه. قال يونس كنت أرى ابن شهاب يصنع ذلك إذا أتى إلى فراشه أي ينفث في كفّيه ببعض الآيات، ويمسح بهما وجهه وأجزاء من جسده. وروى ابن مسعود أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يكره الرّقى إلا بالمعوِّذات، غير أنه إذا جاز الرّقى بالمعوذتين وهما سورتان من القرآن، كانت الرقية بسائر القرآن مثلهما في الجواز، إذ كله قرآن. يقول رجاء الفنويّ: ومن لم يُستشف بالقرآن فلا شفاء له، ويرى الشوكاني أن الرقية مشروعة بشرط عدم مخالفتها للشرع وبشرط توافر الثقة في الراقي من ناحية علمه وخبرته في ذلك، فإن علم تحيّله أو دجله أو كذبه وسعيه لأكل أموال الناس بالباطل، لم يجز قصده ولا التداوي منه(6).

الأمراض مادية وشفاؤها بأدوية مادية

أما الفريق الثاني من العلماء، فيرى أنه لايكفي أن يقال بأن النبي صلّى الله عليه وسلّم أجاز قومًا استعملوا رقية الفاتحة للدغة حشرة، فنفتح الباب على مصراعيه لكل مدعٍ وملفق ممن يهرفون بما لايعرفون، وليس لهم همّ إلا الحصول على المال بأي وسيلة مادام الرسول قد أقر الأجر بالرقية. وهذا ماحصل، وفعله بعضهم، فتوصّل بذلك إلى الإثراء والابتزاز من طريق الشعوذة على المرضى وممارسة طقوس معينة، وخاصة على المرضى النفسيين ومرضى الأعصاب. كما أنه يعارض هذا الفريق معارضة تامة فكرة المداواة بآيات القرآن والرقى بها سداً للذرائع، محتجاً بأن القرآن كتاب عقيدة وشريعة لا كتاب طب وعلوم، وقد أوّلَ معنى لفظة الشفاء الوارد في الآيات القرآنية على أنه شفاء للقلوب من عللها وأمراضها من الجهل والحيرة والشكّ، ولايرى هذا الفريق من العلماء في القرآن دواء للأمراض البدنية البتة.

يعقب الأستاذ محمد حامد الفقي محقق كتاب «مدارج السالكين» على حادث رَقْي سيد القوم بالفاتحة بما يلي: لم نجد في الروايات الصحيحة أن أحدًا من الصحابة لا في عهد الرسول ولا بعده، فعل مثل ذلك مرة ثانية، أو لعله ـ والله أعلم ـ كان هذا الحادث بصنع الله لأولئك الصحابة الذين كانوا في حاجة رسول الله، ومنعهم أهل الحي حقهم في الضيافة مع جوعهم وشدة حاجتهم، فسلط الله الحشرة على رئيسهم، فلدغته ليستخرج لهم بتلك اللدغة والرقية حقّهم(7).

ويرى الإمام محمود شلتوت في كتابه «الفتاوى» أنّ القرآن لم ينزل دواء لأمراض الأبدان، وإنما أنزله كما قال الله تعالى دواء لأمراض القلوب وشفاء لما في الصدور، وإذا كانت أمراض الأبدان أمراضًا مادية، فشفاؤها بأدوية مادية، وما التداوي في الأمراض البدنية بالقرآن إلا كقراءة البخاري والختمات للنصر على الأعداء في ميدان القتال(8).

من المفروغ منه أن هذا الفريق في دعواه هذه يعتمد على كثير من الأحاديث النبوية الحاثّة على التداوي بالأدوية، وبأن هذا العلاج لايتنافى مطلقًا مع الإيمان بالقدر ومع التوكل على الله. عن أبي خزامة قال: قلت يارسول الله أرأيت رُقى نسترقيها، ودواء نتداوى به، وتُقاةً نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئًا؟ فقال: «هي من قدر الله»(9). ففي هذا الحديث إبطال قول من أنكر التداوي متعللاً بالقضاء والقدر. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء»(10). وعن جابر رضي الله عنه عن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: «لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء بَرِئَ بإذن الله تعالى»(11).

كما اعتمد هذا الفريق على أفعال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، حيث بعث رسول الله إلى أُبيّ بن كعب طبيبًا، فقطع منه عرقًا ثمّ كواه عليه، وروى عمرو بن دينار عن هلال بن يساف قال: دخل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على مريض يعوده فقال: «أرسلوا إليه طبيبًا» فقال قائل وأنت تقول ذلك يارسول الله؟ قال «نعم إن الله عز وجل لم ينزل داء إلا أنزل له دواء»(12). ومن الثابت أن رسول الله احتجم وهو محرم في رأسه من شقيقة كانت به، وفي الصحيحين من حديث طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي احتجم وأعطى الحجام أجره(13).

وروى مسلم عن جابر رضي الله عنه رُمي سعد في أكحله فحسمه النبي بمشقص، ثمّ ورمت فحسمه ثانية، والمشقص سهم له نصل طويل. كما ثبت في الصحيحين أيضًا عن نافع عن ابن عمر أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: «إنما الحُمّى أو شدة الحُمّى من فحيح جهنم فأبردوها بالماء» وكان رسول الله إذا حمّ دعا بقربة من ماء فأفرغها على رأسه فاغتسل.

فقهاؤنا والتداوي

من الثابت أن الفقهاء قد اتّفقوا على جواز التداوي عمومًا، فذهب الشافعي ـ رضي الله عنه ـ إلى أنّ التداوي أفضل من تركه، وذهبت المالكية إلى أنّ التداوي مباح لابأس به، أما الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ فيرى أنّ ترك التداوي أفضل، وعنده العلاج رخصة، وتركه

أعلى درجة منه، ولعل في هذا الحكم مسحة من الصوفية؛ لأن جُلّة الصوفية، لايجيزون التعالج بشرب الدواء؛ لأنّهم يزعمون أن الولاية لاتتم إلا إذا رضي بجميع مانزل بـه من البلاء، فلايجوز له مداواة. ومن المأثور عن بعض الصحابة والتابعين عزوفهم عن العلاج بالأدوية وعن الأطباء. دخل عثمان بن عفان على عبدالله بن مسعود رضي الله عنهما وهو في مرضه الذي مات فيه، فقال له عثمان بن عفان رضي الله عنه ما تشتكي؟ قال: ذنوبي، قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي، قال ألا آمر لك بطبيب؟ قال الطبيب أمرضني. ومثله مـا نقل عن أبي الدرداء رضي الله عنه، لما أن مرض فعادوه وقالوا: ألا ندعوا لك بطبيب؟ قال:



الإمام عبد الحميد بن باديس

الطبيب أمرضني، ومثله أيضًا ما فعل عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه لما أن قيل له: ألا نأتيك بالطبيب؟ فقال: والله لو علمت أن شفائي في رفع يدي إلى شحمة أذني ما رفعتها.

إن من الممكن أن نعدّ هذه الحالة من أعلى أحوال المريض وأحسنها وأرفعها لمن قدر عليها، ومع ذلك وعلى أنها صدرت عن بعض الصحابة رضي الله عنهم، فلا نرى لها معنى إلا قوة اليقين. لقد أمرنا بالتداوي، ورسول الله تداوى، وأمر باستدعاء الأطباء لبعض صحابته أيضًا، روى الترمذي عن أسامة بن شريك قال: قالت الأعراب ألا نتداوى يارسول الله؟ قال نعم ياعباد الله تداووا فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له شفاء أو دواء إلا داءً واحدًا؟ قال يارسول الله وماهو؟ قال: الهرم»(14). والأحاديث في هذا الباب أكثر من أن تُحصى على إباحة التداوي. ومن أراد توسعة فعليه بمظانّها في صحيح البخاري ومسلم.

ممّا سبق نرى أن أصحاب الفريق الأول يؤمنون بطبابة القرآن، وبأن الآيات التي قيد علماء الفريق الثاني الشفاء بها بشفاء الصدور الذي هو العقائد؛ لأنّ ذلك هو المقصود الأول من هداية القرآن، لاينافي ولا يمنع أبدًا كما يقول شيخ الجزائر الأول الإمام عبدالحميد بن باديس - رحمه الله - من حصول الشفاء للأبدان بوساطتها - أيّ الفاتحة - بل وبالقرآن كله في بعض الأحوال كما هو مقتضى الإطلاق، وإن كان هذا ليس هو المقصود بالقصد الأول من شفاء القرآن(15). ولكن هل هذا الشفاء على عمومه أم لا؟ قالت طائفة هو على العموم في كلّ حال ولكلّ أحد، وقالت طائفة إن ذلك على الخصوص، ولا يقتضي العموم في كلّ علّة، وفي كلّ إنسان، بل إنّه خبّر عن أنّه يشفي كما يشفي غيره من الأدوية في بعض الحالات، وعلى حال دون حال. وممّا يدلّ على أنّه ليس على العموم أن لفظة (شفاء) في كل آيات الشفاء جاءت نكرة في سياق الإثبات ولا عموم فيها، باتفاق أهل اللغة ومحققي أهل العلم ومختلفي أهل الأصول (16).

علينا بالعلاج الإلهي والطبي معًا

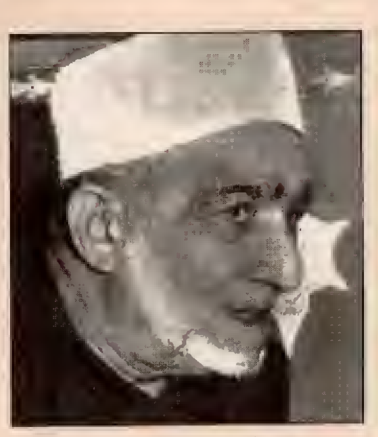
روى ابن أبي شيبة في مسنده، من حديث عبدالله بن مسعود قال: بينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يصلّي إذ سجد، فلدغته عقرب في أصبعه، فانصرف رسول الله وقال: «لعن الله العقرب ماتدع نبيًا ولا غيره»، ثم دعا بإناء فيه ماء وملح، فجعل يضع موضع اللدغة في الماء والملح، ويقرأ قل هو الله أحد، والمعوّذتين حتى سكنت. أرأيت كيف كان علاج - النبي صلّى الله عليه وسلّم - في هذا الحديث؟ إنه العلاج المركّب من أمرين: إلهي وطبيعي، ولم يستغن عليه الصلاة والسلام عن أحدهما، فعمد إلى القرآن كما عمد إلى الدواء. وبهذا أمرنا، وألا نركن لأحد الأمرين دون الآخر، سلامة لعقيدتنا وإيماننا من الانحراف والتشويه. إذًا علينا الأخذ بالأمرين معًا، ولكن ليتحقق الشفاء بهما لابدّ من توافر شروط لكلّ واحد منهما. فمن التجأ إلى الشفاء بالقرآن فيجب أن يتوافر في القارئ والمتلقي الصلاح والإيمان والنفسية الراضية المستسلمة لله تعالى، المقرة بصدق كتابه عز وجل؛ لأنّ الله تعالى اشترط الشفاء بأنه حاصل للمؤمنين *قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء* **فصلت**: 44. ومن المحال أن ينتفع به من أنكره أو سخر منه، أو شك فيه، أو فعله مُجرّبًا ولايعتقد أن ذلك نافعه.

وفي الحقيقة إني لفي عجب من الإمام محمود شلتوت كيف استقام عنده الأمر بإبعاد قدرة القرآن على الشفاء، وما قراءة القرآن إلا دعاء، والله يقول *ادعوني أستجب لكم* **غافر**:60. وكيف لايُشفَى من تعلق قلبه بالله، وآمن إيمانًا جازمًا أن الله شافيه، والحديث القدسي يقول: «أنا عند حسن ظن عبدي بي»، وكيف ييأس من شفاء الله له، وقد أتاه بقلب ضارع خاشع ملبيًا نداء ربه *قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله* **الزمر**:53.

ومن التجأ إلى أخذ العلاج الطبي معتمدًا عليه، فليعلم أنه لاشافي على الإطلاق إلا الله وحده، وأن الأدوية المستعملة لاتوجب الشفاء، وإنما هي أسباب ووسائط، يخلق الله عندها فعله وهي الصحة، التي لايخلقها أحد سواه، فكيف ينسبها إلى جماد من الأدوية أو سواها. ولو شاء الله لخلق الشفاء من دون سبب، ولكن لما كانت الدنيا دار أسباب، جرت السنة فيها بمقتضى الحكمة، على تعلق الأحكام. فالدواء لاينفع بنفسه بل الشفاء وغيره من خلق الله عزّ وجل، يخلقه إن شاء أو يمنعه إن شاء، ويمرض به إن شاء، ومثله النار لاتحرق، والسكّين لاتقطع. يقول القرطبي - رحمه الله - في هذه المسألة: "يجب على كل مسلم أن يعتقد أن لاطبيب ولاشافي ولامصحح على الإطلاق إلا الله وحده، خلق الداء والدواء، فهو الطبيب فيتوكل عليه، وينقطع إليه، ويعتصم به، ويلجأ في مرضه وصحته إليه ثقة به، فإن الله قد علم أيام المرض وأيام الصحة، فلو حرص الخلق على تقليل ذلك أو زيادته لما قدروا، ثم يتناول الدواء ويستعمله كما يستعمل جميع الأسباب بمجرد الأمر، فإن الله سبحانه وتعالى إن أوصله إلى الداء برئ، وإن حجبه بمانع يمنعه وقدر بموته لم ينفعه، لكنه مأجور على ماأمر، على لسان رسول الله. ولعل الحكمة في إرشاد المريض أن يقول عند تناوله

الدواء بسم الله الشافي وبسم الله المعافي صرف ذهنه من أن يعلق شفاء بهذه الحُبَيبات أو الجُرَيعات من السوائل، ولكي يؤمن إيمانًا قاطعًا أن الشفاء من عند الله : *وإذا مرضت فهو يشفين* **الشعراء**:80.

إن ماأريدُ أن أصل إليه في طرح هذه المسألة، مسألة شفاء القرآن للأبدان أن على المسلم ألا يستغني عن أحدهما بالآخر، فمن قطع بعدم الشفاء بالقرآن، فقد أوقع نفسه فيما لاتُحمد عقباه كما أوقعها في اليأس من رحمة الله *إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون* **يوسف**:87. ومن نَفَى الأخذ بالأسباب بدعوى أن الذي وضع فيه الداء هو الذي يشفيه، فقد



الإمام محمود شلتوت

ابتعد كل البعد عن حقيقة التوكّل على الله الذي هو ارتباط النفس الإنسانية بمقصد الرجاء سبحانه وتعالى بعد أخذ كاملٍ بالأسباب من غير إهمال ولاتقصير.

النُشرة وموقف الصحابة منها

ولابد للإحاطة بجوانب الموضوع كافة من ذكر اختلاف الصحابة والعلماء في النُشرة: وهو ضرب من العلاج يعالج به من يُظن أن به سحراً أو مسًا من الجن أو غيرهما من الأمراض، فيكتب المعالجُ في ورق أو إناء نظيف شيئًا من أسماء الله، أو من القرآن وخاصة آيات الشفاء، ثم يغسله بالماء ويَمسَح به جسد المريض، أو يَسقيه. فكرهها الربيع بن خيثم وسعيد بن جبير، ومنعها مجاهد والحسن وإبراهيم النخعيّ، وقال الأخير أخاف أن يصيبه بلاء، وقال الحسن سألت أنسًا عن النُشرة، فقال ذكروا عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنهّا من الشيطان، وروى أبوداود حديث جابر قال سئل رسول الله عن النُشرة فقال: «من عملِ الشيطان»(17) أما من أجازها فسعيد بن المسيِّب، فقد روى البخاري في صحيحه عن قتادة قال: قلت لسعيد بن المسيب رجل به طبّ (سحر) أو يؤخذ عن امرأته، أيحلُّ عنه أو يُنشّر؟ قال لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ماينفع فلم يُنه عنه. ومن المأثور عن عائشة رضي الله عنها، أنها كانت تقرأ المعوذتين في إناء ثم تأمر أن يُصَبَّ على المريض. كما استعمل سلفنا الصالح النُشرة في كثير من الحالات، فكان الشفاء من الله تعالى بعد استعمالهم إياها، ذكر ذلك الإمام ابن قيم في كتابه «زاد المعاد»، وتوسع فيما كتب من هدي المصطفى صلّى الله عليه وسلّم لصرف مرض الحُمى ولعسر الولادة وللرعاف وللحزاز ولعرق النسا ولوجع الضرس، وغيره من الأمراض، كما ذكر ابن الحاج في كتابه «المدخل» أنه لابأس بالتداوي بالنُشرة، ونقل عن الإمام أبي القاسم القشيري - رحمه الله - أن ولده مرض مرضًا شديدًا حتى قال آيست منه واشتد الأمر عليّ، فرأيت النبي صلّى الله عليه وسلّم في المنام فشكوت له ما بولدي فقال: «أين أنت من آيات الشفاء» فانتبهت ففكرت فيها فإذا هي ستة مواضع من كتاب الله تعالى(18). قال فكتبتها في صحيفة ثم حللتها بالماء وسقيته إياها فكأنما نشط من عقال أو كما قال.

كما ذكر ابن الحاج أن شيخه أبا محمد المرجاني كان أكثر تداويه بالنُشرة، ويعلّمها لأولاده ولأصحابه فيجدون على ذلك الشفاء، وأخبر - رحمه الله - أنّ النبي صلّى الله عليه وسلم أعطاها له في المنام، فنشرة للعين، وأخرى للسحر، وثالثة للفزع ولغير ذلك، فمن أراد توسّعًا في الموضوع فليرجع إلى أحد الكتابين(19).

أما فيما يتعلّق بكتابة التمائم والقلائد، فقد أجازها مالك رضي الله عنه، وقال لابأس بتعليق الكتب التي فيها أسماء الله عز وجلّ على أعناق المرضى على وجه التبرك بها، وكرهها ابن مسعود رضي الله عنه، ففي يوم رأى على أمّ ولده تميمة مربوطة فجبذها جبذًا شديدًا فقطعها وقال: إن آل ابن مسعود لأغنياء عن الشرك، ثمّ قال: إن التمائم والرُقى والتُّولة من الشرك، قيل ما التّولة قال: ما تُحَبِّبُ به لزوجها. ورُوي عن عقبة بن عامر الجهنيّ قال سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «من علق تميمة فلا أتم الله له، ومن علق وَدَعَة فلا ودَع الله له قلبًا»، أي فلا بارك الله له ماهو فيه من العافية. وهذا كله تحذير مما كان أهل الجاهلية يصنعونه من تعليق التمائم والقلائد، ويظنون أنها تقيهم وتصرف عنهم البلاء، وذلك لايصرفه إلا الله عز وجلّ فنهاهم رسول الله عما كانوا يصنعون في جاهليتهم. عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما تعلّق بعد نزول البلاء فليس من التمائم. هذا وقد كره بعض أهل العلم تعليق التميمة على كل حال، قبل نزول البلاء وبعده. والله أعلم وينفعنا بما علمنا.

الهوامش والمراجع

1- مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، المجلد الأول ص 55، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت.
2- في رواية سليمان بن قتة: إن الملك يموت.
3- وفي رواية لانفعل حتى تجعلوا لنا جُعلاً.
4- في رواية ابن قتة فأفاق وبرئ.
5- الطب النبوي، ابن قيم الجوزية، ص7، الناشر دار الكتاب الأهلية، بيروت.
6- الإمام الشوكاني حياته وفكره: د. عبدالغني الشرجي، ص312، الناشر مؤسسة الرسالة، بيروت.
7- مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، المجلد الأول ص55، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت.
8- الفتاوى، للإمام الأكبر محمود شلتوت، ص 209، الناشر دار الشروق، بيروت، ط 10.
9- رواه ابن ماجه والترمذي، وقال حديث حسن صحيح.
10- رواه البخاري، وفي رواية من داء.
11- رواه مسلم.
12- أخرجه أحمد عن هلال عن ذكوان عن رجل من الأنصار ورجاله ثقات.
13- أخرجه أبوداود والترمذي وابن ماجه.
14- أخرجه أحمد والأربعة وصححه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.
15- ابن باديس حياته وآثاره، د. عمار طالبي، المجلد الأول، ص 330، الناشر دار الغرب الإسلامي، بيروت.
16- آيات الشفاء هي: *ويشفِ صدورَ قوم مؤمنين* التوبة:14.
قد جاءكم موعظةٌ من ربكم وشفاءٌ لما في الصُدور يونس:57.
يخرجُ من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانُه فيه شفاءٌ للنّاس النحل:69.
ونُنزل من القرآن ماهو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين الإسراء:82.
وإذا مرضت فهو يشفين الشعراء:80.
قل هو للذين آمنوا هدًى وشفاءٌ فصلت:44.
17- أورده أبوداود في سننه في باب النُشرة. وقد قيل إن هذا محمول على ما إذا كانت خارجة عما في كتاب الله وسنة رسوله.
18- راجع الحاشية رقم 16.
19- "المدخل" لابن الحاج، المجلد الرابع، ص 121، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت، وزاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، المجلد الأول ص141ومابعدها، الناشر مصطفى البابي الحلبي بمصر.



مدخل لدراسة الحركة النقدية في المملكة العربية السعودية

د. حسن بن فهد الهويمل

مستويات الريادة النقدية

الحلقة الثانية

لقد استهل الحركة النقدية في المملكة الأستاذ محمد سرور الصبان في كتابين رائدين يفيضان بحماسة الشباب وغضاضة الإهاب، فكتابا «أدب الحجاز» و«المعرض» بدايتان رائدتان كان الدافع إليهما: «إثبات الذات» «وتعميق التوجه الإصلاحي»، «والدفاع عن اللغة العربية»، وإذ تتحد الدوافع تختلف المقاصد وتتباين المناهج وتتفاوت المستويات وآليات الدرس الأدبي، ومهما اتسم به كتاب «أدب الحجاز» للصبان الذي صدر عام 1344هـ في تسعين صفحة من بدائية وبساطة فإنه فاتحة خير وبداية حركة تأليفية هي أقرب إلى التأريخية منها إلى النقد أو قل إنها بالمختارات ألصق وهي جهود مخضرمة، انشقت عنها الأرض في العهد الهاشمي وأخذت زُخرفها وازّينت في العهد السعودي.

وما هو محسوب لهذا العمل الرائد اتساعه للشعر والنثر وهو ما لم يفعله الخلف فقد ترجم وقدّم مختارات لتسعة شعراء وثلاثة عشر كاتبًا، وهم، إن كانوا إذ ذاك من شداة الأدب فهم اليوم بل قبل اليوم من شيوخ الأدب وروّاده. أما كتاب «المعرض» فهو يمثل نقد النقد وهو تصدٍّ لميخائيل نعيمة الذي نال من اللغة العربية، لقد استكتب الصبان عددًا من الأدباء واستجوبهم عن سؤال فيه وجهة نظر نعيمة.

التواصل والتأثر

وبعد عشر سنوات من محاولات الصبان المدفوعة بعاملي الرغبة في إسماع الصوت وإبراز شعر الإصلاح الوطني والسياسي ومواجهة الساخرين بالتراث، نهض شابان يتوقدان حماسة ويتطلعان إلى آفاق أدبية أرحب من الآفاق الإقليمية للترجمة والاختيار، فكتاب «وحي الصحراء» لمحمد سعيد عبد المقصود، وعبدالله عمر بالخير، من أهم المصادر الأدبية، ولربما يكون عملهما أول مشروع خضع للتحكيم. والتحكيمُ جزءٌ من النقد أو هو النقد عينه، لقد كان المشروع بحد ذاته مدرسة من مدارس النقد التي برم من قسوتها الشعراء، فهذا الغزاوي يصف عملها بالتشريح وهو مصطلح نقدي حديث من مصطلحات النقد يقول:

تضافرتْ في انتقادي غير راحمة
شعري ونثري وما استحسنتُ من غُرَر

فشرّحوني وما حابوا وقد نصحوا
وجرعة السم قد تُنجي من الخطر

والكتاب الذي حاول التفلت من إسار الإقليمية استكتب الدكتور محمد حسين هيكل ليعمق التواصل مع الأدب المصري وقد جاءت مقدمته تأكيداً للتواصل والتأثر بأدب مصر وسورية والعراق على حد قول هيكل، والمدخل التاريخي الذي أعده عبدالمقصود واختصر به عصور الأدب ينبىء عن وعي مبكر بمهمة الناقد والمؤرخ الأدبي، واتسعت الدراسات والتراجم والمختارات للشعراء والكتّاب الذين بلغ عددهم اثنين وعشرين أديباً وشاعراً، ويناهز الكتاب الخمسمئة صفحة.

بداية العمل النقدي

وإذ أقطع بأن رواية (ثمن التضحية) لحامد دمنهوري بداية للعمل الروائي في المملكة لم يكن قبلها ما يضاهيها أقطع بأن كتاب «التيارات الأدبية الحديثة في قلب جزيرة العرب» لعبدالله عبدالجبار بداية للعمل النقدي في المملكة لم يكن قبله ما يضاهيه، وبصرف النظر عن مدرسيته وتعليميته ومقدماته العريضة الطويلة التي لم تترك لدراسة التيارات إلا مئة وثلاثين صفحة من بين ثلاثمئة وست وسبعين صفحة، وبصرف النظر أيضاً ـ عن قسوته في بعض المواقف، وقطعه في الأحكام وعدم استيعابه التام لبعض التيارات، كالرمزية مثلاً، وإن كان قد أشار بأنها رمزية خاصة بأدب الجزيرة، فإنه بلا شك عمل يدل على وعي تام بالتيارات الأدبية الحديثة وطرائق معالجتها، كما أنه يستمد رؤيته من ثقافة واسعة، ومعرفة بأصول الدرس الأدبي. وكتاب «التيارات» مجموعة محاضرات ألقيت في قاعات الدرس بمعهد الدراسات العربية بمصر قبل صدورها في كتاب، ولا استبعد أن تلك المحاضرات قد أذيعت بين المهتمين وأحدثت أصداء متواضعة قبل جمعها في كتاب. ومن التقصير الملوم أن عبدالله عبدالجبار الذي يمتلك كل هذه الإمكانات توقف عند هذا الحد ولم يخرج للناس عملاً مماثلاً، ولم يفكر في مراجعة هذا الكتاب ومحاولة التعديل والإضافة وإخراجه إلى الناس. ومع هذه الأهمية فإن الكتاب لم يكن خالصاً للنقد، وإنما اشتمل على دراسات تمهيدية شملت الجغرافيا والسكان ووسائل النقل والثروة وفتوحات الملك عبدالعزيز، ثم العوامل المؤثرة في الأدب من صحافة وتعليم ومكتبات وأثر البيئة في شعر الجزيرة، وهي إطالة حرمت الأدباء من إفاضة مهمة، والطابع المدرسي التعليمي قصره على فن الشعر، كما أن المصدرية النصية لم تكن بحجم المرجعية ومن ثم لم تكن كافية على حشده المصادر والإحالة إليها بشكل لم يكن شائعًا في الوسط النقدي المعاصر له والاتجاهات الدلالية أو التيارات التي حفل بها وأبرزها بالشاهد لم تكن هي كل الاتجاهات الدلالية والفنية القائمة لدى المرحلة الشعرية، وحديثه عنها اتسم بالتفصيل والتقسيم الرياضي؛ فالكلاسيكية (ميتة، وحية، وبين بين) وهو حين وزع الشعراء على هذه الحقول لم يكن دقيقاً إذ لم ينطلق من النص بعد تحليله ورصد منظوياته، ولو فعل ذلك لما وقع في التفاوت اللافت للنظر من مثله وإلا فغيره مظنّة هذا التفاوت؛ ذلك أنه أخذ نفسه بالمنهجية وبالتقسيم والتوزيع الذي لم يكن لأحد من معاصريه.

ثم هو يتخذ معايير غير متناظرة وغير دقيقة. فالكلاسيكية التي حشر فيها طائفة كبيرة من الشعراء وقسمهم بين مستوياتها الثلاثة، لم تبن معياريته ومقاييسه التي حكّمها في رقاب أولئك، فلا ندري هل نظر إلى الوزن والقافية، أم تجاوز ذلك إلى بناء القصيدة، وهل وضع اعتباراً للغة النص وبعده الموضوعي وصوره وهل تجاوز ذلك إلى الأسلوب وبناء الجملة كما زودنا بأحكام جائرة اختارها في ضوء معهود ذهني لهذه النصوص ولأولئك الشعراء. إنه لو استخدم كل هذه الأدوات بدقة لجاء تقسيمه أكثر ملاءمة وموضوعية، لقد خبر الشعر الحديث من خلال معايشته لعمالقة الشعر في مصر، ووعى طرائق النقد في الأجواء المشحونة باللغط النقدي، ونظر فيما بين يديه من نصوص شعرية فأخذ يحثوها يميناً ويساراً هؤلاء إلى الكلاسيكية الميتة، وأولئك إلى الكلاسيكية الحية وما بقي بين بين ثم نفض يده ليقبض بها زمرة أخرى من الشعراء فيوزعها بين الرمزية والذاتية والواقعية بأقسامها الأربعة: الاجتماعي والثوري والوطني والقومي. وإذ ينتهي من هذا التحقيل المسيج يستل بعض الشعراء من حقله بفعل نص عارض ليضعه في حقل آخر، كما فعل مع العواد وكان بإمكانه أن يضع النص من دون المبدع وما على الشاعر من بأس حين يكون واقعياً في نص ورومانسياً في نص آخر، ولكن البأس كل البأس أن يجعل الشاعر واقعياً أو كلاسيكياً ثم يعرض له على حين غفلة نص رومانسي لشاعر واقعي فيجعله هنا وهناك من دون إشارة أو استثناء.

كل هذه الملاحظات التي تم تفصيلها في صلب الدراسة لا تؤثر في مكانة الناقد وقيمة العمل الرائد، ويكفيه نبلاً أننا لانقدر على إشاعة الأخطاء وإنما نعدها عداً وحين تكون الأخطاء في نطاق الحصر يكون العمل بشرياً متألقاً.

هذا العمل العلمي المتميز لا أقول أرهصت له أعمال سابقة، أو راد له نقاد سابقون ذلك أنه لايشكل في سياقه حلقة تصل ما قبلها بما بعدها، وإنما هو فعل متميز منحاز ولعبد الجبار كتاب رديف لهذه الدراسة تناول فيه النثر ومازال مخطوطاً، وسوف أعرض له بالتفصيل عند دراستي للناقد، وبخاصة عند حديثه المسهب عن القصيبي الذي لايمثل النثر السعودي في شيء على أن بعض ناشئة

«التيارات» لعبدالله عبد الجبار بداية للعمل النقدي في المملكة، بصرف النظر عن قسوته في بعض المواقف وعدم استيعابه التام لبعض التيارات

النقاد أحاطوا عبدالله عبدالجبار بهالة من الثناء والإعجاب الباذخ، وتناولوه من خلال آليات نقدية حديثة كادت تطمس معالمه وخصوصياته، ومع ما فيه من مبالغة وإعجاب تعد رائدة في مجالها، لها وعليها. ولو رجعنا إلى آراء النقاد والدارسين لوجدنا الدافع واحداً فالأستاذ عبدالله عبدالجبار يدفعه إلى تلك المحاضرات غرضان:

- **التعريف بأدب مجهول.**
- **وضع معالم يهتدي بها الدارسون**

تيار النقد اللغوي

ومحمد سرور الصبان قبله بثلاثين عاماً أو تزيد كانت تدفعه الرغبة في إعلام الناس بأن هناك شبيبة تحب العلم وتتعطش إلى مناهله، ولما كانت الظروف التي تمخضت عنها تلك المحاولة تفيض بالطموحات السياسية في ظل المتغيرات الإقليمية فإن الهم الذي يساور الصبان ولداته إصلاح الأوضاع السياسية ومن ثم كان حفياً بالشعراء الذين يستبطنون هذه المنازع، وإذ لايكون راصداً للحركة الأدبية إلا من خلال ذلك البعد الموضوعي فإنه لم يستوعب شعراء وأدباء

مدخل لدراسة الحركة النقدية

في المملكة العربية السعودية

مستويات الريادة النقدية

الحجاز وإبداعهم في المرحلة التي رصدها ولم يكن كتابه كتاب نقد إلا تجوزاً، هذا الكتاب حظي باهتمام الراصدين للحركة النقدية في البلاد، في حين صرف النظر عن كتاب للصبان نفسه ربما يكون ألصق بالعملية النقدية، ومادته أقرب إلى الرؤية النقدية من أي رؤية أخرى، فكتاب «المعرض» الذي صدر عام 1345هـ ينافح عن اللغة من خلال استجلاء آراء مجموعة من الأدباء وذلك في إثر الحملة الجائرة التي نهض بها ميخائيل نعيمة ضد اللغة العربية ومسايرته لدعاة العامية من مستشرقين ومستغربين، ولما كان هذا الكتاب بداية للتنظير اللغوي فقد تناولناه في تيار النقد اللغوي.

ثلاثة مستويات للريادة

إننا نستطيع أن نقرر بأن ريادة الحركة النقدية في المملكة أخذت ثلاثة مستويات، متعاقبة وليست متناسخة وإن كان فيها شيء من التناظر.

المستوى الأول يتمثل ببدايات الصبان، والمستوى الثاني يتمثل بكتاب «وحي الصحراء» والمستوى الثالث يتمثل بكتابي «الشعراء الثلاثة» و«شعراء الحجاز في العصر الحديث» للساسي. وهذه المستويات الثلاثة تخللتها مناوشات، ومعارك أدبية جاءت على شكل مقالات كانت الأولى: بين العواد من جهة والأنصاري ومن شايعه من جهة أخرى حول روايتي: «التوءمان»، و«مرهم التناسي»(1). وتمثل أسوأ أخلاقيات النقد من جانب العواد عفا الله عنه. وهي لون من الهجاء الشخصي الذي يشبه إلى حد كبير نقد الرافعي لبعض خصومه وبخاصة في كتابه «على السفّود»، الذي لم يضع اسمه عليه إلا لما ينطوي عليه من هجاء مقذع ينال قائله قبل المقول عنه.

والمعركة الثانية بين حمزة شحاتة من جهة وعبدالله عريف ومحمد عمر توفيق والعطار من جهة ثانية حول محاضرة شحاتة «الرجولة عماد الخلق الفاضل» وتمثل هذه المعركة أرقى أخلاقيات النقد.

أما المناوشات الأدبية فكثيرة ومتفاوتة بين الموضوعية والشخصية وطرفها الأهم عزيز ضياء المتجاوز برؤيته مدركات مرحلته ومواضعات جيله.

وقد بسطنا الحديث عن هذه المعارك وتلك المناوشات عند الحديث عن النقاد في المملكة العربية السعودية. وإذ نصرف النظر عن رواد لهم أثرهم في الحركة الأدبية كالأستاذ حمد الجاسر فلأن اهتمامه كان منصبّاً على جغرافية الجزيرة من خلال النص الأدبي والتاريخي والجغرافي وإن كانت له مناوشات نقدية تنم على ذوق أدبي رفيع وأصالة في الرؤية النقدية، وعلميته الجغرافية أضفت ظلالها على نقده فكان طابعه علمياً وأحكامه ذات مرجعية تراثية(2). وبعد هذه المستويات والمعارك والمناوشات بدأت الاتجاهات المتباينة فعبدالله عبدالجبار اتخذ منهجاً متميزاً لم يكن على شاكلة من سبقه، والفلالي وأبو مدين جنحا للتطبيق والتصحيح والمآخذ الجزئية والانطباعية والذوق الخاص، والرميح تقلب مع مختلف المذاهب واستشرف الآتي، وعبدالله بن إدريس الذي كان شرطه دلالياً جلاه في تناوشه مع ابن خميس حين ليم على إهماله له وهو من شعراء نجد.

أما الذين وصلوا ما انقطع من جهود الصبان وعبدالمقصود وبالخير والساسي فهم عبدالله بن إدريس في كتابه «شعراء نجد المعاصرون»

كانت بداية الحركة النقدية بأشواطها ومستوياتها واتجاهاتها وليدة جهود ذاتية وثقافة شخصية، وكانت الصحافة مضمارها الوحيد

وعبدالرحمن العبيد في كتابه «الأدب في الخليج العربي» ومحمد بن علي السنوسي في كتابه «مع الشعراء» ومحمد بن أحمد العقيلي في كتابه «التاريخ الأدبي لمنطقة جازان» والواقع في ثلاثة مجلدات ضخام.

هذه الشخصيات وتلك الكتب سنفرد لها دراسة وصفية وتحليلية عند تناولنا للنقد والدارسين والمؤرخين.

لقد كانت بداية الحركة النقدية بأشواطها ومستوياتها، واتجاهاتها وليدة جهود ذاتية وثقافة شخصية، وكانت الصحافة مضمارها الوحيد، ثم جمعت هذه الجهود في كتب وأعدت الدراسات الأكاديمية على تلك المجاميع(3). ومازالت الدراسات والتراجم والنقد بمفهومه التراثي قائمة على أشدها، فكتب التراجم والمختارات تترسم مناهج الرواد وتأتي على شاكلة كتب الصبان وخوجة والساسي وابن إدريس والعبيد والعقيلي، ومن بعد ذلك المسلم في موسوعته التي طبعها نادي المدينة الأدبي في ثلاث مجلدات، والدراسات الإقليمية التي ركزت على أدباء الأقاليم ترجمة واتجاهات ونزعات. كما أن هناك دراسات أكاديمية ذات طابع منهجي وموضوعي، فالدكاترة محمد بن سعد بن حسين وإبراهيم الفوزان ومحمد عبدالرحمن الشامخ، ومنصور الحازمي، وعبدالرحمن الطيب الأنصاري، وعبدالله الغذامي ومحمد الربيع، وعبدالله الحامد، وحسن الهويمل، ومسعد العطوي، وسعد البازعي، وناصر الرشيد، وجريدي المنصوري، وعبدالله آل مبارك، وعبدالله أبو داهش، وعالي القرشي، وأحمد باقازي، وعبدالعزيز الفيصل، وعثمان الصوينع، ومحمد عيد الخطراوي، وميجان الرويلي، وحمزة المزيني، والأساتذة أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، وعبدالرحمن أبو بكر، وعابد خازندار، وعلي العمير، وعلوي طه الصافي، وعبدالله نور، وسعيد السريحي، وعبدالله شباط، وعبدالعزيز الربيع، وعبدالسلام حافظ، وعبد الكريم الحقيل، ومحمد سعيد المسلم. وعلي منصور المرهون، وحسن القرشي، ومحمد منصور الشقحاء، ومحمد العوين، وحسين بافقيه، وسعد الحميدين، ومحمد المفرجي، وعبدالكريم نيازي، والحميدين، والشرود، والقسومي، والصمعاني والدبيسي، والعروي، والعرفج والرشيد، ولفيف آخر من الدارسين والمؤرخين والدارسات، كل أولئك لهم مشاركات نقدية سنعرض لها في دراستنا للشخصيات أو دراسة الظواهر الفنية والمناهج في دراساتهم.

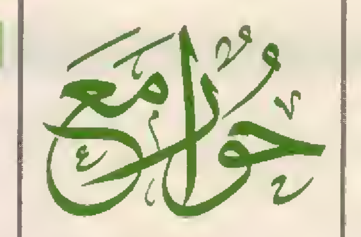
وفي ضوء ذلك فإننا بعد هذا المدخل سنتناول الظواهر والمناهج والاتجاهات قبل أن نفرد لكل ناقد دراسة مستفيضة أملاً في تحديد التيارات النقدية واستيفاء الاتجاهات من خلال ضم بعضها إلى بعض.

الهوامش

1- راجع الدراسات التاريخية لفن القصة في المملكة عند الحازمي والشامخ والهاجري.

2- جمعها وطبعها في كتاب « مع الشعراء» طبع نادي القصيم الأدبي ببريدة.

3- ومن أهمها كتب المقالات، وقد درسها العوين في كتابه «المقالة في المملكة»، وطبعها في مجلدين، ولكنه لم يستقص كل المقالات الأدبية وبالذات التي لم تجمع في كتب مستقلة.



د. عبدالرحمن السميط الأمين العام للجنة مسلمي إفريقية:





التعليم مفتاح التغير لأوضاع الأقليات الإسلامية

أجراه: من قسم التحرير ـ حسين حسن حسين

تشجيعًا لكل عمل يبتغي خدمة الإسلام والمسلمين ورفعة شأنهم، خصصت مؤسسة الملك فيصل الخيرية جائزة سنوية باسم جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام، تمنحها لأولئك الذين يُسدون الخير للإسلام بجلائل أعمالهم، إضافة إلى ما تقدمه من جوائز في مجالات الدراسات الإسلامية والأدب العربي والطب والعلوم.

وقد نال جائزة هذا العام لخدمة الإسلام الدكتور عبدالرحمن حمود السميط ـ طالعْ سيرته الذاتية في العدد الماضي ـ الطبيب الذي هجر مهنة الطب، ووقف جهوده لخدمة المسلمين وبخاصة في إفريقية، القارة التي يعيش فيها المسلمون غير العرب في أوضاع غاية في السوء على كثرتهم العددية في عدد من بلدانها.

ولأنه كما يقولون: إن من رأى ليس كمن سمع، أو كما قال الشاعر العربي:

يا ابن الكرام ألا تدنو فتبصر ما
قد حدّثوك فما راء كمن سمعا

من هنا، يكتسب هذا اللقاء مع الدكتور السميط ـ الأمين العامّ للجنة مسلمي إفريقية ومنشئها في العام 1981م ـ أهميته، إذ نقف من خلاله على كثير من مرئياته في هذه القارة البائسة، تلك المرئيات التي ضم بعضها كتابُه الذي سمّاه «رحلة خير في إفريقية.. رسالة إلى ولدي».

ـ لكم تجربتكم الثرّة في مجال العمل الخيري



د. عبدالرحمن السميط

الأمين العام للجنة مسلمي إفريقية

وسط الأقليات الإسلامية، سواء في أوربا أو في إفريقية.. ما هي الصورة التي تكونت لديكم عن تلك الأقليات؟

المثل يقول: «ما ضاع حق وراءه مُطالب»، وبما أن حقوق المسلمين ـ وبخاصة أقلياتهم ـ ليس وراءها مطالب، فمن الطبعي أن تُهضَم هذه الحقوق في أوربا، أو إفريقية أو في أي مكان آخر من العالم.

والطريق إلى استعادة هذه الحقوق الضائعة هو معرفة القوانين التي يعيش في ظلها هؤلاء المسلمون. ومعرفة هذه القوانين لاتتم إلا بالعلم؛ لأنه مفتاح التغيير لأوضاع الأقليات الإسلامية، كما أنه كذلك للأكثريات الإسلامية. ويمكنني القول «أعطني مسلمين مؤهلين أعطك حقوقًا كاملة غير منقوصة».

ـ الإحصاءات تقول إن هناك خمس عشرة دولة إفريقية جنوب الصحراء الكبرى تفوق نسبة المسلمين فيها 50٪، ومع ذلك يلاحظ ضعف تأثيرهم وبعدهم عن مراكز اتخاذ القرار، ما تعليقكم؟

كما أجبت في السؤال السابق، فإن التعليم هو مفتاح التغيير، وبُعْدُ المسلمين عن مراكز اتخاذ القرار يرجع إلى أنهم غير متعلمين العلوم العصرية التي يمكن أن تفتح لهم سبل الحضور في مراكز التأثير. فهم الآن لجهلهم يعيشون بمعزل عن مجريات الأمور في إفريقية، فلا أحد يستشيرهم؛ لأنهم ليسوا أهلاً للاستشارة لجهلهم وفقرهم ومرضهم. والمؤسف أن هناك دولاً ذات أكثرية مسلمة إلا أن تأثير المسلمين في تسيير شؤونها ضعيف للغاية، فمثلاً مدينة مثل ممباسا في كينيا حكمها العرب المسلمون، إلا أنها الآن فقدت كثيراً من طابعها الإسلامي، فانتشرت فيها الكنائس والحانات، وتعد أعلى المناطق نسبة في انتشار مرض فقدان المناعة الطبيعية (الإيدز).

ومع أن نسبة المسلمين فيها 85٪، إلا أن نسبة طلبة المدارس من المسلمين لاتتجاوز 48٪، كما أن نسبة المسلمين بين المدرسين في مدارس ممباسا الحكومية لاتتعدى 9٪.

وقد انتشر التخلف العقلي بين أطفال المسلمين الذين تضرروا من المجاعة بسبب سوء التغذية، إذ إن المحظوظ من هؤلاء الأطفال كان يأكل وجبة من الدقيق في اليوم.

ونجد دولة مثل مالاوي كانت نسبة المسلمين فيها أكثر من 66٪ في مرحلة من المراحل، لكننا بإهمالنا لهم، أضعناهم، حتى إن المسلم منهم كان يغير اسمه إذا ذهب إلى المدرسة ويتسمى باسم غير إسلامي؛ لأنه أصبح من المخجل أن يكون الإنسان متعلماً ومع ذلك يحافظ على دينه.

في هذا البلد، دفعت لجنة مسلمي إفريقية رسوم دراسة لنحو 55 ألف طفل قبل 15 سنة، وأرسلت منهم بعثات لتلقي التعليم في الخارج، فأصبح كثيرون من هؤلاء المبتعثين الذين نالوا درجات الماجستير والدكتوراه يتبوؤون مراكز مرموقة فيها لأنها في حاجة ماسة إلى هؤلاء المتخصصين.

ـ نشاط لجنتكم ـ لجنة مسلمي إفريقية ـ هل هونشاط إغاثي أم دعوي؟

لسنا لجنة إغاثة ولا منظمة دعوية، وإنما منظمة للتنمية الريفية، وهدفنا الوقوف على احتياجات المجتمعات الإفريقية الفقيرة، وهي غالبًا مجتمعات إسلامية لايهتم أحد بتنميتها، ثم نقوم بتلبية هذه الاحتياجات من طريق إنشاء مؤسسات اجتماعية وتعليمية ودينية وصحية، وغير ذلك، لنعين هذه المجتمعات الفقيرة على الوقوف على أقدامها، فهي تفتقر إلى البُنى الأساسية للتنمية، وهي محرومة من الطرق المعبَّدة والكهرباء والماء النقي، كما أنها لاتمتلك من يدافع عن حقوقها أو يطالب بها. ولذا، فمهمتنا الرئيسة، في لجنة مسلمي إفريقية أن نساعد المسلمين على تعرف الوسائل التي يساعدون بها أنفسهم، وفي إطار هذا النشاط التنموي، يأتي تعريفهم بدينهم وعقيدتهم.

ـ أشرتم في كلمتكم في حفل توزيع الجائزة إلى أن كثيراً من الأفارقة وغيرهم من ذوي الأصول العربية فقدوا هويتهم.. ما دور المنظمات الإسلامية في توكيد هوية هؤلاء؟

دعني أتحدث عن هذه القبائل التي هاجرت من البلاد العربية، أو أنها كانت إفريقية مسلمة، ثم فقدت هويتها بمرور الزمان وموت العلماء وضياع العلم.

فمن يتجول في هذه القارة التي دخلها الإسلام في هجرة الحبشة الأولى قبل أن يدخل المدينة المنورة يشاهد الواقع المؤلم الذي عليه عشرات القبائل والملايين من الناس ممن كانوا يدينون بدين التوحيد، ولكنهم ضاعوا ولم يعنهم أحد من المسلمين على العودة إلى دين الله، ومن تلك القبائل، قبائل الفارمبا في زيمبابوي، والتيمورين في مدغشقروالغبرا والرينديلي في كينيا. ففي هذه القبائل، كثيرون منهم ـ كما شاهدت عند قبائل الغبرا ـ يحتفلون برمضان ويصومون 30 يومًا، ويصومون صومًا أصغر بعد رمضان ويحتفلون بعيد الأضحى، ويسمون شهر ذي الحجة شهر عرفة، ويذبحون الأضاحي، ولا يقلمون أظافرهم ولايقصون شعورهم طوال شهر رمضان، وأي شخص يولد يوم الاثنين يسمونه محمداً، كما أن أيام الأسبوع عندهم كما هي في العربية إلا أنهم حرفوا يوم الجمعة إلى كمات.

بل رأينا بعض القبائل بنت كعبة لها تقوم بالطواف حولها سبع مرات في السنة، بعد أن يلبس الطائفون إزاراً غير مخيط، ولايغطون رؤوسهم، ثم يدعون ويذبحون. ووجدنا قبائل تفتخر بأن أصولها من مكة وتسمي مدنها وقراها بمكة والحجاز، وهم لايعرفون أين مكة أو الحجاز، كل الذي يعرفونه أنها في الشمال، وهم لم يسمعوا عن العرب. ووجدت قبائل تقسم بشيء مقدس لديها اسمه «نور مكة والمدينة»، وعندما أخبرتهم بأنني من أرض مكة والمدينة، سألوني: ما هي مكة؟ هل هي فيل أم جبل أم إنها شجرة؟. كل ذلك يبين أن هؤلاء لهم أصول إسلامية. وهذا الوضع المأساوي زاد النفس إيلامًا عندما أخبروني بأنهم لم يروا مسلماً زار مناطقهم من قبل. وتزداد مأساوية الأمر، حين كنت أحدثهم عن مبادئ الإسلام، فإذا بي أجد أحدهم يقول لي: إنك تعرف عقيدتنا، ومبادئنا، فحدثنا الآن عن عقيدتك ومبادئك. فهؤلاء في الحقيقة مسلمون إلا أن عقيدتهم انحرفت بسبب اختلاطهم بقبائل وثنية من دون أن يكون لديهم علماء يبينون لهم العقيدة الإسلامية الصحيحة.

قبائل إفريقية بنت لها كعبة تحج إليها، وهي تعتقد أنها من مكة، ولاتدري ما هي مكة، ولا أين تقع!!

والمشكلة في ظني أننا التهينا بالصغائر في بلداننا الإسلامية، نضيع وقتًا طويلاً في خلافات على الجزئيات وتركنا هؤلاء المسلمين وأمثالهم للشيطان.

ـ هل تنبهت المنظمات الإسلامية لأهمية التعليم في توكيد الهوية، وبخاصة أن المناهج مدخل رئيس لترسيخ تبعية الدولة الإفريقية للغرب؟

جميع المنظمات الإسلامية الخيرية تقوم بجهد تعليمي واضح، وتعطي التعليم نصيبًا لا بأس به من اهتمامها، ولكننا لانزال جميعًا مقصرين. فالحاجة إلى الإمكانات المادية والبشرية في مجال تعليم المسلمين كبيرة جدًا. ودعني أضرب لك مثالاً، إن نسبة الطلبة المسلمين في جامعة دار السلام في تنزانيا لاتتجاوز 3٪، بينما نسبة المسلمين بين السكان تزيد على 80٪. والشيء نفسه في كينيا، حيث لم يعين أستاذ واحد مسلم في جامعاتها خلال سنوات طويلة. والحقيقة الواضحة أن المناطق الإسلامية هي الأكثر تخلفًا والأقل بروزًا في النواحي التعليمية في معظم البلدان الإفريقية، لذلك فإن نتائجنا ليست بالنتائج التي يمكن أن يفتخر بها المسلمون.

وقد وجدت في كتاب مدرسي في جمهورية مالاوي صورة لمئات الرقيق الذين قيدت أيديهم وأرجلهم وكتب تعليق تحتها توضح أنها سفينة من سفن المسلمين من تجار الرقيق الذين ينقلون الرقيق من مالاوي إلى بلاد العرب. هذه الصورة نفسها، رأيتها في متحف كلية الأطباء والجراحين الملكية في أدنبرة، وقد كتب عليها اسم السفينة البريطانية واسم الشركة المالكة لها في مدينة ليفربول، وكان التعليق تحتها أنها صورة لسفينة تنقل العبيد من غرب إفريقية إلى أمريكا.

وهذا التزوير هدفه رسم صورة مشوهة للعرب والمسلمين في أذهان أبناء إفريقية، واتخاذ التعليم مدخلاً لترسيخ هذه الصورة، مما يبين ضرورة الاهتمام بالنشاط التربوي والتعليمي بوصفه جزءًا مهمًا في العمل الخيري الذي ينبغي أن نقدمه لإخواننا من المسلمين ولغيرهم ممن يتوقون إلى نور الهداية.

ـ يلاحظ أن هناك غيابًا للتنسيق بين المنظمات الإسلامية؟

هناك قدر من التنسيق بين المنظمات الإسلامية العاملة في هذا الميدان، ولكن مع ذلك يبقى العمل قاصرًا وناقصًا، ونأمل أن يكون على مستوى أفضل مما هو عليه الآن. ولكن يجب ألاّ نطالب بالمستحيل، فالعمل الخيري في البلاد الإسلامية بشكله المنظم قصير العمر، ولايمكن موازنته بنظيره في الدول الغربية، لذلك فإنني أرى أن الوقت كفيل بأن يحقق المستوى المأمول من التنسيق والإنجاز ـ إن شاء الله.

ـ القبلية من أسباب انقسام المسلمين في القارة الإفريقية، ما السبيل إلى إزالة النظرة القبلية وتحقيق وحدة المسلمين في هذه القارة؟

الانقسامات والخلافات ليست محصورة في المسلمين، ولكنها موجودة أيضًا لدى أصحاب الديانات المختلفة. ومن ناحية أخرى، فإن الخلافات جزء من المصيبة التي حلّت بالمسلمين في إفريقية، ومن أهم أسبابها التخلف في جميع مجالات الحياة، مما يجعل الإنسان تنقلب أولوياته، ويأخذ جزئية من الجزئيات ويتخذها محورًا للاتفاق والخلاف مع الآخرين، والحل في اعتقادي يتمثل في التعليم ورفع المستوى التعليمي لدى المجتمعات الإسلامية الإفريقية. والتعامل مع هذه العصبية القبلية التي تنتشر في إفريقية يحتاج إلى دربة وخبرة، وأفضل الأساليب للإقناع في ظل هذه العصبية إشراك شيوخ القرى وزعمائها وعلماء الدين والوجهاء والقيادات الحكومية والسياسية في صنع بعض القرارات، واستشاراتهم حتى في الأعمال التي يثق المرء أنهم يوافقون عليها، لأن تأثير هؤلاء في وسطهم كبير جدًا، ويستطيعون عرقلة أي عمل إذا لم يشعروا أنهم مشاركون فيه.

ـ من الملاحظ كذلك انحراف كثير من المسلمين في إفريقية عن العقيدة الصحيحة، ما الوسيلة لتصحيح عقيدة هؤلاء؟

أهم أسس الدعوة التدرج ومراعاة مشاعر الذين تتم دعوتهم إلى الدين الصحيح. أذكر أن مندوب الصليب الأحمر الدولي جاء ليفتح مركز إغاثة في مدينة عيلواق على الحدود الكينية الصومالية، فرفع علمًا كبيرًا عليه الصليب على منزله وعلى المركز، فعدّه الأهالي البسطاء تحديًا لهم، فقاطعته الغالبية العظمى ثم هجموا على المركز ودمروه. ومثال آخر على أهمية مراعاة مشاعر من تُقدم لهم الخدمة أو تتم دعوتهم، أن إحدى المؤسسات الخيرية الإسلامية قامت بذبح مجموعة من الأضاحي في مدينة ميالي شمال كينيا، وخصت قبيلة من دون القبائل الأخرى، فأثار هذا ضجة كبيرة، وكاد يسبب فتنة في المنطقة، لولا أن سخرنا الله لهم، وهدانا إلى فكرة ـ ونحن لانعلم بما يحدث ـ حيث جمعنا أئمة المساجد ومعلمي القرآن وكبار الوجهاء وأخبرناهم أن لدينا عددًا من الأضاحي، ونريدهم أن يشرفوا على توزيعها على الفقراء، فكان إشراكهم في هذا الأمر مخرجًا من المأزق الأول.

ومما أذكره في باب أهمية الصبر والجلد في مجال الدعوة، أننا عقدنا دورة لأئمة المساجد في منطقة نكوتاكوتا، وهم صوفية متعصبون، حتى إنهم لايصلون إلا في المساجد الخاصة بطرقهم، وبين أصحاب هذه الطرق حرب شعواء يغذيها جهل بأبسط مبادئ الإسلام. هؤلاء عندما جالسناهم لم نشأ أن نهاجم أو ننتقد أيًا منهم، وإنما كنا نبين لهم الوجه الصحيح في الأمور التي يعرضونها استنادًا إلى النص القرآني والسنة النبوية المطهرة، وبذلك استطعنا تخليص عقائدهم من كثير من الانحرافات التي كانت تشوبها، من غير أن نثير أحدًا منهم.

قرية إفريقية منكوبة فضلت أن تموت وهي مسلمة على أن تعيش على غير دين الإسلام

وفي موزمبيق، حيث كنا نعقد دورة كبرى لمعلمي القرآن والدعاة، تردّد مكتبنا في دعوة شخص عرف عنه أنه من كبار أصحاب الخرافات والسحر والأهواء، وعنده كثير من الشركيات، إلا أننا شجعناهم على دعوته وإكرامه أكثر من غيره والاهتمام به والتقرب إليه طوال مدة الدورة وبعدها، ونحمد الله أن هذا الرجل أصبح بعد الدورة من أقطاب الدعوة للعقيدة الصحيحة والسنّة المطهرة ومحاربة الخرافات.

وتعد الصورة الذهنية التي يعكسها المسلم من خلاله سلوكه من أهم المداخل إلى النفوس ، ويحضرني في هذا المقام، ما قام به فريق طبي من المسلمين عمل في سيراليون، إذ استطاع الأطباء المسلمون أعضاء هذا الفريق أن يتركوا أثرًا طيبًا في نفوس أبناء قبيلة اللوكو من خلال سلوكهم، مما دفع اثنين من زعماء القبيلة إلى إشهار



د. عبدالرحمن السميط
الأمين العام للجنة
مسلمي إفريقية

إسلامهم، وتبعهم بعد ذلك غيرهم من أبناء القبيلة، فارتفعت نسبة المسلمين خلال سنة ونصف السنة من 5٪ إلى 60٪.

- تعد إفريقية مجالاً خصبًا لحملات التنصير حتى إنهم يرفعون شعار «إفريقية نصرانية عام 2000م»، في رأيكم ما فرص تحقق هذا الشعار؟

أشك كثيرًا في أن يتحقق هذا الشعار الذي رفعته الكنيسة البروتستانتية في السبعينيات، وتبنته الكنيسة الكاثوليكية بعد ذلك، وقد شعروا هم للأفارقة الوثنيين من النصرانية، بل هناك نصارى يرون الإسلام قريبًا منهم أكثر من النصرانية، فقد كتب أول رئيس لسيراليون د. إسحق ستيفن في مذكراته، وهو نصراني، أن الإسلام أقرب إلى قلبه وإلى فطرته، وأن النصرانية لاتلائم إفريقية.

وقد وجدنا أن هناك نصارى ووثنيين يطلبون من المسلمين الذين ينوون الحج أن يدعوا لهم في الكعبة.

ومما لاشك فيه أن كسب هؤلاء وإدخالهم في دين الله أمر يسير جداً، لما يتميز به ديننا الحنيف من بساطة وسماحة، لكل ذلك أشك كثيرًا في أن تتحول إفريقية إلى النصرانية في يوم من الأيام.

- ونحن على مقربة من القرن الحادي والعشرين كيف ترون مستقبل الإسلام؟

مع كل المثبطات التي يجدها الإنسان يمينًا

رئيس إفريقي غير مسلم كتب في مذكراته أن الإسلام أقرب إلى الإفريقيين وفطرتهم وأن النصرانية لاتلائم إفريقية

باستحالة تحقق هذا الشعار، فعدّلوه، وأصبحوا يقولون عام 2025 تاريخًا لتنصير كل إفريقية. ولاندري ماذا سيحدث حتى ذلك التاريخ، فقد تكون إفريقية مسلمة أو غالبيتها مسلمة، لأنني أعتقد أن هناك إفلاسًا للكنيسة في أوربا وشمال أمريكا، والدين الجديد في أوربا - باعترافهم - هو الوثنية الجديدة، لأن نسبة المتدينين لاتتجاوز 10٪ من حجم سكان أوربا. وأعتقد أن الأهم للكنيسة أن تنشغل بإعادة أرضيتها الضائعة في أوربا معقل النصرانية بدلاً من أن تحاول تنصير إفريقية. وقد لمس العاملون في مجال التنصير ما يتمتع به الإسلام من قبول لدى الإفريقيين، فحاولوا تشويه صورته في أذهانهم، من ذلك أن بعض الجهات الغربية تنوي إنفاق بضعة ملايين من الدولارات على كنيسة في مدخل مدينة ممباسا الكينية بدعوى أنها كانت تؤوي الرقيق الذين يتم تحريرهم من تجار الرقيق العرب.

وفي زنجبار، قدمت مؤسسة روكفلر الأمريكية منحة قدرها خمسة ملايين دولار أمريكي لصيانة سوق الرقيق فيها، بل إن الحكومة الإسرائيلية تبرعت بعشرة ملايين دولار أمريكي لتحسين شبكة المياه في مدينة غاريسا الكينية. ومع كل ذلك، أرى أن الإسلام وطيد الأركان في إفريقية، وهو أقرب وشمالاً، إلا أن أملي في الله سبحانه وتعالى كبير وثقتي في إخواننا المسلمين ليست يسيرة. وأعتقد أن الإسلام على كل المعوقات سترتفع راياته خفاقة في كل مكان؛ لأن هناك ظمأ روحيًا في العالم لدين مثل الدين الإسلامي، له رؤيته المتكاملة للحياة.

وكل ما أتمناه من أبناء الإسلام أن يترفعوا عن الصغائر، وأن يهتموا بالأمور الكلية في الإسلام، فيعطوها ما تستحقه من أهمية، وأن ننبذ الخلافات ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، وأن نرتب أولياتنا بما يخدم ديننا، ويعيننا على مواجهة الخصوم في القرن القادم إن شاء الله. وأن نتذكر دائمًا أن في إفريقية مسلمين يتمسكون بدينهم ويدافعون عنه على ما هم فيه من ضنك وسغَب.

وأشير هنا بكل فخر إلى قرية اسمها دبيل في كينيا، افتتحت لهم الكنيسة الكاثوليكية مركزًا لتدريب الناس على الزراعة، وقامت بتوزيع الطعام عليهم إلا أن أهلها رفضوا أن يتنصروا، فكفّت الكنيسة عن تقديم المساعدات لهم. ثم جاءت الكنيسة الإفريقية الداخلية بإغاثة لهم، فرفضوها قائلين لهم إنهم يفضلون أن يموتوا مسلمين على أن يعيشوا نصارى. وهذا المثال الحي يبشر بمستقبل زاهر للإسلام في إفريقية وفي غيرها من قارات العالم.

- ما الوسيلة التي يمكن أن يشارك الخيِّرون من أبناء المسلمين بها في دعم لجنتكم - لجنة مسلمي إفريقية؟

ما نأمله من الخيِّرين من إخواننا المسلمين ألا ينسوا أطفالهم في إفريقية، وأن يدعوا الله دومًا أن يفتح لنا أبواب الخير حتى نستطيع القيام بواجبنا الدعوي تجاههم.

ولعل الدعاء من أقوى الأسلحة التي تعيننا على مواجهة الحملة العاتية التي نتعرض لها. وهناك الدعم المالي الذي يمثل عصب الدعوة؛ لأنه لايمكن لدعوة من الدعوات أن تستمر من دون وجود إمدادات مالية تستطيع بها الوقوف على قدميها. ويمكن لمن يريد الإسهام في دعم اللجنة أن يرسل حوالة على عنوانها في الكويت، وهو :

ص.ب 1414 الصفا 13015 ، هاتف 8528355

على أن يحدد نوع تبرعه. أعاننا الله جميعًا على فعل الخير.

إنجازات لجنة مسلمي إفريقية

- بناء 1050مسجد، و 61 مركزًا إسلاميًا متكاملاً، و 19مركزًا لتدريب النساء، و 54 مستشفى ومستوصفًا.
- دفع رواتب 1850داعية ومعلم شهريًا، وعقد 130دورة للمعلمين وأئمة المساجد، ودفع رسوم الدراسة عن 74000 طالب فقير، وتقديم أكثر من مئتي منحة للدراسات العليا في الدول العربية في مجالات الطب والهندسة والعلوم والتقنية وتسيير 840 مدرسة قرآنية.
- رعاية 8500 يتيم.
- حفر 760 بئر ارتوازي، ومئات الآبار السطحية في مناطق الجفاف، وتنفيذ عدد من السدود والمشروعات الزراعية.
- توزيع 65000 طن من الأغذية والأدوية والملابس، ومليونين ونصف المليون من المصاحف الشريفة، وستة ملايين ونصف المليون من الكتيبات بـ 18لغة إفريقية.
- إقامة عدد من المخيمات الطبية لإجراء عمليات العيون للمحتاجين مجانًا للتخفيف على الموارد الصحية القليلة في إطار مكافحة العمى.
- إنشاء إذاعة للقرآن الكريم في سيراليون منذ العام 1986م.
- تنفيذ أكثر من مليون وجبة إفطار للصائمين، وأكثر من 35,000 أضحية سنويًا.

قصيدة

تبارك الله

خالد فوزي عبده

قُلْ لِمَنْ، في الوجود، سرَّحَ طَرْفَهْ
ليس فيها تساؤلٌ أو ذهول
لم تَحَرْ عينُه، ولم يتعجَّبْ
قُلْ له إنما الخليقةُ سِرٌّ
وهو في عالم رحيبٍ مَهيبِ
وهو بعضٌ مُستضعفٌ من وجودِ
إنه من بدائع الخلق، لكنْ
مَنْ تُرى صاغ قلبَهُ وحِجاهُ
واجتباهُ بآيةٍ في لسانِ
كلَّما رفَّ بينَ جنبيه نَبْضٌ
غاب عن فَهْمِهِ زمانُ حياةِ
فَهْوَ في زورقِ الحياة غرير
رِزْقُهُ مِثْلُ عُمْرِه، ليس يُعْطَى
هل هَداهُ السؤالُ عن كُنْهِ كونِ
وعنِ الوبْلِ فوق أرضٍ عَبوسِ
فإذا الأرض قد زهت بابتسام
أو أثارت فيه السماءُ سُؤالاً
مَن تُرى صَرَّفَ المخوف من الشر
حين راعته، أوجهٌ من شرورِ
واستبدت به مشاعر ضعفِ
فِطْرَةُ العَقْل والتساؤل تَقْضي
كَيف يلقى الوليدُ، إذ هو أعمى
من حبا أُمَّهُ فؤادًا رحيمًا
كيف تغدو النَّواة غَرْسًا جَنِيّا
كيف يُمسي الطعامُ في الجسم عقلاً
مَنْ تُرى بثَّ في الحياة ودادًا
حين سَوّى الحياة من صُنع شطريْ
واصْطفى سِرَّ منشأٍ وانتقاء
مَن تُرى هابَهُ جُناةٌ عُصاةٌ
حينما أرسل النبيين نُورًا
فأزاحوا عن ابن آدم جهلاً
مذ أبانوا النَّجدَيْن، هذا وبالٌ
تلك آيات خالقٍ نَيِّراتٌ
تأخُذُ العاقلَ المفكِّرَ فيها
وكأنَّ الآياتِ إبداعُ لَحْنِ
كلّ ما في الحياة يُومي لِرَبٍّ

بلحاظ، فردَّها مُستَخِفَّهْ
وانتشاءٌ، ولا ملامحُ لهفَهْ
من جلالٍ، فهَزَّ للكون عِطفه
ليس تستطيع قبضة الطين كشفه
ذَرَّةٌ كالهباء قدرًا وخِفَّهْ
ويواري بنظرة الكِبر ضعفه
لم يكن في ابتدائه غير نُطْفه
وجلا عينهُ، وأبدع كَفَّه
فهدى نُطقَه، وجَمَّلَ ظَرْفَهْ
سَبَّحَ الله كُلُّ نَبْضٍ ورَفَّهْ
ومصيرٌ، وليس يعلَمُ حَتْفَه
في عُباب، وليس يَمْلكُ دَفَّهْ
باختيارٍ، وليس يَمْلكُ خَطْفَهْ
وعن الخالق المسيطر خَلْفَهْ
حينما استقبلت نَداهُ ولُطْفَهْ!
في جنانٍ مخضلة مُلتفَّهْ
عن عقود من نجمها مُصطَفَّهْ
رِ وأجلى الأذى فأحسَنَ صَرْفَهْ
ألزمتْهُ من شدة الخوف، كَهْفَهْ
وخُشوعٍ، بما رأى واستَشَفَّهْ
أنَّ هذا الوجود ما كان صُدْفَهْ
صدْرَ أُمٍّ، وكيف يبدأ رَشْفَهْ!
لَتَضُمُّ الصَّغيرَ حُبًّا ورأفهْ
سَهَّلَ الرازقُ المهيمن قَطْفَهْ!
ودماءً، بغير جُهدٍ وكُلفَهْ
كُلُّ إلفٍ بها يُرافِقُ إلفهْ
ن فنصفٌ يظلُّ يكمل نِصفَهْ
لِجَنينٍ، فلا يغادر صِنْفَهْ
وارتجى خُشَّعٌ رضاهُ وعَطْفَهْ
وهُدًى تعْرف الخلائق عُرْفَه
وضلالاً، وألجموا فيه عُنْفَه
وشقاءٌ، وذاك نُبْلٌ وعِفَّهْ
خَشَعَتْ سَجْدَةٌ لَهُنَّ، ووقفه
رَعدةٌ تُذهل الفؤاد، ورَجْفَهْ
لن تملَّ الأنامُ والكونُ عَزْفَهْ
واحدٍ، تجهل الخلائقُ وصفَهْ

ومضات مشرقة في أدب الجزيرة العربية 1



د. عبدالله أبو داهش

يعد الشاعر عبدالعزيز بن عبداللطيف المبـــــارك(1) (1310-1343هـ) من شعـراء النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري البارزين الذين عمروا واقع الحياة الأدبية في الجزيرة العربية بشعرهم، فهو وإن كان قد أدركه الموت في مقتبل عمره الأدبي، إلاّ أنه قد أسهم بشيء من شعره السياسي الجاد، وحمل على عاتقه خطر المجابهة والانتقاد، ولم يخش سطوة عدواة الإنجليز، وما يشكلونه من خطر على مثله، إذ صدع بالحق من دون خشية أو خوف، بل نهض بمسؤوليته تجاه هذا العدو، وأنشأ قصيدتيه السياسيتين المعروفتين اللتين ضمّهما «مجموع شعراء هجر»، واستقل بالأولى منهما كتاب «من بواكير الشعر السياسي الحديث في جزيرة العرب»، وهي العينية المشهورة التي يقول في صدرها:

هل من يجيب، إذا دعوتُ، الداعي
ويعي الخطابَ وأين مني الواعي

ذهب الرّجال وخلّفوا أشباههم
والماء يخلفه سرابُ القاع(2)

والثانية البائية التي يقول في مطلعها:

للهِ في الخلقِ مُرادٌ عَجيب
في سرٍّ معناه يَحَار اللبيبْ
فَسَلِّم الأمر له وحده
تَسْلَمْ فما أنت عليه رقيبْ(3)

ولكيْ ندرك قيمة القصيدة الأولى يمكن الوقوف عندها بشيء من النظر العلمي، إذ تكاد تتفق المصادر الموجودة بين أيدينا الآن على أن سبب نظم هذه القصيدة يعود إلى سياسة الإنجليز في البحرين، وما عمدوا إليه فيها من سياسةمخلة، فلقد قاموا بعزل حاكم البحرين الشيخ عيسى آل خليفة، وتنصيب ولده حمد بن عيسى حاكمًا بدلاً منه، مما أفضى إلى غضب الشاعر، واستنكاره لهذا العمل السياسي الجائر. وكان تاريخ نظم هذه القصيدة في عام 1342هـ/1923م، يقول جامع شعر: «شعراء هجر» إن هذه القصيدة قيلت: «بمناسبة تغير الأوضاع في البحرين، حيث أُسند حكم البحرين للشيخ حمد بن الشيخ عيسى آل خليفة، بعد عزل والده الشيخ عيسى آل خليفة، وقد وجدت مسودة بعد وفاته»(4)، وهكذا يؤكد اشتغال الشاعر بهذا الشعر السياسي، ويُظْهر سبب نظمه لهذه القصيدة، فالحق أنه قد أحاط بهذا النص ظروف غير عادية.

وعلى أهمية هذه القصيدة إلاّ أنها لم تنل من العناية والشهرة ما نالته القصائد الأخرى في هذا الباب، إذ إنها لم تظهر للناس إلاّ بعد وفاة صاحبها، إذ قيل: إنها «وجدت مسودة بعد وفاته»، وإن شعره السياسي الذي تمثله هذه القصيدة التي بين أيدينا يعد من أهم نتاجه الشعري لما تضمنه من معان، وما صدر عنه من أفكار، فلقد أظهر: «ما كان يجيش في نفسه من رغبة صادقة في اجتماع الكلمة، ولمّ الشمل، والاتحاد في ظل جو إسلامي، يستعيد به المسلمون ما كان

للصحابة الأول من أمجاد خالدة»(5).

ومهما يكن الأمر فإن قيمة هذه القصيدة تأتي في معانيها الجادة، وما اشتملت عليه من ملامح الحماسة الدينية، والغيرة الإسلامية، ولعل المهتمين بتاريخ الأدب العربي، والباحثين عن منهج سويّ له يُفيدون من هذه القصيدة في سد النقص الظاهر في ذلك التاريخ والإفادة منها، فالحق أن الجرأة التي صدر عنها الشاعر تمثل تفوقه في هذا الميدان، وتعبر عن عزمه الصادق في إيقاظ الأمة الإسلامية من وَسَن الغفلة، والسبات العميق، فما أحوجنا لمثل هذا الشاعر الناصح الصدوق.

يقول عبدالعزيز آل مبارك، وقد فاض به الشعور، وازداد به الألم:

لله دَرُّ عصابة قد أحرزوا
قصب السباق بحلبة الإبدَاع
دانت لأمر الله أنفسُها لذا
دانت لها الدنيا بلا استمناع
ملكوا جميع المشرقين وأخضعوا الـ
باغين فيها أيَّما إخضاع
ومشوا على البحر الخِضَم فما اشتكوا
بللاً بأقدام ولا أدراع
ملأى الصدور من المكارم والتقى
ومِنَ الحُطام فوارغُ الأضلاع
فمن الطعام بتمرةٍ سَوْدَا اجتزَوْا
وبشملة شَهْبا من الأدراع
لم يكتبوا رقًا بغير شبا الظُّبا
فوق الطُّلَى بنجيعها الهمَّاع
شادوا من التقوى أصحَّ مدافع
وبنوا من الحسنات خير قلاع
هاتيك فرسان الحروب وإنما
نحن فوارس ألسنٍ وقِصَاع
أو كلَّ يوم للعدو إغارة
مشنونة في هذه الأرباع
طمع طبيعي أماط مجاهرًا
عن وجهه المُرْبَدَّ كلَّ قَناع
حملوا علينا بالدراهم حملة
لم نستطع في وجهها لدفاع
عجبًا تباع وتُشترى البحرين لا
من ثائر فضلاً عن المنَّاع
قطعت حماة الشرق أبطال الوغى
آمالهم بالأبيض القطّاع
فأتَوا بلادَ العرب كي يستدركوا
مافاتهم بالأصفر الخدّاع
بدؤوا بسلب حمى أوال لأنها
مفتاح سائر هذه الأصقاع
نقضوا عهود حليفهم عيسى الذي
لذمامهم قد كان خيرَ مُرَاعِ
قد ضيَّعوا ميثاق عيسى مثلما
قد ضيَّعوا ميثاق عيسى الداعي(6)

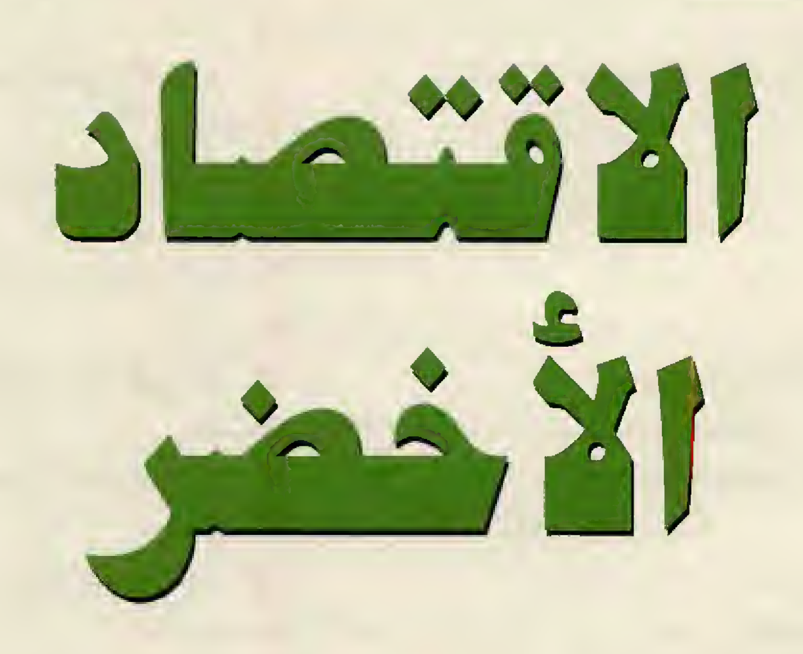
ويظهر الشاعر رد الفعل عند أهالي البحرين من عرب البديع، حين غضبوا لهذا العمل الغادر، وكرهوا المقام في بلادهم، وطلبوا الرحلة إلى رحاب: ماجد مفضال هو الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود (1293-1373هـ)، إذ رأوا العيش في كنفه، سبيلاً لدفع الذل والإهانة، إذ هو جدير بالوفادة، وقمين بالخلافة في زمن تمزقت فيه وحدة الأمة، وكثُرت ولاياتها، فلقد أعرب الشاعر بصدق عن آماله في تحقيق وحدة إسلامية تحت راية سياسية موحدة، ولقد أبصر الشاعر برؤيته الثاقبة دواء لهذه الفرقة وعلاجًا لتلك الألاعيب السياسية الخطرة، إذ ودّ لمّ الشمل تحت راية سياسية واحدة، وفي ظلال دولة إسلامية راشدة، ولقد أدرك ظواهر هذه الآمال في تحقيق ولاية الملك عبدالعزيز لهذا الاتحاد فهو جدير بذلك، وقادر عليه، فلقد تمنى الشاعر نجاح الأمر في قوله:

رحلوا عن الأوطان في طلب العلا
فاستبدلوا منهن خير رباع
نزلوا بساحة ماجد رَحْبِ الفنا
صعبِ المرام من الأذى منّاع
يا ليت عرب المسلمين وعجمهم
عقدوا عليه عقدة الإجماع
واستخلفوه فهو خير خليفة
في نصرة الدين المطهر ساع(7)

ومن الواضح أن قيمة هذه القصيدة المعنوية تفوق قيمتها الفنية، حيث نلحظ تفوقها في جانب المعاني، وخضوعها لأسباب التكلف والبديع، إذ توصف بأنها ذات نفس طويل، وصبغة خطابية، وأن قائلها كان يعمد في أسلوبها إلى الأفعال المضارعة، والمصادر، والدلالة اللغوية المناسبة أحيانًا، فضلاً عن استخدامه لأدوات الاستفهام، والنداء، وأنه كان يخضع لدوافع البديع وأصباغه، وبخاصة في لوني الجناس، والطّباق، ومع ذلك كان يقبس من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف ويستشهد بالأمثال ونحو ذلك مما هو ظاهر معروف في عصره.

الحواشي

- انظر ترجمته في: «من بواكير الشعر السياسي الحديث في جزيرة العرب»للباحث9.
2- المصدر نفسه 19.
3- عبدالفتاح الحلو، «شعراء هجر»190.
4- المصدر نفسه 185.
5- المصدر نفسه 158.
6- عبدالله أبو داهش، كتابه السابق 19.
7- المصدر نفسه 22،23.



حسن بن حسين المهنا

هذا عصر الاقتصاد بلا منازع، هناك من يقول بأنه عصر المعلومات، ولكن المعلوماتية قد سخرت لخدمة الاقتصاد، فشبكة الإنترنت (العمود الفقري للمعلوماتية العالمية) أصبحت مسرحًا للدراسات التسويقية والإعلانات الترويجية، وأضحت المكان المفضل لكل قانص فرصة، أو راغب في ربح.

نعم هذا عصر الاقتصاد بلا ريب، وبعد سقوط الشيوعية بدا أن الاقتصاد الحُر بات هو سيد الموقف من دون منازع، ولكنّ للأمر وجوهًا كثيرة ليست كلها ناضرة مشرقة، وعلى الاقتصاد الحر مؤاخذات شأنها غير قليل، من أهمها أن الازدهار الاقتصادي (الحر) الذي شهدته شعوب وأمم في العقود الماضية أدى إلى اندحار بيئي مروع، وتهديد أو انقراض كائنات خلقها الله تعالى، كانت فيها زينة للأرض ومنفعة للناس، وقد كانت من الأمم التي تسبح بحمد خالقها، والله عز وجل حين خلقها لم يرد للإنسان أن يعبث بها كيفما شاء ويعذبها، ثم يهلك الحرث والنسل ويكثر الفساد في الأرض ويحتج بعد هذا كله بأنه... حر!

وفي أن كتبت راشيل كارسون روايتها الشهيرة «الربيع الصامت» في الستينيات والاهتمام بالبيئة في الغرب يأخذ شكل متوالية هندسية، وأخذت المنظمات البيئية المتنامية عددًا وقوة تضع عصيّها في العجلة الصناعية الدائرة في الغرب، ومن هنا شهدت الأمم ذاتها قيام معسكرين متقابلين، أحدهما يدعو إلى دفع عجلة النمو الاقتصادي غير المحدود، والآخر يدعو إلى مراعاة البيئة المحيطة وعدم استنزاف مواردها أو إفساد ما تبقى من تلك الموارد وتلويثه، وفي الولايات المتحدة مثلاً صراع تتجلى أوضح مظاهره بين الحزبين الأمريكيين الجمهوري والديمقراطي، هذا الصراع الذي يطل علينا أحيانًا كتجاذب بين أصحاب الصناعات ورؤوس الأموال من جهة والمحافظين على البيئة من جهة أخرى.

صراع الجمهوريين والديمقراطيين في أمريكا

يقول المحافظون في الحزب الجمهوري: إن الخيرات لا تنتهي، والموارد غير محدودة، ولابد من استغلال كل تلك الموارد لتنمية الاقتصاد، ولايكون هذا إلا بإطلاق حريات الناس للتنافس في الإبداع والإنتاج، ولكن يقف على الجانب الآخر من يقولون: إن الموارد محدودة، ولابد من ترشيد استغلالها، ولابد من المحافظة على البيئة، ويقولون بأن رجال الأعمال لا يؤيدون الحفاظ على البيئة؛ لأن هذه المحافظة على البيئة تكلف مالاً، وهم يريدون تخفيض مصروفاتهم بأية وسيلة، حتى لو كان ذلك بالتضحية بالبيئة.

ويستمر السجال بين الطرفين ويأخذ الأمر صورًا مثيرة أحيانًا، لانستطيع تقصيها هنا، لكننا في هذه المقدمة العجلى لا نخفي عجبنا مما يسجل في وسائل الإعلام من حجج هذا الطرف أو ذاك، ومنها مثلاً ما يقوله الجمهوريون حين يقترح المحافظون على البيئة اقتراحًا مثل محاربة التدخين أو تقنين انتشار السلاح بأيدي المواطنين وتحديده، ويشفعون ذلك بأن التدخين له أضرار لا تخفى على أحد، وانتشار السلاح بيد المواطنين لم يؤدّ إلى ازدياد نسبة القتل والجرائم العنيفة فقط، بل تعدى الأمر إلى زيادة قتل الحيوانات البرية من دون داع، وتلوث الغابات بمعادن الرصاص والنحاس من الطلقات النارية المتناثرة في كل مكان، فماذا يقول الجمهوريون إزاء ذلك؟

يورد الجمهوريون هنا مقولة عن الاقتصاد الحر، أو السوق المفتوحة، ومفادها أن السوق ذاتها تتكفل بكل شيء، حسب العرض والطلب، وعلى ذلك الأساس فيجب أن تمتنع الحكومة عن سن قوانين ضد التبغ وزراعته وتسويقه، وترك الأمر للناس، وعدم تقييد حرياتهم، فهم بأنفسهم سيمتنعون عن التدخين إذا رأوا أنه مضر بصحتهم، ويقولون الشيء نفسه عن حرية الناس وقانون

العرض والطلب فيما يتعلق بالسلاح وغيره.

والأعجب من ذلك أن هؤلاء وقفوا في وجه أي محاولة للتوفيق بينهم وبين المحافظين على البيئة، فقد أقيمت مؤسسات مثل «صندوق حماية البيئة»، تتطلع إلى الجمع بين حماية البيئة وأصحاب رؤوس الأموال للتوفيق بين الفريقين أو التخطيط للمشروعات بشكل يجمع قدر الإمكان بين متطلبات كل منهما، وكان المتوقع أن تلقى ترحيباً من الجميع، ولكن رد الفعل من جانب «المحافظين» كان الاستهزاء والسخرية، ففي برنامج إذاعي جمهوري(1) هو برنامج «راش ليمباو»، وهو أحد المقربين من نيوت جينجريتش - زعيم الأغلبية في الكونجرس الأمريكي - استهزأ بالفكرة وكان رد فعله السخرية من كل ما له علاقة بالبيئة، ومن الذين يحاولون التوفيق بين متطلبات السوق والمحافظة على البيئة، وقد لا نتعجب عندئذ حين نعلم أن ليمباو هذا هاجم البيئيين بعنف حينما انتشرت أخبار وباء إيبولا في زائير، وقال في برنامجه المذكور: هذه هي الغابات المطيرة التي يتشدق البيئيون بأنها أنظف مكان على الأرض وأن علينا أن نحافظ عليها».

هل هي نهاية التاريخ؟

ويبلغ العجب منا مبلغه حين نعرف آلية عمل صندوق الدفاع عن البيئة، فهذه المؤسسة لا تحارب النمو الاقتصادي، وتضع أمام صاحب المصنع خيارات في صالحه؛ لأنها تؤدي إلى تخفيض التكاليف أو زيادة الدخل، وهي أيضاً تصب في مصلحة البيئة، وعلى سبيل المثال قام المسؤولون في هذه المؤسسة بالاتصال بأصحاب مدابغ الجلود، وأخبروهم بأن المخلفات الصناعية التي يتخلصون منها في الأنهارتهدد البيئة لاحتوائها على كميات من عنصر الكروم، بالإضافة إلى الدهون التي تزيد من نمو البكتيريا والطحالب وانتشار الأمراض، وقام الصندوق بإجراء دراسة وتصميم لطريقة تستطيع بها تلك المدابغ إعادة تدوير مخلفاتها، واستخراج ثلاثة أرباع عنصر الكروم للاستفادة منه مرة أخرى في الصناعة، وهذا أدى إلى تقليل كميات الكروم التي تشتريها المدبغة، وأدى بالتالي إلى زيادة الأرباح، إلى جانب أن البيئة صارت أنظف.

فإذا عرفنا أن هذه الآلية العملية والمتسامحة مرفوضة لدى بعض أنصار «السوق الحرة» فإننا لا نلام إن أصابنا القلق من هذا الذي يسمونه الاقتصاد (الحر)، إننا نذكر هذا المثال لنبين أن سقوط الاقتصاد الشيوعي، وانتصار الاقتصاد الحر يجب ألا يفهم بأنه «نهاية التاريخ» حسب تعبير فوكوياما، ولنعرف أن لبعض الرأسماليين ودعاة الاقتصاد الحر هفواتهم التي يؤاخذون عليها.

ولكن للقارئ الحق في أن يشاركنا دهشتنا، وألا يصدق أن أحداً يرفض عرضاً مثل هذا الذي تقدمه مؤسسة صندوق الدفاع عن البيئة؛ وقد يرى القارئ أنه لو كان يملك مدبغة للجلود فقد يرفض تحمل مصاريف تنظيف البيئة، ولكنه لايمكن أن يرفض ذلك، إذا كانت له مصلحة مادية في الأمر، والإجابة عن ذلك تكمن في طبيعة النظام الرأسمالي الأمريكي الذي يهدف إلى الربح السريع جداً بغض النظر عن المصلحة البعيدة المدى، حتى لو كانت هذه المصلحة لصاحب المصنع نفسه، ولتوضيح ذلك نقول بأن عملية إضافة جهاز لاستخلاص الكروم والدهون من المياه الخارجة من المدبغة ستثمر أرباحاً إضافية بعد سنة أو سنتين، ولكنها في حينها ستكون بحاجة إلى رأس مال، ورصد رأس المال هذا يعني تقليل الأرباح لتلك المدة من السنة أو لتلك السنة كلها، وهذا ما لا يطاق في النظام الاقتصادي الأمريكي بالذات، ونحن لانقصد طبعاً أن كلّ الشركات الأمريكية على هذه الشاكلة، ولكن المؤكد أن الجو العام وأغلب الفعاليات المالية والاقتصادية الكبرى هناك تسير على هذا المنوال.

الاهتمام بالربح العاجل

ولا بأس أن نتمثل هنا بما ذكره أحد الاختصاصيين في النظام المالي الأمريكي، للتدليل على هذا العيب فيه، فقد ذكر ستيفن كراولي في كتابه (أموال للحياة)(2)، في فصل عنوانه: الثمن الفادح لرهن المستقبل، أن الأمريكيين يفضلون الربح السريع ولو كان قليلاً على الربح المتأخر ولو كان كبيراً، ويدلل على ذلك بأن الأمريكيين اخترعوا نظام التلفاز عالي الوضوح الذي يستعمل حالياً في صنع شاشات أجهزة التلفاز الكبيرة، ولكن الأمريكيين بدلاً من تصنيع هذا النظام باعوا حقوق الاختراع إلى اليابانيين الذين استعملوه في صنع الشاشات التلفزيونية الحديثة وكسبوا من ذلك ثروات مذهلة.

يفضل الأمريكيون الربح السريع ولو كان قليلاً على الربح المتأخر ولو كان كبيراً، ومن ثم لانستغرب اصطدامهم بحماة البيئة

ثم يشرح كراولي سبب هذا التصرف بقوله، إن صناعة هذه الشاشات تحتاج من الشركات المنتجة إلى رصد أموال لتطوير خط الإنتاج وجعل هذه الشاشات قابلة للإنتاج التجاري، ولو رصدت هذه الأموال لهذا الغرض فإن الأرباح (ربع السنوية) التي تظهر على شاشات البورصة ستظهر منخفضة، وبذلك تنخفض أسعار أسهم تلك الشركات، ولكنهم باعوا الاختراع إلى اليابانيين، والمبلغ الذي دفعه اليابانيون لهم ظهر ضمن الأرباح ربع السنوية، وهذا ما يهم الشركات الأمريكية.

إذاً، وفي جو مثل هذا، وإذا كانت هذه طبيعة أكبر المنظرين والمطبقين للاقتصاد الحر، وهذا مدى رغبتهم في الربح السريع، فإننا لا نستغرب اصطدامهم مع حماة البيئة، ولكن هل نتوقع أننا مقدمون على المزيد من التصادم بين هذين الطرفين؟ كان الأمر يبدو هكذا حتى عهد قريب، ومازال يتردد في أسماعنا تهديد ووعيد مجلس الشيوخ الأمريكي بإغلاق الوكالة الأمريكية لحماية البيئة، وهو إجراء لم يتأخر حتى الآن إلا لوجود رئيس ديمقراطي في البيت الأبيض، وحدث أن نائبه هو من المهتمين فعلاً بحماية البيئة، ولكن علينا ألا نتشاءم كثيراً، فنحن الآن على أعتاب عهد جديد، والتصادم بين الطرفين يوشك أن يصل إلى نهاية مع بزوغ فجر جديد، يطلق بعضهم عليه تعبير «الاقتصاد الأخضر» ويسميه بعضهم «الاقتصاد البيئي»، ولكن ديفيد وايت رئيس المؤسسة العامة للبيئة (وهي مؤسسة خاصة) في مدينة تشاتانوغا الأمريكية يسميه بلا تحفظ: «الثورة الصناعية الثانية».

يقول السيد وايت بأن الثورة الصناعية الأولى اصطدمت بحماية البيئة، وبعد شد وجذب معهم صار أرباب الصناعة يتعاملون مع المواد الخام من لحظة استخراجها حتى مرحلة التصنيع ثم التخلص منها بطريقة سليمة، أي «من المهد إلى اللحد» كما يقولون، لكن اتضح أن هذا لا يكفي ، فالمدافن والمرادم مثلا بدأت تمتلئ، وفتح مرادم جديدة للنفايات أصبح يواجه بعقبات كثيرة، ولذلك يجب

الاهتمام بالموارد «من المهد إلى المهد مرة أخرى»، أي إن المواد الزائدة أو المتخلفة من الصناعة لا تسمى مخلفات إلا إذا تخلفت وتركت دون استعمال، لكنها لو استغلت كمواد خام في صناعات أخرى فإنها لاتصبح مخلفات أصلاً، أو لنقل بأن كمية المخلفات أصبحت صفراً، وهكذا ظهر إلى الوجود الخيار - صفر في المخلفات الصناعية.

شعار الجودة الكاملة

قبل أربعة عقود من الزمن أطلق إدوارد ديمنج شعار الجودة الكاملة، ولم يستمع إليه أحد في الولايات المتحدة، فرحل إلى اليابان حيث تمكن - بالتعاون مع اليابانيين - من تطبيق ما دعا إليه، كان ديمنج هذا أستاذاً في الإحصاء، وقيل عنه إنك لو أعطيته عملاً يستغرق عشرة أيام لقضى منها سبعة أيام أو ثمانية للتخطيط، ويكفيه بعد ذلك يومان للتنفيذ، وكان هذا بسبب نظريته في الجودة الكاملة، وحسب رأيه فإن الجودة تكون كاملة حين تكون العيوب في السلعة وعملية إنتاجها صفراً، فتتكامل جودة العمال حين تكون (الميكنة) الصناعية كاملة، وتتكامل جودة عملية الإنتاج حينما يكون المخزون في المصانع صفراً، وتتكامل جودة المواد الخام حينما لاتكون هناك مخلفات صناعية.



والمقصود من العبارات السابقة أن إنتاجية العمال تكون في أقصى حدودها حين يكون خط الإنتاج آليًا، حيث إن العامل حينذاك مضطر إلى مسايرة الآلة حتى لا يتعطل الإنتاج، وفيما يتعلق بعملية الإنتاج فإن فعاليتها في اليابان هي الأولى في العالم، حيث يحتفظ كل مصنع بمخزون يكفيه نصف ساعة فقط (أي إنهم هناك لا يوظفون رؤوس أموال ضخمة لشراء أو استئجار مخازن وتكديس المواد الخام وتوظيف من يدير المستودعات، ولا تتوقف الأعمال للجرد السنوي وما شابه)، وفي الولايات المتحدة يحتفظ المصنع بمخزون أسبوعين، أما في العالم العربي فإن المصنع يحتفظ بمخزون يكفي عدة أشهر، ولعل هذا يبين بعض العبء الواقع على عمليات الإنتاج في العالم العربي، وانخفاض كفاءتها بشكل عام، مع وجود استثناءات طبعًا.

وإذا عدنا إلى نظرية ديمنج، فالخطوة المنتظرة في الثورة الصناعية الثانية هي زيادة إنتاجية المواد الخام حتى لاتكون هناك مخلفات صناعية مطلقًا، فما هي إذًا الخطوات العملية التي قد نسمع عنها في المستقبل القريب للوصول إلى تنفيذ عملي لهذا التصور؟

من التلوث إلى النظافة

هناك إلى الجنوب من مدينة تشاتانوغا الأمريكية (وتقع على الحدود بين ولايتي تنسي وجيورجيا الأمريكيتين) تقع أطلال مدينة صناعية كانت يومًا ما مركزًا ضخمًا للقاطرات ومصانع الحديد والصلب (والتلوث)، وبسبب هذه المدينة الصناعية فإن مدينة تشاتانوغا استحقت بجدارة لقب أكثر المدن تلوثًا في الولايات المتحدة؛ ولكن الحال تغيرت في السنوات الأخيرة، فأغلقت المدينة الصناعية، وأصبحت تشاتانوغا أكثر نظافة، ولكن المسؤولين لم يكتفوا بهذا بل يريدون قصب السبق والريادة في مضمار النظافة البيئية، وسيعملون على إعادة الحياة للمدينة الصناعية، لكنها - حسب الخطة - ستصبح أول مدينة صناعية بيئية في أمريكا، وسيتم العمل على هذا المشروع الضخم بمساعدة من جامعة تسمى «جامعة الأمم المتحدة» في اليابان.

في المدينة الصناعية الجديدة، ستكون مخلفات كل مصنع مواد أولية للمصنع المجاور، ويضرب المسؤولون مثلاً بمصانع البيرة وعصير الفواكه حيث إنها تنتج كميات من النفايات ومخلفات الفواكه المستعملة، ولكن لو أنشئت مزارع الأسماك بجوار مصانع البيرة فإن مخلفات صناعة البيرة والعصير غذاء مثالي للأسماك، وهناك أمثلة أخرى، فإذا أراد مستثمر إنشاء مصنع للنسيج النباتي، أو مواد استصلاح التربة، فسيتم إنشاء مصنعه بالقرب من ورش النجارة الضخمة ومصانع الأثاث، لأنه سيستفيد من أطنان نشارة الخشب التي يتخلص منها أصحاب هذه الورش والمصانع، وهكذا تصبح المخلفات صفراً، وقياساً على ذلك يمكن بناء مصانع لأنواع جديدة من الطوب بجانب تلك الورش أيضًا، حيث إن المخلفات البلاستيكية (مثل الأكياس البلاستيكية وغيرها) من جهة، ونشارة الخشب من جهة أخرى هي المواد الأولية اللازمة لصنع طوب جديد خفيف الوزن وقوي جداً ويتحمل وسائل التعرية كافة، وقد عرضت مجلة (إن بزنس) الأمريكية(3) المتخصصة في الأعمال التجارية الخضراء بيتًا (بيئيًا) بنيت أرضيات شرفاته من هذا النوع من الطوب.

من الجدير بالذكر أن الدافع إلى هذا ليس المحافظة على البيئة، بل هو زيادة فعالية عمليات الإنتاج، فإن كثيراً من المواد الأولية الضرورية تصبح رخيصة، كما تتميز بأن تكاليف نقلها إلى الصناعات المستهلكة لها قليلة التكلفة أو مجانية، فإذا كان في هذا كله محافظة على البيئة فهو محل ترحيب ولا شك، ولكنه ليس الحافز الرئيس لهذه الخطة، ولهذا فمن المرجو والمأمول أن تلقى قبولاً لدى الصناعيين وأصحاب رؤوس الأموال الذين لا يطيقون سماع شيء عن البيئة والذين يعدّون دعوات الحفاظ على البيئة مجرد محاولات لخنق النمو الاقتصادي وتحجيمه.

وجدير بالذكر أيضًا أن هذه الخطة المسماة بالثورة الصناعية الثانية، أو الخيار - صفر للمخلفات الصناعية ستتمدد لتشمل كل ما يخرج من المصانع، حتى السلع ذاتها، فهي سوف تصنع بطريقة تسهل إعادة تدويرها، أي إن الشركة الصانعة ستكون مسؤولة عن السلعة من المهد إلى المهد مرة أخرى، فالشركة مسؤولة عن التلفاز الذي تنتجه (مثلاً)، حيث يشتريه المستهلك، فإذا أراد

تغييره فإن الشركة تأخذه لتعيد تدويره وتصنيعه ليس من أجل الحفاظ على البيئة، بل لأن الاستفادة منه ستكون أرخص من شراء المواد الخام، وهكذا فإن المسؤولين عن الثورة الجديدة في الصناعة يؤكدون أن هذه الاستراتيجيات الجديدة ليست للحفاظ على البيئة أساسًا، بل هي لزيادة الفعالية في الصناعات وتقليل الموارد المُهْدَرَة.

مؤسسات الاستثمار الأخلاقية

وفي الواقع فإن هناك شيئًا من هذه (الاستراتيجية) قد دخل في حيز الوجود في الأعوام الماضية، ولكنه كان متناثرًا هنا وهناك، ومن أمثلة ذلك مؤسسات الاستثمار الأخلاقية من جهة، وأسهم التلوث من جهة أخرى، وكلا الفكرتين أو الظاهرتين تستثمر قضية الربح السريع أو أرباح البورصة لخدمة المفاهيم السامية أو الحفاظ على البيئة.

أما مؤسسات الاستثمار الأخلاقية فهي مؤسسات تستثمر في الأوراق المالية للشركات المسهمة لكنها لا تتعامل مع أسهم الشركات التي تضر بالبيئة أو تتعامل بالقمار أو الفوائد الربوية أو الكحول أو الأسلحة، ومما يذكر في هذا المجال أنه في شهر آب/أغسطس عام 1994م قامت ضجة حول شركة «بودي شوب» العالمية المتخصصة في صناعة مواد التجميل، فهذه الشركة كانت تقول دائمًا بأن أكثر موادها الخام هي مواد طبيعية، لكن بعض الأخبار تسربت عن أن الشركة باتت تستعمل مواد كيماوية مصنعة بنسبة آخذة في التزايد، وأن المواد الطبيعية لم تعد تشكل أكثر من إضافة بسيطة لموادها الخام، عندئذ قامت شركات الاستثمار الأخلاقية بإيقاف التعامل بأسهم هذه الشركة حتى يتم التأكد من صحة تلك الأخبار، ولو صحت الأخبار فإن الشركة قد تسقط من تعامل المؤسسات الأخلاقية، وهكذا نرى أن مفاهيم السوق الحرة باتت تستثمر لمفاهيم فاضلة ومبادئ سليمة.

أما أسهم التلوث فقصتها أكثر إثارة، وهي أسهم في الولايات المتحدة تخول للشركة التي تملكها أن تلوث الهواء بمقدار محدد من غازات محددة، وواقع الأمر أن كل المصانع ومرافق الإنتاج تنتج مواد ملوثة من مداخنها، ولذلك أعطيت الشركات مجالاً محددًا للتلوث عليها ألا تتخطاه، ولكن بعض الشركات كانت تعاني من الكساد إلى حد ما، وبانخفاض تشغيل مصانعها فقد انخفض مستوى الملوثات أقل مما هو مسموح لها، وفي الوقت نفسه فإن شركات ومصانع أخرى بقيت تلوث الجو بأكثر مما هو مسموح لها، مما أدى إلى تعرضها إلى دفع غرامات باهظة، أو إلى إجراءات قضائية لوقف نشاطها، فلجأت عندئذ إلى الشركات الأخرى التي لم تلوث بقدر ما سمح لها، وبدأت مفاوضات لشراء الحق بإطلاق بعض الأطنان من أكاسيد الكبريت وأكاسيد النتروجين، وكانت فرصة لبعض الشركات للحصول على مداخيل ثانوية، فقامت شركات أخرى بعرض حصصها من الملوثات للبيع بأسعار أعلى.

ومن هذا المنطلق تكونت فكرة أسهم التلوث، فالشركة التي يسمح لها مثلاً بإنتاج خمسين طنًا من ثاني أكسيد الكبريت حدًا أقصى، وتتمكن بفضل جهودها الذاتية من خفض إنتاجها إلى أربعين طنًا، يكون لديها شهادة بعشرة أطنان، تستطيع أن تنتجها فيما بعد، أو أن تبيعها إلى شركة أخرى مضطرة إلى إنتاج هذه الملوثات، والمهم في هذا الموضوع هو أن أسهم التلوث أصبحت موضوعًا للمزايدة من ناحية، ولمهرجان سنوي يقام في الولايات المتحدة من ناحية أخرى، وفي هذا المهرجان تتم عملية «إعدام» لسهم واحد من أسهم التلوث.

يقوم نادي سييرا الأمريكي (المتخصص بحماية البيئة) بجمع تبرعات من أساتذة الجامعات والطلبة وأصحاب الأعمال التجارية وغيرهم، ويشتري سهمًا لطن واحد من ثاني أكسيد الكبريت، وإذا عرفنا أن ثمن السهم مئتا دولار فقط فإننا ندرك أن عملية جمع التبرعات هي إعلامية بشكل أساسي، وترمي لزيادة الوعي البيئي بالدرجة الأولى، وبعد شراء السهم أو الطن الواحد يقام المهرجان ويحضره حشد كبير، ويقوم أحد أعضاء (أو رئيس) نادي سييرا البيئي بتمزيق شهادة ملكية هذا السهم.

في اليابان يحتفظ كل مصنع بمخزون يكفيه نصف ساعة، وفي الولايات المتحدة يُحتفظ بمخزون أسبوعين، وفي العالم العربي يحتفظ بمخزون عدة أشهر

هذه العملية رمزية إلى حد كبير، والمعنى الذي تقوله: إننا بتكاتفنا، وبحيث لم يدفع أي واحد منا إلا سنتات قليلة (الدولار يساوي مئة سنت)، فقد تمكنا من منع شركة أو مصنع من الحصول على تصريح بإطلاق طن من غاز ثاني أكسيد الكبريت في الهواء، وإننا بتعاوننا نستطيع تأمين بيئة أجمل وأنظف للأجيال القادمة، ولهذا فليس صحيحًا البتة أن الفرد العادي لا يستطيع فعل شيء للبيئة.

لكن الجانب الرمزي في هذا الموضوع ليس كل شيء؛ لأن تركيز الأضواء على أسهم التلوث جعل الكثيرين يعرفون بوجودها، ومن ثم بدأ المستثمرون يشترونها ليبيعوها بعد ذلك بأغلى الأسعار للشركات المسببة للتلوث ـ حسب قوانين السوق الحرة ـ مما جعل هذه الشركات تضطر اضطرارًا إلى تقليل الحاجة إليها، وذلك بمراجعة طرائق الإنتاج لديها، واتخاذ إجراءات فعالة لمكافحة التلوث وتقليصه إلى أقل مدى ممكن.

إن فيما سبق إثباتًا عمليًا أن الاهتمام بالبيئة لا يعني خنق الاقتصاد، بل إن المؤكد والمحقق في الأمر أن الحفاظ على البيئة يعمل على خلق تنمية مستديمة وازدهار حقيقي تتمتع به الأجيال القادمة، ولن يستطيع أحد من غلاة الرأسماليين أن يقف ضد البيئة وضد الاقتصاد الأخضر الذي يقرن بين حفظ البيئة واستثمارها لاستدامة الازدهار الاقتصادي، فإن البيئة النظيفة والجميلة تسهم في التنمية، فهي بنظافتها تخفض نسبة الأمراض البدنية وتوفر بذلك الأموال للاستثمار بدلاً من صرفها في العلاج، والبيئة بجمالها تسهم في تخفيض الأمراض النفسية التي لا يختلف اثنان في أنها قرينة الاقتصاد السريع الازدهار.

وإن فيما سبق أيضًا فرصًا استثمارية حضارية، فهناك فرص مفتوحة لاقتصاديات بيئية وأدبيات بيئية وفنون بيئية إلى جانب العلوم البيئية، فواجب على كل ذي فن من أولئك، وعلى كل قانص فرصة أن ينقل بضاعته إلى تلك السوق الخضراء.

الهوامش

1- برنامج راش ليمبار. الأسبوع الأول من آب/ أغسطس 1995م.
2- أموال للحياة. ستيفن كراولي. الناشر سيمون أند شستر. 1991م، صفحة 210.
3- مجلة إن بزنس. عدد شهر حزيران/يونيو 1993م.

العِفَّةُ في وجدان الشعراء

د. نورة الشملان

العفة كما جاء تعريفها في لسان العرب هي: الكف عن المحارم والأطماع الدنيئة.

جاء في القرآن الكريم ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الذينَ لايجدونَ نكاحًا حتى يغنيهم الله من فضله﴾ فسَّر ثعلب الآيةَ فقال: (يضبط نفسَه بمثل الصوم فإنه وجاء)

والاستعفاف هو الصبر والنزاهة عن الشيء، ومنه الحديث الشريف (اللهم إني أسألك العفّةَ والغنى).

وافتخر الشعراء كثيراً بعفتهم، وتغنوا بعفة ممدوحيهم، فهذا عمرو بن الأهتم يفخر بأن قومه أعفّاء وإن كانوا فقراء، ويقسمهم إلى قسمين: فقير عفيف وغني كريم فيقول:

إنَّا بنو منقرٍ قومٌ ذوو حسبٍ
فينا سَرَاةُ بني سعد وناديها
جرثومة أُنُفٌ يعتفُّ مُقْتِرُهَا
عن الخبيثِ ويُعطي الخيرَ مُثريها

وعنترة الشاعر الفارس يجعل العفة من مفاخره الأولى، وعفة عنترة متعددة الأنواع، فهو يعف عن أسلاب الحرب مع أنه أول من يغشاها ويحقق فيها النصر، إنه يتغنى ببسالته وبعفته معًا ليزين صورته أمام ابنة عمه عبلة فيقول:

هلاَّ سألتِ الخيلَ يا ابنةَ مالك
إنْ كنت جَاهِلَة بما لم تعلمي
يخبرْكِ من شهدَ الوقيعة أنني
أغشى الوغى وأعفُّ عندَ المغنم

وهو يعف عن جارته فلا يزور بيتها إذا غاب بعلها وإن كان يفعل ذلك في حضوره فيقول:

أغشى فتاة الحي عند حليلها
وإذا غزا في الجيش لا أغشاها

أما إذا بدت أمامه فهو يغض الطرف عنها عفة يقول:

وأغضُّ طَرْفي ما بدتْ لي جارتي
حتى يواري جارتي مأواها

وقد بالغ المتنبي في تصوير عفة سيف الدولة إذ قال:

عفيفٌ تروق الشمسَ صورةُ وجهه
ولو نزلت شوقًا لحادَ إلى الظل

وصوّر أبو فراس عفته في الحب فقال:

ولي فيكَ من فرطِ الصبابة آمرٌ
ودونَكِ من حَسنِ الصبابةِ زاجرُ

ويجعل المتنبي عفته بسبب تقاه ومروءته ويفخر بذلك وإن كان يتألم لابتعاده عن الحبيب فيقول:

وترى الفتوةُ والمروةُ والأبوْ
وَةُ فيَّ كل مليحةٍ ضراتِها
هُنَّ الثلاثُ المانعاتي لذتي
في خلوتي لا الخوفُ من تبعاتها

أما أبو فراس فيجعل ضرات محبوبته أربعًا إذ يقول:

كأن الحِجا والصونَ والعقلَ والتُّقى
لديَّ لربات الخدورِ ضرائرُ
وهُنَّ وإن جانبتُ ما يشتهينه
حبائبُ عندي منذ كنَّ أثائرُ
فلما خلونا يعلمُ اللّهُ وحدَه
لقد كرمُتْ نجوى وعفّتْ سرائرُ

وأعجبت المرأة بالرجل العفيف فقالت ليلى الأخيلية تصف حبيبها توبة بن الحُمَيِّر:

عفيفًا بعيدَ الهم صلبًا قناته
جميلاً محياهُ قليلاً غوائله

وبسبب عفة الشعراء وعفة المحبوبات أصبح الشاعر لا يأمل أن يرى محبوبته إلا في الخيال، ومن هنا كثر حديثهم عن طيف المحبوبة الذي يزور المحبوب في الليل، وصار الشاعر يتعامل مع هذا الطيف كما يتعامل مع الحقيقة فينتظر قدومه يبثه الوجد والشوق، ويودعه عند الصباح، ويخشى عليه من عيون الرقباء. ويُعدُّ البحتري أكثر الشعراء حديثًا عن طيف المحبوبة حتى إن هذا الفن ارتبط به فقيل طيف البحتري، ومما قاله في ذلك:

تلك البخيلةُ ما وصلي بمصدود
عنها ولا صدها عني بمصدودِ
أَلَمَّ بي طيفُها وَهْنًا فأعوزه
عندي وجود كرىً بالدمعِ مطرودِ

وقيس بن ذريح الشاعر العفيف لا يأمل رؤية لبنى إلاّ في الأحلام

فيتمنى النوم من أجل ذلك إذ يقول:

وإني لأهوى النوم في غير نعسة
لعلّ لقاءً في المنام يكونُ
تخبّرني الأحلام أني أراكمُ
فيا ليت أحلام المنام يقينُ

أما قيس بن الملوّح فيقول:

وإني لأستغشي وما بي نعسةٌ
لعل خيالاً منك يلقى خياليا
وأخرج من بين الجلوس لعلني
أحدث عنك النفسَ في السرّ خاليا
تقطّع أنفاسي بذكرك أنفسًا
يَردن فما يرجعن إلا صوَاديا

والشاعر العفيف لا يعلن حبه بل يكتمه، وقد عبّر كثيّر عن ذلك بالقول:

سيهلك في الدنيا شفيقٌ عليكم
إذا غاله من حادث الدهر غائله
ويُخفِي لكم حبًا شديدًا ورهبةً
وللناس أشغال وحبُك شاغِلُهْ
كريم يميت السرّ حتى كأنه
إذا حدثوه عن حديثك جاهله

وما أجمل ما قاله الحسين بن مطير لحبيبته:

أحبُكِ يا سلمى، على غير ريبة
وما خير حبٍ لا تعف سرائره

وصرّح السليك بن السلكة بأن قلبه يعاف المرأة التي لاتمنع بل تجود:

يعاف وصال ذات البذل قلبي
وَيَتّبِعُ الممَنّعة النَّوَارَا

ويقول الشنفرى:

أميمةُ لا يخزي نثاها حليلها
إذا ذُكر النسوانُ عَفّتْ وجَلّتِ
تحلّ بمنجاةٍ من اللوم بيتُها
إذا ما بيوتٌ بالملامةِ حلّتِ

وهكذا نجد أن العفة تاج يتحلى به الرجل والمرأة، وأن الشعراء لهجوا بعفة محبوباتهم؛ ولا يقتصر هذا على الشعراء الذين تنطبق أخبارهم على أشعارهم، بل تعدى ذلك إلى الشعراء الذين عرفوا بالمجون والعبث أمثال بشار بن برد وأبي نواس ومطيع بن إياس ووالبة بن الحباب وغيرهم، فقد امتلأت دواوينهم بالأشعار التي تعكس عفتهم وعفة محبوباتهم، وما ذلك إلا لأن هذه الصفة هي صفة فطرية في البشر، وهذا يفسر تعلق الناس بالشعرالعفيف ونفورهم من الشعر الماجن.

قصيدة



أحبك

محمد محمد عبدالعزيز صادق

أحِبُّكِ أنتِ مَا أحْلَى هَوَاكِ! ... لَقَدْ أنْسِيتُ كُلَّ هَوًى سِواكِ

مُنَايَ بِأنْ أرَاكِ أمَامَ عَيْنِي ... فَهَلْ تَتَعطَّفِينَ بِأنْ أرَاكِ

مَلأتُ بِكِ المشَاعِرَ والحَنَايَا ... وَقَدْ فَرَّغْتُها مِمَّا عَدَاكِ

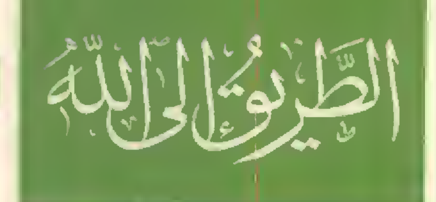
يُفكِّرُ في الذي يُرْضِيكِ قَلْبي ... وَيَشْعُرُ بالسَّعَادَةِ في رِضَاكِ

فَهَلْ مِنْ نَظْرَةٍ مُلِئَتْ حَنَانًا ... إلى صبٍّ يُحِبُّكِ يَا «مَلاكِي»

صِلِيني أوْ سَلِيني الرُّوحَ إنِّي ... أقدِّمُها ـ أيَا رُوحي ـ فِدَاكِ

أطِلِّي مِنْ سَمَاكِ على ضَعِيفٍ ... يُؤمِّلُ أنْ يُحلِّق في سَمَاكِ

سَبَاهُ سَنَاكِ حَتَّى ذَابَ شَوْقًا ... فَأصْبَحَ لاَيَرَى إلاَّ سَنَاكِ



خالد جابا: من الهندوسية إلى الإسلام

ولد لال جابا في مدينة لاهور عام 1906م قبل نشوء دولة باكستان بما يقارب أربعين عامًا، وكان والداه ينتميان إلى أسرة هندوسية غنية شديدة الثراء، وكعادة الأسر الثرية في الهند - آنذاك - وجهه والداه لدراسة القانون ليشبَّ محاميًا، لأن هذه المهنة من أشرف المهن وأهمها.

وفي طفولته ومرحلة شبابه لم يشعر بانجذاب نحو ديانته الهندوسية؛ إذ نفَّره منها ما وجده من ظلم، فالهندوسي يولد في إطار طبقة اجتماعية معينة متدرجة في سلم طبقي يترقى البراهمة أعلاه، وفي أسفله يقبع المنبوذون، وهم طائفة محرومة من حقوق الإنسان كلِّها، يعاملون من البراهمة والطبقات الأخرى التي تليها معاملة شاذة لايقبلها دين أو حتى قانون وضعي بشري، ومهما علا المنبوذ واغتنى فإنه يظل منبوذًا ترفض الأسر الكريمة أن تزوجه بناتها أو تزوج أبناءها من أسرته، والأدهى أن المنبوذ إذا أراد الارتقاء عليه أن يمر بعملية يسمونها «التطهير» هي في حد ذاتها إساءة لكرامة الإنسان وعقله.

محام وصحافي

عمل جابا في مجال المحاماة، كما مارس الكتابة الصحافية، وأسس جريدة أخبار الأحد (صنداي نيوز) في لاهور، وفي أثناء عمله بالمحاماة تعرف إلى ابنة محام مسلم زميل له يدعى «عزيز» وأحبها، وتقدم طالبًا يدها، وتحقق حلمه بالزواج منها مع بقائه على عقيدته الهندوسية. وتم هذا الزواج المخالف للشريعة الإسلامية، وهو أمر كثير الحدوث في البلدان التي يشكل فيها المسلمون أقليات نتيجة لجهل المسلمين بتعاليم دينهم الصحيحة، مما يعرض بعض معتقداتهم الدينية للتحريف.

وعلى زواج جابا من مسلمة، ونفوره من الهندوسية إلا أنه لم يشأ أن يترك عقيدته ليس تمسكًا بها، وإنما كبر عليه أن يعتقد الناس أنه بَدَّل عقيدته من أجل امرأة، وإن ظلت روحه الحيرى تتوق إلى نداء الحق؛ وتبحث عن الحقيقة بين دهاليز الظلام والشرك.

أتاح له زواجه من مسلمة أن يطالع العديد من الكتب الإسلامية، وأن يختلط ويشاهد عن كثب حياة المسلمين وطرائق معيشتهم، فتوقدت في قلبه جذوة حب الإسلام، وتذكر زيارته لمصر قبل سنوات، وكيف كان ينبهر كلما سمع المؤذن ينادي للصلاة.

الإسلام في عيون هندوسية

شدَّه إلى الإسلام أكثر من عامل، يأتي في مقدمتها بساطة تعاليمه ووضوحها؛ فأسسه قليلة العدد، كثيرة الفائدة، عميقة المعاني، فهي لاتتجاوز خمسًا، عليها يقوم الدين، وبها يتم، إضافة إلى ذلك فإن مبادئ الإسلام لاتحتاج إلى شرح، وعمودها الفقري يرتكز على شهادتي: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. فالتوحيد أساس الإسلام وعموده الفقري، وتنزيه الخالق المتعالي عن كل شريك هو المبدأ الأول الذي أرساه الإسلام ودعا إليه، وهو مبدأ يتفق مع الفطرة السليمة التي ترفض أن يكون هناك إله مع الله تعالى الله عما يزعمون.

ولمس في الإسلام روح المساواة التي افتقدها في ديانته السابقة؛ فالإسلام دعوة للمساواة بين البشر، لايفرق بين أبيض وأسود، حضري وقروي، أوروبي وآسيوي، فالكل سواسية كأسنان المشط لايميز بين شخص وآخر إلا بالتقوى، مما يجعله ديانة عالمية لاتنتمي إلى جنس أو شعب، فالمسلم هو المسلم مهما اختلفت الأوطان وتباعدت.

ولم يفته أن هذا الجانب في الإسلام يطابق حاجات العصر، فالابتكارات العملية التي جعلت العالم أشبه بقرية صغيرة، وقربت بين المسافات المتباعدة تحتم تلاقي البشرية جميعًا على عقيدة واحدة تدفعها لعمل الخير، وليس هناك أنسب من العقيدة الإسلامية التي تساوي بين الشعوب، فيما تمارس الهندوسية التفرقة بين الطبقات والنصارى البيض يمنعون النصارى السود من دخول كنائسهم، ويفرق اليهود بين اليهودي المولود لأم يهودية ولو كان ولد زنا وبين اليهودي الذي ولد لأم غير يهودية حتى ولو كان والده من أعرق بيوت اليهود.

إضافة إلى ذلك فإن الإسلام رقّى في نفوس المسلمين جانبًا روحيًا مهمًا هو مشاعر الأخوة التي تربط بين المسلم وأخيه المسلم، تلك الأخوة التي جاءت تلبية للنداء الخالد «إنما المؤمنون إخوة»، إلى جانب أن الإسلام يقدم للبشرية حلولاً لكل مشكلاتها، ففيه من القواعد والأحكام ما ينظم علاقة العبد بالعبد، والعبد بالرب ويحقق للمجتمع عناصر الاستقرار التي يحتاج إليها وأمر بها وأهمها التماسك الأسري.

قراءات

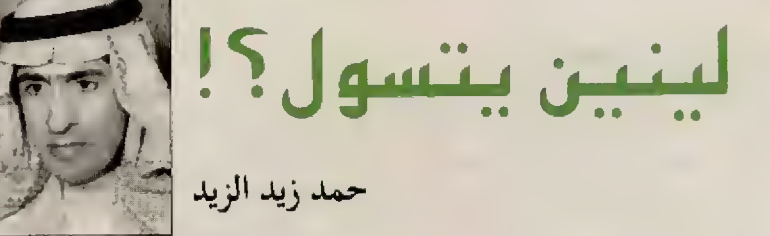
لقد أسهمت قراءات جابا ومعايشته للمسلمين الهنود، وما رآه في أثناء زيارته لمصر من العظمة

الروحية للإسلام في صوغ قراره بنبذ الهندوسية واعتناق الإسلام عام 1933م، حيث تسمى بعد إسلامه باسم خالد لطيف جابا، وجوبهَ المهتدي الجديد بعد إشهاره إسلامه بعاصفة من هجوم الهندوس الذين ساءهم أن يروا محاميًا وكاتبًا كبيرًا مثله يشهر إسلامه وينبذ عقيدتهم، إذ إنه حقق قبل إسلامه شهرة كبيرة بكتابه «العم الدجال» الذي صدر عام 1929م ردًا على سخرية بعض الأمريكيين من الهند وثقافتها في كتاب «الهند الأم»، وحقق «العم الدجال» شهرة كبيرة حتى بلغ عدد طبعاته عشرين طبعة متتالية، فعز على الهندوس أن يُسلم مثلُ هذا الكاتب الكبير، وأن يسخّر قلمه لخدمة الإسلام والمسلمين، فهاجموه هجومًا عنيفًا، وحاربوه حربًا ضارية، فلم يزده ذلك إلا ثباتًا على الحق، وأخرج كتابه «رسول الصحراء» عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وجاءت فرصة الهندوس للانتقام من جابا حين نشر كتابه «ما جنا كارتا الجديد» الذي هاجم فيه الاستعمار البريطاني للهند، فقدم إلى المحاكمة أمام قاض إنجليزي، حكم عليه بالسجن، وحدد مبلغًا كبيرًا للكفالة، وعلى ضخامة المبلغ الذي كان يعادل ما يساوي الآن مليون دولار، إلا أن تاجرًا مسلمًا قدّم الكفالة بدافع من الأخوة.

خدماته للإسلام والمسلمين

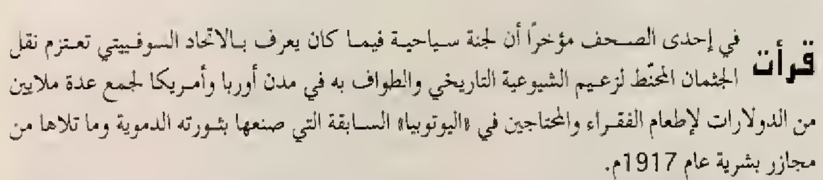
لقد خدم خالد لطيف جابا الإسلام والمسلمين بكل ماوسعه من قوة، فقدم ما يقارب الثلاثين مؤلفًا، لعل أهمها كتابه «الأصوات السلبية» الذي عالج فيه محنة مسلمي الهند، والواقع المأساوي الذي يعيشون في ظله، وتحدث فيه بصراحة وجرأة منقطعة النظير، مما حدا بالناشرين الهندوس إلى رفض نشره على محاولاته المستمرة معهم مدة خمس سنوات كاملة، فلما نشر قامت الحكومة الهندوسية بشراء جميع نسخ الكتاب وإتلافه لكيلا يقرأه أحد، إلا أن عناية الله شاءت أن يُنشَر الكتاب في منتصف السبعينيات الميلادية في الباكستان التي رفض جابا أن يقيم فيها بعد انفصالها عن الهند لإيمانه بضرورة بقائه مع مسلمي الهند. وتوفي خالد لطيف جابا قبل سنوات قليلة في مدينة بومباي بعد أن أعطى لدينه وأمته الكثير.



لينين يتسول؟!



حمد زيد الزيد



قرأت في إحدى الصحف مؤخرًا أن لجنة سياحية فيما كان يعرف بالاتحاد السوفييتي تعتزم نقل الجثمان المحنّط لزعيم الشيوعية التاريخي والطواف به في مدن أوربا وأمريكا لجمع عدة ملايين من الدولارات لإطعام الفقراء والمحتاجين في «اليوتوبيا» السابقة التي صنعها بثورته الدموية وما تلاها من مجازر بشرية عام 1917م.

ولقد عرفت أول مرة «فلاديمير إيلتش لينين» في بيروت عام 1969م عندما وجدت مختارات من مؤلفاته الكاملة مطبوعة بالعربية ومجلدة تجليدًا فاخرًا تباع في إحدى المكتبات بثمن بخس لايساوي قيمة الورق والغلاف؟! وعندما تصفحتها وجدت أفكارًا جميلة وتنظيرًا رائعًا كتب بنَفَسٍ صوفيّ متوهج الإنسانية!؟

وظللت أحمل الإعجاب به وبنظريته حتى زرت بولندا في صيف عام 1984م، وبعد عودتي منها كتبت قصة «نجوم بولونيا» التي تنبأت فيها بسقوط الشيوعية.. فقد أدركت أن هذه النظرية التي حاولت تغيير العالم هي سرابٌ بقيعة.. وأنها لن تعيش طويلاً نظرًا للبون الشاسع بين التنظير والواقع. وبين النظرية والتطبيق، وهكذا فالأفكار العظيمة والاتجاهات الفكرية (الأيديولوجيات) المثالية يبقى التطبيق وحده هو المحك الحقيقي لإخفاقها أو للنجاح فيها.

ولو قُدّر للراحل (لينين) أن يستيقظ على نظرات الرأسماليين (الإمبرياليين) الشامتة الذين هددهم نظامه الذي أقامه، وأرعبتهم نظريته التي صاغها من الماركسية، لدمعت عيناه على هذا الإذلال الذي تلقاه هو ونظريته بعد سبعين عامًا من التطبيق المخفق؟

بل لو قدر له أن يمشي في شوارع بلاده الواسعة لانتحر من القهر حين يرى تماثيله تكسّر، وشعبه يقف صفوفًا طويلة من أجل الخبز ويسأل العالم الطعام بل والملابس المستعملة الملوثة بالرأسمالية!!

ناهيك بملايين الضحايا ـ الذين صُرعوا من أجل قيام الاتحاد السوفييتي وتطبيق مشروع المزارع الجماعية، وضحايا حرية الفكر والرأي في العهد الستاليني الطويل الحالك الظلام.

سخرية الأقدار.. أم هو منطق التاريخ الذي لايرحم؟! فلو سالت أنهار من الدماء لإسقاط الشيوعية.. لما سقطت بتلك السهولة وبمثل هذه السرعة.. هل نقول: إن على الشعوب أن تراهن على الحتمية التاريخية حتى تتخلص من أوضاعها الشاذة وجلاّديها الطغاة؟! أم نعود إلى الحقيقة الناصعة التي وردت من الله الذي أعلنت الشيوعية يوم قيامها «وفاته»! حتى القومية التي لاتؤمن بها الشيوعية كذلك وحاربتها لم تمت فقد استقلت الجمهوريات؛ فكأن مدة الحكم السوفييتي كانت كابوسًا ثقيلاً انتهى.. وغلطة تاريخية صُحّحت.!!

وعندما أُنزل العلم الأحمر آخر مرة قال رجل الأقدار ميخائيل جورباتشوف «: الآن أحسّ بأن مهمتي قد انتهت»!؟ وهكذا يبقى النص الإلهي الخالد في القرآن ماثلاً للعيان:

قُلِ اللهمَّ مالكَ المُلكِ.. تؤتي المُلكَ مَنْ تشاءُ.. وتَنزعُ المُلكَ ممَّن تَشاء.. وتُعزُ مَنْ تشاء.. وتُذلُّ من تشاء.. بيدكَ الخيرُ إنَّك على كل شيءٍ قدير. **آل عمران:26.** صدق الله العظيم.

وآخر دعوانا: أن يرتاح العالم وتُسعد البشرية بموت الصهيونية والرأسمالية كما ماتت الشيوعية لتنتهي إلى الأبد حلقات الثالوث الجهنمي؟!



فضيلة الشيخ
عبدالله الجبرين

الولاء والبراء

ما هو الولاء وما هو البراء؟ وكيف نجمع بينهما وبين أن المسلم يجب عليه معاملة غيره (من غير المسلمين) معاملة حسنة لكي يحبب إليهم الإسلام؟ وجزاكم الله خيراً

أبو بكر مصطفى الوليلي ـ الرياض

الولاء هو موالاة المسلمين ومحبتهم ونصرتهم وتقريبهم ومدحهم وصلتهم وخدمتهم والثناء عليهم وذلك دليل الإعجاب بهم وإقرارهم على معتقدهم وعملهم، وهذا واجب، فعلى المسلمين أن يوالي بعضهم بعضًا، وأن يتحابّوا بينهم ويتعاطفوا ويتراحموا ويتبادلوا المحبة والشفقة والزيارة والنصيحة لقوله صلى الله عليه وسلم «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» ولاتجوز موالاة الكفار والعصاة والفسقة بل تجب مقاطعتهم ومعاداتهم ولو كانوا ذوي قربى لقوله تعالى: ومن يتولهم منكم فإنه منهم. لكن عند دعوتهم إلى الإسلام يظهر لهم محاسنه ويقربهم إليه ويرغبهم في اعتناقه ويلين لهم القول، فإن أبوا وأصروا فعليه مقاطعتهم ومعاداتهم وإظهار احتقارهم وازدرائهم والتقليل من شأنهم وفضح أسرارهم والتشنيع عليهم وعلى من احترمهم وعظّمهم لقوله تعالى: *وليجدوا فيكم غلظة*، والله أعلم.

الصلوات النوافل

تختلف بعض المذاهب الإسلامية في عدد الصلوات النوافل ومكانها قبل الفروض وبعدها، فهل لكم ـ حفظكم الله ـ في أن تبينوا لنا المذهب الراجح في ذلك؟

محمود لبابيدي
دمشق ـ سورية

ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم المحافظة على عشر ركعات؛ ركعتين قبل الظهر وركعتين بعدها وركعتين بعد المغرب وركعتين بعد العشاء وركعتين قبل الفجر وهذا أصح ما ورد، فمن زاد عليها فلا ينكر عليه، فإنّ النوافل لا تحديد فيها ولا يمنع منها إلا في أوقات النهي. وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى أربعًا قبل الظهر وندب إلى أربع بعدها وإلى أربع قبل العصر وركعتين قبل المغرب، ومن زاد على ذلك فله حظه من الأجر لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «فأعني على نفسك بكثرة السجود»، والله أعلم.

زكاة الذهب

أنا طالب متزوج، أسأل هل كان من الواجب عليَّ إخراج زكاة الذهب، علماً بإن استعمال هذا الذهب للزينة فحسب؟ كما أنني لا أحصل على راتب محدد أتعيش به؟

عبدالله محمد الأكلبي
شديق ـ بيشة ـ المملكة العربية السعودية

زكاة الذهب فيها خلاف قوي بين المشايخ وبما أنك فقير يعوزك ما تعيش به، وأن الذهب يستخدم للزينة وأهله فقراء فأرى ترجيح القول بعدم وجوب الزكاة على الذهب وعدم إلزام أهله بالبيع منه حيث إن ذلك يأتي على جميعه. والله أعلم

لماذا المعاشرة الزوجية توجب الغسل؟

عباس أحمد صالح
أم درمان ـ السودان

لأن الجماع حدث أكبر وقد أُمر بالاغتسال بعده كالوضوء بعد البول ونحوه، ولعل الحكمة أن الماء يقوي البدن ويُعوِّضه عما ذهب منه من الضعف، ولأن المنيّ يخرج من جميع البدن فشرع تعميم البدن بالتطهير ، والله أعلم.

سيرة الفاروق عمر

بين شبلي النعماني وهيكل

د. جلال السعيد مصطفى الحفناوي

إن شخصية عمر الفذة ومسيرته الطاهرة وطريقة حكمه الصائب تقتضي جميعًا أن يكون كاتب السيرة عليماً بكيفية التعامل في هذه القضايا، فعندما قال شاه ولي الله الدهلوي: «تصور أن صدر الفاروق دار لها العديد من الأبواب وقد تربع على باب كل منها واحد من أرباب الكمال والعظمة».

فقد مثّل في العين صورة شاخصة سامية له تُلقي الرعب في القلوب وتغض الطرف عن جاه كسرى وجلال قيصر، فقد كان خالد بن الوليد وأبوعبيدة يرتعدان خوفًا من هيبته وشدته وهما في ميدان المعركة على بعد آلاف الأميال من المدينة، وهو الذي يتساوى على ميزان عدله الملك والفقير، وهو من ذهل نصارى بيت المقدس من فرط تواضعه وانكساره، وقد أزالت إدارته للدولة وحنكته السياسية الغبار عن مرآة الممالك وحضارة العالم، وفي حياته تجلّى إسلام القرون الأولى في صورة حية، لهذا كان من الطبيعي أن يخاف شبلي ويرتعد قلمه عند تدوين سيرته العطرة.

وتعدّ سيرة الفاروق لشبلي أول سيرة منهجية تناولت حياة الخليفة عمر بن الخطاب في العصر الحديث، وقبلها كانت سيرة الفاروق أخبارًا متفرقة في المصادر والكتب التاريخية، ونتفًا مبعثرة في حاجة إلى خيط ينظمها فتكون كيانًا أدبيًا كائنًا بذاته. وهي بذلك أول سيرة إسلامية على أسس علمية حديثة في الأردية والعربية، وقد أظهر شبلي شخصية عمر الفذة وعبقريته العظيمة بأسلوب جزل وتحقيق دقيق، مع نقد للروايات، واستخدامه قواعد الدراية في غاية القوة والحيطة، ووزن الأحداث والوقائع بمعايير عقلية منطقية بعد أن استفاد من مناهج النقد الغربي الحديث.

لقد عرض شبلي في سيرة الفاروق جميع جوانب البطولة لعمر أيام الجاهلية وأيام النبي وأبي بكر، وقد تعددت مواقفه البطولية في جميع المواقف في السلم والحرب، وفي الفقه والحديث، وفي القضاء والإدارة والحكم وغيرها. وازن بين عمر والإسكندر، وأثبت بطولة عمر الفذة التي رجّحها لعدم وجود عناصر نجاح ساعدته، ومع ذلك تغلب على الظروف غير السانحة وقدم لنا النموذج الكامل للبطل.

يبدأ السيرة بمقدمة طويلة تتناول جميع ماكُتب عن عمر ومافيها من عيوب ومحاسن، وطريقة تلاشي عيوب كتب التاريخ القديمة، وقال إنه من الضروري الاعتماد على القواعد العقلية في تدوين سيرة الفاروق التي يمكن في ضوئها تمييز صدق الأحداث من كذبها. وقد جمع أسلوبه بين الأدب والتاريخ، أي بين الأسلوب الأدبي وعقلية المؤرخ التي تميز بها.

وتنقسم سيرة الفاروق إلى جزأين، تناول في الجزء الأول حياة سيدنا عمر، وفي الجزء الثاني قام بتصوير الخصائص الاجتماعية والحضارية وتنظيم أمور الدولة في عهد خلافته.

سيرة الفاروق قبل شبلي وبعده

سيرة الفاروق قبل شبلي:

كانت سيرة الفاروق قبل شبلي موجودة على شكل نتف متفرقة وأخبار مبعثرة متناثرة في كتب التاريخ والتراث والفقه والحديث. ثم جاء ابن الجوزي (المتوفى 597هـ) وجلال الدين السيوطي وجمعا شتات هذه الأخبار في تجربتين جديرتين بالبحث والدراسة، فكتب ابن الجوزي كتابا باسم «سيرة عمر بن الخطاب» وكان في البداية ضمن كتاب باسم «سيرة العمرين» أي عمر بن الخطاب وعمر بن عبدالعزيز، ثم تم طبع سيرة عمر بن الخطاب منفصلة عن سيرة عمر بن عبدالعزيز. ثم جاء جلال الدين السيوطي (المتوفى سنة 911هـ)بعده وكتب ترجمة لعمر بن الخطاب في كتابه ى«تاريخ الخلفاء» ثم جاءت بعدهما دراسات من هذا القبيل لا يمكن أن نطلق عليها اسم سيرة بالمفهوم الفني الحديث لهذا النوع الأدبي الذي لاقى اهتمامًا في العصر الحديث. ويمكن توجيه النقد لهذه الدراسات السابقة على سيرة «الفاروق» لشبلي لأنها لا تعدو كونها تجميعًا لأخبار أمير المؤمنين عمر في مختلف نواحي حياته من دون إبداء الرأي فيها أو التحليل والنقد لأحداثها.

سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي:

كتب ابن الجوزي هذه السيرة في عام 567 هـ، ونهج فيها نهج المحدثين في ذكر الأخبار بالأسانيد، ثم جاء أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد فحذف هذه الأسانيد الطويلة وقال: «إنني وقعت بمدينة سعرد في شوال سنة سبع وستين وخمسمئة على كتاب مناقب أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - تأليف الشيخ الإمام العالم الزاهد ناصر السنة أبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي - رضي الله عنه - مروية عن الثقات مسندة عن الأئمة الأثبات، فرأيت وبالله التوفيق أن جردتها

عن الأسانيد إذ كانت أشهر من النهار وأشيع من أن تدفع بالإنكار، وفضائله تشهد بها آثاره في الإســــــلام» (1).

وقد حدد ابن الجوزي خطته في خطبة الكتاب فيقول: «أما بعد فإن أخبار الأخيار دواء للقلوب وجلاء للألباب، وإن أولى ماجمعت أخبار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، لأنه جمع من العلم والعمل ما أدهش العلماء والعاملين، وقام من الحد في السياسة والعدل ما أعجز الولاة والسلاطين، وأضاف إلى ذلك من الزهد والصبر مايلج دونه أهل العزم من الملوك والزاهدين، فأخباره تقوم إلى الأمر تارة باحتذاء أثره، وتارة بتنكيس رؤوس العجزة عنه وتحث أهل الجد في طلب الآخرة على التشمير في قطع مضمار السباق بأقدام الصدق، وقد آثرت أن أجمعها لينفع الله بها من سمعها، وقد قسمتها ثمانين بابًا وبالله التوفيق»(2).

وقد بدأ ابن الجوزي سيرته بذكر مولده ثم نسبه وصفته وهيئته وماتميز به في الجاهلية، ثم دخوله الإسلام وهجرته، وانتهى بباب خاص بذكر محبيه ومبغضيه، في حين لم يهتم بأعمال عمر الإدارية ولا بفتوحاته التي تناولها باقتضاب شديد. وسيرة ابن الجوزي في مجملها سيرة غير منهجية لا يتبع فيها نقد الأحداث وذكر العلل والأسباب، ولهذا جاءت سيرة للمناقب فقط.

ترجمة عمر بن الخطاب في كتاب «تاريخ الخلفاء» للسيوطي:

وكتاب (تاريخ الخلفاء) هو كتاب جامع لتراجم الخلفاء بصفة خاصة، ومنها ترجمة عمر بن الخطاب وتقع في نحو أربعين صفحة؛ وقد قسمها السيوطي اثني عشر فصلاً، يبدؤها بذكر نسبه وفضله وإسلامه وروايته لخمسمئة وتسعة وثلاثين من أحاديث الرسول، ثم جاء بفصل في الأخبار الواردة في إسلامه ثم في هجرته، ثم فصل في الأحاديث الواردة في فضله؛ فذكر منها: أخرج ابن ماجه والحاكم عن أبي ذر قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول «إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به». وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه»(3).

ثم تحدث في فصول منفصلة أخرى عن أقوال الصحابة والسلف فيه وموافقات عمر - رضي الله عنه - وكراماته وصفاته وخلافته، ويتحدث عن فتوحاته باقتضاب شديد، ثم تحدث عن أولياته (4) وانتهى بفصل فيمن مات من الصحابة في أيامه.

وقد فطن شبلي إلى عيوب هذه الكتب فقال في مقدمة الفاروق: «إن الكتب التي ألفت مستقلة عن سيرة سيدنا عمر لا نجد فيها جميعًا الأحداث المهمة، لكن يمكن تلافي هذا إلى حد ما بالمؤلفات الأخرى، فمثلاً نستطيع أن نعرف كثيرًا من الأمور المتعلقة بطريقة حكم عمر وقوانين إدارته من كتاب الخراج، ومقدمة ابن خلدون والأحكام السلطانية لابن الماوردي. ويبدو من أخبار القضاة لابن وكيع أسلوبه في إدارة القضاء خاصة. أما تفصيل أولياته فهي في كتاب الأوائل لأبي هلال العسكري ومجالس الوسائل إلى أخبار الأوائل. وخطبه منقولة في «العقد الفريد» لابن عبد ربه، و«البيان والتبيين» للجاحظ، كما يتضح من كتاب «العمدة» لابن رشيق ذوقه الشعري، ونقل الميداني في كتاب الأمثال مقولاته الفلسفية، وذكر ابن الجوزي أخلاقه وعاداته بالتفصيل في سيرة العمرين؛ وبحث شاه ولي الله في «إزالة الخفاء» طريقته الاجتهادية في الفقه والاجتهاد الذي بلغ فيه الكمال والنبوغ، وقد وضعت هذه الكتب جميعاً أمامي واستفدت منها، ويوجد في كتاب «الرياض النضرة» للمحب الطبري سيرة عمر بالتفصيل وقد رجع شاه ولي الله إلى هذا الكتاب».

وفي الصفحات التالية سنقوم بدراسة لسيرة «الفاروق» بعد شبلي.

سيرة الفاروق بعد شبلي:

نشر شبلي سيرة «الفاروق» عام 1898م وبعد مدة طويلة، أي في عام 1944م ظهرت أول سيرة عربية منهجية عن عمر بن الخطاب هي سيرة «الفاروق عمر» لمحمد حسين هيكل، ثم تبعها عدة سير تناولت حياة عمر أهمها: «عبقرية عمر» للعقاد، و«الشيخان» لطه حسين، و«الفاروق عمر» لعبدالرحمن الشرقاوي. ولم يقتصر كُتّاب سيرة الفاروق في العربية على السيرة الشخصية للفاروق فحسب بل ذكروا فصولاً من التاريخ الإسلامي لهذه الحقبة الزمنية وجاءت سيرة الفاروق من خلال هذا التاريخ، حتى ليشعر المرء بأن السيرة التي يقرؤها ماهي إلا سيرة الإسلام وفتوحاته وانتشاره وانتصاره؛ وهذا، وإن كان عيبًا فنيًا من ناحية أنه يصرف ذهن القارئ عن الغاية المطلوبة من الكتاب وهو سرد سيرة الفاروق واستخلاص الدروس والعبر منها، إلا أنه في الوقت نفسه - وفي رأي فريق من المؤرخين - سرد للوقائع التاريخية للحقبة التي عاش فيها بطل السيرة على اعتبار أن السيرة ماهي إلا جزء من التاريخ. وقد سار على هذا المنهج القديم في تأريخ السيرة ومزجها بالتاريخ كُتّاب معاصرون لعل من أهمهم محمد حسين هيكل في «الفاروق عمر» وعبدالرحمن الشرقاوي في «الفاروق عمر بن الخطاب».

د. محمد حسين هيكل



جورجي زيدان



طه حسين

بينما تنبه طه حسين في «الشيخان» والعقاد في «عبقرية عمر» لوجود هذا الحشد الهائل من الأحداث التاريخية في سيرة عمر فقضلا أن ينحُوا منحىً جديداً حين قصرا دراسة سيرة الفاروق على استخلاص الأحداث والدروس والعبقرية من السيرة كما كتب العقاد في «عبقرية عمر»، أو مزج السيرة بالأدب كما فعل طه حسين عند الحديث عن سيرة عمر في «الشيخان»، وإن كنت أميل في النهاية إلى دراسة السيرة كسيرة وليست كتاريخ أو كأدب أو كفن، بل يجب دراستها على أنها نوع أدبي مستقل.

ويكاد الباحث يمسك بخيط رفيع لأوجه الشبه بين «الفاروق» لشبلي النعماني و«الفاروق عمر» لمحمد حسين هيكل (5)، فكلاهما كان ينوي كتابة التاريخ الصحيح للإمبراطورية الإسلامية، وكلاهما كانت له بصمات واضحة في أدب السيرة، فكتب الأول: سيرة الفاروق عمر وسيرة النبي، وسيرة أبي حنيفة النعمان. وكتب الثاني: سيرة الفاروق عمر وحياة محمد وأبي بكر.

وكان الدافع عند كليهما في كتابة سيرة الرسول هو الرد على المستشرقين، وإن كنا لا نستطيع الجزم بأن هيكل تأثر بشبلي، إلا أننا نجد لمحات في سيرة الفاروق عمر وحياة محمد تشير إلى اهتمامه بما كتب عن هاتين الشخصيتين في الشرق بلغات غير العربية، حيث يقول في مقدمة الجزء الأول: «والكتب التي وضعت في لغات غير العربية تلقي من الضياء على تاريخ الفتح الإسلامي والإمبراطورية الإسلامية مالا غنى للمؤرخ عن الاستنارة به وتمحيص الوقائع بموازنة ما جاء عنها في كتب المؤرخين على اختلاف لغاتهم ومناهجهم وميولهم خير عون على الاهتداء إلى الحق» (6).

وإن كان هيكل قد رجع في كتابه «حياة محمد» الذي نشر عام 1934م إلى كتاب (The Spirit of Islam) للمؤلف الهندي Sayed Amir Ali سيد أمير علي، كما رجع في كتابه «الفاروق عمر» الذي نشر عام 1944م إلى كتاب (The Early Caliphate) للمؤلف الهندي Maulana Mohammad Ali مولانا محمد علي، فليس من المستبعد أن يكون هيكل قد رأى سيرة الفاروق المترجمة إلى اللغة الإنجليزية. ونُشرت هذه الترجمة التي قام بها ظفر علي خان في لاهور، وكان هيكل يجيد الإنجليزية والفرنسية، وسافر إلى فرنسا وظل بها من عام 1909م إلى 1912م، ونال شهادة الدكتوراه، وقد ظهرت هذه الترجمة عام 1939م (7).

وقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية الأردية اسم شبلي وهيكل مقترنين بكتابة فن السيرة والدفاع عن الإسلام ضد المستشرقين عندما كتب الأول «سيرة النبي» و «الفاروق»، وكتب الثاني «حياة محمد» و «الفاروق عمر».

وزار شبلي مصر وظل بها أكثر من شهر، وكانت بينه وبين الكتاب والمثقفين مثل: رشيد رضا وجرجي زيدان وغيرهما صداقة وطيدة وتبادل للزيارات، حيث زار رشيد رضا الهند ورأس الاجتماع السنوي لندوة العلماء التي أسسها شبلي النعماني، كما كتب شبلي مقالات كثيرة باللغة العربية في: الهلال والمقتطف والمنار (8).

ونجد سيرة الفاروق لشبلي والفاروق عمر لهيكل قد تشابهتا من ناحية الإخراج الفني لهما حيث جاءتا في جزأين في مجلد واحد، وفي آخر الكتاب خريطة للعالم الإسلامي أيام حكم الخليفة عمر بن الخطاب.

سيرة «الفاروق عمر» تأليف محمد حسين هيكل

انتهى محمد حسين هيكل من تأليف سيرة «الفاروق عمر» عام 1944م، أي بعد تأليف سيرة «الفاروق» لشبلي

النعماني بنحو نصف قرن، فقد ظهرت سيرة «الفاروق» عام 1898م.

وفي تقديمه لسيرة «الفاروق عمر» يقول هيكل: «ليس في التاريخ الإسلامي، بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رجل تردد الألسن اسمه ماتردد اسم عمر بن الخطاب، وهي تردده وتقرن به، في إعجاب وإكبار، ماعرف عن عمر من جليل الصفات وعظيم المواهب. فإذا ذكر الناس الزهد في الدنيا مع القدرة على النهل من أنعمها ذكروا زهد عمر، وإذا ذكروا العدل المطلق غير مشوب بشائبة ذكروا عدل عمر، وإذا ذكروا العلم والفقه والدين ذكروا فقه عمر ودينه. فلما قبض عمر كانت الإمبراطورية الإسلامية قد اشتملت العراق والشام جميعًا، وقد تخطتها فاشتملت فارس ومصر، وبذلك بلغت حدودها الصين من الشرق وإفريقيا من الغرب وبحر قزوين من الشمال، والسودان من الجنوب، وقيام هذه الإمبراطورية العظيمة في عشر سنوات معجزة لاريب، والمعجزة أعظم قدراً بعد أن تحطمت فارس والروم والإمبراطوريتان صاحبتا السلطان على عالم يومئذ» (9).

من قراءة هذه المقدمة يتضح لنا أن هيكل اتخذ من سيرة الفاروق مدخلاً للتأريخ للإمبراطورية التي اكتملت أركانها في عهد عمر بن الخطاب، وهو مثل ماسبق أن قام به شبلي في تأريخه للإمبراطورية الإسلامية، وذلك في الجزء الثاني من سيرة «الفاروق».

وتقع سيرة الفاروق عمر لهيكل في جزأين، تناول الجزء الأول قيام الإمبراطورية الإسلامية على يد عمر وعوامل قيامها وأثر عمر الفاعل في تأسيسها وسياسة عمر مع عماله ورعيته، وتطرق إلى التاريخ السياسي لنشأة الإمبراطورية الإسلامية الذي هو الغرض الرئيس من سيرة الفاروق عمر. ويبدأ هذا الجزء بصورة عامة من حياة عمر الأولى في الجاهلية، وصوّر الحياة الاجتماعية في ذلك العصر تصويراً رائعًا، وتحدث عن عمر في طفولته وشبابه وحذق عمر للمصارعة وركوب الخيل، وأزواج عمر وثقافته وتعصبه لدينه وخصومته للإسلام في عهده الأول.

ثم تحدث عن إسلام عمر وسبب إسلامه والرواية المنسوبة لعمر نفسه وإعلانه الإسلام والمنافحة عنه، وعند الحديث عن صحبة النبي تناول هيكل موقف عمر من قريش وهجرته إلى المدينة ومشاركة عمر للرسول في غزوة بدر ورأيه في أسراها، ثم في غزوة أحد واجتهاده في عهد النبي في موضوعات تحريم الخمر ونساء النبي. وركز هيكل على أخلاق عمر. وفي عهد أبي بكر اهتم هيكل بإبراز دور عمر في سقيفة بني ساعدة وسياسة أبي بكر وموقف عمر من الردة ومن خالد بن الوليد ودوره في فتح الشام، ثم استخلاف أبي بكر له، واستفتح هيكل عهد عمر بالحديث عن بيعة عمر وانتداب المسلمين للذهاب إلى العراق، وعزله خالد بن الوليد عن قيادة الجيش وسببه. ثم مسير المثنى وأبي عبيدة إلى العراق وانتصار المسلمين على الفرس بالنمارق والسقاطية والبويب وانتصار المسلمين الحاسم، والتوجه بعد ذلك لفتح دمشق وتطهير الأردن. وتحدث هيكل عن غزوة فحل التي انتصر فيها المسلمون. بعد ذلك تحدث هيكل بالتفصيل عن معركة القادسية، وماسبقها من استعداد جيش المسلمين للفرس وإعداد عمر لهذه المعركة بقيادة سعد بن أبي وقاص، وانتصار المسلمين الحاسم وأثر هذا النصر في قيام الإمبراطورية الإسلامية. ومقام المسلمين بالمدائن وسياسة عمر في العراق، وبناء الكوفة والبصرة وجعلهما مسالح للمسلمين، وأثر السياسة العمرية في حياة العراق.

ثم عاد هيكل للحديث مرة ثانية عن جيوش المسلمين في الشام وجلاء هرقل عن سورية، وبدأ حديثه بذكر مسير أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد من دمشق إلى حمص والتقائهما بالروم عند مرج الروم وظفرهما بهم، وحصار حمص وصلحها، وفتح خالد بن الوليد قنسرين وتسليم أنطاكية واندحار هرقل أمام المسلمين. ثم تحدث هيكل عن موقعة أجنادين وظفر المسلمين بالروم، وحصار بيت المقدس ودخول عمر بيت المقدس وتوقيع معاهدة الصلح مع أهلها. ثم يعود إلى الحديث عن مصير خالد بن الوليد بعد إخضاع الشام ويفصل القول في أسباب عزله. وفي نهاية هذا الجزء يتحدث عن المجاعة والوباء في بلاد العرب وكيف عالج عمر المجاعة وآثار المجاعة في بلاد العرب، وطاعون عمواس وموت أبي عبيدة وغيره من كبار المسلمين وزوال الوباء.

تفوق شبلي من الناحية المنهجية، إذ قام بتحديد منهجه في مقدمة «الفاروق»، بينما لم يحدد هيكل منهجه

وفي الجزء الثاني من سيرة «الفاروق عمر» لهيكل يتناول التوسع في فتح فارس وسبب عدول عمر عن سياسته العربية إلى سياسة التوسع في الفتح وغزو الأهواز وتعقب الهرمزان، ثم الاستيلاء على تستر وغزو نهاوند وهي فتح الفتوح فلم تقم للفرس بعدها قائمة أبداً وتم القضاء على سلطة الأكاسرة، ويبدأ هيكل هذا الجزء - كما بدأه شبلي النعماني - بلمحة من تاريخ فارس وفتح أصبهان وهمدان والري، وتصالحه مع ولايات شمال فارس، ثم الاستيلاء على سابور وأردشير واصطخر وكرمان ومكران واندحار يزدجرد وفراره إلى الترك.

ويأتي فتح مصر بعد ذلك فيتناول هيكل تردد عمر في قبول مانصح به عمرو بن العاص من فتح مصر حتى كسب ميل عمر وأقنعه بفتح مصر، وهو في تفاصيل الفتح لا يختلف عن التفاصيل التي أوردها شبلي في فتح مصر، إلاّ أن مجمل الأحداث لا تختلف كثيراً عن الأحداث التي ذكرها شبلي في «الفاروق».

بعد ذلك يتحدث هيكل عن حكومة عمر حيث بدأها بذكر نظام الحكم عند العرب وتطوره وتوحيد الجزيرة العربية والقضاء على الفوارق على يد عمر، ونظام الشورى في عهد عمر، وشدته على ذويه وعماله، وموقفه من بني هاشم ورؤوس قريش وبقاء المسجد في المدينة مكان النظر في الشؤون العامة، وعدل عمر، وتدوين الدواوين، وفرض العطاء، وتطور الحكم من البداوة إلى الحضارة، ثم يتحدث هيكل فيه عن التطورات الاقتصادية والاجتماعية التي أحدثها عمر.

وينهي هيكل الجزء الثاني من «الفاروق عمر» بالحديث عن اجتهاد عمر قبل خلافته، ونهيه عن رواية الحديث وكتابة السنن. ويساوي بين الناس في القضاء، ويجتهد فيما لم يرد فيه نص في كتاب الله، ويأبى قسمة الأرض بين المسلمين الذين فتحوها.

وبينما يأتي مقتل عمر في نهاية الجزء الأول في «فاروق» شبلي نجد أن مقتل عمر يأتي في نهاية الجزء الثاني من «فاروق» هيكل.

وبعد استعراض الموضوعات التي تناولها كل من شبلي في «الفاروق» وهيكل في «الفاروق عمر» يتضح لنا ما يلي:-

1- تفوق شبلي من الناحية المنهجية فقد قام بتحديد منهجه في مقدمة «الفاروق» بينما لم يحدد هيكل منهجه.

2- كلاهما - شبلي وهيكل - اهتما بالسيرة التاريخية.

3- هيكل (القاص) يميل إلى السرد القصصي في وصف الأحداث، بينما شبلي (المؤرخ) يهتم بالحقائق التاريخية من دون التفصيل. ويتضح ذلك جليًا عند تحليل كل منهما لأسباب هزيمة الروم والفرس والقضاء على سطوتهما.

4- أسهب شبلي في تفصيل فتح فارس وبلاد العجم لأنه أقرب مكانيًا إليها؛ ومعرفته الكاملة باللغة الفارسية مكنته من الاطلاع على الكتب التاريخية التي باللغة الفارسية في هذا الصدد، في حين اهتم هيكل بتفصيل فتح مصر.

سيرة (الفاروق) بين شبلي وهيكل

ذكرت في البداية أوجه التشابه بين تناول كل من شبلي وهيكل لسيرة الفاروق، وأن هناك نوعًا من التأثير والتأثر يتجلى بوضوح وينسحب على الشكل والمضمون في «الفاروق» لشبلي و «الفاروق عمر» لهيكل. وفي الصفحات التالية سوف أتناول بعض الموضوعات التي تناولاها وذلك في دراسة مقارنة لبيان أوجه التأثير والتأثر.

أولاً: الشكل

يمكن لقارئ سيرة «الفاروق» لشبلي و «الفاروق عمر» لهيكل أن يتلمس خيوط التأثير والتأثر في التشابه الواضح بين السيرتين من ناحيتي الشكل والمضمون، فمن حيث الشكل نجد ما يلي:-

1- قام شبلي بطبع سيرة «الفاروق» على هيئة جزأين في مجلد واحد، وفي نهايته خريطة بيانية توضح الفتوحات التي تمت في عهد عمر ورقعة الدولة الإسلامية في عهده وقد خصص شبلي فهرسًا عامًا لمحتويات الجزأين معًا.

كذلك قام هيكل بطبع سيرة «الفاروق عمر» على هيئة جزأين في مجلد واحد، وفي نهايته خريطة بيانية توضح الفتوحات التي تمت في عهد عمر ورقعة الدولة الإسلامية في عهده، وقد خصص هيكل فهرسًا عامًا لمحتويات الجزأين معًا.

2 - تتشابه سيرة «الفاروق» لشبلي و «الفاروق عمر»

لهيكل في ترتيب الأبواب والفصول، بل ذكر كل من شبلي وهيكل لمقدمة في بداية السيرة يتناولان فيها المنهج الذي اتبعه كل منهما في التأليف والتأريخ للإمبراطورية الإسلامية، وخاتمة في نهاية السيرة يستعرضان فيها أهم النتائج التي توصلا إليها في سيرة سيدنا عمر. ولم يختلف هيكل مع شبلي إلاّ في موضوعين فقط من ناحية ترتيب أحداث السيرة. هما:-

أ- ذكر شبلي مقتل عمر في نهاية الجزء الأول من سيرته، ثم تفرغ بعد ذلك لذكر أعماله التي قام بها في تنظيم الدولة وإرساء دعائم الحكم. بينما ذكر هيكل مقتل عمر في نهاية الجزء الثاني من سيرته، ومزج أعماله وجهوده التي قام بها من أجل بناء الدولة الإسلامية بمراحل تطور سيرته الشخصية.

ب - أجمل شبلي فتوحات فارس كلها معًا، بينما ذكرها هيكل في أكثر من موضع، حيث تناول فتوحات فارس في الفصل الثامن والتاسع والعاشر من الجزء الأول، ثم عاد وذكر بقيتها في الفصل الخامس عشر والسادس عشر من الجزء الثاني، ولهذا كان شبلي أكثر منهجية في تبويب سيرة «الفاروق» وبناء الجانب الهيكلي منها من هيكل الذي كان تبويبه يفتقد إلى الترابط الذي بغيره يتشتت ذهن القارئ.

ثانيًا: المضمون

1- اضطلع كلٌ من شبلي وهيكل بالتأريخ للإمبراطورية الإسلامية تأريخًا صحيحًا من طريق سلسلة من التراجم لمشاهير المسلمين، فكتب شبلي «الفاروق» «سيرة عمر بن الخطاب» و«المأمون» سيرة المأمون بن هارون الرشيد الخليفة العباسي، وسيرة النبي وغيرها. وتناول هيكل «حياة محمد»، و«الصديق أبوبكر» و«الفاروق عمر».

يقول شبلي «هذا الكتاب يدخل ضمن فهرس كتب السلسلة الآصفية»، حيث قام «نواب مير محبوب علي خان بهادر نظام الملك آصف جاه سلطان الدكن برعاية سلسلة للمؤلفات والتراجم العلمية تسمى باسم السلسلة الآصفية، وتدخل في نطاق هذه السلسلة كتب المرتبطين بالدولة الآصفية» (10).

ويقول هيكل: «وقد تناولت في هذا الكتاب، كما تناولت في «حياة محمد» وفي «الصديق أبوبكر» نواحي من الحياة العربية لذلك العهد... أما كتاب «الصديق أبوبكر» فقد بدأت فيه بدراسة الإمبراطورية الإسلامية وأسباب عظمتها وانحلالها، لأن هذه الإمبراطورية قامت على أساس من تعاليم النبي العربي وسنته.. وهذا الكتاب عن عمر حلقة ثالثة من هذه السلسلة. لكنها تختلف عن الحلقتين الأوليين، كما تختلف كل واحدة من هاتين الحلقتين عن الأخرى اختلافًا ظاهرًا. هذا مع توالد الحلقات الثلاث كل واحدة عن سابقتها.. وهذه الحلقات الثلاث التي تؤرخ لنشأة الإمبراطورية الإسلامية والعالم الإسلامي، تصور فترة من تاريخ العالم هي لاشك أمتع الفترات في الحياة الإنسانية وأكثرها وقفًا للنظر، وإيحاء للتفكير والتأمل، فهي تدل على أن الحياة الإنسانية فكرة أولاً وقبل كل شيء» (11).

2 - في مقدمته على سيرة «الفاروق» عرض كل من شبلي وهيكل أخطاء المؤرخين القدماء وعيوب مؤلفاتهم وانتقدا طريقتهم في التأريخ ووصف الأحداث ومايضيفونه إلى سيرة عمر من معجزات وخوارق.

يقول شبلي: «وتفتقد كتب التاريخ القديمة إلى كلا الأمرين - عدم تسجيل جميع أحداث العصر في تلك الحقبة الزمنية، أي تهيئة مادة المعلومات المتعلقة بالحضارة والحياة الاجتماعية والأخلاقية والعادات والدين، والأمر الثاني عدم البحث في جميع تلك الأحداث عن السبب والمسبب، فلا تذكر أخلاق الرعايا وعاداتهم وحياتهم الاجتماعية، بينما تذكر أخبار حكام العصر وتقتصر على الفتوحات والحروب الداخلية فقط. لقد كان السبب الأكبر لعدم الاهتمام ببحث الأسباب والعلل في الأحداث هو أن فن التاريخ ظل دائمًا يتناوله أناس لا علم لهم بالفلسفة والعقليات، ولهذا لم تقع أنظارهم على أصول فلسفة التاريخ، ولهذا السبب فإنه لا يمكن الحصول على أي أصل من أصول فن الحرب يعتمد عليه بعد قراءة آلاف الصفحات في كتب التاريخ عن وصف المعارك» (12).

اهتم شبلي بتفصيل فتح فارس وبلاد العجم لأنه ينتمي إلى ثقافتها، ويعرف لغتها، بينما اعترف هيكل باهتمامه بتفصيل فتح مصر

ويقول هيكل: «أرّخ العلماء والكتاب لعمر أكثر مما أرخوا لغيره من أمراء المؤمنين، لم يثنهم عن ذلك أن لم تكن لعمر بطانة تدعو إليه وتدفع الناس بمختلف الوسائل للإشادة بذكره، بل لقد بلغ من إكبار المؤرخين لسيرته أن أضافوا إليه أمورًا أدنى إلى المعجزات التي خص بها الأنبياء، وأن ذكروا مالا يستطيع المؤرخ إثباته. وعمر في غير حاجة إلى شيء من ذلك يضاف إلى سيرته، ولو أن المؤرخين الأقدمين لم يضيفوا هذه الخوارق إلى سيرة عمر لأغنوا ماجاء بعدهم عن بذل الجهد في تمحيصها وجنبوهم الاختلاف على مبلغ صحتها، على أن هذه الصعوبة في التمحيص والتفسير ليست كل مايلقاه المنقب في كتب الأقدمين عن سيرة عمر، بل إنك لترى هؤلاء الأقدمين يختلفون في بعض الأحيان على الوقائع اختلافًا يقف الإنسان منه موقف الحيرة، ثم إن من هؤلاء المؤرخين من يسهبون في طائفة من الوقائع ويتناولون أدق تفاصيلها، على حين يجملون طائفة أخرى إجمالاً لا تكاد تبين معه دلالتها. وأسوق مثلاً لذلك: أن الطبري وابن الأثير والبلاذري يتحدثون عن وقائع الغزو في العراق بإسهاب تكاد ترى معه أعمال كل بطل من أبطال هذه الوقائع، فإذا انتقلوا إلى سياسة المسلمين وأدارتهم للبلاد بعد فتحها أجملوا الحديث فيها إجمالاً لا يتفق بحال مع إسهابهم الأول. وهؤلاء المؤرخون أنفسهم أقل إسهابًا حين الحديث عن فتح الشام وإن كانوا مع ذلك قد وفّوه حقه. أما حديثهم عن مصر فموجز إيجازًا لا يبالغ من يسميه مخلاً» (13).

وقد تميزت مقدمة شبلي من الناحية المنهجية من مقدمة هيكل؛ لأن شبلي أشار بوضوح إلى منهجه في تأليف سيرة الفاروق وهو منهج (الرواية والدراية) بينما اهتم هيكل بإبراز المنهج التأريخي الشامل الذي حاول وضع لبناته من أجل التأريخ للإمبراطورية الإسلامية بشكل عام.

3 - اهتم كل من شبلي وهيكل بإبراز مناقب عمر، وهو أمر له أهمية كبرى وركن ركين من أركان فن السيرة، فبالنسبة لشخصية عمر فإن كاتب السيرة يجد صعوبة شديدة في ذكر مناقب جديدة لهذه الشخصية التي لا خلاف عليها، ولهذا لم يكن من الصعوبة بمكان أن يتشابه وصف مناقب عمر في سيرة عمر عند شبلي وهيكل. يقول شبلي:-

ليس على الله بمستبعد أن يجمع العالم في واحد

انظروا من ناحية الأخلاق فمن تجدونه صنوًا له غير الأنبياء؟ لقد بلغت فيه أوصاف الزهد والقناعة والانكسار والتواضع والبساطة والاستقامة والعدل والصبر والرضا والشكر والتوكل درجة الكمال، فهل كان من الممكن أن يوجد في لقمان وإبراهيم بن أدهم وأبي بكر الشبلي ومعروف الكرخي صفات أكثر من هذه؟ وقد وصف شاه ولي الله فضله بأنه جامعة للفضائل والكمالات يقول:«تصور أن صدر الفاروق الأعظم بمثابة دار لها العديد من الأبواب وقد تربع على كل باب منها واحد من أرباب الكمال والعظمة، فعلى أحدها يجلس الإسكندر ذوالقرنين بما تميز به من مقدرات الفتح وإعداد الجيوش وقهر الخصوم والأعداء، وعلى الثاني يجلس أنوشيروان بكل ماعهد فيه من الرفق واللين ومحبة الرعية والعدل - وإن كان ذكر أنوشيروان في مجال إحصاء فضائل حضرة الفاروق إقلالاً لشأنه - وعلى باب آخر تربع الإمام أبو حنيفة أو الإمام مالك بكل تلك القدرة الفائقة في علم الفتاوى والأحكام. وعلى باب آخر يجلس مرشد مثل سيدي عبدالقادر الجيلاني أو السيد بهاءالدين، وعلى الباب الآخر محدث له شأنه مثل أبي هريرة وابن عمر، وعلى باب آخر يقف حكيم مثل مولانا جلال الدين الرومي أو الشيخ فريدالدين العطار، بينما وقف الناس يحيطون بالدار من كل صوب، وإذا بكل صاحب حاجة يتقدم سائلاً حاجته إلى صاحب الفضل والكمال فيعود غانمًا موفقًا»(14).

ويقول هيكل معددًا مناقب عمر: «ليس في التاريخ الإسلامي، بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رجل تردد الألسن اسمه ماتردد اسم عمر بن الخطاب، وهي تردده وتقرن به في إعجاب وإكبار ماعرف عن عمر من جليل الصفات وعظيم المواهب، فإذا ذكر الناس الزهد في الدنيا مع القدرة على النهل من أنعمها ذكروا زهد عمر، وإذا ذكروا العدل المطلق غير مشوب بشائبة ذكروا عدل عمر، وإذا ذكروا النزاهة لا يفرق صاحبها بين أقرب الناس إليهم وأبعدهم عنه ذكروا نزاهة عمر، وإذا ذكروا العلم والفقه في الدين ذكروا فقه عمر ودينه. وأنت تتلو من أنباء ذلك في الكتب ماتحسب الكثير منه مبالغة لايكاد العقل يصدقها،

فهي أدنى إلى المعجزات التي تنسب إلى الأنبياء منها إلى ماعرف عن أكبر العظماء سمواً وجلال قدر، ويرجع ذلك إلى قيام الإمبراطورية الإسلامية في عهده.. فقد تبين الناس على تعاقب الأجيال أن هذه الإمبراطورية لم تكن وليدة عبقرية حربية تبقى الإمبراطورية مابقيت وتزول بزوالها، بل كانت قائمة على أساس قوي من خلق متين وحضارة سليمة الأساس. فإذا صح أن يشيد الناس بعظمة يوليوس قيصر والإسكندر الأكبر وجنكيز خان ونابليون لأنهم أقاموا من الإمبراطوريات ماأقاموا، فأحرى بهم أن يكونوا أكثر إشادة بعظمة عمر بن الخطاب وأكبر قدراً لآثارها» (15).

4 – اهتم شبلي بذكر جغرافية المدن التي أقدم عمر على فتحها وذلك بمقدمة يتناول فيها وصف حدود هذه المدن وسبب تسميتها ومكانتها في الماضي، وأهم أحداثها التاريخية قبل أن يتسرب إلى ذكر وقائع الفتح، ونجد ذلك عند الحديث عن فتح العراق والكوفة والبصرة وجلولاء ودمشق وحمص وقيساوية والجزيرة وخوزستان والعراق والعجمي وأذربيجان وطبرستان وأرمينية وكرمان وسجستان ومكران وخراسان، ورجع في ذلك لفتوح البلدان، أما هيكل فكان اهتمامه منصباً حول ذكر الجوانب السياسية للفتح أكثر من أي شيء آخر.

5 – أفرد شبلي الجزء الثاني بأكمله لدراسة جهود عمر في بناء الإمبراطورية الإسلامية مثل تنظيم الدولة والأعمال العامة والحياة المدنية وتقسيم الدولة ونظام الحكم والشورى وذكر الحياة الاجتماعية والحضارية، والعقلية واجتهادات عمر الفقهية وإبراز جانب الناقد والأديب في شخصية عمر(16). بينما تناول هيكل بعض هذه الموضوعات بطريقة مقتضبة في نهاية الجزء الثاني في الفصول الثاني والعشرين والثالث والعشرين والرابع والعشرين(17).

6 – مسألة عزل خالد بن الوليد

كان موضوع عزل خالد بن الوليد من الموضوعات الخلافية بين كثير من المؤرخين وفيما يلي نعرض لوجهتي نظر كل من شبلي وهيكل:

بدأ شبلي موضوع عزل خالد بن الوليد بذكر الخطأ الذي وقع فيه ابن الأثير عندما ذكر خبر عزل خالد في أحداث سنة 13هـ، ثم ذكرها ضمن أحداث سنة 17هـ، يقول: «كان عزل خالد وفتوحات الشام من أهم الأحداث التي حدثت سنة 17هـ، فقد ذكر جميع المؤرخين أن عزل خالد كان أول قرار اتخذه عمر مع توليه زمام الحكم وقد أجمع على ذلك ابن الأثير وغيره من المؤرخين، ومما يؤسف له أن ابن الأثير لم يفكر هو نفسه في اختلاف آرائه فقد ذكر عزل خالد ضمن أحداث سنة 13هـ، وهو الذي جعل عنوانًا منفصلاً لعزله ضمن أحداث سنة 17هـ وينقل نفس الوقائع كما هي في كلا الموضعين».

لقد كان عمر في الحقيقة غير راض عن خالد منذ مدة بسبب عدم اعتداله في بعض أموره، ومع هذا لم يتعرض له بشيء في بداية الخلافة؛ لكن لما كان من عادة خالد أنه لا يرسل مستندات النفقات إلى بلاط الخلافة لهذا كتب إليه مؤكدًا أن يراعي هذا في المستقبل، فرد عليه خالد «إنني كنت أفعل هذا منذ عهد أبي بكر ولن أفعل الآن خلافًا لهذا، فكيف يقبل عمر استقلاله هكذا؟ كيف يترك مال بيت المال في يد أحد دون حساب، لذا كتب لخالد يقول تستطيع أن تبقى قائدًا بشرط أن ترسل حساب مصروفات الجيش باستمرار، فلم يوافق خالد على هذا الشرط، وبناء على هذا عُزل من مسؤولية إمارة الجيش»(18) وقد ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني هذه الحادثة بالتفصيل في كتابه الإصابة عند ذكر خبر خالد بن الوليد(19).

ثم صور شبلي عودة خالد بن الوليد إلى المدينة والحوار الذي دار بين عمر وخالد قائلاً: «أتى خالد المدينة وقدم على عمر فقال: والله لم تكن عادلاً في أمري يا عمر. قال عمر: من أين هذه الثروة التي عندك؟ قال خالد: من الأنفال، ثم قال: وما زاد عن الستين ألفًا أعطيه لك فزادت عشرين ألف درهم فأدخلها بيت المال. فقال عمر لخالد مخاطبًا «يا خالد والله إنك إليّ لحبيب وإنني لأقدرك، ثم كتب إلى عمال الأمصار بأنني لم أعزل خالدًا عن سخط ولا خيانة، لكن عندما رأيت الناس قد فتنوا به رأيت أنه من الأفضل عزله حتى يعلم الناس أن الله هو الصانع(20) والمتفحص يستطيع أن يفهم بسهولة من هذه الأحداث ما هي أسباب عزل خالد وما الحكمة من عزله» (21).

> **هيكل القاص مال إلى السرد القصصي في وصف الأحداث، بينما اهتم شبلي المؤرخ بالحقائق التاريخية من دون التفصيل**

وقد اتفق هيكل مع شبلي في أن أول قرار اتخذه عمر بن الخطاب هو عزل خالد بن الوليد يقول: «وقُبض أبو بكر وتولى عمر إمارة المؤمنين والموقف لايزال على جموده. فكان من أول ما استفتح به عهده أن حمّل محميه بن زنيم وشداد بن أوس كتابًا إلى أبي عبيدة بعزل خالد عن إمارة الجيش وبردّها إليه كما كانت قبل أن يفصل خالد من العراق إلى الشام (22)بعد ذلك يسوق هيكل رواية أخرى خاصة بعزل خالد وهي رواية ابن كثير في «البداية والنهاية» ثم يقول: «والراجح عندي أن أبا عبيدة لم يُذع النبأ بعزل خالد أول ما بلغه، سواء كان قد بلغه يوم اليرموك أو بعد انتصار خالد فيها، وأنه كتم هذا النبأ أيامًا حار في أثنائها ما يصنع به وكيف يذيعه، وفي هذه الأثناء عرف الناس أن أبا بكر قبض وأن عمر تولى مكانه.. وقدر خالد أن عمر لن يرضاه أميراً على جيوش المسلمين بالشام، وأنه لابد أن سيعزله، وتحدث بذلك إلى بعض المقربين منه، ولعله تحدث به إلى أبي عبيدة، عند ذلك أنبأه أبو عبيدة برسالة عمر فلم يغضب ولم يثر».(23).

7 – الفتوحات في عهد عمر:

الفتوحات هي تلك الأعمال الخالدة التي قام بها عمر بن الخطاب شرقًا وغربًا لكي يؤسس الإمبراطورية الإسلامية بعد أن خرج الجيش الإسلامي من الجزيرة العربية لنشر الإسلام في أنحاء العالم، وقام بتقويض أساس مملكتي فارس والروم، وكان لفتح فارس والشام ومصر النصيب الأكبر في تأسيس الدولة الإسلامية، وقد تجلت شخصية عمر البطولية في هذه الفتوحات، ولذلك نجد شبلي يبدأ الجزء الثاني(24) من سيرة «الفاروق» بمقدمة علمية يتناول فيها أسباب الفتوحات والنتائج التي ترتبت عليها. أما هيكل فيتحدث عن الفتوحات بشكل إجمالي، ثم يذكر تعليقات متفرقة عن الفتوحات مثلما فعل في تعليقه على موقعة القادسية وذكر عوامل الفتح في مقدمة الجزء الأول(25).

وقد أسهب شبلي في تفصيل فتح فارس وبلاد العجم لأنه أقرب مكانًا إليها، وينتمي إلى ثقافتها، ويعرف لغتها الفارسية التي مكنته من الاطلاع على الكتب التاريخية التي كتبت في هذا الصدد، في حين اهتم هيكل بتفصيل فتح مصر(26) لأنه مصري ، وقد اعترف هيكل بهذا الأمر في مقدمة سيرة «الفاروق عمر» وهو أن قومية المؤرخ تغلب عليه في التأريخ والاهتمام ببلده التي نشأ فيها عن غيرها يقول:

«وحسبك أن تعلم أن الطبري قد أفرد لغزوة القادسية وحدها أكثر من ستين صفحة، وقد تحدث عن فتح المدائن في اثنتي عشرة صفحة، ثم لم يجعل لفتح مصر كلها غير خمس صفحات، ولاشك في أن غزوة القادسية جديرة بأعظم العناية في التأريخ لها، فهي التي مهدت للمسلمين العود إلى العراق بعد أن أجلاهم الفرس عنه، وفتحت لهم أبواب المدائن ثم أبواب فارس كلها. لكن فتح مصر لم يكن دون فتح العراق وفتح فارس خطرًا، وكان لذلك جديراً بأن يلفت هؤلاء المؤرخين ليتوفروا على استيفائه أكثر مما فعلوا»(27). إلا أن هيكل لم يستطع التخلي عن «الوطنية»، وأعني بذلك التأريخ بإسهاب لموطنه أكثر مما سواه على استيفاء فتح مصر ولهذا نراه يدرك هذا التناقض فيقول:

«وقد نلتمس لهؤلاء المؤرخين من العذر أنهم دونوا ما استطاعوا الوقوف عليه من الروايات أو أنهم كانوا أكثر عناية بالبلاد التي نشؤوا فيها منهم بالبلاد البعيدة عنهم، ولا أراني في حاجة إلى الاعتذار عنهم ولا نقد طريقتهم؛ فما أجمله الطبري وابن الأثير وابن خلدون والبلاذري عن تاريخ الفتح العربي لمصر كتبه ابن عبدالحكم والسيوطي وابن تغري بردي عنه وفصلوه ما فصل الطبري فتح العراق والكتب التي وُضعت في لغات غير العربية تلقي من الضياء على تاريخ الفتح الإسلامي والإمبراطورية الإسلامية ما لا غنى للمؤرخ عن الاستنارة به. هذا إلى ما لمؤرخي العصر الحديث في الشرق والغرب من فضل في بحث ما أوردته كتب الذين سبقوه وفي تمحيصه وإبرازه في صورة تتفق ومألوف هذا العصر في التفكير والتقدير»(28).

8 – أسباب الفتوحات

بدأ شبلي الجزء الثاني من سيرة «الفاروق» بذكر نظرة إجمالية عن الفتوحات وطرح عدة أسئلة أجاب عنها، فقال: «كيف طوت فئة قليلة من سكان الصحراء صفحات دولتي فارس والروم؟ وهل هذه ظاهرة مستثناة في تاريخ العالم؟ وما

سيرة الفاروق عمر

بين شبلي النعماني وهيكل

أسبابها وكم كان نصيب القائم بأمر الخلافة فيما حدث؟ إن المساحة الكلية للبلاد التي قام عمر بفتحها (2251030) ميلاً مربعًا. وهذه الرقعة كانت تشمل الشام ومصر والعراق والجزيرة وخوزستان والعراق العجمي وأرمينية وأذربيجان وفارس وكرمان وخراسان ومكران، كانت هذه الفتوحات كلها تخص سيدنا عمر، وقد تمت جميعًا في عهده الذي يزيد على عشر سنوات»(29).

ويخلص هيكل في خاتمة «الفاروق عمر» إلى هذا الرأي فيقول: «مهّد أبو بكر لقيام الإمبراطورية الإسلامية فامتدت في عهد عمر من حدود الصين شرقًا إلى ماوراء برقة غربًا، ومن بحر قزوين في الشمال إلى النوبة في الجنوب، واشتملت فارس والعراق والشام ومصر وضمتها كلها إلى بلاد العرب. وقد تم اجتماع هذه الأمم كلها في وحدة الإمبراطورية في زمن لم يزد على عشر سنين»(30).

بعد ذلك يتناول شبلي الأسباب الحقيقية للفتوحات رافضًا روايات المؤرخين الأوربيين التي تعزو انتصار العرب على الفرس والروم إلى ضعفهما وانحلالهما آنذاك يقول:

«لاشك أن دولتي الفرس والروم لم تكونا في ذلك الوقت في أوج قوتهما الحقيقية، ويمكن أن تستنتج من هذا أنهما لايستطيعان أن يواجها مملكة قوية، أما أن يمزّقا شر ممزق على يد قوم بلا عدة أو عتاد كالعرب فهذا أمر لايمكن أن يُستنتج مهما كانت حالة الفرس والروم. فقد كانتا مع ذلك بارعتين في فنون الحرب بدليل أن الكتب التي كتبت عن قواعد الحرب وأصولها الخاصة والتي توجد حتى اليوم وظلت رائجة بطريقة عملية عند الروم. وإلى جانب هذا لم يعترها أي نقص في كثرة الجيش وتنوع آلات الحرب ووفرة المؤن وكثرة العدة والعتاد. وعلاوة على هذا كله فهي لم تخرج للهجوم على دولة أخرى بل ظلت في بلدها وفي قلاعها وخطوطها الدفاعية تدافع عن ترابها. وفي عهد خسرو برويز كانت إيران فيه في أوج شوكتها وشبابها. وبالنسبة لحالة العرب فإن جميع الجيوش التي كانت منهمكة في حروب الروم وإيران ومصر لم يصل مجموعها قط إلى مائة ألف؛ أما من ناحية خبرتهم في فنون الحرب فقد كانت اليرموك أول معركة استخدم العرب فيها نظام «التعبئة» في تنظيم الصفوف»(31). وقد شبه شبلي فتوحات عمر بفتوحات الإسكندر الأكبر وجنكيز خان.

ويتفق هيكل مع ما قاله شبلي فيقول: «إن قيام هذه الإمبراطورية العظيمة في عشر سنوات معجزة لاريب. والمعجزة أعظم قدرًا بعد أن تحطمت فارس والروم الإمبراطوريتان صاحبتا السلطان على عالم يومئذ، وتحطمتا بأيدي العرب الذين كانوا إلى سنوات قبلها قبائل متنافرة لا تهدأ منازعتها. فقد كان المسلمون إلى يوم استخلف، يخشون الفرس والروم، ولذلك تثاقلوا حين ندبهم عمر للذهاب إلى العراق يواجهون الفرس فيه، وكان لهم من العذر عن تثاقلهم أن كان اسم فارس لايزال يزلزل القلوب والأسماع»(32). وقد شبه هيكل فتوحات عمر وعظمته بالإسكندر الأكبر وجنكيز خان وغيرهما.

والأسباب الحقيقية للفتوحات في نظر شبلي هي: «أن المسلمين كانوا قد دب فيهم في ذلك الوقت الشجاعة والهمة العالية والقوة والصبر والعزيمة والحماسة بسبب بعثة النبي - صلى الله عليه وسلم - فيهم، وقد ضاعف عمر في هذه الصفات وشحذها فلم تستطع مملكتا فارس والروم في عصريهما الذهبي أن تتصديا لهم، وإلى جانب هذا توجد أسباب أخرى أولها صدق المسلمين وأمانتهم، فقد كان الناس في أي بلد تفتح يحبون المسلمين لصدقهم، وكانوا لايريدون زوال حكمهم على اختلاف الدين. لقد كان حكم الروم في مصر والشام حكمًا جائرًا، لذلك واجه الروم المسلمين بقوة الحكم والجيش، ولم يكن معهم الرعايا، وعندما قضى المسلمون على قوة الدولة كان الجو مهيأً أمامهم؛ لأنهم لم يجدوا أي نوع من أنواع المقاومة من جانب الرعايا، إلا أن حالة إيران كانت مختلفة، فقد كان هناك كثير من الحكام والأمراء تحت لواء المملكة، وكانوا يملكون الأقاليم والمراكز، فكانوا يحاربون للحفاظ على حكومتهم الخاصة لها من أجل الدولة، ولهذا السبب فإن المسلمين واجهوا المقاومة في كل مكان في فارس. وكان هناك سبب جوهري آخر: فعندما قام المسلمون بحملاتهم الأولى على الشام والعراق كان يقطن في كلا البلدين كثير من العرب، فالذي كان يحكم دمشق كان من أسرة الغساسنة في الشام وكان قيصر يحكمها اسميًا، وكان اللخميون في العراق في الحقيقة يملكون البلاد مع أنهم يدفعون لكسرى شيئًا من الخراج، وقد واجه هؤلاء العرب المسلمين في البداية لأنهم كانوا نصارى، إلا أن نزعة القومية لايمكن أن تضيع سدى فسرعان ما أسلم كبار حكام العراق وأصبحوا عونًا للمسلمين، وأسلم العرب في الشام في نهاية الأمر وتحرروا من حكم الروم»(33).

ويعدد هيكل أسباب الفتوحات وهي في الواقع لاتخرج عن الأسباب التي ذكرها شبلي يقول:

«وقيام الإسلام أول هذه العوامل وأقواها. فالإسلام هو الذي وَحّد العرب بعد شتات، وجعل من قبائلهم المتنافرة أمة متضافرة، ودفعهم لإذاعة تعاليمه وإعلاء كلمته.. فقد كان العرب قبل إسلامهم ضعافًا أمام الفرس والروم.. وكانت مناطق كثيرة من بلادهم خاضعة لنفوذ كسرى ونفوذ قيصر. فلما أسلموا أسرع هذا النفوذ إلى الزوال عن شبه الجزيرة كلها، ومع ذلك ظلت هيبة الفرس والروم آخذة بنفوسهم حتى لقد حسبوا حينما دُعُوا لغزو العراق ولغزو الشام أن حصونهما لاتؤخذ وجنودهما لاتقهر... وإنما قدر العرب بعد إسلامهم على الفرس والروم لأن الإسلام أنشأهم نشأة جديدة وبث فيهم روحًا أحالتهم خلقا جديدًا. ولو أن القوة المعنوية التي اندفع المسلمون بتأثيرها واجهت قوة معنوية تقف في سبيلها لتغير، ولو إلى حد، وجه الحوادث، لكنّ دولتي الفرس والروم كانتا تسيران مسرعتين إلى الانحلال. وكانت الشعوب الخاضعة للروم تجد من ظلم القياصرة وعمالهم ما يخذلها عن القيام بمعاونتهم؛ لهذا كله تداعت القوة المعنوية في فارس والروم.

ثم إن هناك عاملاً آخر لا يصح إغفاله، ذلك هو انتشار العرب في العراق والشام وقيام الملوك اللخميين في الحيرة والغساسنة في الشام، هؤلاء وأولئك لم يلبثوا - حين رأوا بني عمومتهم يقاتلون الفرس والروم - أن انضم كثيرون منهم إلى صفوف المسلمين في القتال عونًا لهم، وإن لم يدخلوا في بادئ الأمر في دينهم. وقد كان لهذه المعاونة من الأثر في غزوات عدة ما خذل الفرس وخذل الروم».(34).

الهوامش

1- ابن الجوزي: سيرة العمرين: تحقيق طاهر النعسان الحموي وأحمد قدري كيلاني. المطبعة المصرية بالأزهر. (د.ت) ص:4.

2 - المرجع السابق:5.

3 - جلال الدين السيوطي: تاريخ الخلفاء: الطبعة الأولى. دار القلم. بيروت.1986م ص:123- 124.

4 - أولياته: أي السنن التي استنها عمر بن الخطاب أول مرة في الحكم والأمور التنظيمية الأخرى وأما «موافقات عمر» فهو مصطلح يشير إلى ما جاء في القرآن الكريم من أحكام موافقة لرأي عمر (الباحث).

5 - ولد محمد حسين هيكل في العشرين من آب/أغسطس 1888م بقرية كفر غنام مركز السنبلاوين بمحافظة الدقهلية، وكان أبوه عمدة القرية فبكر به إلى كتّاب القرية، فحفظ جزءاً من القرآن في كتّاب الشيخ إبراهيم جاد، ثم ترك الكتّاب إلى المدرسة الابتدائية وحصل على شهادتها في عام 1901م ثم واصل في القاهرة إتمام دراسته الثانوية بالمدرسة الخديوية وعاش مع عم له من علماء الأزهر هو الشيخ صالح سالم هيكل حتى حصل على البكالوريا في عام 1905م والتحق بمدرسة الحقوق وحصل على ليسانس الحقوق عام 1909م وسافر في العام نفسه إلى باريس ليكمل دراسته، وفي عام 1910م كتب قصة زينب أول قصة عربية، وبعد أن أتم هيكل رسالته وحصل على الدكتوراه في الاقتصاد السياسي عاد إلى مصر في آب/ أغسطس 1912م، وعمل في الصحافة وتولى رئاسة تحرير جريدة «السياسة» عام 1922م، ومن أهم أعماله: يوميات باريس 1909م، وثورة الأدب 1933م، وحياة محمد علي 1934م، ومؤلفات في السير: أبو بكر الصديق 1942م، والفاروق 1944م، وعثمان 1945م، وله كتاب «مذكرات في السياسة المصرية» 1951م، وتوفي في تشرين الثاني/ ديسمبر 1956م.

(طه وادي: الدكتور محمد حسين هيكل: حياته وتراثه الأدبي. مكتبة النهضة المصرية. ط1. القاهرة 1969م ص: 26-35).

6 - محمد حسين هيكل: الفاروق عمر: دار المعارف. القاهرة 1986م ص: 17.

7- ZAFAR ALI KHAN: OMER THE GREAT - KASHMIRI BAZAR, LAHORE - FIRST EDITION 1939.

8 - جمعت هذه المقالات في كتابين هما: «الانتقاد على التمدن الإسلامي لجورجي زيدان» و«الجزية» وتم طبعهما في دار الهلال ومطبعة المنار، وأعيد طبعهما في الهند أيضا وقد تطرقت إليهما في الفصل الخاص بمؤلفات شبلي (الباحث).

7- ZAFAR ALI KHAN: OMER THE GREAT - KASHMIRI BAZAR, LAHORE 1939.

9 - محمد حسين هيكل: الفاروق عمر: 9/1.

10- شبلي: الفاروق: 1/3-4.

11- هيكل: الفاروق عمر: 1-18-19.

12- شبلي: الفاروق: 1/10-11.

13- هيكل: الفاروق عمر: 1/16.

14- شبلي: الفاروق: 2/311-312.

15- هيكل: الفاروق عمر: 1/9-10.

16- شبلي: الفاروق 2/91-226.

17- هيكل: المرجع السابق:2/182و 216 و 247.

18- شبلي: الفاروق: 1/159.

19- ابن حجر العسقلاني: الإصابة 1/245.

20- الطبري: تاريخ الطبري: 4/68وابن الأثير: الكامل في التاريخ:2/558.

21- شبلي: الفاروق: 1/160-161.

22- هيكل: الفاروق عمر: 1/123.

23- هيكل: الفاروق عمر: 1/124.

24- شبلي: الفاروق: 2/2- 11.

25- هيكل: الفاروق عمر: 1/10-17.

26- فتح فارس عند شبلي امتد من صفحة 73 حتى 122، وعند هيكل من 141حتى 174، أما فتح مصر عند شبلي فيبدأ من صفحة 91 حتى 200 وعند هيكل من 59 حتى 181.

27- هيكل: المرجع السابق: 1/16-17.

28- هيكل: الفاروق عمر: 1/17.

29- شبلي: الفاروق: 2/2 - 3.

30- هيكل: الفاروق عمر: 2/302.

31- شبلي: الفاروق: 2/4-5.

32- هيكل: الفاروق عمر: 1/9-10.

33- شبلي: الفاروق: 2/6-7.

34- هيكل: الفاروق عمر: 1/10-11و 14.

كتب التراث بين السلب والإيجاب.. عرض وحلول:

مَنْ يَسْرِقُ كُتُبَ التّراث؟

الحلقة الثالثة

محمد سعيد المولوي

من الآفات التي ابتُليت بها كتب التراث بلية السرقة والاتجار. فبعد أن زاد اهتمام الناس بالآثار التاريخية والعاديات القديمة، ومخلفات الآباء والأجداد، وأصبح لهذه المخلفات قيمة مادية ومعنوية كبيرة، تفتحت عيون كثير من التجار أو ضعيفي الضمائر على كتب التراث فأولَوْها اهتمامهم، ولكن ليس حفظًا أو تحقيقًا أو طباعة ونشرًا....الخ وإنما انصرف اهتمامهم إلى الحصول على هذه الكتب وبأية وسيلة، وبيعها والمتاجرة بها، وجني الأرباح الكبيرة من ورائها.

ولا بد أن نعترف أن الوعي لدى عامة الناس كان ضعيفًا، فلم يكن كثير من مالكي التراث يدرك قيمة ما بأيديهم من كنوز، لذا أغرتهم المبالغ الضئيلة التي عرضت عليهم ثمنًا لهذه الكتب من قبل تجار المخطوطات، والتي ظنوها كبيرة، فباعوا كتبهم إلى هؤلاء التجار وتسربت هذه الكتب في أغلب الأحيان إلى خارج البلاد الإسلامية.

ونحن لا نستطيع أن نعمم وأن نقول: إن جميع كتب التراث التي وقعت بأيدي تجار المخطوطات قد شقت طريقها خارج العالم الإسلامي، فمنها ما بيع إلى مكتبات عامة أو خاصة موجودة في العالم الإسلامي ولم يعدم قراء العربية إمكان الاستفادة منها. ولكن كثيرًا من هذه المخطوطات عرفت طريقها إلى المكتبات والمتاحف في البلاد الغربية بدافع الإغراءات المادية والأثمان الباهظة التي يبذلها القائمون على هذه المكتبات والمتاحف لتجار المخطوطات والتي تعجز عنها إمكانات كثير من المكتبات العربية.

ولا أزال أذكر يوم كنتُ في مقتبل الشباب كيف كانت تقام المزادات على الكتب المطبوعة أو المخطوطة في سوق الكتب بالمسكية (1) في دمشق، ويقبل عليها تجار المخطوطات وقد حملوا بأيديهم أوعيتهم المملوءة بالكتب المخطوطة، التي كانت تذهب إلى أبواب السفارات تشدها الإغراءات المالية الكبيرة.

وليسمح لي القارىء الكريم أن أذكر بعض الحوادث والأخبار الشخصية، وليس الغرض منها التشهير أو النيل من أحد فليس ذلك من أخلاقنا، وإنما الغرض أن نبين مقدار البذل الذي يعرضه بعض تجار المخطوطات للحصول على المخطوط أملاً في الربح الكبير، فلقد حدثني الوراق الدمشقي الشهير أحمد عبيد رحمه الله أنه اشترى مصحفًا مخطوطًا بليرتين ذهبيتين، وجاء من يعرض عليه أن يشتريه منه باذلاً بكل ورقة ليرة ذهبية.

وكنت قد اشتريت مصحفًا مخطوطًا مذهبًا سنة ست وخمسين وتسعمئة وألف للميلاد من سوق المزاد بالمسكية بمبلغ بسيط، واحتفظت به في مكتبتي، وزارني أحد المسلمين الأفاضل الذين يتولون الإشراف على المركز الإسلامي في لوس أنجلوس، فرأى ذلك المصحف وراح يغريني ببيعه باذلاً فيه مبلغًا ما خطر لي من قبل، ولما كنت أحتفظ بهذا المصحف مثالاً لعناية أجدادنا بهذا الكتاب الكريم وللقراءة فيه فقد رفضت بيعه، وبعد ذلك زارني أحد أصدقائي ممن يتخذ تجارة التحف والعاديات صنعة ورثها عن أبيه، وأخذ الحديث بعضه برقاب بعض وحدثته بخبر المصحف، ولما رآه أنبأني أنه مستعد أن يؤمن له ثمنًا أضعافًا مضاعفة عما دفع فيه من قبل.

إن صنعة التجارة بكتب التراث لم تعد اليوم عملاً فرديًا، بل صارت اتجاهًا منظمًا له تجاره والمستفيدون منه، ودخلت ضمن تجارة العاديات والتحف الفنية والآثار القديمة والمدفونة الأثرية، وصار لها تجارها الماهرون أصحاب الخبرة والمعرفة، الذين أصبحوا أشد تكالبًا على كتب التراث يحاولون الحصول عليها بشتى الأساليب كي يعرضوها للبيع ويربحوا فيها.

ومن المؤسف أن نشير في هذا الميدان إلى أن بعض أصحاب المكتبات الخاصة تغلّب فيهم الطمع على المصلحة العامة فلم يحافظوا على مكتباتهم في

بلادهم بل هَرَّبوها إلى البلاد الأجنبية، ولا نزال نسمع حينًا بعد حين عن بيع مكتبة مخطوطة باللغة العربية في صالة المزادات (ويسدبي) في لندن. وإنا لنأمل من أصحاب الغيرة على كنوز الأجداد، وممن لديهم الإمكانات المادية أن يبادروا إلى شراء هذه الكتب وإعادتها إلى مهدها الأول.

جهل مالكي الكتب

ومما يلحق بهذه المظاهر السلبية التي تصيب كتب التراث الجهل الذي يسيطر على بعض مالكي هذه الكتب وعدم معرفة قيمتها الحقيقية العلمية، فتراهم يستهينون بها فلا يعطونها حقها من الرعاية والعناية، ويتركونها عرضة للأيدي أو الغبار أو الأرَضَة، بل قد تمتد إليها يد الصغار لعبًا وتمزيقًا وإتلافًا.

وفي ذهني قصة لست قادرًا على ردها إلى مصدرها، وهي أن أحد الأفاضل كان في زيارة صديق مريض من علماء دمشق، ولما انصرف من غرفته متجهًا إلى باب الدار مر في ممر ضيق جثت فيه عجوز توقد حمام الدار من كيس كبير أمامها، فلما جاوزها ذلك الفاضل استوقفه ما علق بذاكرته مما رآه غير منتبه إليه. فرجع القهقرى، فوجد المرأة توقد الحمام من كيس كبير امتلأ بالكتب العربية المخطوطة.

والجهل هذا ليس خاصًا بل هو عام، تقع فيه كثير من المكتبات حين تحشد في نطاق ما يسمونه (الدشت) كتبًا شتى ضاع غلافها أو فقدت بعض ورقاتها، ولم يدر الموظف ماهي، فاستراح من جهد يبذله بأن حشرها في نطاق الدشت (2)، وكم رسائل وكتب قيمة استخرجت من مجاميع لم تقدر حق قدرها، أو من مجاميع الدشت.

السرقة الخطر الداهم

على أن أخطر الأمراض السلبية التي تصيب وأصابت كتب التراث السرقة. فكم من كتاب سرق من مكتبته ليصبح سلعة تباع وتشترى، وكم من كتب بل مكتبات سرقت من بلادها لتستقر في بلاد الغرب وتحجز عن أصحاب المنفعة الحقيقية بها.

وسرقة المخطوطات داء قديم وليس حديثًا بليت به الكتب منذ زمن بعيد، وقد أشار الى هذا الداء الشيخ عبدالقادر بن بدران حين تحدث عن إنشاء المكتبة الظاهرية:

«وفي سنة ست وعشرين وثلاثمئة وألف هجرية كان المرحوم مدحت باشا واليًا على سورية، فاهتم بإنشاء المكاتب، ثم علم أن دمشق كان بها ما لايعد من خزائن الكتب الموقوفة على المشتغلين بالعلم، فامتدت إليها أيدي المختلسين بالنهب والبيع، حتى لم يبق منها إلا النذر القليل فخاف على الباقي من الضياع، فكتب إلى مقر السلطنة بذلك كتابًا يقول فيه: لما كانت الكتب الموقوفة، والمشروطة لاستفادة العموم قد حصرت بأيدي المتولين، وحرمت الناس من مطالعتها، كان من اللازم جمعها وجعلها في مكان مخصوص ليكون الانتفاع بها عامًا، فصدر له الأمر بذلك في اليوم الخامس عشر من شباط سنة خمس وتسعمئة وألف رومية الموافقة للتاريخ المذكور. وأعطي القرار من طرف مجلس الإدارة على ذلك، وجمعت الكتب الموجودة من عشر خزائن:

من خزانة المدرسية العمرية التي بالصالحية، وكان بها كتب عظيمة فلم تصل يد الذين جمعوها إلا إلى بعضها.

ومن مدرسة عبدالله باشا العظم ومكتبتها من وقفه رحمه الله في سنة إحدى عشرة ومئتين وألف وكان والده محمد باشا قد كتب وقفها من قبله سنة تسعين ومئة وألف، وكان مقرها في مدرسته، إلا أن نسبتها اشتهرت إلى عبدالله باشا.

ومكتبة سليمان باشا العظم: وهي مكتبة وقفها المذكور سنة ست وتسعين ومئة وألف، وكان مقرها في مدرسته في باب البريد.

ومكتبة الملا عثمان الكردي، وكان مقرها في المدرسة السليمانية.

ومكتبة الخياطين: وهي مكتبة وقفها أسعد باشا العظم بعد سنة خمس وستين ومئة وألف وكان مقرها في مدرسة والده الحاج إسماعيل باشا في محلة الخياطين قرب المدرسة النورية.

ومكتبة المدرسة المرادية.

ومكتبة السميساطية: وهي مكتبة حديثة وقفها أهل الخير.

ومكتبة المدرسة الياغوشية: وكانت موضوعة في مدرسة سياوش باشا في محلة الشاغور.

ومكتبة الأوقاف: وهي مكتبة مجموعة من مكتبات متفرقة تشتت أمرها، فوضعت في ديوان الأوقاف حفظًا لها.

ومكتبة بيت الخطابة: وكانت موضوعة في حجرة الخطابة في جامع بني أمية.

ثم جُعل مقر تلك الكتب كلها في تربة الملك الظاهر، في المدرسة المذكورة لمتانتها ولياقتها لتلك الغاية، وطبع دفتر بأسماء الكتب وعين الوالي لها محافظين»(3).

ولايزال بلاء السرقة يقوى ويشتد على حرص السلطات في المكتبات على الكتب، والباعث على ذلك الجشع المادي الذي يصاب به السارقون والذي يملأ نفوسهم ويغشي عيونهم فلا يرون إلا المادة، وفي سبيلها يضحون بتراث البلد وتاريخها، ويبيعون ذلك بعرض من الدنيا.

وللسراق في الحصول على الكتب وسائل ووسائل تمكنهم من الحصول على مرادهم، فمنهم من يتفق مع بعض الموظفين القيمين على المكتبات العامة فيشتري ذمته وضميره ويغريه بالمال فيسرق له ما يشاء من المخطوطات، أو يمكنه من ذلك فيتسرب الكتاب من المكتبات العامة إلى أيدي السارقين فالتجار.. وإذا الكتاب الذي كان في البلاد العربية والإسلامية قد أصبح في مكتبات بعيدة وبعيدة جدًا في بلاد الغرب.

وأشد ما بليت به المكتبات من سرقة هي مكتبات الأوقاف والمساجد والرباطات والمدارس، فهذه المكتبات خضعت لفوضى كبيرة، وكانت الأيدي قادرة على أن تمتد إلى هذه الكتب فتقلعها من حيث خلفها واقفوها لترحل بعيدًا إلى بلاد الغرب.

صنعة التجارة بكتب التراث لم تعد اليوم عملاً فرديًا، بل صارت اتجاهًا منظمًا له تجاره والمستفيدون منه

ومن السُّراق من يعمد إلى كتب مخطوطة ليست بذات قيمة كبيرة من حيث الناحية العلمية أو التاريخية فيدخلها إلى مكتبة عامة وقد خلع غلافها، ثم يطلب الكتاب الذي يريد سرقته ويتظاهر بقراءته والمطالعة فيه، حتى إذا غفلت عين الموظف المراقب خلع عن الكتاب المسروق غلافه ودسَّ بدلاً عنه الكتاب الذي أحضره وسلّمه إلى الموظف وكأنه لم يصنع شيئًا، ثم انسل من المكتبة وقد حمل في محفظته ثروة من ثروات البلاد العظيمة التي ستغادرها إلى غير رجعة.

ومن وسائل السراق أيضًا أن يطلب أحدهم عددًا من الكتب المخطوطة كبيرًا ويكدسها أمامه، ثم يغافل الموظف المختص ويدس أحدها في عبه أو محفظته، ويعيد الكتب إلى مكانها أو إلى الموظف مستغلاً وفرتها في التلبيس عليه ومسترجعًا إيصالاتها ثم ينسل من المكتبة وقد حصل على ما يريد.

والحقيقة إننا لسنا في صدد إحصاء حيل السارقين ووسائل السرقة، وإنما ضربنا أمثلة على ذلك

كتب التراث بين السلب والإيجاب.. عرض وحلول:

مَنْ يسرقُ كتبَ التراث؟

بيّنة؛ لأن بعض القراء قد يشك في أمر هذه السرقة ويظن أن ذلك مستحيل، وما هو بذلك.

الاستعمار وسرقة التراث

وإذا تحدثنا عن سرقة الكتب قديمًا وحديثًا، فإن هناك سرقة عامة جماعية هي أخطر أنواع السرقة، بل هي استلاب لماضي أمة وتاريخها ومفاخرها وتعتيم على مستقبلها، وأعني بذلك تلك السرقات الهائلة التي قام بها المستعمرون الغربيون حين حكموا بلادنا الإسلامية، وسيطروا على مقدراتنا، وسيَّروا أمورنا وسلبونا حريتنا، وجعلونا عاجزين عن مقاومة مخططاتهم. فقد امتدت أيدي أولئك المستعمرين إلى آثار هذه الأمة وتراثها وكتبها وثرواتها وما خلفه الآباء والأجداد فحملوها أكداسًا وأكوامًا ومجموعات إلى بلادهم، واستقرت في متاحفهم ومكتباتهم. والناظر إلى متحف اللوفر والمتحف البريطاني ومتاحف أخرى يرى أنها تزخر بآلاف القطع الأثرية القديمة من فرعونية وفينيقية وبابلية وعربية...الخ، ولو سألنا أنفسنا من أين حصلت هذه المتاحف على هذه القطع الأثرية لكان أحد الأجوبة أن يد الاستعمار قد امتدت إلى تلك القطع فسرقتها وحملتها إلى بلادها.

وهذه المكتبات في البلاد الغربية كالمكتبة الوطنية بباريس، ومكتبة المتحف البريطاني، ومكتبة غوتة ومكتبة روتردام....الخ متخومة بالمخطوطات العربية والإسلامية، ولا تعليل لوجود أكثر هذه الكتب إلا حملات السرقة المنظمة الدولية التي قامت بها الدول المستعمرة، والتي حملت كتبنا وآثارنا وكنوزنا إلى بلادها وحرمتنا منها.

إن قضية هجرة الكتب من البلاد الإسلامية إلى البلاد الغربية تعد في نظري من أخطر القضايا التي تهدد حضارتنا وتاريخنا ومستقبلنا الثقافي، إذ إنها خطوة نحو حجز أبناء اليوم عن الماضي وقطع له، ومن لم يكن له ماض فليس له مستقبل. ومهما كانت العناية التي يقدمها الغربيون لكتب التراث فإن بُعدَ هذه الكتب عن أيدي الباحثين والدارسين يحجز عن الاستفادة منها. والأمة ماض وحاضر ومستقبل ترابطت عرى أجزائه الثلاثة، ولا يقوم جزء إلا بأخيه. وحين يعمد أبناء الدول الاستعمارية إلى سلب الماضي أو التعتيم عليه أو سرقته أو حرمان الأمة منه فإنهم يحاولون تمزيق حياة الأمة ووضعها في خطر دائم، لأنها في حالة غير مستقرة.

سلبيات النشر

تناولنا بالوصف المظاهر السلبية المهمة التي تنال كتب التراث وهي لاتزال مخطوطة بأقلام مؤلفيها وناسخيها، فإنه يجدر بنا أن نتناول المظاهر السلبية المهمةالتي تصيب هذه الكتب وهي تأخذ طريقها إلى النور عن طريق نشرها وطباعتها.

والحقيقة إن المظاهر السلبية التي تقع تحتها كتب التراث كثيرة وشاملة ومتنوعة وتعمل في كثير من الأحيان على الإساءة إلى هذه الكتب، بل قد تفقدها قيمتها التاريخية والعلمية، ولاسيما إذا وقعت في أيد جاهلة لا تحسن العمل ولا تقدره تقديرًا حسنًا.

وإن من أول المظاهر السلبية التي تقع تحتها كتب التراث: التصحيف الذي ينال اسم المخطوط أو اسم مؤلفه أو بعض كلماته. ولقد تنبه أجدادنا للتصحيف فألّفوا فيه الكتب ونبهوا على أسماء كثير من العلماء وقع فيها الخطأ.

وفي بداية القرن العشرين وحين أخذت النهضة العلمية والفكرية تشتد اتجهت جهود بعض الباحثين إلى هذا الميدان، وكتبت المقالات الكثيرة التي تنبه على هذا الخطأ. والذي يرجع إلى مجلة الزهراء (4) التي كان يصدرها المرحوم محب الدين الخطيب في مدينة القاهرة يرى فيها مقالات متعددة تعنى بهذا الجانب السلبي الذي أصاب كتب التراث.

> **كم من كتاب سُرق من مكتبته ليصبح سلعة تُباع وتُشترى، وكم من كتب، بل مكتبات سُرقت من بلادها لتستقر في بلاد الغرب**

ومن الآثار السلبية التي أصابت كتب التراث نسبة الكتاب إلى غير صاحبه نتيجة عمل غير مسؤول يقوم به كاتب أو موظف أو محقق، وأذكر أني رأيت مرة في فهارس إحدى المكتبات عنوانًا لمخطوطة باسم: أمالي أبي محمد اليزيدي، وقد استغربت العنوان، وحين تفحصت المخطوطة وجدت أن أحدهم قد ألصق ورقة على الغلاف فأخفى اسم المخطوطة بينما عمد آخر إلى كتابة العنوان بقلم مغاير، وحين قرأت في المخطوطة وجدت فيها أشعارًا للمتنبي وشعراء آخرين، واستعنت بالضوء الباهر والمرآة العاكسة فاتضح أن الكتاب للثعالبي. وشتان ما بين اليزيدي (ت:202هـ) والثعالبي (ت:429هـ).

والخطأ في نسبة المخطوط إلى غير مؤلفه وقع فيه المحدثون كما وقع فيه القدماء، وكان من أسباب هذا الخطأ تشابه أسماء الكتب أو تطابقها أحيانًا، أو تشابه أسماء المؤلفين والقضية معروفة عند المحققين. ونجد نماذجها في المقدمات والتحقيقات التي يقدمها المحققون لبعض كتب التراث.

وقد يكون الكتاب جزءًا من كتاب كبير وقد أغرت مادته العلمية أحد القراء، فاستله من كتابه الأصلي، وجعل منه جزءًا منفردًا دون أن يشير إلى أصله، فينخدع بعض الباحثين أو الدارسين ويجعل هذا الجزء مؤلفًا منفردًا ويزيد في عداد كتب المؤلف كتابًا (5).

ونريد بعد أن ننتقل إلى جوانب سلبية مهمة أصابت كتب التراث في العصر الحديث، ولها علاقة بالطباعة والتحقيق، وقد أساءت إلى هذه الكتب وزلزلت الثقة لدى كثير من القراء بكتب التراث المطبوعة فدفعتهم إلى الحذر منها أو مجانبتها.

ومن أهم هذه الجوانب السلبية أن يعمد مؤلف أو محقق إلى تحقيق جزء من كتاب من كتب التراث أو بضعة أجزاء دون أن يوفي كل الأجزاء ما تحتاج إليه من التحقيق، ثم يسارع إلى دفع الكتاب إلى المطبعة، ويصدر الجزء الأول والأجزاء التالية دون استيفاء كل الكتاب، ويندفع القارئ واعتمادًا على شهرة المحقق وسعة علمه وكثير معرفته إلى شراء ما صدر من أجزاء الكتاب، ثم ينتظر أن تصدر بقية الأجزاء لتتم النسخة لديه، ولكن انتظاره يطول بلا فائدة (6).

إن مسوغات هذه الطريقة التي يتبعها بعض الناشرين لا توازي أبدًا الأضرار التي تلحق بكتب التراث ومقتنيها وقارئها، فقد يكون من مسوّغات هذه الطريقة سد الطريق أمام المحققين الذين لا يعطون الكتب حقها من التحقيق والعناية والدراسة. وقد يكون من مسوّغاتها بعث الأمل في نفوس القراء بأن هذه الكتب قد نزلت في حلة علمية قشيبة يمكن الاعتماد عليها، وقد يكون من المسوّغات أيضًا التيسير على مقتني الكتاب، فإنه حين يشتريه منجّمًا يسهل عليه دفع ثمنه ويكون ذلك أشد عونًا له على اقتناء عدد كبير من كتب التراث القيمة.

ولكن الأضرار كما أسلفنا كبيرة جدًا بكتب التراث والقراء والمقتنين في آن واحد، فإن صدور بضعة أجزاء من كتاب قيم له مكانة كبيرة لدى

مَنْ يَسْرِق كُتبَ التّراث؟

القراء ويحرصون على الحصول عليه يدفع القارىء إلى شراء هذه الأجزاء، ولكن الكتاب لا يتم فينطبق على القارىء القول (إن المنبَتَّ لا ظهراً أبقى ولا أرضًا قطع). فالقارىء ما حَصَّل النسخة المحققة كاملة ولا هو مستعد أن يعود إلى طبعات أخرى فيقتنيها ولاسيما إذا كانت النسخة الناقصة أفضل تحقيقًا وأحسن طباعة.

والضرر هنا ليس مقصوراً على القارىء بل هو واقع على الكتاب أيضًا، فإن هذه العملية التجزيئية تجمِّد الكتاب وتحجز المحققين والدارسين عن مد يد التحقيق إلى الكتاب خشية أن يعمد المحقق المجزِّىء إلى إتمام عمله، وتكون النتيجة أن يصبح الكتاب أجزاء ناقصة رأت النور وأجزاء كتب عليها أن تبقى في الظلام.

ومن المظاهر السلبية التي تصاب بها الكتب التراثية أن يعمد عالم مشهور أو أديب معروف إلى مراجعة كتاب له قيمة أدبية مشهورة فيعلق عليه تعليقات بسيطة لا تسمن ولا تغني من جوع معتمداً على شهرة اسمه ومكانته بين قراء العربية ثم يدفع بذلك الكتاب إلى المطبعة (7). والأضرار التي تتأتى للكتاب هنا مشابهة لأضرار طباعة الكتاب مجزءاً، فإن هذه الطباعة تسد الطريق على المحققين المجيدين، وتحول دون خدمة الكتاب خدمة علمية جادة.

وفي رأيي أن هذا المخطوط لو صُوِّر تصويراً وطبع على هيئته المخطوطة لكان الأمر أفضل للكتاب والقارىء معًا، (8) فإن مثل هذه الطباعة المصورة قدمت مئات النسخ من المخطوط على حالته الأصلية أمام المحققين، ولفتت أنظارهم وانتباههم إلى هذا الكتاب، وحرضتهم على تحقيقه وخدمته خدمة علمية لائقة. فضلاً عن أنها فتحت باب المنافسة بين المحققين في إظهار قدراتهم ومعارفهم وإعطاء الكتاب حقه من العناية، ثم إن هذه الطريقة بعيدة عن الاستغلال والخداع، فالقارىء سيرى أمامه كتابًا لا يحمل اسم محقق ولا دارس ولا عالم شهير قد علق على الكتاب فيقتنيه لذاته إن كان قادراً على القراءة فيه، أو سيدعه على أمل أن يراه في القريب محققًا مدروسًا. وحين يحقق الكتاب فلن تحول النسخة المطبوعة تصويراً دون اقتناء الكتاب المحقق المدروس، لأن هناك فرقًا بين الوضعين ولا يمكن أن يحجز أحد الكتابين أخاه عن يد القراء.

ولا يفوتنا أن نشير أيضًا إلى أن من الأمور السلبية التي تصاب بها كتب التراث الدوافع التجارية التي تقوم عند بعض الناشرين الذين يستخدمون بعض أنصاف المتعلمين والذين يتخذون صنعة التحقيق والطباعة مورداً للرزق وسبيلاً للمال. فإن هؤلاء قد يعمدون إلى كتاب قديم نفيس جدير بالخدمة والتحقيق الجيد، فيدفعونه إلى هؤلاء المحققين طالبين منهم للكتاب عناية هي في حقيقتها لا تليق به، بل هو جدير بأعظم منها، ثم يدفعون بالكتاب إلى المطبعة.

وقد يكون الناشر معذوراً بأنه يسعى لرزقه، وقد لا يكون معذوراً لأنه يشوه كتب التراث ويفسدها ويقطع الطريق على المحققين المجيدين وعلى الكتب المحققة جيداً. ولكن هؤلاء الذين يقدمون على مثل هذا التحقيق التافه من المتاجرين بالتحقيق هم الجديرون باللوم على ما صنعوا.

وتبدو القضية أشد سوءًا حين نجد عالمًا فاضلاً أو محققًا أو دارسًا مجيداً لا يريد أن يسلك الجددَ ولا يرتقي الحَزْنَ في عمله، وإنما يؤثر الراحة والخفة في العمل والجهد مخاطراً باسمه وسمعته العلمية، ومضحيًا بمكانته بين المحققين والدارسين، فيهبط من رتبة العلماء المحققين إلى رتبة التجار الباحثين عن الكسب الرخيص. ويخرج كتبًا كان من الممكن أن تكون أفضل بكثير لو بذل جهداً محموداً في العناية بها.

وأحيانًا قد يكون لكتاب مخطوط عدد من النسخ التي تناثرت في أنحاء الأرض، وفي سبيل إخراج هذا الكتاب إخراجًا علميًا دقيقًا يجب على المحقق أن يجمع أكبرقدر ممكن من مصورات هذا الكتاب وأن يقابل بينها لاعتماد نص صحيح. ولكن بدلاً من بذل هذا الجهد، فإن المحقق قد يعمد إلى اعتماد نسخة أو نسختين من المخطوط ويعرض عن البقية، وقد تكونان سقيمتين أو حديثتين أو مملوءتين بالأخطاء والتصحيف أو ناقصتين، فيضرب إحداهما بالأخرى مخرجًا نصًا لا يخلو من التحريف والخطأ ويدفع بذلك العمل إلى المطبعة، ولا يخجل أن يَسِمَ هذا العمل بالعمل العلمي المحقق المدروس.

إن مثل هذا العمل لا يسيء إلى الكتاب والمحقق فحسب، بل إنه يسيء إلى العلماء المحققين المجيدين، فإن بعضًا منهم قد يصاب بالإحباط وهو يرى نفسه يبذل الجهد العظيم والوقت الطويل والتعب الكثير حتى يقدم نصًا جيداً مخدومًا ومدروسًا، بينما يسارع غيره إلى إخراج الكتاب بسرعة ودونما عناية كبيرة، ويقبل الناشرون الذين يؤثرون قلة النفقة وكثرة الربح على ما قدم من عمل هزيل، ويتركون العمل الجيد.

لقد قيل عن الدراهم: إن العملة السيئة تطرد العملة الجيدة من السوق، أي تخرجها من التعامل، وكذا الأمر فيما يتعلق بالمحققين والدارسين، فإن المتخففين منهم يقفون حجرة عثرة أمام المجيدين في وقت سيطرت فيه المفاهيم المادية على سبل التعامل بين الناس ودفعت بعض الناشرين إلى تقديم الربح على الجودة في العمل.

ويبلغ الأمر غاية السوء نحو كتب التراث حين تعمد إحدى دور النشر إلى طباعة كتاب نفيس من كتب التراث موكلة أمره إلى عامل المطبعة دون إعطاء الكتاب ما يستحقه من التصحيح للأخطاء المطبعية، فيأتي الكتاب مشوهًا محرفًا مملوءًا بالأخطاء التي تسيء إلى الكتاب إساءة كبيرة.

إن هناك عدداً هائلاً من كتب التراث قد طبع على هذه الطريقة فجاء نموذجًا حيًا للإساءة إلى الآباء والأجداد وإلى جهودهم، أولئك الآباء والأجداد العظام الذين كتبوا ذلك التراث الضخم على ضوء السراج والشمع بنور العيون وخلفوا أعظم ثروة فكرية في تاريخ البشرية.

الهوامش:

1 - كان ذلك في دكان المرحوم حسين الشويكي حيث تعرض الكتب أكداسًا وقد وضعت فوقها ورقة للمزايدة.

2 -نشير في هذا الجانب إلى أنه كان في مكتبة التكية المولوية مجموعة من الكتب المخطوطة العربية والفارسية، وحين صودرت أوقاف التكية المولوية أخذت هذه الكتب فيما أخذ ورميت في مستودعات، الله أعلم بها، ولم نعد نسمع عنها شيئًا.

3 - ص119-120 من كتاب منادمة الأطلال ومسامرة الخيال لابن بدران مراجعة محمد نزار الخاني ومحمد سعيد المولوي. وقد أشار الاستاذ الدكتور نورالدين حاطوم في مجلة التراث العربي إلى جهود الشيخ طاهر الجزائري في إنشاء المكتبة الظاهرية، وليس بين الخبرين تناقض، فكثيراً ما تتكاتف الجهود الشعبية مع الجهود الرسمية.

4 -صدرت هذه المجلة في الأعوام 1342-1346هـ ثم توقفت عن الصدور.

5 - كما هي الحال في كتاب الكسب لمحمد بن الحسن الشيباني فهو جزء من كتاب المبسوط للسرخسي.

6 - كما هي الحال في تفسير الطبري ومسند الإمام أحمد وإمتاع الأسماع للمقريزي، فقد صدرت أجزاء من هذه الكتب ولم تتم.

7 -كما هي الحال في كتاب زهر الآداب للحصري.

8 -كما صنع ناشرو كتاب: الرصف فيما ثبت للنبي صلى الله عليه وسلم من الوصف.

تجربتي في الكتابة للأطفال

نزار نجار

في سنوات الطفولة كانت الأمّ والعمّة تتباريان في رواية الأحاديث والحكايات، أجواء نديّة مفعمة بالأشياء التي تسرّ الخاطر، وتبهج النفس، أوقات سعيدة حافلة بالصور والمواقف، والمشاهد، ما كان أحلاها من صور، وما أبهجها من مشاهد، وما أدقّها من مواقف؛ والطفل الذي فتح عينيه على الحياة، يصغي، ويصغي، لقد انفتحت أمامه دنيا جديدة، دنيا مطرّزة بالألوان والأخيلة والمشاعر والأفكار، تتراكض الحكايات، تتراكض القصص، تتراكض الكلمات، كالخيول الأصيلة في ميدان سباق، تنفسح الحروف كالمدى، تتداح الرؤى غامضة مبهمة، لكنّها حلوة عذبة تُشيع في الطفولة الفرح، وتُحيل الحياة إلى ألوان الطيف، ..

تلك هي البداية، البداية في ذلك العالم المورّار بالحكايات، وتلك هي السنوات الأولى من التفتّح والانطلاق في دنيا الوجود، وها هي ذي حارة النحّاسين، حارتنا تلوّح بكفّها، تستقبلنا، تفتح ذراعيها لنا، وتهتف بأسمائنا.. تعالوا يا أولادي.. تعالوا أمسحْ على رؤوسكم، أصغ إلى أحاديثكم.. تلك حارتنا البيضاء، وتلك بيوتها التي تمتدّ من طرف السوق، السوق الطويل التجاري، إلى ساحة الموْقف، مئذنة جامع الأشقر تطلّ بمهابة، والأسطحة المتصلة تلتمع بالضياء، واليمام السابح في لجّة الفضاء، يواصل طيرانه المحموم في دائرة الحارة الصغيرة، لايبتعد عنها، ولا يتخطّاها، فأعشاشه آمنة، وهديله الشجيّ لازمة يومية يردّدها على مسامعنا، ونحن الأولاد نتبارى كلّ يوم في اختراع ألعابنا الصبيانية، لكنّنا لم نفكّر لحظة في التخريب والأذية، العصافير تسكن سقوف بيوتنا، تتناسل في الفصول، واليمام يفرخ فوق أسطحتنا، لم يفقد بيضة، ولم يخسر فرخاً أزغب، يهدل بأنغامه بين أيدينا، وأمهاتنا يردّدن دائماً:

ـ انتبهوا، لا تؤذوا حمامة، لقد ردّ الله بها عن الرسول صلى الله عليه وسلم وحماه بعشها في فم الغار!..

وتدور أعيننا، بحثاً عن يمامة سمراء جائعة، ننثر أمامها فتات خبزها، ونفرش لها بسط مودتنا ومحبّتنا، .. هذه دارنا الآمنة، هذه فسحتنا السماوية التي تستقبل الشمس والهواء، أريج الياسمين يتضوّع في شبابيكنا، وقد تدلّت أغصانه الناعمة، وتمايلت مع نسيمات الصباح، وأصص الفلّ الأبيض تتلاصق إلى الجدار تهب لنا كل يوم جديداً، نتأمل أزرارها في المساء، ونتبادل هداياها في الصباح، تقول أمي:

ـ خذ بعض الياسمين والفلّ إلى جيراننا..

واحمل طبقاً من أريج وعطر وعنبر، أحمل حبّاً مذاباً، تعالوا يا جيراننا، تعالوا يا أهل حارتنا، هذه هدايانا من الفلّ والياسمين، أمّي تصبّحكم بالخير.

هذه تحيّتها، تفتح فاطمة الباب، فاطمة في مثل عمري، ربّما هي في الثامنة، يلوح ثوبها الأزرق، بنجومه البيض، ـ صباح الخير.. صباح الخير.. أم فاطمة تملأ جيوبي بالجوز واللوز والزبيب، تمنحني ابتسامة ودوداً، تمسح على شعري، تحمّلني سلاماً، الحارة كلها تترنّح بعبير الأزهار، تتبادل المحبّة، وفي المواسم المتعاقبة تتناغم النداءات، تندغم الأصوات، الرجال يبكّرون إلى أعمالهم، والأمهات يبكرن في تأمين مؤونة بيوتهن، تتوزع حزم الملوخيّة على الجيران، تتزاحم الأكف في عصر البندورة، وصنع مربّى المشمش والسفرجل، البيوت خليّة نحل، وألوية الحبّ ترفرف في كل بيت، واليمام السابح في ملكوت الله ينطلق دورانه ولا يملّ.. تتقارب الرؤوس، تتشابك الأيدي، تلتقي العيون بالعيون، تتصافح الأكفّ، تهاجر القلوب إلى القلوب، تلتمع الخواطر، تتوهّج المشاعر، تتنامى الأحاسيس بالحبّ والرحمة، تسمو النفوس وتحلّق بعيداً.. بعيداً، تنطلق زغرودة هنا، ترتفع أخرى هناك، سميرة خُطبت لمحمود، زينب ستكون لعبدالله، ومحمدٌ قدّم لعائشة، دنيا ملوّنة حانية، تصّاعد الأناشيد إلى السماء، دنيا تضجُّ بالفرح، والحبّ، تتداخل الظلال والألوان، تتعانق الأفياء والأنداء.. لمسات ناعمة،

ومواقف صغيرة، ومشاهد شفيفة عذبة، وردة تُهدى، صحن صغير من أكلة يقدّم، زيارة خاطفة لمريض، تحية حارّة وسلام صادق، ابتسامة تُمنح، تهنئة من القلب في مناسبة فرح، كلمة محبّة لطفل، نصيحة مخلصة من كبير، مساعدة حانية في بيت، الأبواب مشرعة، والقلوب مفتوحة، وهذه هي حارتنا التي فيها درجت.. كان والدي صانع أحذية (إسكافيًا)، وفي كل مساء أنتظر عودته من الدكّان، أنتظر حكاياته، والنوم يداعب أجفاني، كان في جعبته دائمًا حكايات وقصص مدهشة، وكذلك أمّي وعمتي، وكنت مع إخوتي مشدودًا إلى هذا العالم المدهش، عالم الحكاية والقصّة، لذلك علق قلبي بها، فأحببت القصّة، أحسست أنها قريبة مني، منذ صغري وأنا أحتفل بها، أحتفي بهذا الفنّ الجميل، الذي جذبني إلى أحضانه، عالم من الثراء الإنساني، منبع من الخبرة والدهشة والمتعة، أفتح عيني على اتساعهما، في الحارة، والطريق، والسوق، والمدرسة، تتدافع الشخصيات بالمناكب، يتدفق الحوار، يتجسد العالم، يتشكل أمامي من جديد، أتنفس في المناخ الصحيح، أشمّ رائحة المكان، والأشياء، أثري تجربتي الإنسانية، أسعى في الزمان والمكان معًا، أطوي في صدري خبيئات الأيام الماضية، أستحضر عالم الطفولة، عالم البراءة والعذوبة، وأكتب قصصًا وحكايات للأطفال، هذا أنا في الماضي والحاضر والآتي، أرهف السمع، أصغي إلى وجيب القلب، أسدّد النظر في زوايا التاريخ القريب والبعيد، أقرأ وأكتب، وأشعر أن لا خلاص لي إلاّ بالكتابة، لا ملجأ لي إلاّ إلى القصة، كتبت قصصًا من التراث العربي والإسلامي، قصص البطولة للناشئين، قصص الفاتحين، غصت في كتب التاريخ، بحثت عن أبطال ما سمع بهم أحد، كانت لهم مواقف مشرقة، نقاط مضيئة رسمتها فوق الورق، أسماء مجهولة كشفت عنها، قدّمتها إلى الأطفال العرب، في سلسلة طويلة من القصص، عشرة أجزاء، ثم عشرة أجزاء أخرى، ثم توالت القصص، لقد استلهمت التاريخ في البداية، أخذت قصصي منه، ثم استلهمت الواقع الذي أعيشه، استحضرت عالمي الطفلي، ومنه انطلقت، كنّا نلتقط قصاصات الجرائد - في صغرنا - ونخلو إليها لنقرأها، كانت الكتب بين أيدينا قليلة، إلاّ من كتب المدرسة، وكان الواقع الذي نحياه أبلغ من الخيال، وأعمق، وأغنى، وأكثر إثارة، لذا جاءت القصص - بعدئذ - من الحياة والواقع، ولم أنس أن أركب مع الأطفال على أجنحة الخيال، لنمضي مع شخوص القصص وأحداثها، ونتنقل من مكان إلى مكان من دون حواجز أو حدود.

الأطفال يفتحون عيونهم على الحياة، فماذا يريدون؟.. إنهم في البداية يتعلّمون حمل الأقلام، ثم كتابة بعض الحروف والكلمات، يتعلمون التهجّي والقراءة، ويحاولون فهم الكلمات إلى الحدّ الذي يمكنهم عمرهم العقلي من ذلك، ثم بعدئذ ماذا يريدون؟

نحن نعرف أنّ الأطفال يريدون الكتاب، ونعني بهذا الكتاب هنا، القصّة، ولكنّهم بالطبع لايريدون القصّة غير المشوّقة، لايريدون القصّة المبتذلة طباعة وإخراجًا، شكلاً ومضمونًا، إنهم يريدون القصّة التي تثير اهتمامهم الطفولي، وتفتح أمامهم أبواب المغامرة والانطلاق في الحياة، وقد اعتمدت في تأليفي، على القصص التي تذكي روح المغامرة والبطولة والفداء، اعتمدت على القصص التي تحثّ على الكشف، والتحدّي، والانطلاق، مع تحرير قيم الصدق والخير والمحبّة والتعاون. وحبّ العمل والعلم، والأخلاق الرشيدة، والسلوك الطيّب، كان رائدي في هذه القصص التي كتبتها هو الصدق، لذلك انتصر الخير، وارتفعت هامة الحقّ، ورفرفت راية المحبّة والأمان، لم أكتب قصصًا مرعبة، لم أتحدّث عن المشعوذين والدجّالين والسحرة والعجائز، فأبطال قصصي أناس عاديون، يمارسون أعمالهم بهدوء واطمئنان، يعانون مصاعب العيش ومتاعب الحياة، ولكنّهم يتغلبون عليها بالصدق والمحبة وفعل الخير، كانت مواقفهم إيجابية، يستخدمون العقل والذكاء، ويستلهمون سيرة الرجال الأفذاذ، والحكماء الصّالحين، ويسيرون في طريقهم بثقة وهدوء وثبات، ولم أنس أن أكشف عن السلبيات، لم أنس أن أعرّي ما في الواقع من أخطاء وعيوب، حتى يتجنبها الطفل، ولئلا يكون ضحية لواقع فيه الصالح والطالح، فيه الأبيض والأسود، فيه الخير والشّر، لقد نبّهت في قصصي وحكاياتي على طرَفَي الحياة، وبذلك يتحقق التوازن، ويخرج الطفل من الصراع وهو أكثر قوة، وأشدّ تمرّسًا بفعل الخير وتحقيق الموقف الإيجابي.

الأطفال يريدون القصة التي تثير اهتمامهم الطفولي، وتفتح أمامهم أبواب المغامرة والانطلاق في الحياة

إنّ كثيرين من الآباء يظنّون أنّ دخول القصّة إلى البيت لتكون بين أيدي الأطفال هو من باب الترف، هكذا يظنّون، ولكنْ متى كانت الثقافة ترفًا؟ حتى لو توجّهت إلى الأطفال. متى كانت الثقافة ترفًا في حياة الناس، متى كانت الثقافة أمرًا هامشيًا في تكوين شخصية الفرد، أيّ فرد، أكان طفلاً صغيرًا في ملاعب الطفولة، أم رجلاً ناضجًا يصرّف الأمور ويدير شؤون الحياة.

ومؤسساتنا الثقافية بدأت تشهد اليوم اهتمامًا غير عادي بالأطفال، وهذا الفنّ الجميل، فنّ الطفل الصغير، فنّ أدب الأطفال ليس جديدًا في أدبنا العربي، لقد توارثناه في البداية مشافهة إذ لم يثبت في مصادرنا كتابة وتدوينًا، كانت النصوص القديمة على شكل أغانٍ للأطفال بغرض ترقيصهم، ثم بدأت هذه النصوص تظهر في أدبياتنا، شوقي في أشعاره الموجهّة إلى الأطفال، كامل كيلاني في قصصه المترجمة والموضوعة، محمد سعيد العريان في حكاياته وقد أصدر مجلّة سندباد، وهي أولى مجلات الأطفال في العالم العربي، وهكذا.. وعلى كل حال حتى أناشيد الأطفال لن تكون ناجحة ما لم تتحرّك الفكرة منها في إطار قصصي جميل (وقد انتبه إلى هذه النقطة أمير الشعراء أحمد شوقي) ثم أن تكون الفكرة في منتهى الشفافية والدقّة، وإلاّ فكيف يمكن أن ننمّي في الأطفال الأبرياء معاني الخير والإحساس بالجمال، والصدق والأمانة والدفاع عن الأوطان، إنّ الأطفال أثمن ما نمتلك من حطام الدنيا، فهم الحلقة الثمينة الغالية التي تتمم سلسلة الآباء والأجداد، ومن دونهم لا حياة متوالية ولا استمرار.. لذلك لابدّ من أن نفهم الأطفال ونعرف ما يحسّون به ونرى الصورة الصحيحة لهم قبل أن ندخل مملكتهم الطفلية، ونقدّم لهم أدبًا وفنًّا، ونقدّم شعرًا جميلاً وقصصًا أجمل، نقدّم لهم المتعة والفائدة، ونسهم في الثقافة الشاملة التي تبدأ منذ الصغر..

وإنّ ما نراه اليوم من كتب الأطفال وقصصهم لا يشكل قاعدة حقيقية في أدب الأطفال، وفي التوجه إليهم، أقول ذلك بأسف وحزن، ربّما بدأنا نفكّر بهذه القاعدة، بدلالة اهتمام اتحادات الكتّاب العرب، ووزارات الثقافة، والمؤسسات الرسمية والخاصة، وبعض دور النشر الأخرى، ومع هذا وذاك مازلنا نفتقد المنهج السليم في تقديم هذه الكتب ضمن توجّه واعٍ يخضع إلى خطّة مدروسة، يشرف عليها مختصّون بمجال الكتابة الإبداعية للأطفال العرب، وأقول بأسف أيضًا: إنّه - حتى اللغة العربية - وألحّ على هذه العبارة ذاتها، لا يتمّ عبرها تقديم هذه القصص التي بين أيدينا، بل إنّ الذين يشهرون أقلامهم للكتابة (تأليفًا وترجمة وإعدادًا واقتباسًا)

لايكتبون باللغة التي تناسب الأطفال ولايدركون على الأعمّ الأغلب، ما يلائم أطفالنا منها وما لا يلائمهم، وهنا يمكن أن نتحدّث - ولا حرج - عن الأخطاء الشائعة الكثيرة في القصص الموجّهة للأطفال، وقل مثل ذلك في إهمالنا للتراث العربي والإسلامي، وعدم الإفادة منه، واللهاث وراء ما يصدره الغرب إلينا، ومازالت حكايات السحر والشعوذة والخرافات تملأ أخيلة أطفالنا.

لقد اختلطت الأوراق بالفعل، فهناك من الكتّاب من يميل إلى التسطّح لا العمق، وهناك من يخلط بين العمق أو النظر إلى عالم الأطفال على أنه عالم ساذج ينبغي أن يقدّم له الطعام سائغًا دون جهد، وهناك من يلحّ على موضوع القيم دون مراعاة لما يثير وجدان النشء، ويطلق خيالهم، ويخاطب عقولهم. إنّ كثيرين من الكتّاب يستهينون بالأطفال ويستسهلون الكتابة لهم، ويهملون روح الطفولة، ولايراعون جماليات الخيال الطفلي في انتقاء زاوية الموقف أو المشهد أو الانطباع أو الفكرة، ولايهتمّون بما يوقظ الدهشة البريئة والمفاجأة بالإضافة إلى ضعف ما يقدّمون من معان مع تكرار في القيم والموضوعات، وبكلمة صريحة، هناك فوضى، وإذا كان لي أن أحدد أسبابها أذكر منها:

- غياب الكتّاب المتخصصين للأطفال، والكتابة للطفل تتطلب رؤية فكرية وفنيّة مع مراعاة المراحل الزمنية لنمو الطفل ومعرفة الحياة النفسية لديه.
- عدم وجود وحدة متكاملة في الكتابة الموجّهة للأطفال من كتّاب ورسامين وخطاطين ونقّاد ومتابعين ومراجعين (فريق عمل متكامل ومتخصص).
- ليست هناك مراجعة نقدية جادّة لكتب الأطفال التي تصدر، وهذه المراجعة النقدية المفقودة من شأنها أن تؤدي إلى الهبوط بسويّة الكتب الموجهة للأطفال، فتضيع الأهداف، وتتبدّد القيم، وتتشوّه المثل، ويتدنّى الذوق الجمالي، ويغيب الإحساس المرهف بروح الطفولة.

والواقع أننا بحاجة فعلاً إلى مراجعة أنفسنا، مراجعة طموحاتنا في أن يكون لنا أدب أطفال له خصوصيته، له منابعه الأصيلة، له كتّابه الجادّون المخلصون، الذين يحاكمون ضمائرهم قبل أن يخطّوا كلمة، وأدب الأطفال ليس لعبة ولا تسلية، ليس تجارة ولا شطارة، إنّما هو فنّ ومسؤولية.

لقد أمضيت زهاء عشرين عامًا وأنا أكتب للأطفال، لكنني مع ذلك مازلت أحبو، ومازلت أتعلم، وحين أعود إلى ما كتبته من قبل، أتمنى لو كان من الممكن أن أعيد كتابته من أول كلمة.



حِكَم من الحج

د. محمد بن سعد الشويعر

نعمة خصّ الله بها المسلمين فاستجابوا لها، بعد أن ابتعد عنها غيرهم فغيّروها عن مقصدها الحقيقيّ، ذلك هو الحج إلى بيت الله الحرام، الذي فرضه الله جلت قدرته منذ خلق آدم، أبا البشر، فحج، وحج بنوه من بعده. وحجهم هذا ماهو إلا امتثال لأمر الله، فقد حج بعدهم الأنبياء بدءًا بإبراهيم الذي أعاد بناء البيت، وموسى وعيسى وغيرهم عليهم السلام. وكل طائفة على وجه الأرض، قديمًا وحديثًا: صاحبة ديانة أو وثنية، لهم مقاصد يتّجهون إليها، وهي جميعها باطلة إلاّ ما أذن الله به، وهو الحج إلى بيت الله الحرام، في مكة المكرمة وفي أيام معلومات.

لقد بدّل أهل الكتاب الصلاة المفروضة عليهم بغيرها، والطهارة بغيرما ألزموا به، والحج بما يغاير الحج، والزكاة بما يسمى إنسانية أو عطفًا، والصوم بما هو بعيد عن شهر رمضان المفروض على الأمم... وهكذا دواليك. لأن الهوى استحوذ عليهم، والمعاندة لله ولرسله قد تسلّطت على أهوائهم، فاتّبعوا الشيطان واتخذوه وليًا فأبعدهم عن الحق، وأوقعهم في المهالك. ولذا كان صلى الله عليه وسلم يحذّر أمته من كثرة السؤال والتشدّد.

ولما قال النبي صلّى الله عليه وسلم في حجة الوداع: أيها الناس إن الله قد فرض الحج فحجوا. فقال رجل: أفي كل عام يارسول الله؟ فسكت عنه صلى الله عليه وسلم، ولم يجبه وإنما قال: أيها الناس إن الله قد فرض الحج فحجوا.. فأعاد الرجل في المرة الثانية والثالثة مثلما قال في الأولى: أفي كل عام يارسول الله، والجواب هو الجواب. في المرة الأولى.. أما في الثالثة، فأجابه الهادي البشير صلى الله عليه وسلم بقوله: لا.. ولو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم.

فكان هذا الجواب عمقًا نبويًا، ورحمة من الله بالناس، بأن أصبح الحج مرة واحدة في العمر، على الذكر والأنثى، ممن تتوافر فيه شروطه، ويستطيع الأداء من دون مانع شرعي؛ ولو كان الجميع يحجّون دفعة واحدة، فإن المسلمين سيحصل لهم أضرار كثيرة، علاوة على المشقّات التي تصيبهم، نتيجة تزاحمهم ومتاعبهم:-

فمن يرعى ديارهم وأملاكهم في رحلة الحج؟ ومن يحافظ على ممتلكاتهم في غيابهم؟ وماهي المواصلات التي تنقلهم جميعًا وفي آن واحد من ديارهم إلى الأماكن المقدسة ثم العودة لبلادهم؟ وأين المكان الذي يستوعبهم كلهم بعد ما بلغ عددهم ألف مليون أو يزيدون؟ وماهو الطعام والشراب الذي سيحفظ عليهم حياتهم من تحركهم وحتى عودتهم، وكيف يؤمن ذلك كله؟ إلى غير هذا من أمور كثيرة: صحيًا ونفسيًا، ومصلحيًا وأمنيًا، واقتصاديًا واجتماعيًا.

فقد تتعطل مصالح حياتهم، ويضعف شأنهم، وتكون الفرصة مواتية للعدوّ ليتغلّب عليهم، ويتسلط على ديار المسلمين ومقدّراتهم بسبب ذلك. ودين الإسلام يريد للمسلم أن يكون قويًا وغالبًا بغلبة هذا الدين. لكنها حكمة الله البالغة: في سمّو تعاليم الإسلام ويسرها، ورأفته بعباده عندما يكلفهم بأي أمر من أمور العبادات، أو بفرضه عليهم من الشرائع، بمراعاة قدرة النفس البشرية ومصالحها، لأن اليسر والسماحة في دين الإسلام في كل أمر، منهج تربوي وتعليمي، يراعي قدرة النفس، وحدود طاقتها، والعمل وفق ماتستطيع، ويعينها سبحانه في التغلّب على نزعات النفس وأهوائها. ألم يقل سبحانه: *لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها* وجاء معناها في كتاب الله خمس مرات (البقرة:٢٣٣،٢٨٦، الأنعام:١٥٢، الأعراف:٤٢، المؤمنون:٦٢).

فالحج، فضلاً عن كونه عبادة بدنية، استجابة لنداء إبراهيم الخليل عليه السلام بعدما أمره ربه أن يؤذن في الناس بالحج، ومع ما فيه من ارتباط وجدانيّ بالله، فإن فيه مصالح كثيرة للمسلمين فيما بينهم، تعارفًا وتفقدًا للأحوال فيما بينهم، ودراسة لمشكلاتهم، وقهرًا لأعدائهم، بإظهار القوة، وصحة في أبدانهم، وتذكرًا لإخوانهم الفقراء، مع الارتباط بالمصير بالكفن عند الموت، وبحشر الخلائق يوم القيامة.. ولذا جاء الأمر بعدم الرفث والفسوق والجدال في أثناء الحج، واختص الله منطقة الحرم بأمور لم تكن لغيره بالحرمة والتعظيم، فقال: *ومن يُرِدْ فيه بإلحاد بظلم نُذِقْهُ من عذاب أليم* الحج:٢٥. ولذا يجب ألا يُصرف الحج عن مهمته الأساسية وهي الارتباط بالله عبادة وعملاً، ويجب نبذ كل ما يخالف ذلك.

العنوان: مأزق في المعادلة
المؤلفة: الدكتورة خيرية السقاف
الناشر: مؤسسة اليمامة الصحفية ـ كتاب الرياض ـ العدد الثامن عشر. (165ص).

غلاف الكتاب

اختار القائمون على «كتاب الرياض» خمسًا وأربعين مقالة من كتابات الأديبة الدكتورة خيرية السقاف، ومما كانت تنشرها جريدة الرياض لها، على مدار سنوات متعددة.

ويبدو أن اختيار تلك المقالات جاء «من هنا وهناك عشوائيًا غير منسق» كما يقول سعيد الحميدين، مقدّم الكتاب. وكنا نتمنى لو وقع الاختيار على موضوعات بعينها، كأن يدرج كل موضوع تحت ركن مستقل ومحدد، وتحت مظلة تتسع لكثير من تلك المقالات.

جاءت مقالات هذا الكتاب مكثفة، بصياغتها الشعرية، وقوالبها الفنية، وقد تباينت وتعددت فيها الرؤى والأهداف والمناحي. ولهذا كانت الأديبة السقاف تقودنا مرة إلى دنيا الإلهام والإبداع حاملة معها النفحات المعطرة بالإشراقات الخيالية، والأحلام السرمدية.. وتقودنا مرة أخرى إلى واقع ثقافي زاخر بصنوف المعرفة، وقضايا الأدب والأدباء، والكتابة والكاتبين.

ومن هنا تعددت اتجاهات الكتابة الأدبية لدى السقاف، إذ بدت لنا مقالاتها وخواطرها متنافرة متجاذبة في آن واحد.. فقد تترجّح بين الحلم والواقع، فتتجه بعض مقالاتها، بل أكثرها، اتجاهًا فنيًا إبداعيًا، فيما يشع فيه من حدس، وتصور، وخيال، وفن، وقيم، ورؤى.. حين تستدرجها اللحظة الإبداعية، لتستوعب عالمًا كبيرًا زاخرًا بالرموز وأبعادها الفنية والشعرية، وإيحاءاتها الفكرية.

كما تتجه بعض مقالاتها الأخرى، وهي القليلة، اتجاهًا واقعيًا يلامس قضايا الأدب وشؤون الكتابة والكتّاب كما ذكرنا.

وإذا كانت خواطر الأديبة السقاف تخاطب فنيًا الفكر والوجدان، فإن ثمة شدًا يأخذنا إلى دنيا علوية مجنحة طائرة، وقد تحطّ بنا على واقع أرضي.. ولكن تظل رؤاها حالمة ومحلّقة؛ وإن تحتم لها أن تبرز فيها الملامح الأدبية والفكرية، فما أكثر أساليبها الفنية، وصياغتها التصويرية، التي تضمّ مختلف المفارقات و«الفانتازيا» كأن تقول: «يا سيدي! سقطت نبوءة الرحيل.. فاضت الخواطر. الليل يستحيل إلى نداء وحداء، وشيء مجهول يحشرج في الصدر. والنهار زوبعة مرفوضة التهجن لمشاعر الخوف والرهبة. فالرحلة معقوفة الأنامل..» ص 154.

وتظل الخاطرة مشرقة في أعماق الأديبة السقاف وآفاقها.. فتضيء لها سائر جوانبها النفسية والذهنية. فتقف عند تلك اللحظات التي ستتمحض عن ولادة تعبيرية، تصوغ فيها حالاتها الشعورية والخيالية. وقد تسعفها أدواتها الأسلوبية، فيتجاوب معها المتلقي؛ وقد تخونها الأداة أحيانًا، وإن هي أدّت ما عليها من فن التوصيل، حين تتبدّى في كتاباتها وسمة سديمية، تشوبها غُبرة من الغموض والغرابة. كقولها في مطلع خاطرتها «أحرف وحروف»:

«تبهرني كلمة عابرة تجنح في دخيلتي، وتعيد تشكيل إحساسي باللحظة، كما يُبهرني موقف فجائي لمبادرة اللحظة لمن تفاجئه اللحظة بدعوة موقف.. ويبهرني موقف التزام دومي لمن تفاجئه الحياة بضرورات تدعو لتغيير الموقف فلا يحدث.. المبادرة والرسوخ في اللحظة الفجائية وفي الالتزام الديمومي يبهراني، يجنحان في دخيلتي، ويشكلان سيرورة فكري في ربط بينهما، لايترك لحظة انفلات لما سواهما».

وربما أرادت الأديبة السقاف أن تعبر عن تلك الحالات الدفينة في نفسها، واللحظات الخاطفة في دنياها.. فتحاول أن تجمع كل مخزونها للموقف والهدف والفكرة والأمثلة في كتاباتها كثيرة، ولنقرأ مطالع خاطرتها (الصمت ينوء إغلاقًا ويفوق): «النبض: حشرجة.. أيها الصامت.. في المدى كانت إرهاصة العشق.. تورق في العرق.. تزهر في الأفق..». «الدقة: الهدهد يتأوه.. تسقط من بين منقاريه ورقة من شجرة خضراء قد يبست.. حملتها يد ترتجف.. تساقطت في حفيف قاس.. تناثرت الحروف في جزئيات الورقة.. لم تتكوّن الجملة.. ولم يفهم المعنى.. ولم تُبلّغ الرسالة..»

«الوصول: تنام».. من ينم اليوم لايدري مآبه.. اليقظة مرفوضة.. حشرجة.. تنبض في دقة.. قطرة الهدهد..».

على أن خواطر الأديبة السقاف تتشح بخصائص فن المقالة الحديثة، المختزلة لمواقف وأفكار تعالج فيه واقعًا اجتماعيًا وثقافيًا وأدبيًا.. فيه بعض العيوب.. وقد تتسرب في تعابيرها بعض الرموز التي تصلح في تجسيد حالتيها السلبية والإيجابية، ولكن تعرية الواقع الاجتماعي والأدبي والفكري كانت غاية شاخصة في عالمها التعبيري، وصارخة، من خلال تلك الكتابات النثرية التي جمعتها لنا بين دفتي هذا الكتاب..

وإن وجدت أنها تعرية فاضحة وكاشفة لمساوئ الأدباء والمؤلفين، حمّلت غيرها مسؤولية الفضح والكشف، فتنقل عنهم، مثل مقالها: «من المسؤول» الذي تبدؤه بقولها: «قال أحدهم»، ثم تمضي في كشفها عن أزمة الكتابة والكتب وغيرها من خلال ذاك القائل ونصوصه ورؤاها.

العنوان: الرياض العشق الأول
المؤلف: خالد بن محمد الخنين
دمشق.
ط1:1416هـ/1995م.(167ص)


غلاف الكتاب

تتفاوت درجة الحرارة الوجدانية لدى شعراء الاغتراب أو الغربة من شاعر لآخر، وهذا التفاوت يشخص في صورة التعبير عن مشاعر الحنين والشوق، والالتياع للوطن والأهل والأحبة.

وشاعرنا خالد بن محمد الخنين في ديوانه: «الرياض.. العشق الأول» أحد الشعراء الذين تستغرقهم معاناة الغربة عن الوطن، فتأتي تجربته الشعرية عن الحنين والشوق متوجة بظلال وألوان ومعان تشكل صياغات فنية من الشعر العربي الأصيل في معناه ومبناه؛ ولهذا يأتي حنينه إلى الوطن متميزاً.

وإذا كانت المملكة العربية السعودية وطنه الكبير ـ بسائر مناطقها وبقاعها ـ، فإن نجداً، وخصوصاً الرياض، يعني له العشق الأول في الحب والحنين والاشتياق. لذلك تعددت قصائده في التغني بجمالها وأمجادها. على أنه كان يضفي على ذاك الغناء لنجد و«الرياض» نفحات أخرى من الحب والشوق للأجزاء الأخرى من وطنه الكبير. ولهذا رأيناه في القصيدة الأولى: «الحاملون الشمس» وغيرها عاشقاً لوطنه السعودي، بدءاً بمكة المكرمة.. أرض القداسات وانتهاءً بنجد، وما يُمثله من رموز، بوصفه موئلاً للقبائل العربية القديمة الأصيلة من مضر وربيعة، وموطناً للرجال الأشاوس، وموقعاً للأحداث التاريخية، ومجمعاً للشعراء الذين لهجوا بالشعر في شتى أغراضه وفنونه. ولهذا كان شاعرنا الخنين يحزن لحزن نجد، ويفرح لفرحه، فيعبر عن تلك المشاعر من تألق حب الوطن تعبيراً أدبياً لايخلو من الجودة الفنية والصورة الشعرية.

وتتلون مسارات عشقه الوطني بأريج الحب الذي يتحسس، من خلاله، ذرات تراب الوطن، ونباتات أرضه. فإذا فاحت أزاهيرها وخزاماها بالعبير، فإن هذا العطر يفوح في أعماق مشاعره، إذ له منبتٌ أريجي في وجدانه وعواطفه وأحاسيسه. وإذا ظلت دائرة الحب الوطني لمختلف أنحاء مملكته متسعةً، فإن عشقه الوطني يظل منبثقاً من «الرياض» قلب المملكة، ولينداح ماراً بـ «الخرج»، فالشرق إلى «الدمام» فعودة إلى الغرب، فالجنوب، حيث «أبها»، ثم انبهار وانجذاب لأريج الأماكن المقدسة، ونفحات الوحي وقرآنه وسوره.

وتتوالى القصائد الوطنية لدى الخنين، في الحب والعشق والحنين: ولكنه يظل مشدوداً إلى نجد، وهو يتحسس عذوبة مناهله.. وكأنه يعيد سيرة غيره من شعراء العرب القدامى، وهم يفيضون القول في طيب ترابه، وجودة هوائه، وحسن نباته وفتنة بناته.. لدرجة التفاني من أجله؛ لأنه ملك عليه كل قلبه ومشاعره.. فقد عشقه بجنون. ومن العشق ما قتل؛ وربما تساوى لديه عشق المحبوبة وعشق نجد، لأن جمالها من جماله:

عذب المناهل من «نجد» مفاتنه
سبحان من خلق الإبداع أو وهبا
يوم انثنى بصميم الروح يشعلها
من رقة الحسن لم يطفئ بيَ اللهبا
ومايزال جنون العشق ينفحني
كما استثار هواكِ القلب والعصبا
وحين يقتلني عشقاً إليك ظمَا
أهفو إليك ندًى في الثغر منسكبا

فملهمته ونجد أصبحا كياناً واحداً، ولاسيما أنه يعيش الغربة بعيداً عنهما. ولكنه يبحث عما يطفئ التياعه وأشواقه وحنينه.. عسى أن يجد ما يخفف عنه ذاك الالتياع.. فكانت الشام، وخصوصاً دمشق بحسناواتها وحورها وبردى وما يثيره خير مطفئ لغلواء مشاعره ووجدانه:

يا شام يا قمر العشّاق يا حُلمًا
من جنة الخلد أرجاءً وطيبَ رُبى
أمرُّ بالحُور.. ما هذا الجمال وكم
يثير بي «بردى» من صبوة عجبا؟!

إذا مشين يضجّ الدربُ منتشيًا
وإن خطرن أمامي خلتهنّ ظِبا

ومن هنا كانت دمشق، التي استقر بضع سنوات فيها، عزاءه وسلوانه في غربته.. فنعم بربوعها، واستمتع بجمالها. وهذا ما جعله يعرّج من حين لآخر على تلك المدينة التي ألهمته شعراً آخر يوازي فيه حنينه وحبه لوطنه الأول وعشقه لملهمته الأولى. فقد وجدنا شاعرنا الخنين، ومن منطلق الحب والذكريات العذبة، يصوغ لنا شعراً يمور بالعشق والإعجاب، ويموج بالنقاء والعرفان، فأصبحت دمشق تعيش في أعماقه وهجاً وأصالة وجمالاً وفتنة وفنًا وأدبًا وعلمًا وتاريخًا وحضارة.

وكذلك فإن الخنين في عشقه الغزلي، يجد «الرياض» مكان الإلهام والإبداع الشعري، ولاسيما حين تكون فاتنته ساحرة بجمالها الروحي والحسي.، ومثيرة فيه دفين الوجد، ومخزون الوجدان، وعمق الأحاسيس ودقائقها، ودبيب المشاعر ورونقها، وتفصيل أجزائها.. فكان ضائعاً هائماً يبحث عن عالمها السحري وإيحاءاتها الوجدانية والشعورية والروحية في عالم الطبيعة ومخلوقاتها الجميلة الرائعة من كائنات حية وجامدة.. ولم تستوعب غير قوالب الشعر الحر الذي يجره إلى صياغات فنية دقيقة؛ تفصح عن كل الدفين الشعري والبوح الوجداني. فبدا لنا شاعرنا غزليًا عميقًا، ومشعًا في رومانسيته المتألقة الجذابة والشاعرية الوجدانية المستحبة:

قريبًا من حدود البال
وجهك من خيالي
قريبًا من دمي.. أقرب
وهذا الشَّعرُ.. شلال على الكتفين
والثغر الندي من الشذى أعذب
وهذي النظرة السمراء أشهى ما تمنيت
وأشهى ما تصورتُ
وأشهى ما أضاء على الذُّرا كوكب
أفتش عنك في عشب السفوح
وفي همس الفراشات الحزينة للمصابيح
أفتش عنك في شجر العرار وفي الخزامى
أفتش في الأراك وهمسة الطير
أفتش عنك في علني.. وفي سري
أفتش عنك من أرض.. إلى أرضِ
أفتش عنك بين النبضِ والنبضِ.


إبداع صحفي جديد
صباح كل سبت
أنتم على موعد مع
مجلة



متحف التقاليد الشعبية في تدمر

هشام عدرة

قبل قرابة أربع سنوات، وتحديداً في شهر أبريل (نيسان) من عام 1992م، ومع الفعاليات المرافقة للندوة الآثارية العالمية «تدمر وطريق الحرير» التي أقيمت في رحاب مدينة تدمر الأثرية السورية الشهيرة، كان هناك حدث مهم آخر وهو افتتاح «متحف التقاليد الشعبية» في مدينة تدمر، وذلك بعد سنوات متعددة من العمل الدؤوب والمتواصل من قبل المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية، ليخرج هذا المتحف، قطعة نادرة، ودرّة جميلة، أمام الزائرين والسائحين، وليقدم قراءة دقيقة مشوّقة لحكاية التقاليد والعادات الشعبية، ليس في تدمر الشهيرة فحسب، وإنما في كل أنحاء البادية السورية.

لايعرف بالضبط التاريخ الدقيق لبناء المتحف، ولكن بشكل تقريبي يمكن إرجاعه للربع الأخير من القرن التاسع عشر.. وقد كان مقراً للقائمقام التركي في تدمر، وفي أثناء الانتداب الفرنسي على سورية، أدخلت بعض التعديلات على البناء واستعمل سجنًا، وقد أهمل ولفّه النسيان بعد خروج الاستعمار الفرنسي من سورية، وأخذت جدرانه بالتصدع والانهيار، وأصبح بعد ذلك مجرد أطلال وخربة لاتعنيان للناظر شيئًا حتى جاء عام 1983م حين قررت المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية الحفاظ على النموذج الخاص من البناء لتدمر، ووقع الاختيار على هذا البناء ليكون الممثل لهذا النموذج، فباشرت أعمال الترميم التي استمرت حتى نيسان / أبريل 1992م إذ تم افتتاحه متحفًا للتقاليد الشعبية، ويمكن القول: إن المتحف بيت شرقي بكل معنى الكلمة، حيث نجد الباحة السماوية التي تتوزع الغرف حولها، ونجد التناظر في الأواوين والشرفات والقاعات.. ولكن ما هي أقسام المتحف وقاعاته؟.

قاعة صناعة البسط:

في القاعة الأولى من المتحف، نشاهد كيفية صناعة البسط، فقد كان في كل بيت من بيوت تدمر تقريبًا نول لصناعة البسط، وهي صناعة يدوية بحتة، تمر بالمراحل التالية: (أ) غسل الصوف المراد نسجه. (ب) غزل الصوف. (ج) صباغة الصوف بألوان مختلفة، حسب الألوان اللازمة أو المختارة، ويغلب عليها عادة اللون الأحمر بطبقاته المتعددة والمختلفة.. ويمكن مشاهدة مراحل الصناعة هذه في قاعة البسط، كما تشاهد بعض النماذج الجاهزة للبسط في القاعة وموزعة في بقية أرجاء المتحف.

قاعة الحُليّ:

وتعرض في هذه القاعة نماذج من الحليّ التي تستعمل في تدمر والبادية السورية، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: الأطواق، الأقراط، المحازم، الخلاخيل، الأساور، وأغلبية هذه الحلي عمومًا في البادية تصنع من الفضة، كما توجد نماذج من الحلي مصنوعة من الذهب وخاصة الخواتم، والثريا، وهي عبارة عن ثلاثة نقود ذهبية مثبتة بعضها مع بعض وتستعملها النساء لتزيين الجبين.

الخيمة البدوية:

وقد بنيت في الباحة السماوية للمتحف، والخيمة مصنوعة من شعر الماعز، وهذا النموذج هو البيت الشتوي للبدوي، بينما يوجد نموذج آخر يمثل البيت الصيفي وهو لايختلف من حيث التفاصيل كثيراً عن البيت الشتوي ما عدا مادة الصنع، إذ إنّ الخيمة الصيفية مصنوعة من القطن..

وبشكل عام فإن البيت البدوي (الخيمة) يُقسم ثلاثة أقسام : القسم الأول وهو (المضافة): وفي هذا القسم يستقبل صاحب البيت الضيوف، ويقوم بتحضير القهوة العربية ليقدمها لضيوفه، والسهرات أيضًا تقام في المضافة، حيث يتناقش الرجال في أمور القبيلة في أثناء اجتماعهم في المضافة. وكانت تتلى القصائد على آلة الرَّباب في أمسيات الفرح والسرور الخالية من المشكلات والهموم. أما القسم الثاني فهو (المحرم): وهذا القسم يستعمل للنوم وهو قسم خاص بالنساء ولايجوز لأي شخص غريب الدخول إلى هذا القسم. أما القسم الثالث فهو (المطبخ): وهو المكان الذي يعد فيه الطعام وكل ما يلزم الحياة اليومية.

قاعة الجمال (الإبل):

تعرض في هذه القاعة ثلاثة أنواع من الجمال وذلك حسب وظيفتها، وهي:

(أ) جمل مخصص لقائد القافلة.

(ب) جمل عليه هودج ويستعمل في احتفالات الزواج، حيث تجلس العروس داخل الهودج محمولة على



جهاز العروس في البادية



المضافة في البيت التدمري



جمل، يرافقها المشاركون في حفل الزفاف من خيمة أهلها إلى خيمة العريس، وهم يغنون ويرقصون تلك الرقصات التي مازالت، ولو على نطاق ضيق، حتى الآن في البادية السورية.

(ج) جمل عليه هودج مصغر (القن)؛ ويستعمل لتأمين الظل للأشخاص المسنين والمرضى، وإلى جانب الجمال تعرض في هذه القاعة نماذج من الأحذية البدوية والساحات (الساحة عبارة عن سجادة تستخدم لفرش أرض الخيمة).

قاعة البيت التدمري:

ويعرض في هذه القاعة نموذج لبيت من بيوت أهالي تدمر بأقسامه المختلفة وما كان يضمه البيت التدمري من الموروثات التقليدية (فولكلورية)، وهو يختلف عن الخيمة البدوية التي يستخدمها سكان البادية السورية، أما هنا فهذا البيت وأقسامه يستخدمه أهالي مدينة تدمر، ويقسم أربعة أقسام هي:

المضافة: حيث يستقبل صاحب البيت الضيوف في هذه الغرفة ويقدم لهم القهوة، ويجتمع رجالات البلدة في هذه المضافة يتناقشون في أمور الحياة اليومية، وغالبًا ما يتلو بعضهم على الحضور بعضًا من القصص والأمثال الشعبية، وقد يلعب بعضهم (عندما يكون العدد قليلاً: اثنين أو ثلاثة) بالمنقلة، وهي لعبة شعبية مازال بعض الرجال المسنين يلعبون بها حتى الآن.

قاعة الإبل

غرفة العروس: وهي غرفة نوم يعرض فيها صندوق من الخشب المزين بالصدف، حيث يجب على كل عروس أن تجلب معها ضمن جهازها هذا الصندوق لحفظ الملابس والأشياء الخاصة بها (وتحل محل الخزانة في أيامنا الحالية) كما يوجد في هذه القاعة عدة رفوف تسمى (كَتَابي ومفردها كتبية) توضع عليها الأدوات المنزلية التي تستعمل في الحياة اليومية.

المستودع (بيت المونة): وتحفظ في هذا القسم المؤونة اللازمة لكل فصل من فصول السنة، حيث لكل فصل مؤونته الخاصة، وتحفظ المؤن على الشكل التالي: المواد السائلة (كالسمن والزيت والعسل والدبس وغيرها) تحفظ في جرار من الفخار. بينما تحفظ المواد غير السائلة كالقمح والدقيق مثلاً في خزانات مبنية من الطين بشكل ملاصق للجدار، وهذه الخزانات لها فوهة للتعبئة من الأعلى. ولها فوهة للتفريغ من الأسفل.

المطبخ: وفي هذا القسم يتم تحضير الطعام على المواقد، كما يوجد تنور لصنع الخبز، وتوجد أيضًا بعض الأدوات اللازمة لعملية الطبخ من ملاعق كبيرة (كفاكير) وقدور مصنوعة من النحاس وهي بمقاسات مختلفة.

قاعة الفلاح:

وهي مخصصة لعرض الأدوات اللازمة للفلاحة والزراعة، ومنها المحراث والنورج كما تعرض في القاعة نفسها بعض المنتجات الزراعية التي تشتهر بها تدمر وهي: القمح ـ الشعير ـ الذرة ـ الزيتون ـ القطن وغيرها..

قاعة الصناعات اليدوية

ويعرض في هذه القاعة تمثال لسيدة تدمرية تقوم بصناعة السلال والأطباق من أوراق النخيل، وتزين هذه الأطباق والسلال بالألوان التي تنتقيها السيدة حسب ذوقها الخاص، كما يوجد في القاعة رجل يصنع الأحذية التدمرية (الشواريخ)، وقد كانت صناعة الأحذية تعتمد على الجلد الذي حلّت محله الآن المواد البلاستيكية.

هذه هي القاعات الأرضية لمتحف التقاليد الشعبية في تدمر، أما الطابق العلوي فنجد فيه قاعتين، الأولى: تعرض فيها نماذج من الألبسة المستخدمة في تدمر، ويغلب عليها لباس النساء الفني بالمطرزات التي تعبر عن نزعة فنية وذوق رفيع، وكما في كل البلاد العربية، فإن اللباس في تدمر



صناعة الأحذية

يتغير بتغير المناسبة، فللعرس لباسه وألوانه، وللحزن لباسه وألوانه، ولكل مناسبة اجتماعية لباسها الخاص. أما القاعة الثانية فتعرض فيها نماذج من ألبسة البدو والأسلحة التي يستخدمونها.

المتحف وحفاظه على تراث البادية

ويقول السيد أحمد عبيد طه مدير متحف التقاليد الشعبية بتدمر: لقد نهض هذا المتحف بالحفاظ على التراث الشعبي والصناعات اليدوية والعادات والتقاليد الشعبية في البادية السورية. وحمايته من الاندثار ليظل شاهداً على الغنى والتنوع في التراث الحضاري لبلادنا، وكما أننا نلاحظ الإعجاب الكبير بعيون الوفود السياحية التي تأتينا بالمئات كل يوم لتشاهد هذا الإرث الفني من تراثنا، فتعود إلى بلادها مشدوهة بما شاهدت ورأت من مفردات هذا التراث الهائل.

جولة مع الموروثات والعادات في البادية السورية

بعد جولتنا السابقة في متحف التقاليد الشعبية بتدمر، التي تشكل قلب البادية السورية، وعروستها الرائعة، لابد من تعرّف بعض الموروثات الشعبية والعادات والتقاليد التي يشتهر بها سكان البادية السورية، وأصبحت جزءاً من التراث الشعبي. إن أعراف سكان البادية وعاداتهم وتقاليدهم أكثر من أن تحصى، ولكن يمكن القول: إن لهؤلاء عادات بعضها انتقل بالتسلسل من الآباء إلى الأحفاد، وحوفظ عليها كما لو كانت شرعة لايصح الإخلال بها، وبعضها نشأ بحكم الضرورة القاهرة من شظف العيش وقساوة الحياة في البادية. ومن أشهر العادات التي تميز أهل البادية: الكرم؛ ويتجلى ذلك في قرى الضيف الذي كان ولايزال واجباً على المضيف موسراً كان أم معسراً. وللضيافة لدى البداوة قاعدة ثابتة يتوارثها الخلف عن السلف. فاحترام الضيف، وحمايته، وحقها ثلاثة أيام، وحقوق الضيافة ثلاثة أيام أيضاً. هذا وتقضي قواعد الضيافة المتعارف عليها بين البدو أن يمتنع الضيف عن الانتقال من منزل مضيفه إلى منزل آخر ولو دعي إلى ذلك، فتبديل البيت لايجوز في تقاليد سكان البادية.

كما أن المضيف لايجوز له أن يسأل ضيفه عن اسمه وعشيرته أو عن السبب في مجيئه قبل أن يقدم له الطعام. ورب البيت مسؤول عن راحة ضيفه وعن قراه ومنامه وردع أعدائه عنه وهو مكلف بصيانة حقوقه، ولايجوز للمضيف أن ينتقم من ضيفه مادام في بيته حتى ولو كان بينهما ثأر.

كذلك من التقاليد والشمائل الشعبية في البادية: الإيثار والجرأة والحياء والصبر والمروءة والأمانة والوفاء والعفو والنجدة والشجاعة.

عادات الأفراح الشعبية

وللأفراح في البادية عادات وتقاليد وأغان خاصة بها توارثتها الأجيال. وهذه الأفراح تشمل: الخطبة ـ الجهاز (أي تجهيز العروس بما يلزم من الثياب والأثاث) ـ الحنّة أو الخضاب ـ النقلة (أي انتقال العروس الأنثى إلى بيت الزوجية) وتشمل أغاني وأهازيج متوارثة تبدأ من النزول عند أهل الفتاة، ومن ثم تشجيع الفتاة على النهوض من مرتبتها وتشجيعها على ركوب الجمل وحثّ الجمل على النهوض بحمله الجميل والعودة. وأغنية تحث أم العريس على استقبال كنتها المرتقبة.

وهناك أفراح الولادة وخاصة المولود الذكر، والختان وأفراح «الختمية» عندما يختم الولد قراءة القرآن الكريم؛ أي ينتهي من دراسته على يد «الشيخ أو الخطيب أو المطاوع»، وأفراح الزيارات للأماكن المقدسة والعودة من الحج، وأفراح



قسم المطبخ في المتحف



مخبز تقليدي



من الألبسة التقليدية للمرأة

الشفاء من المرض، وأفراح «الغيث» استدرار المطر عند انحباسه، وغيرها من الأفراح التي لها تقاليد وأغان خاصة بها لدى سكان البادية.

عادات شرب القهوة

إن القهوة محببة إلى سكان البادية ولايطيب لهم العيش من دون تناولها وارتشافها، وتكاد تكون مشروب البدوي الوحيد الذي يغنيه عن كل مشروب، وهي عنده مهبط طربه وإلهامه ومبددة همومه وأحزانه، ولها عنده مقام رفيع ولا يكاد يخلو منها بيت من بيوت البدو. وتطبخ بعد حمص حبوبها وسحقها في دلال من النحاس ويمزج معها نوع من البهار المعروف بالهال. ولتقديم وشرب القهوة عادات وتقاليد وآداب لدى سكان البادية لايمكن إغفالها مطلقًا، وهي: لاتدور القهوة دون تبهير وتهييل - يجلس إليها كبير القوم أو وكيله - تدار القهوة باتجاه يمين الساقي - لصب القهوة يقف صاحبها والدلة في يسراه والفنجان في يمناه - على صاحب القهوة أن يشرب الفنجان الأول - يقف الساقي بمحاذاة الشارب ثم يصب له فنجانه، ويكون الصب على مرأى منه بحركة تبدأ من حرف الفنجان، ثم تعلو مسافة مناسبة، ثم تعود شفة الدلة لتقرع ثغر الفنجان. لكمية القهوة في الفنجان حدود يجب ألا تتعداها، والفنجان المترع بالقهوة يعني الشحناء والبغضاء. يظلّ الساقي يصب القهوة للشارب فنجانًا تلو الآخر إلى أن يهز الشارب الفنجان، فإذا تعدى الحدود المعروفة، وهي من اثنين حتى ثلاثة، عدّ ذلك تحديًا. الامتناع عن شرب القهوة يعني الخصام. إذا قال الشارب عند احتسائه القهوة: «هذا فنجان فلان» يعني أنه سيتكلف بقتله. إذا تناول الشارب الفنجان من صاحب القهوة وسكبه على الأرض، كان ذلك تحديًا وعداوة. إذا شرب امرؤ القهوة وشرب عقبها مباشرة الماء دلّ فعله على ذم صاحب القهوة، وينجم عن ذلك خصام وتقاض. إذا صب صاحب القهوة فنجانًا لأحد جلسائه ثم نقله لآخر كان ذلك احتقارًا وانتقاصًا من قدره. إذا (خصّ ثم نصّ) أي خصص فنجانًا لأحد الجلوس من دون ترتيب الدور اليميني دلّ بذلك على سيادة هذا الرجل وارتفاعه على الحضور. جودة صنع القهوة وإتقانها يدلان على أصالة صاحبها. للمعاميل (أي أواني القهوة) نظام في وضعها إلى جانب النار فمن شذّ عن ذلك غُمزَ جانبه. لايجوز عرض القهوة الفاسدة على الضيوف، ولايجوز غسل الفنجان بعد شُرب الضيف مباشرة، ولايجوز لصاحب القهوة أن يصب القهوة ويرسلها مع غيره، ولايجوز إبداء الرأي في القهوة سلبًا أو إيجابًا.

عادات الطعام وتناوله

إن طعام سكان البادية يعطينا صورة صادقة عن نمط معيشتهم، فطعامهم كان ولايزال بسيطًا في مظهره بعيدًا عن التعقيد في مادته وأدواته. فالغذاء الأساسي للبدو هو الألبان ومشتقاتها من الزبدة واللبن الرائب والسمن والجبن والقريشة وغيرها، كما يأتدمون التمر والقمر الدين والزيت والزعتر، أو أنهم يقومون بطبخ بعض الأطعمة وقوامها كلها السمن والدقيق واللحم والبرغل، والطعام المفضل لديهم الثريد، فهو كما يقولون أمير الطعام، كما يأكلون مما تصيده أيديهم من حجل وقطا ودُرّاج ووعول وظباء وضباب وحبناء، وأرانب وغيرها. ومن آداب المائدة في البادية أن النساء لا يأكلن مع الرجال، ومن العيوب العظيمة أن تأكل المرأة مع زوجها أو الأم مع أولادها الذكور الكبار. أما الأطفال الصغار فيأكلون مع أبيهم أو أمهم، ولكن إذا كبرت البنات انفصلن في الأكل عن أبيهن، وصرن يأكلن مع أمهن فقط.

عادات اللباس في البادية

إن ثياب سكان البادية بسيطة.. تلائم في بساطتها البيئة البدوية التي بلغت أبعد حد في البساطة والبعد عن التعقيد، كما أنها تتلاءم مع ظروف الحياة في البادية ومتطلباتها. ويتألف لباس الرجال عمومًا من ثوبين فضفاضين واسعين طويلين طولاً يبلغ عقبي الرجل، والثوبان مفتوحا الصدر واسعا الأردان، وفوق الثوبين يضع الرجل على كتفيه العباءة ويسمونها - مزوية - هذا في فصل الصيف، أما في الشتاء فيلبسون الفراء المصنوعة من جلد الخراف الصغيرة، ويغطي الرأس بالشملة والعقال المصنوع من شعر الماعز، أما لباس القدم فيكون عادة من



صنف النعال السهلة اللبس والسهلة الخلع أي من النوع الذي يسمى - الكلاش - والبدوي مولع أيضًا بحمل السلاح ووضع - الجنايد - على صدره. والجنايد هي الأحزمة الجلدية التي تحتوي على جعب صغيرة لوضع الرصاص فيها. أما لباس النساء: فيكون عادة نوعًا من الجلباب المصنوع من القطن الملون والمزهر، وتلبس الفتيات الدراعة أو الدامر المصنوع من الجوخ، ويضعن فوق رؤوسهنّ المقرونة وهي شملة يشدُدْنها بعصائب من الحرير الملون. كما يلبسن في أقدامهن (الزربول) وهي جزمة من الجلد الأصفر في أسفلها حدائد على شكل نعل الفرس يخرجن بهذه الحدائد صوتًا خاصًا عند المسير.

غيض من فيض من عادات وتقاليد وموروثات شعبية.

وأخيرًا، وبعد هذه الجولة المختصرة مع تلك العادات والتقاليد الشعبية المتوارثة في البادية السورية، ومع الموروثات الشعبية التي حفظها متحف تدمر للتقاليد الشعبية، الذي أضيف بوصفه معلمًا جديدًا من معالم مدينة تدمر الأثرية الشهيرة بمعالمها وأوابدها وقاماتها الأثرية الخالدة.

لقد فعل المعنيون في مديرية الآثار والمتاحف السورية خيرًا، وقدّموا خدمة عظيمة للحضارة والتراث، عندما خصصوا متحفًا ليحفظ الموروثات الشعبية والتقاليد المتوارثة في البادية الغنية بهذه العادات والتقاليد والموروثات.

مراجع ومصادر

1- جولة قام بها كاتب الاستطلاع في مدينة تدمر ومتحف التقاليد الشعبية فيها وفي بعض مناطق البادية السورية.
2- جريدة العروبة - العدد 8518 وتاريخ 1993/4/22م.
3- كتاب الأغنية الشعبية - للمؤلف إبراهيم فاضل - وزارة الثقافة - دمشق 1980م.

الإمارات

تاريخ سجلته أدوات التصوير

كامل يوسف حسين

تشهد دولة الإمارات العربية المتحدة، شأنها شأن الدول العربية الأخرى في منطقة الخليج، حركة تغير واسعة النطاق، تشمل شتى جوانب الحياة، وانتقالاً واسع المدى وعميق الغور من البنى والمؤسسات وطريقة الحياة التقليدية، إلى أسلوب الحياة العصري، بما فيه من سرعة وإيقاع لاهث واستعانة بأكثر تقنيات العصر وأجهزته وأساليبه وأدوات اتصاله حداثة.

وفي هذا الإطار حققت الإمارات إنجازات تشكل رصيدًا هائلاً على كل الأصعدة، فهي الآن بحسب إحصاءات الأمم المتحدة من الدولة العربية الأولى في معدل تعليم الإناث، وفي الاستعانة بالحاسوب في مجالات العمل المختلفة، وتضم أرضها العديد من المعالم المشهورة، فميناء جبل علي، الواقع قرب مدينة دبي، على سبيل المثال، من أكبر الموانئ التي شقها الإنسان، ويكفي لتصور أبعاده الهائلة أن نشير إلى أن بعض الكتاب يرى أنه يحتل المرتبة الثانية، بعد سور الصين العظيم، وأنه من الملامح الصناعية البارزة التي يراها رواد الفضاء من خارج الكرة الأرضية على سطحها.

ولكن في غمار عملية التحديث الهائلة تلك، تتراجع بعض ملامح القديم، وتتداعى إلى الاندياح في النسيان بعض الصور والذكريات والأحداث والوجوه والملامح والفنون والآداب وألوان النشاط التي يتعين التمسك بها بمزيد من الاعتزاز، والعمل على الحفاظ عليها بوصفها ذاكرة حية، وبوصفها ملك الأجيال الجديدة وذخيرتها الحقيقية في ترسيخ هويتها. ومن هنا، تأتي أهمية ما سجله بعض الرحالة الذين مروا بأرض الإمارات، أو أقاموا فيها في مراحل تاريخية مختلفة، وسجلوا مارأوه، سواء بالكلمة أم بالصورة، أم بالاثنين معًا.

ومرور الرحالة بأرض منطقة الخليج بعامة، والإمارات بصفة خاصة، ليست مجرد حدث عارض أو نادر، بل هناك سجل تاريخي طويل وحافل بمثل هذه الرحلات، ربما ابتداء من بعض البعوث التي تزامنت مع انطلاق جيوش الإسكندر وقواده، في طريقهم إلى قلب الشرق، ومرورًا بالرحالة العربي العظيم ابن بطوطة، الذي سجل ملامح زيارته للمنطقة وخاصة سلطنة عمان، ثم زيارته لمنطقة السبخة بأرض دبي، ولم يفته بوصفه عاشقًا حقيقيًا للغة العربية وتجلياتها الكثيرة أن يلاحظ ما درج عليه قسم من أبناء الإمارات في عاميتهم من استخدام كلمة «لا» بعد الفعل كأسلوب للاستفهام، كما في قولهم: «تأكل لا؟ أو تشرب لا؟».

وإلى جوار هذا السجل التاريخي القديم، هناك العديد من الرحالة الغربيين الذين مروا بأرض الإمارات، أو أقاموا فيها طويلاً. وهم يتميزون بأنهم قد ضموا إلى التقارير المفصلة واليوميات الضافية عنصر الصورة، وفي كثير من الأحيان شَكَّلَ التصوير نوعًا من الذاكرة الحية والمتكاملة على نحو مدهش.

وإذا كان سجل زيارات الرحالة ويلفرد ثيسجر - الذي أطلق عليه أبناء الإمارات اسم مبارك بن لندن - يضم رصدًا بالكلمة والصورة لعبوره







الإمارات بين الأمس واليوم

صحراء الربع الخالي بالجمال مرتين، قبيل انتصاف القرن العشرين، ولقائه الشخصيات البارزة في الإمارات، ومروره بواحاتها وموانئها وصحاريها، وتسجيله بالصورة - باستخدام اللونين الأبيض والأسود - أجمل المعالم التي رآها في تلك المرحلة، بحيث تحولت مجموعته، في نهاية المطاف، إلى كنز فني حقيقي، فإن تسجيل الرحالة رونالد كودري هذه المعالم، وملامح الحياة الاقتصادية والاجتماعية لايمكن إلا أن يوصف بأنه مذهل، فهذا الرحالة البريطاني إلى جوار يومياته الضافية والدقيقة، قد التقط مايزيد على مئة ألف صورة في المنطقة، باللونين الأبيض والأسود وكذلك بالألوان، ومايزال الكثير منها باقيًا في حالة جيدة حتى اليوم.

وإذا كانت المملكة العربية السعودية وسلطنة عمان سباقتين في جهودهما للحفاظ على تراث المنطقة، بما في ذلك نشر المناسب، من كتب، ومجموعات صور ولوحات الرحالة الغربيين، فإن الإمارات قد بدأت تخطو خطوات في هذا الاتجاه، فقد أصدرت سلسلة «حافظة الصور» التي تضم جانبًا من صور الرحالة رونالد كودري، كما أصدرت الطبعة الشرق أوسطية من أبرز كتب ثيسجر، إلى جانب بعض الجهود التوثيقية المهمة الأخرى المندرجة في هذا الإطار.

ولئن كان هناك مايؤسف عليه حقًا فهو أن هذا الجهد المتميز لم تبادر به جهات رسمية، كوزارة الإعلام والثقافة، أو المجمع الثقافي بأبوظبي أو ندوة الثقافة والعلوم بدبي، أو دائرة الثقافة والإعلام بالشارقة، وإنما بادرت به دور نشر خاصة، الأمر الذي انعكس، في نهاية المطاف، في صورة ارتفاع أسعار الإصدارات التي تضم هذه المواد. ومع ذلك فإن الأمر مازال في نطاق مايمكن استدراكه، أي يمكن لهذه الجهات الرسمية أن تسارع بالأخذ بزمام المبادرة وإصدار المزيد من الأعمال ومجموعات الصور التي تعكس ملامح شتى من حياة الإمارات في مرحلة ماقبل النفط.

آخر المستكشفين العظام

وقد يكون في مقدمة المهام التي يتعين على هذه الجهات التصدي لها الحصول على نسخة من (أرشيف) ثيسجر، الذي يضم مخطوطاته وكتبه وسلبيات صوره، والذي تبرع به الرحالة لجامعة أكسفورد.

والواقع أنه إذا كان هناك من يستحق لقب «آخر المستكشفين البريطانيين العظام» فإنه لن يكون إلا ويلفرد ثيسجر، الذي حاز أرفع


الشيخ راشد بن سعيد خلال رحلة صيد بالصقور عند مشارف دبي

جوائز الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية والعديد من الجوائز العالمية المرموقة. وقد تأثر الرجل بعمق في أثناء جولاته في أرجاء شبه الجزيرة العربية بأبناء البوادي العريقة الذين لا يتردد في أن يقول عنهم إنهم «شعب متميز تمامًا، والسنوات الخمس التي قضيتها معهم كانت الأكثر أهمية في حياتي. ولقد شعرت بأنني كنت محظوظًا للغاية، إذ تعرفت إليهم، حيث شكَّل هذا جزءًا من ثقافتي، فالبدو يمتلكون مزية النبل التي لم أجدها في مكان آخر. وهي نادرة في مجتمعي، لكنها عامة بين البدو، ولقد اكتسبوا بحق شهرة كبيرة بسبب جودهم الفائق وحسن ضيافتهم».

وفي مقابلة مع ثيسجر خيِّل


الشيخ شخبوط بن سلطان بن زايد حاكم أبو ظبي(١٩٢٨-١٩٦٦م)

إليَّ خلالها أنها الأخيرة التي يجريها معه صحافي عربي، حيث أن الرجل ليس متحمسًا للأضواء الإعلامية، ثم إنه يعاني من متاعب في عينيه اضطر معها لإجراء عملية جراحية، في سنوات عمره المتقدمة، التي تأخذ بأكفاف التسعين، وردًا على سؤال عن الإطار الذي زار الإمارات فيه أول مرة، أوضح أنه عندما وصل إلى جنوبي شبه الجزيرة العربية في العام 1945م كانت السجلات التاريخية تشير إلى أنه في العام 1929م طلب لورنس العرب من مارشال الجو سيرهيو ترينشارد أن يتم تحويل مسار الطائرات من طراز


واحة رأس الخيمة


أول جولة لكودري في صحراء ليوا

آر - 100 أو آر - 101 في رحلتها التجريبية إلى الهند لكي تعبر الربع الخالي، ومع حدوث ذلك دخل الاستكشاف عصرًا جديدًا، حيث كان يعتقد أنه لا سبيل أمام الغربيين لعبور الربع الخالي إلا جوًا. غير أن برترام توماس عبره بالجمال من الجنوب إلى الشمال في 1930 - 1931م وعبره جون فيلبي من الشمال في العام 1932م. وبعد ذلك لم يقترب أوروبي واحد منه مجرد اقتراب إلى أن ذَهَبْتُ إلى هناك في العام 1945م، وعبرته مرتين مع عدد محدود من أبناء قبيلة راشد، الذين سافرت معهم في أرجاء المنطقة، وبينها الإمارات بالطبع، على امتداد خمس سنوات. وقد سعيت في هذه السنوات وراء المجهول ومالم يعرفه المستكشفون بعد. وأسرتني التلال الرملية الخلابة، والفضاء الذي لا نهاية له، والصمت الذي يكاد يكون عالمًا بأسره. ولكن بدو المنطقة بقيمهم النبيلة وحياتهم الفريدة هم الذين كانوا محور اهتمامي، طوال هذه السنوات الخمس، حتى لقد حرصت على أن أحيا حياتهم ذاتها بكل خشونتها وصعابها.

موازنة بين الحاضر والماضي

وردًا على سؤال عن أوجه الموازنة بين الإمارات كما وصل إليها في ختام عبوره للربع الخالي وبينها الآن، حيث يزورها، بانتظام لحضور معارض صوره وإطلاق الطبعات من كتبه في دبي، قال ثيسجر إنه: ليست هناك أوجه للموازنة على الإطلاق. وإذا أردت مثالاً عمليًا، فإنني أشير إلى أنه لدى وصولي إلى أبو ظبي في أواخر الأربعينيات لم تكن هناك إلا ثلاثة منازل مبنية بالحجر قرب الشاطئ، والباقي من الأكواخ، والعشش المقامة بالسعف وماتيسر من مواد البيئة المحلية، أما الآن فانظر إلى ماهي عليه من امتداد عمراني هائل.

وتابع: عندما توجهت إلى دبي، وعلى انفتاحها النسبي على العالم، من خلال اتصالاتها البحرية، إلا أن كثيرًا من المكتشفات والمخترعات العصرية لم يكن معروفًا هناك، وكان الشيء الوحيد الذي حملته معي هناك من هذه المخترعات هي آلة التصوير الفوتوغرافي (الكاميرا)، التي استقطبت اهتمام الجميع، وأطلق عليها وعلى صورها الاسم المحلي «العكوس».

الرحالة البريطاني ويلفرد ثيسجر

وكان المغفور له الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم الحاكم السابق لدبي يحظى بإعجابي وتقديري الشديدين، وساعد في تواصل جسور الحوار بيننا أنني كنت أتحدث العربية، وإن لم يكن ذلك بطلاقة بالغة.

وأهم مالفت نظري في أبناء الإمارات، في ذلك العهد قبل قرابة نصف قرن، الروح النبيلة التي تسود بينهم، وهو أمر لا ينفرد به أحد دون غيره، أو قلة دون سائر الناس، وإنما هو الغالب المنتشر بينهم، وهم حريصون على الجود والكرم، وقد بدوا لي متآلفين وقادرين على مواجهة تطورات الحياة بقلب جسور.

رحلة المخاطر

وردًا على سؤال آخر عن مشاعره في أثناء انطلاقه مع قلة من أبناء قبيلة راشد في صحراء الربع الخالي انطلاقًا من سلطنة عمان وصولاً إلى واحة ليوا، وعما إذا كان قد ساوره شعور بأنه قد لا يعود أبدًا من هذه الرحلة، قال ويلفرد ثيسجر: نعم، كانت هناك مشاعر من هذا النوع، فعلى امتداد ستين يومًا كنا نمضي عبر الرمال، ولا شيء إلا الانطلاق ومعاودة الانطلاق، فلا تملك إلا أن تنظر حولك، وتهتف مندهشًا: يا إلهي، هناك تل آخر!

ويتابع الرحالة البريطاني: لم تقدر لي الإصابة بالمرض قط، على عدم اتخاذي للإجراءات الصحية المعتادة، فقد كنت أعيش كما يعيش أبناء المنطقة، وأتناول الطعام نفسه، وأشرب المياه نفسها، وغالبًا ماكان الأمر يقتصر على جرعة ماء واحدة، لا تخلو من لذعة مرارة، كل 24 ساعة.

وحول حفاظه على علاقاته بالشخصيات العربية البارزة في منطقة الخليج قال: إنه شديد الحرص على ذلك، وإنه تشرف بمقابلة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة



مطر بن محمد من أبناء واحة ليوا(١٩٥٣-١٩٥٥م)

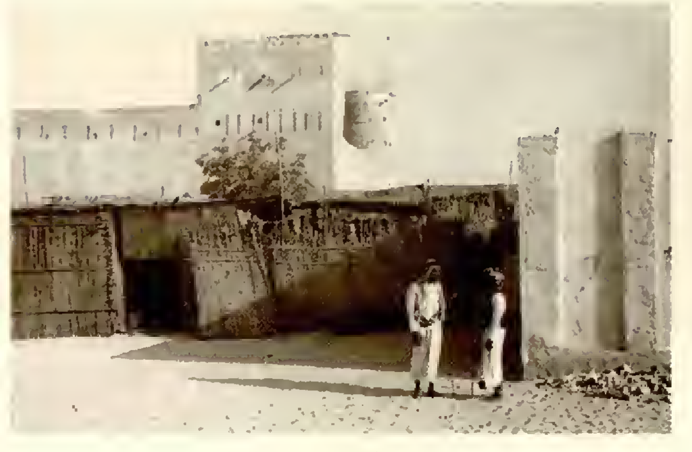
الإمارات العربية المتحدة وعدد من الشيوخ والشخصيات البارزة الذين تربطهم به علاقات المودة في المرات القليلة التي عاود زيارة الإمارات فيها، وإنه يحاول على الحفاظ على صلته بالمنطقة، وإن كان يقيم حاليًا بين ظهراني قبيلة بدوية في منطقة شبه بدائية من كينيا، لأنه لا يستطيع الحياة في جو يسيطر عليه التغير العصري الذي يجتاح العالم الآن، بل إنه له شقة مجهزة بكل الأدوات والاحتياجات الضرورية في لندن، لكنه لا يقيم بها إلا أيامًا قلائل كلما اقتضته الظروف القاهرة الذهاب إلى العاصمة البريطانية.

وفيما يتعلق بالجوانب الفنية في تصوير اللقطات الفريدة التي صورها في الإمارات، ونوعية آلات التصوير التي استخدمها والسر في أنه لم يستخدم أبدًا الأفلام الملونة أوضح الرحالة البريطاني: لقد استخدمت في البداية آلة تصوير قديمة من طراز (كوداك) كانت ملكًا لوالدي في التقاط الكثير من الصور. ولسوء الحظ حدث عطل ما للعدسة وعندما طبعت الصور وجدت أن الجزء الأسفل من كل الصور لم يظهر، ثم اشتريت آلة تصوير من طراز (لايكا 2) واستخدمتها في العام 1934م وحتى العام 1959م، حيث اشتريت آلة تصوير من طراز (لايكا فليكاس) وعادة ماكنت أستخدم مرشحًا أصفر اللون، وأحيانًا كنت أضيف إليه مرشحًا من نوع (بولارويد) في المناطق المرتفعة. ولم أستخدم الفلاش أبدًا، وكنت أتجنب اصطحاب حامل آلة التصوير، وذلك تسهيلاً للتحرك. ولدى تنقلي في شبه الجزيرة العربية اعتدت حمل آلة التصوير في حقيبة من جلد الماعز لحمايتها من الرمال.

ويشير ثيسجر إلى أنه: لم يسبق لي التقاط أية صور ملونة، ولم أشعر بالحاجة للقيام بذلك، وربما كان هذا يعود لتفضيلي الرسومات على اللوحات الملونة، والخطوط على الألوان، كما أنني مقتنع بأن التصوير بالأبيض والأسود يتيح مجالاً أكبر للإبداع من التصوير بالأفلام الملونة التي ترى ـ نظرًا لطبيعتها ـ إلى إعطاء صورة تعكس تمامًا مايراه المصور بعينه. وعدا عن ذلك فإنه حتى وقت قريب مضى كانت غالبية الأفلام الملونة غير جيدة، وهو مايظهر واضحًا في الصور الملتقطة بها. أما الآن فإنه بسبب دقتها تعدّ الصور الملونة مثالية لالتقاط صور الحيوانات والطيور والاحتفالات بالمناسبات. أما أفلام الأبيض والأسود فإن كل مشهد يتيح للمصور احتمالات تصوير كثيرة، تبعًا لدرجات الضوء والظل، وينطبق هذا بصفة خاصة على صور الأشخاص التي أركز اهتمامي عليها.

تكريم كودري

لكن ذلك، بالطبع، لم يكن رأي الرحالة البريطاني رونالد كودري، الذي جاء إلى العالم العربي للمرة الأولى في العام 1946م وهو في الثانية والعشرين من عمره، وبقي فيه خمسة وثلاثين عامًا، وخدم في البداية في صفوف سلاح الجو الملكي البريطاني خلال الحرب العالمية الثانية، ثم التحق بشركة نفط دولية، وارتحل في أرجاء خمس عشرة دولة عربية، تمتد من عمان إلى مراكش، لكن الجزء الذي يعنينا من مسيرته هو الممتد من العام 1948م إلى العام 1955م، الذي



خلف قلعة الفهيدي - دبي - ١٩٤٨



ساحة في رأس الخيمة

أمضاه فيما كان يعرف بالمشيخات المتصالحة (الإمارات العربية المتحدة في الوقت الحالي) حيث سجل يوميات بالغة الدقة، والتقط حشداً هائلاً من الصور لمعالم الحياة كما كانت في ذلك الوقت، وقد تم تكريمه في ندوة الثقافة والعلوم بدبي، حيث منح جائزة سلطان العويس لعام 1993م عن كتابيه «الألبوم العربي - دبي» و«الألبوم العربي - أبوظبي».

وبوصفي مترجم الكتاب الأول من الإنجليزية إلى العربية، فقد كان من الطبيعي أن تتعدد اللقاءات مع كودري، وأن يدور الحوار حول الإمارات كما رآها في منتصف القرن العشرين.

يوضح كودري أنه زار المنطقة للمرة الأولى في مارس 1948م، وتجول فيها على ظهر الجمال، قبل أن يصبح هذا التجوال جزءاً من عمله في شركة امتيازات النفط المحدودة، حيث أقام أساساً في دبي، ولكن مع القيام بجولات في المنطقة لا تكاد تتوقف على مدار العام.

ورداً على سؤال عن مجموعة صوره التي التقطها في المنطقة، قال كودري إنه يغلب على ظنه أن ما بقى صالحًا منها للطبع والاستنساخ يتجاوز المائة ألف صورة، وأن ماظهر منها في مجلدات «الألبوم العربي - دبي» و«الألبوم العربي - أبوظبي» و «الألبوم العربي - المشيخات الشمالية» ليس إلا قلة محدودة من حشد هائل من الصور مايزال ينتظر أن يرى النور، وأنه يأمل أن يواصل هذه السلسلة بإصدار المزيد من المجلدات التي تجمع بين الصور ومقتطفات من اليوميات التي كتبها في أثناء عمله بالمنطقة، وذلك من أجل التمكن من إصدار اليوميات كاملة في مجلدات منفصلة ذات يوم.

وحول سؤال آخر عن انطباعه عن الإمارات لدى وصوله إليها والإمارات كما يراها الزائر اليوم، يقول كودري: إنه في اللحظة الأولى لوصوله إلى المنطقة أدرك طابعها الخاص، ولفت نظره طيبة معشر الناس بها وحرصهم على إكرام وفادة الغريب والاحتفاء به ومساعدته، مع أن ظروفهم في ذلك الحين لم تخل من مصاعب ولم تكن ميسرة تمامًا.

وضرب مثالاً على الفارق بين الماضي والحاضر في الإمارات بقوله إنه وصل إلى دبي بحراً على متن جالبوت يدعى «فتح الخير» قادمًا من مسقط في رحلة بحرية استغرقت ثمانية أيام، ولكنه لم يستطع دخول الميناء لأن مئة قدم لا تزيد من الماء المزبد حالت دون دخول الجالبوت، حيث إنها تغطي مدخل خور دبي، يمكن للجالبوت أن يجنح، وقد يغرق إذا ارتطم بالرمال التي تعترض مدخل الخور، ولم يحل دون ذلك إلا تمتع «النواخذا» أو ربان الجالبوت بالخبرة والحنكة، حيث أبقى الجالبوت في عرض الخليج ليلة كاملة، ولم يعاود محاولة دخول الخور إلا مع المد التالي في ظل ظروف أفضل. وبالمقابل فإن دبي اليوم تضم مجموعة من أهم موانىء العالم وأكثرها قدرة على استيعاب السفن وتفريغ الحاويات.

وأخيراً، فيما يتعلق بالجوانب الفنية للصور التي التقطها، أوضح الرحالة البريطاني رونالد كودري أنه عندما جاء إلى المنطقة أول مرة حمل معه آلة تصوير من طراز كيروفليكاس ابتاعها من مصر في العام 1946م، ثم حصل على كاميرا من طراز ثورنتون بيكارد، ثم أخرى من طراز روليفلكس، ثم إكزاكتا، وإنه مع وصول عمر الأفلام التي استخدمها إلى قرابة نصف القرن، فإنها في معظمها ماتزال في حالة جيدة. وأشار إلى أنه مع تفضيله لاستخدام اللونين الأبيض والأسود في التصوير، إلا أنه لم يتردد كذلك في التصوير بالألوان لدى توافر الإمكانات لذلك.

وعندما يتأمل المرء هذه الثروة الحقيقية من الكلمات والصور ونظيراتها المتوافرة في مصادر أخرى، التي تتبدى لنا الإمارات من خلالها على نحو ما كانت قبل عصر النفط، فإنه لا يملك إلا أن يتمنى أن تحذو المؤسسات الثقافية الرسمية في الإمارات حذو نظيرتها في السعودية وعمان وتبادر إلى الحفاظ على كل ما يمكن الحفاظ عليه من تراث الإمارات وملامح ماضيها بوصفها ذاكرة حية، هي ملك الأجيال الجديدة في المقام الأول.



برج المراقبة، جزيرة الحمراء، رأس الخيمة



الخور، دبي - ١٩٤٨

المراجع والمصادر:

1- Frauke Heard-Bey- From Trucial States to United Arab Emirates- Longman-London-1982
2- Wilfred Thesiger - Visions of a Nomad- Motivate- Dubai-1994.
3- Ronald Codrai- An Arabian Album: The North-East Shaikhdoms Motivate-1993.
4- رونالد كودري - الألبوم العربي: دبي - موتيف إيت - دبي - ١٩٩٣م.
5- رونالد كودري - الألبوم العربي: أبوظبي - موتيف إيت - دبي - ١٩٩٣م.
6- سلسلة من المقابلات أجراها الكاتب مع عدد من الرحالة الغربيين.


المنهل
مجلة العرب الادبية

النظرية التكاملية في تدريس اللغات ونتائجها العملية

مؤلف هذا الكتاب هكتر هامرلي أستاذ ذو خبرة واسعة في مجال تعليم اللغات الثانية والأجنبية وتعلّمها، ويعمل في جامعة سايمون فريزر في كندا أستاذًا لعلم اللغة التطبيقي. وعمل في المدة ما بين 1958م و1961م مدرسًا بمعهد الخدمة في الخارج لتعليم اللغات الأجنبية التابع لوزارة الخارجية الأمريكية، وله العديد من المؤلفات التي أثرت مجال تدريس اللغات الثانية والأجنبية في العقود الثلاثة الماضية. والكتاب الذي بين أيدينا خلاصة تجاربه العملية.

AN INTEGRATED THEORY OF LANGUAGE TEACHING

AND ITS PRACTICAL CONSEQUENCES

Hector Hammerly

تأليف :
هكتر هامرلي
عرض وتقديم :
محمد عبدالخالق محمد

وقد قام بترجمته الدكتور راشد بن عبدالرحمن الدويش أستاذ علم اللغة بمعهد اللغة العربية بجامعة الملك سعود بالرياض.

وقد أحسن المترجم اختيار هذا الكتاب إذ إنه يسهم في إثراء المكتبة العربية لقلة ماتحويه من دراسات حديثة في ميدان تعليم اللغات الأجنبية. الترجمة في حد ذاتها جيدة، وقد أضاف المترجم ـ حين الضرورة ـ أمثلة مشابهة من العربية لتعضيد النظرية الجديدة التي طرحها هامرلي.

يطرح المؤلف نظرية تصهر في نموذج متكامل، وفي إطار انتقائي، وجهات نظر وطرائق مختلفة سابقة تناولت بعض الجوانب في اللغة وأهملت جوانب أخرى. ويختار المؤلف أصولاً ومبادىء من تخصصات عدة ذات صلة بتدريس اللغة، ليقيم عليها نظريته، وتشمل هذه التخصصات علم اللغة، وعلم النفس، ونظرية التدريس ومصادر أخرى متنوعة. ويركز المؤلف على الاختلاف الكبير بين تعلم اللغة الثانية واكتساب اللغة الأم، كما يبرز إمكان تفوق الكبار في تعلم اللغة الثانية على الصغار، وهو أمر كان الاعتقاد السائد أن العكس فيه هو الصواب، كما يؤكد ضرورة التدرج في التعليم.

يشتمل هذا الكتاب على مقدمتين، الأولى للمترجم والثانية للمؤلف، يلي ذلك مدخل يتكون من ثلاثة فصول؛ خصص الأول منها للحديث عن النظرية، والثاني لنظريات تدريس اللغة، ويتناول الثالث إيضاحاً لمذهب الانغماس ومستلزماته. ويقدم المؤلف نظريته التكاملية في ستة فصول تبدأ بالفصل الرابع وتنتهي بالتاسع؛ ويفرد الفصلين العاشر والحادي عشر للنتائج العملية، وهو الجزء الثاني من عنوان الكتاب، وينتهي الكتاب بثلاثة ملاحق تنضوي تحتها ابتسازات في تدريس اللغة، وقائمة بحقوق طلاب اللغة، وعينة لاختبار شفوي في المختبر، ثم مسرد بالمصطلحات وقائمة المراجع.

يستهل المؤلف الفصل الأول بمدخل وملخص عن ماهية النظرية، ويؤكد أن وجود نظرية ما أمر لازم لأي دراسة لكي يُحكم على مدى علميتها. وكل نظرية عرضة للتمحيص من خلال البحث والتطبيق، ويرى أن المنافسة بين النظريات ظاهرة صحية من أجل نمو العلم؛ فهي تفتح المجال أمام النظرية الفضلى لكي تسود. والنظرية التي تحظى بالسيادة يجب أن تحمل في طياتها القدرة على تحقيق خمسة أشياء:

1 - تحديد المفاهيم والمتغيرات.

2 - تفسير المادة البحثية وتوجيه النتائج المتناقضة ظاهريًا نحو الاتفاق.

3 - التنبؤ بنتائج الدراسات المستقبلية.

4 - توجيه البحث وصوغ قالبه ومنهجه.

5 - إعادة صياغة الأصول والفرضيات، ومن ثم النظرية ذاتها بناء على نتائج البحث.

ينهي المؤلف الفصل الأول بحديث علمي عن مذاهب بناء النظريات، واختبار صدقها وتطبيقها. وتنشأ النظريات في رأيه بإحدى طرائق ثلاث:

1- استقرائية 2 - استنتاجية 3- استقرائية واستنتاجية.

ويجزم أن بناء النظرية ليس من الضرورة أن ينتظر حتى تتوافر جميع الحقائق، وأنه إن لم تطرح نظريات تكاملية لتدريس اللغة وتعلّمها، فسوف نراوح مكاننا، وسنظل ندور في جزئيات من البحث اللغوي التدريسي عديم الفائدة. ويرى أنه لا توجد نظرية نهائية؛ فكل نظرية خاضعة للتمحيص والتبديل على أساس اختبارات تجريبية، والنظريات التي تحظى بتطبيق واسع هي تلك التي تأكدت وتأصلت من خلال التجربة ليس غير.

يستعرض الكاتب في الفصل الثاني سبعًا من نظريات تدريس اللغة، ويناقش فيها مالها وماعليها، ولكنْ هناك خيط يجمع بينها؛ ذلك أنها متحيزة ضمنيًا، وتقوم على مقدمات منطقية خاطئة، أو تتركز دائرة اهتمامها على جوانب معينة من العملية النظرية. ومن المعلوم أن تطبيق نظريات متحيزة أو خاطئة في تدريس اللغة لا يمكن أن يؤدي إلى نتائج ذات ثمار حسنة. على ظهور نظريات تتصف بالشمول حديثًا، إلا أنها - من دون استثناء - ينقصها الوضوح أو الدقة أو الاثنان معًا، كما أنها ليست واضحة الصياغة، تهتم ببعض الحقائق وتهمل أخرى، أو تقوم على افتراضات غير صحيحة. ويعرض المؤلف هذه النظريات على النحو التالي:

النظرية الأدبية المنطقية:

يقوم منهج هذه النظرية في تدريس اللغة على أن تعلم اللغة يتم من طريق المعالجة المنطقية للنصوص المكتوبة. ويُدرّس النحو ثم المفردات والنصوص من خلال الترجمة وفقًا لطريقة القواعد والترجمة. ويرى الكاتب أن هذه النظرية ليست صحيحة ولا مكتملة من عدة وجوه؛ فعلى سبيل المثال، يكون من الخطأ الفادح الافتراض أن اللغة المكتوبة أكثر أهمية وعطاء ونفعًا من اللغة المنطوقة. لذا يتخرج الدارسون الذين يتعلمون بهذه الطريقة وهم ملمون إلمامًا جيدًا بنحو اللغة التي يدرسونها، ويتمكنون لحد ما من ترجمة النصوص المكتوبة، لكنهم لا يقدرون على فهم الكلام الطليق أو التحدث إلا من خلال همهمات على هيئة كلمات متقطعة من خلال الترجمة؛ أي إنهم باختصار يكونون غير قادرين على الاتصال بتلك اللغة، وهو الأمر الذي أدى إلى ردود فعل تعارض هذه النظرية وتدعو إلى حركة إصلاحية.

النظرية الطبيعية:

نادرًا ماتشتمل هذه النظرية على افتراضات يمكن فحصها واختبارها. وقد ظهرت هذه النظرية رد فعل لطريقة القواعد والترجمة.

لعل أكبر مشكلة تواجه هذه النظرية أنه من غير الممكن تمثيل المواقف الطبيعية لاكتساب اللغة الأم في حجرات الدراسة، ويعود ذلك إلى أن أهم شرط في عملية الاكتساب الطبيعي للغة، ليس بالإمكان توافره في فصول تعليم اللغة الأجنبية. ويتمثل هذا الشرط في الاتصال المباشر والدائم بالناطقين الأصليين للغة المستهدفة.

النظرية السلوكية البنيوية:

يؤكد هذا المذهب نمو سيطرة العادة على بنية اللغة، وتركز على مهارة الكلام في المقام الأول، كما أنها لا تهمل مهارة القراءة إلى جانب شيء يسير من مهارة الكتابة. وقد تبنّت هذه النظرية طرائق عدة كان آخرها وأهمها الطريقة السمعية الشفوية. وكان مصير صور هذه الطريقة كلها الإخفاق؛ لأن معظم المدرسين لم يتمكنوا من أداء دور الناطق الأصلي باللغة ولا دور اللغوي.

الكبار يتفوقون على الصغار في تعلم اللغة الثانية لو وجدوا ظروف التفاعل نفسها التي تتاح للصغار

لعل أكثر صور النظرية السلوكية البنيوية إحكامًا وتفصيلاً، تلك التي طورها كل من (فريز، و لادو) - كل منهما على حدة. إلا أن هذه الصورة لم تكن مكتملة ولا شاملة؛ فقد أغفل كلاهما العديد من الأسس النفسية. وكان ينقص كل الصور المعدلة لهذه النظرية إعطاء الاعتبار الكافي لطبيعة المواقف الاتصالية وأهميتها في اللغة. وعلى ذلك فإن هذه النظرية ماتزال تشكل الأساس الذي يبنى عليه تدريس اللغات في كثير من أنحاء العالم.

النظرية المعرفية التوليدية:

اهتمت هذه النظرية بالتراكيب، وأهملت ماعدا ذلك من مستويات اللغة. ورفضت هذه النظرية مفهوم العادة اللغوية، ونزعت إلى الاهتمام باللغة المكتوبة وحدها مما أضاف جملة من العوائق التي حالت من دون إمكان تطبيقها في مجال تدريس اللغة.

يرى المؤلف أن النحو التوليدي التحويلي، وكذلك علم النفس المعرفي على درجة عالية من التجريد والتحيز بحيث لا يمكنهما إنتاج نظرية عملية مكتملة ومتوازنة الجوانب لتدريس اللغة.

النظرية النفسية الاجتماعية:

هذا مصطلح جديد جاء به المؤلف أول مرة ليشمل تلك الطرائق التي تؤكد أهمية مشاعر الدارس تجاه الوضع الاجتماعي لحجرة الدراسة. وهذه الطرائق هي: الطريقة الصامتة Silent Way، وتعلم اللغة الجماعي Community Language Learning، والطريقة الإيحائية Suggestopedia. ويرى المؤلف أن هذه النظرية نظرية قاصرة لتعلم اللغة الثانية لأن المناخ الاجتماعي المناسب لهما لم يعد متوافرًا.

نظرية علم اللغة الاجتماعي:

أعقب ردود الفعل، التي عارضت طريقة التدريس الآلية غير الاتصالية، الاعتماد على علم اللغة الاجتماعي الذي عُدّ مفتاحًا لفهم المهارات الاتصالية وإظهارها، فعلماء علم اللغة الاجتماعي كان لهم الفضل في تسليط الضوء على طبيعة الاتصال وعلى الكفاية اللغوية الثانية المسماة الكفاية الاتصالية.

يرى المؤلف أن المبالغة في عدّ الاتصال هو كل شيء، وإهمال ما دونه كالقيود البنيوية للغة، وكذلك تأكيد الاتصال قبل أوانه قد نتج عنه أخطاء رسخت في عقل الطلاب على هيئة قواعد وعادات لغوية لا يمكن علاجها. فالطلاب وفقًا للطريقة الاتصالية يكونون قادرين على التعبير عن أفكارهم بمهارة لكن بلغة ركيكة هجين، وعلى ذلك يرى أن هذه النظرية غير مكتملة مثل سابقاتها.

نظرية الاكتساب اللغوي:

تعد هذه النظرية صورة مستحدثة من النظرية الطبيعية نتجت من جرّاء البحث المكثف في في ميدان الاكتساب الطبيعي للغة. وترى هذه النظرية أن الاكتساب الطبيعي الفعال للغة الأجنبية يمكن تحقيقه في حجرات الدراسة. وتقوم هذه النظرية على خمس فرضيات، يرى المؤلف أن واحدة منها يمكن - إلى حد ما - تطبيقها في تدريس اللغة الثانية داخل الصف، وهي تلك الفرضية التي تقول بأن مشاعر الدارسين يمكن أن تعيق التعلم إذا أحسوا بالإحباط كلما نبهوا على أخطائهم. وهذه النظرية تعد أكثر النظريات من حيث الوضوح والتماسك والشمول، إلا أنه يؤخذ عليها اعتمادها على مادة مستقاة من حالة الاكتساب الطبيعي للغة، وهي حالة لا يمكن إعادة إنتاجها عند تعلم اللغة الأجنبية داخل حجرات الدراسة.

الخرافات الخمس

عوّل أنصار المذهب الطبيعي واللغوي والاجتماعي والاكتسابي على نجاح مذهب الانغماس، من ثم يخصص المؤلف الفصل الثالث كله للحديث عن هذا المذهب ومستلزماته ونقاط قوته وضعفه. وتتمتع البرامج الانغماسية بحظوة لدى قطاع كبير من المدرسين، ومن حسنات هذه البرامج أن الدارسين يمكنهم الاتصال في معظم الحالات ويفهمون جيدًا، إلا أن هناك من الدلائل ما يؤكد أنه يكون لديهم أخطاء لغوية كثيرة في مهارتَي الكلام والكتابة.

يرى المؤلف أن مذهب الانغماس يقوم على خمس خرافات

AN INTEGRATED THEORY OF LANGUAGE TEACHING AND ITS PRACTICAL CONSEQUENCES

النظرية التكاملية في تدريس اللغات ونتائجها العملية

بشأن تعلم اللغة الثانية، ويدعو المدرسين إلى نبذها وطرحها:

وتقوم الخرافة الأولى على فرضية مفادها أنه كلما كان الدارس أصغر سنًا كان أفضل أداء؛ أي إن الأطفال أكثر قدرة على تعلم اللغة الأجنبية من الكبار. ويعتقد المؤلف أن ليس هناك ما يمنع الكبار من اكتساب اللغة الثانية بالمستوى نفسه أو ربما أفضل من الصغار لو أن الفرص المتاحة للتفاعل مع أهل اللغة الأجنبية كانت متساوية للطرفين؛ فالصغار يقضون وقتًا أطول - في التفاعل اللغوي - مع أقرانهم من أبناء اللغة الأجنبية، ويكون هذا التفاعل تفاعلاً مكثفًا لعدة ساعات يوميًا، بينما لا تتاح فرصة التفاعل للكبار إلا بصورة محدودة قد لا تعدو ساعة واحدة يوميًا. إن الكبار أقوى إدراكًا من الصغار، وتكون لديهم عادة إمكانات تعلّم أفضل، ويستطيعون تركيز انتباههم مدة أطول، وهم أقدر على ربط العلاقات بين الأمور المختلفة. ولا غرو أن يكتسب الصغار المقدرة على نطق أصوات اللغة الأجنبية بصورة متميزة ومن دون مساعدة وذلك لتفوقهم في الذاكرة الحركية.

الخرافة الثانية التي يرى المؤلف أن مذهب الانغماس يقوم عليها تتمثل في الاعتقاد بإمكان إعادة تمثيل اكتساب اللغة الأم في أثناء تعلم اللغة الأجنبية داخل الصف. ويرى أن ذلك غير ممكن؛ إذ ينبغي للدارسين مواجهة قدر كبير من التداخل اللغوي الناتج عن لغتهم الأم في أثناء تعلم اللغة الأجنبية.

والخرافة الثالثة تتمثل في مبدأ اسبح أو اغرق. وهو مبدأ لايمكن أن يطبق في الصف، إذ ليس بالإمكان تعليم الأطفال اللغة بطريقة رسمية، ولكن يمكنهم اكتساب اللغات بطريقة لاشعورية حينما يحاطون بالناطقين الأصليين الذين يُعدّون في هذه الحالة مثل عوامات لغوية تحميهم من الغرق. أما في الصف الدراسي فلا تتوافر هذه العوامات (الناطقون الأصليون باللغة)؛ ففي الصف ينبغي مراعاة الأصول والمبادئ ومن بينها الاختيار والتدرج والتكامل التدريجي.

يعترف المؤلف أن مبدأ الاقتصار على الاتصال في استخدام اللغة الأجنبية من دون الالتفات إلى الدقة اللغوية مبدأ صحيح، وليس خرافة؛ لكنه صحيح فقط في حال اكتساب الأطفال للّغة في الحضانة والشارع. ويرى أنه كلما دفعنا متعلمي اللّغة إلى أداء الاتصال بحرية، من دون أخذ الدقة اللغوية في الحسبان، نجم عن ذلك الكثير من الأخطاء التي تصبح عادة لايمكن استئصالها فيما بعد، وبذا يضعف الأمل في تكوين كفاية لغوية، وقصارى هذا المبدأ أن يخرّج دارسين يستخدمون لغة ضيقة هجينًا من مفردات اللغة الأجنبية بتراكيب اللغة الأم.

أما الخرافة الخامسة التي تدّعي أن مذهب الانغماس هو الطريق الأمثل لتحقيق الثنائية اللغوية، فيدحضها ذلك النتاج الهائل من اللغة الهجين التي يجيدها الدارسون وليس الثنائية اللغوية.

ويكمن السبب الرئيس وراء إخفاق البرامج الانغماسية في تكوين كفاية لغوية بناءة في محاولتها إعادة إيجاد ظروف اكتساب اللغة الطبيعية (اللغة الأم) في بيئة غير بيئتها لايمكن أن تتقدم وتنمو فيها، وهي قاعات الدراسة.

وبذا يخلص المؤلف إلى أن إخفاق مذهب الانغماس يضعف كثيراً حجة كل من أصحاب النظرية الطبيعية والنظرية الاجتماعية (الاتصالية) والنظرية الاكتسابية في تعلم اللغة الثانية في الصف، والتركيز على الهدف الاتصالي منذ بداية البرنامج اللغوي يكون ضرره أكثر من نفعه.

يخصص المؤلف الفصول من الرابع وحتى نهاية التاسع لعرض نظريته التي تحمل عنوان الكتاب نفسه «النظرية التكاملية في تدريس اللغات». يقدم الكاتب هذه النظرية بديلاً للنظريات السابقة التي انتقدها في الفصول من الأول حتى الثالث. وقد جعل الفصل الرابع مدخلاً إلى بقية الفصول؛ ففيه يقدم تعريفات ومناقشات لبعض المصطلحات التي يخالف في كثير منها علماء اللغة السابقين. ويبدأ بمصطلح علم اللغة التدريسي LANGU-ISTICS وليس علم اللغة LINGUISTICS. ويعرفه بأنه علم تدريس اللغة الثانية وتعلمها. ويرى أنه تخصص علمي عملي يستثمر تخصصات علمية أخرى كالأحياء

أهم شرط في عملية الاكتساب الطبيعي للغة يتمثل في الاتصال المباشر والدائم بالناطقين الأصليين

والكيمياء وغيرهما، لكنه ليس تابعًا لهما. ولكي يكون تخصصًا مستقلاً، فعليه أن ينحّي عنه تخصصات أخرى، ولاينبغي لتدريس اللغة أن يكون تطبيقًا لتخصصات أخرى - كما يوحي بذلك مصطلح مثل علم اللغة التطبيقي أو تعليم اللغة الأجنبية، ولكن عليه أن يكون تخصصًا علميًا خاصًا قائمًا بذاته، مستقلاً باسمه واهتماماته ومعاييره المهنية.

يقدم المؤلف تعريفًا للغة لا يوافقه عليه كثير من علماء اللغة، وقد أورد هذا التعريف نفسه من قبل في كتابه المسمى «التوليف في تدريس اللغة الثانية» SYNTHESIS IN SECOND LANGUAGE TEACHING (1982)، لكنه زاد في هذا التعريف النقطة الخامسة؛ فاللغة عنده مكتملة نسبيًا، ومعقدة، ومتغيرة، واعتباطية إلى حد كبير، ومحكومة بقواعد، ونظام من رموز، منطوقة بدرجة رئيسية مكتسبة أو متعلمةلغرض اتصالي، في محيط ثقافي، لوسط لغوي بعينه.

ويخالف المؤلف بقية اللغويين كذلك في مفهوم اللغة الثانية؛ فهي عنده أي لغة ما عدا اللغة الأم للمتحدث، بينما يفرق علماء اللغة بين هذا المصطلح ومصطلح اللغة الأجنبية.

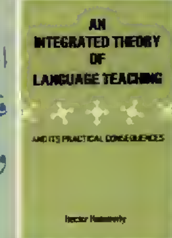
ويرى أن كلمة (أجنبية) لها مدلول ذو بعد سياسي واجتماعي. ويعرف التدريس تعريفًا ينفي عنه الأشكال التي ترى أنه مجرد تعريض الدارسين للمادة التي يدرسونها سواء أكانت على هيئة أمثلة أدبية خاملة، أم على هيئة مدخل لغوي غير منتظم. أما تدريس اللغة فيعرفه بأنه جهد منظم يقوم به المدرس لإحداث التعلم لدى الناطقين بلغات أخرى غير اللغة هدف التعلم، وهدف هذا التدريس تحقيق الكفاية لدى الطلاب في أي لغة ثانية.

ويعرف المؤلف التعلم تعريفًا عامًا لا يخالف فيه بقية علماء اللغة، وهو تعريف يشمل كلاً من التعلم الرسمي الناتج عن التدريس، وكذلك الاكتساب الطبيعي، فالتعليم تغير مستمر نسبيًا في المعرفة أو السلوك ناتج عن الخبرة. ولايقتصر تعلم اللغة الثانية عنده على مجرد تنمية المعرفة عن اللغة، ولكن يتعدى ذلك إلى معرفة اللغة ذاتها؛ أي تنمية قدرات الدارس ليستخدمها بطلاقة ودقة.

أربعة أنواع من الكفاية

يتناول المؤلف في نهاية الفصل الرابع أربعة أنواع من الكفاية هي: الكفاية في اللغة الثانية، والكفاية اللغوية، والكفاية الاتصالية، والكفاية الثقافية. فالكفاية في اللغة الثانية هي المعرفة التي تمكّن المتحدث من فهم اللغة واستخدامها بدقة وطلاقة في المواقف الثقافية المناسبة. أما الكفاية اللغوية عنده فهي معرفة إدراكية وإنجازية (أداء)، وهذا يختلف عن تعريف تشومسكي الذي يميز بين المعرفة الإدراكية والأداء اللغوي. بينما يقصد بالكفاية الثقافية بأنها الإلمام بثقافة ما، والقدرة على التصرف وفقًا لسلوك أعضائها. ومن دون الإلمام بهذه الكفاية، فإن متحدث اللغة الثانية يكون عرضة بألا يفهمه الآخرون وهو موقف قد يدعو إلى الاستخفاف به.

يتخذ المؤلف في الفصل الخامس موقفًا وسطًا بين الذين ينادون بالطلاق البائن بين مدرسي اللغات واللغويين، وأولئك الذين يؤمنون بأن يستقي مدرسو اللغات كل كبيرة وصغيرة من اللغويين. ويمثل الاستقاء الحذر من علماء اللغة أول أصل من الأصول الأربعة التي تقوم عليها نظريته. ويرى أنه على إيغال علم اللغة في التجريد وهامشيته في التطبيق في السنين الأخيرة، إلا أنه يظل ميدانا مهمًا لمدرسي اللغات حيث يساعد اللغويون مدرسي اللغات بإمدادهم بوصف دقيق ومحدد للغات. والأمر في النهاية متروك لمدرسي اللغات في العمل بتوصيات اللغويين أو تجاهلها، وعليهم الاختيار من توصيات اللغويين المتعددة، ثم تكييفها وإخراجها متكاملة على هيئة قواعد تعليمية مناسبة. وبدلاً من استخدام مصطلح علم اللغة التطبيقي APPLIED LINGUISTICS، وهو مصطلح صار قديمًا، على مدرسي اللغات أن يتحدثوا عن علم اللغة الانطباقي (القابل للتطبيق) APPLICABLE LINGUISTICS



النظرية التكاملية في تدريس اللغات ونتائجها العملية

جاعلين الأمر كله بأيديهم وليس بأيدي اللغويّين في تحديد ما هو قابل للتطبيق.

يقرر المؤلف أن جل ما يستطيع اللغويين تقديمه من مساعدة لمدرسي اللغات ينحصر في وصف اللغة وموازنتها ليس غير؛ وقلما يكون اللغويون مدربين خارج نطاق علم اللغة، ولا تعكس آراؤهم عن تدريس اللغة أو تعلمها أي خبرة. ويناقش في إسهاب النقاط الاثني عشرة التي تناولها في الفصل الرابع عن تعريف اللغة، ثم يناقش موضوع الكفاية والأداء والمهارات اللفظية الأربع التي تكون داخل اللغة وكذلك المهارتين غير اللفظيتين الكائنتين داخل اللغة.

وبوصفه مدرسًا خبر العملية التدريسية، فهو لاينكر ما للتحليل التقابلي وتحليل الأخطاء من فوائد؛ فالتحليل التقابلي مفيد في إعداد مواد التدريس، وفي تصحيح الأخطاء واختبارات اللغة وغير ذلك. كما أن تحليل الأخطاء يمكّن مدرسي اللغات من مساعدة طلابهم بصورة أفضل، حيث تمكّن الملاحظة الدقيقة لأخطاء الطلاب المدرس من تقويم فعالية تدريسه.

وإجراء أنسب تصحيح لهم وتهيئة العلاج اللازم، كما يعد تحليل الأخطاء أداة لقبول أو رفض تنبؤات نظرية النقل والنظريات اللغوية. وحيث إن المؤلف شديد الاعتقاد بفائدة التحليل التقابلي وتحليل الأخطاء فإنه يفرد لهما، إلى جانب ما أسماه اللغة المرحلية، فصلاً كاملاً في كتابه الضخم «التوليف في تدريس اللغة الثانية» (1982).

خصص المؤلف الفصل السادس للأصل الثاني من الأصول التي تقوم عليها نظريته التكاملية، ويستقي المؤلف هذا الفصل من ميدان علم النفس. ويمكن لعمل النفس أن يساعد كثيرًا في علم اللغة التدريسي حيث إن الإدراك والانفعال والإرادة، وهي ثلاثة من مجالات علم النفس، لها جميعها صلة وثيقة بكثير من نشاطات تعلم اللغة.

بالطبع لايغطي هذا الفصل كل معطيات علم النفس المتعلقة بتدريس اللغة. لكنه يناقش بالتركيز أهم معطيات هذا العلم؛ فيتناول المتعلم من حيث هو إنسان، وعمليات الإدراك والانفعال والإرادة، وأنواع التعلم، ويقدم في هذا الصدد ثلاثًا من العمليات الأساسية للتعلم تتمثل في الموازنة، والمساواة أو التفريق، والترابط. كما يتناول هذا الفصل تنظيم عمليات التعلم وتدرجه والانتباه والنقل والتدريب وحتمية الأخطاء وكيفية تصحيحها والتقليل منها والتكامل والتذكر، وصعوبة التعلم ونتائجه التي تتمثل في اكتساب المعرفة، وهي أمر عقلي، أو اكتساب مهارة، وهي أمر سلوكي.

ميدان فريد

يقوم الأساس الثالث من نظرية التكامل على أصول من نظرية التدريس، ويطرح المؤلف فكرته في هذا الصدد في الفصل السابع. ويؤكد في مستهل هذا الفصل أن تدريس اللغة ميدان فريد يتطلب تناولاً فريدًا متعدد الميادين؛ وليس تابعًا لأي ميدان آخر. ثم ينتقل إلى أهمية التدريس من حيث الأمر الذي ينتج عنه، ويعرض عددًا لا بأس به من أصول التدريس الصفي تشمل الأهداف العامة والخاصة للتدريس ووسائله، والتدرج من البسيط إلى المعقّد، والشائع قبل النادر، والمحسوس قبل المجرد، كما يتناول تدريس عناصر اللغة كالصرف والتراكيب والمفردات، وكذلك مهارات اللغة (الاستماع والكلام والقراءة والكتابة).

يختم المؤلف هذا الفصل بما ينبغي أن يتوافر لدى مدرس اللغة الناجح، وهو أمر سبق أن تناوله في كتابه الرائع «التوليف في تدريس اللغة الثانية»، وهي أمور قد سبقه إلى ذكرها كثير من الكتاب؛ من ذلك الإلمام بالمواد التي يدرسها وطرائق التدريس، واستخدام الوسائل المعينة، وأن تكون لديه الكفاية في اللغة الأم لطلابه.

يخصص المؤلف الفصل الثامن لآخر أصل من الأصول الأربعة التي بنى عليها نظرية التكامل. وهذا الأصل استقاه من مصادر شتى مثل علم اللغة الاجتماعي، والتقويم، والمعينات التقنية، والتعلم الذاتي، والكفاية الثقافية.

بناء على ما تناوله المؤلف في الفصول الأربعة التي قدم من خلالها نظريته التكاملية، يعرض نموذجًا أطلق عليه اسم النموذج ذي المخروطين، كان المؤلف قد سبق أن اقترح هذا النموذج في كتابه «التوليف» عام 1982م. وقد صمم هذا النموذج بقصد تمثيل تدريس اللغة الثانية وتعلمها داخل الصف، وهو يمثل التكامل الذي ينشده المؤلف.

يعد هذا النموذج طاردًا مركزيًا؛ بمعنى أنه ينطلق من النظرية نحو التطبيق، فهو يمثل الانطلاق من الجوهر اللغوي إلى المحيط الاتصالي. وعلى هذا يكون ذلك على النقيض من اكتساب اللغة طبيعيًا، حيث يتجه الانطلاق من التطبيق إلى المعرفة النظرية. ولكي يكتب النجاح للمذهب الاتصالي، وهو جاذب نحو المركز، في تكوين دقة لغوية، على الدارس أن يتفاعل باستمرار مع الناطقين الأصليين الذين يحمونه بوصفهم «عوامات لغوية» تعمل على إنقاذه من «الغرق» اللغوي، وبالطبع لا يتسنى هذا الوضع في داخل حجرات الدراسة، وإنما في الشارع والسوق والبيئة المحيطة وغير ذلك.

يحتوي النموذج ذو المخروطين على أهم أصول التدريس؛ وهي الانتقاء، وترتيب المكونات، والتدرج، والتصويب، والتمرين حتى الإتقان والتكامل التدريجي. ويمثل النموذج الكفاية في اللغة الثانية، بوصفها مكونة من ثلاثة كفايات «الكفاية اللغوية، والكفاية الاتصالية، والكفاية الثقافية». وكل واحدة من هذه الثلاث يمثلها مخروط تشكل الكفاية اللغوية مركزها فهي؛ أي الكفاية اللغوية، توظَّف من أجل تحقيق الاتصال ضمن سياق ثقافي كما في الشكل أدناه ويمثل الحرف (ن) النطق، ويكون في رأس المخروط. وعند هذا الرأس يكون أول احتكاك بين اللغة الأم للدارس واللغة الهدف التي هو بصدد تعلمها، حيث يكون هذا الاحتكاك صوتيًا بالضرورة؛ إذ عليه أن يدرك أصوات اللغة الثانية وأن ينطقها. ويمثل الحرف (ق) قواعد النحو والصرف التي تكون في مركز المخروط، أما الحرف (م) فيمثل المفردات؛ أي الثروة اللفظية، وهي تحيط بالقواعد وتتسع خاصة عند نهاية قاعدة المخروط المفتوحة.

يأخذ النموذج في الحسبان كلاً من التداخل والمبالغة في التصميم، وهو نموذج بنيوي اتصالي في آن واحد؛ فهو يقوم على المبدأ الذي ينادي بـ «نعم للاتصال على أن تسبقه الدقة»، ويمكن تحقيق الاتصال مع الدقة داخل الصف بشرط التوكيد على الدقة أولاً، ثم بالتدريج والتأني الشديد يمكن للاتصال الحر أن يأتي إلى المقدمة.

ينتقي النموذج ذو المخروطين بعضَ المبادئ من نظرية التعلم والنظرية اللغوية وعلم أساليب التدريس. فمن نظرية التعلم يعترف بقيمة كل من وجهتي نظر التعلم السلوكية والمعرفية، كما يعترف أن النظريات اللغوية يمكن أن تسهم في تدريس اللغة، ومن علم أساليب التدريس ينتقي طريقة معرفية (مع بناء العادة) وسمعية شفوية (من دون إغفال المهارات الكتابية) وثنائية لغوية، وبنيوية واتصالية وثقافية.

يناقش المؤلف في الفصل العاشر عيوب بعض الطرائق القائمة التي قد بسط القول في بعضها في الفصل الثاني من الكتاب، ولكنه يعترف أن كل واحدة منها لاتخلو من إيجابيات يمكن الاستفادة منها من خلال طريقة انتقائية كالطريقة التي ينشدها.

ترتكز الطريقة الجديدة التي يقترحها على أساس عقلي سلوكي سمعي شفوي وثنائي لغوي. وتبدأ بتدريس مكونات (عناصر) اللغة ثم مهاراتها. فتبدأ بتدريس النطق والتنغيم، ثم القواعد والتراكيب والمفردات والخطاب. ويبدأ في تدريس مهارات اللغة بمهارة الكلام، ثم فهم المسموع ففهم المقروء، ثم مهارة الكتابة ونشاطات أخرى متعددة المهارات.

يختم المؤلف كتابه القيم بطرح بعض القضايا للبحث في ميدان علم اللغة التدريسي، وهو ميدان يفتقر حقًا إلى نظريات محددة شاملة قابلة للفحص والتجريب داخل صفوف اللغة. ولكي يكون فحص النظرية ممكنًا، فلابد لها أن تبرز على هيئة فرضيات محددة ذات طبيعة كمية، بحيث يمكن قبولها أو رفضها من خلال طرائق مماثلة للطرائق المستخدمة في فحص العلوم الطبيعية.

يعترف المؤلف أن البحث في مجال علم اللغة التدريسي يعاني من صعوبة في ضبط المتغيرات، بل إن هناك صعوبة حقيقية في إجراء البحوث في هذا العلم، وهذا أمر يكاد ينطبق على جميع البحوث التي تتناول السلوك البشري.



حفل التراث العربي بأنواع شتى من التأليف، فلم يدع المؤلفون موضوعاً لم يكتبوا فيه، فقد ألفوا في الموضوعات الجادة في دقائق العلوم والفنون، ولم يغفلوا الموضوعات الطريفة، كما خصوا كل موضوع بتأليف، وكل مسألة بمصنف، وكل فن بكتاب أو رسالة، في جد أو هزل.

بدائع البدائه

البدائه جمع بديهة، ويقصد مؤلفه بهذا التأليف جمع أخبار الشعراء في حال البديهة والارتجال، ومحاسن أشعارهم عند السرعة والإعجال، ومؤلفه جمال الدين أبو الحسن علي بن ظافر الأزدي وزير الأشرف أحد ملوك بني أيوب، ذكر ابن شاكر أنه قرأ الأدب وبرع فيه وقرأ على والده الأصول، وبرع في علم التاريخ وأخبار الملوك، وحفظ في ذلك جملة وافرة، ودرس بالمدرسة الكاملية بمصر بعد أبيه، وترسّل في الديوان العزيز، وكانت داره في القاهرة محط رحال العلماء من الشام والعراق واليمن والحجاز شرقًا، ومن بلاد المغرب والأندلس غربًا، وكانت عنده أيضًا مكتبة زاخرة بصنوف الكتب والدواوين، وتوفي سنة 613 هـ بالقاهرة، وله كتب متعددة منها أخبار الشجعان، وأخبار الدول المنقطعة، وكتاب مكرمات الكتّاب.

ويذكر ابن ظافر في مقدمة كتابه أنه في صدر عمره وبدء أمره جمع أخبار الشعراء في البدائه والارتجال ومحاسن أشعارهم في مضايق الإسراع والإعجال، ثم أطلع عليها القاضي الفاضل وزير صلاح الدين الأيوبي فحثه على الازدياد منها والبحث عنها حتى اجتمع له من ذلك جزء سماه بدائع البدائه، وجمع بعد ذلك في زمن فُتُوّته أخباراً كثيرة قارب حجم الجزء الأول مجموعها والتقط بعد ذلك فرائد لم تظفر بمثلها الأسماط، وضم جميع ذلك في هذا الكتاب بصورته النهائية وقدمه إلى الملك الأشرف موسى أحد ملوك الدولة الأيوبية، وجعله في خمسة أبواب، الأول في بدائع بدائه الأجوبة، والثاني في بدائع بدائه الإجازة، والثالث في بدائع بدائه التمليط، والرابع في بدائع بدائه الاجتماع على العمل في مقصود واحد، والخامس في بقية بدائع البدائه، وقدم للأبواب بفصلين أحدهما في اشتقاق البديهة والارتجال، والآخر في الفرق بينهما.

ومما قاله ابن ظافر إن الارتجال هو أن ينظم الشاعر ما ينظم في أوحى من خطف البارق واختطاف السارق، حتى يُخال ما يعمل محفوظًا أو مرئيًا ملحوظًا من غير حاجة إلى كتابة أو تعلل بتقفية، والبديهة أن ينزل عن هذه الطبقة قليلاً ويفكر مقصرًا لا مطيلاً، فإن أطال ذو البديهة الفكرة انعكست القضية وخرجت من حد البديهة إلى حد الروية.

وقد حقق الكتاب محمد أبو الفضل إبراهيم، وقدم له بمقدمة موجزة، ومن الأخبار التي ذكرها علي بن ظافر الأزدي في الكتاب:

- روى أن أبا نواس خرج يومًا إلى الكُناسة فاستقبله أعرابي ومعه غنم فقال أبو نواس:

أيا صاحب الذود اللواتي تسوقها
بكم ذلك الكبش الذي قد تقدما

فقال الأعرابي:

أبيعكه إن كنت تبغي شراءه
ولم تك مزّاحًا بعشرين درهما

فقال أبو نواس:

أحذتَ هداك الله رُجْعى جوابنا
فأحسنْ إلينا إن أردت تكرّما

فقال الأعرابي:

أحطّ من العشرين خمسًا لأنني
أراك ظريفًا أخرجنْها مسلّما

فقيل للأعرابي: أتدري من يكلمك منذ اليوم؟ فقال: لا، فقيل: أبو نواس، فرجع فلحقه، وحلف بصدقة غنمه إن لم يقبله.

- قال البحتري: دخلت على المتوكل يومًا، فرأيت في يديه درتين ما رأيت أشرق من نورهما، ولا أنقى بياضًا ولا أكبر، فَأدمتُ النظر إليهما. ولم أصرف طرفي عنهما، ورآني المتوكل، فرمى إليّ التي كانت في يده اليمنى، فقبّلت الأرض، وجعلت أفكر فيما يضحكه طمعًا في الأخرى، فعنّ لي أن قلت:

بسرّمرّا لنا إمام
تغرف من كفه البحارُ
خليفةٌ يُرتجى ويُخشى
كأنه جنة ونارُ
المُلكُ فيه وفي بنيه
ما اختلف الليل والنهار
يداه في الجود ضرتان
هذي على هذه تغارُ
وليس تأتي اليمين شيئًا
إلا أتت مثله اليسار

فرمى بالدرة التي كانت في يده اليسار وقال: خذها يا عيّار.

- روى النميري أنه جاء يومًا إلى أبي العباس ثعلب أحمد بن يحيى وهو في المسجد الجامع ليسلّم عليه، فقام إليه هو والحاضرون، وأجلسه مكانه، فداس قلمًا فكسره، فقال:

لكفّيَ وتر عند رجلي لأنها
أبادت قتيلاً ما لأعظمه جَبْرُ

فعجبوا من بديهته وحسنها.



سامي السامي

تكاد أن تنتصفَ هذه السّنةُ، فَشهرُها السادس تتساوى كفتا ميزانه، والعقد الثامن لهذا القرن، عقدٌ فريدٌ في قلقه، وهو يدور في أزمة النفوس، وَجَسًا، وترقُّبًا، لُغَةٌ تتراقصُ فيها عباراتُ الخوف والهلع.

عاصفة الرطوبة تهبُّ من (شط العرب) تجتاحُ ممزوجةً برائحة الأرض، ونكهة السَّمك، أروقة الجامعة، هذه العاصفة التي أقضّتْ مضاجع أفكار الطلبة، وداهمت ذاكرتَهُم في مواقعها، كأنها تحاولُ غسلَ ما تنوءُ به من معلومات امتحانية ثمينة. لقد تبرْعَمَ ضيقُهم في شُجيرات صدورهم، حسرات تتلظى، ووسوسات تلوذُ بقمصانهم البيض اللّزجة، خائفة ساكنةً. الأنفاسُ تسحبُ عرباتها منْ هذا الفراغ المكتّظ بزحمة المياه العالقة، على سكة من صخور ناتئة متناثرة. ببطء ترتشفُ الأنوف كؤوسها. الرطوبة المتحشدة في خنادقها على مشارف النهر الكبير، وهو يرسم لوحة اللقاء السحري، والذوبان الصوفي، لروحَي نهرين، يحكيان، ما يحكيان من قصص الحبِّ، التي بذرت لقاءاتها، فراقَها، توهجاتها، حمرَها، ورمادَها، كأنّها تستظلُّ بالنخيل الغارق بالانتصاب والمكلّل بالوقوف السرمدي، وهو يستنطقُ الأرضَ والمسافاتَ، التي أرختْ بساطها الأخضر بانسياب، راحتْ زرقة السماء تُلقي بأطراف جسدها الحالم البَضّ عليه، كلما رَمَتْ العيون ببصرها على الأقاصي الخرس، يسائلُ الماء الذي يشرَبُ الغرْيَنَ النحاسي من راحة الضفاف، يلمحُ الآفاق بنظرات شزْر، كأنَّ هذا السَّعفَ النحيفَ المنثورَ كالجنون في هامته، أسقمهُ القلقُ مَن سنين، يناشدُ الغمام، والرياحَ عن ذلك الإنسان: المتسربَل بأعماق التواريخ، والتائه حدَّ النسيان في مغارات الأزمنة.

هذه الرطوبة المزركشة بلزوجة الأجساد، نشرتْ قطعاتها على ضفاف النهر الكبير، والامتحانات: ساحة النزال الأخير، هما: قلقان يتآخيان في مشاوير مشاعر الطلَبة، لذا فهم يعدُّون الزّمَنَ بمقاييس مجهرية طيَّ أنفاسهم، يتابعونه بنظراتهم الزّائغة، يتحسسونه برموشهم الذّابلة بين أنامل السهر الرقيقة يتأوّهون، وهم يحتسون الشاي ملاذًا عن مصائد الوسَنَ، وقد نصبها الفجر على شرفاته، يمزجونه بنبضاتهم، كأنَّ دماءَهُم تجرُّ هذا الثقلَ الزمني، وهي تلتحمُ بالأوردة، وتتحدُ بامتدادات الشرايين ما بين الشهيق والزفير.

في غرفة من غرف القسم الداخلي، الذي يطل على الجامعة من الجنوب، ويرصدُ الطريقَ الممتد بين (التنّومة)(1)، و(المحمّرة)(2) كأفعى رملية ميتة، جلسَ زيدون على كرسي من البلاستيك المضغوط، يتكئُ قليلاً كي يمنح فرصة الاعتدال، والارتخاء لظهره الذي احدودبَ على الكتاب الطبّي، وقد فرشَ دفّتيه على طاولة مربعة الشكّل مطلية بطلاء أصفر دون عناية، تلتمعُ في صفحته اليُمنى عناوين طبيّة بلغته ـ الأم ـ اللغة الإنجليزية، بينما بدتْ في صفحته الأخرى صورة مجسمة لإنسان عار، في مرحلة من مراحل التشريح، والأسهمُ تُشيرُ إلى عضلاته، شريانه التاجي، قلبه الأرجواني وهو يتغنّج بهذا اللون الحافل بملامح الورود، تفاصيل العيون: العدسة، الشبكية، العصب البصري.. اتكأ بعد أنْ افترسَ الكتاب افتراسًا والتَهَمَ معلوماته بنَهم، ورغبة جامحة تُنبئُ من شاهدهُ عن مَدَيات إصراره، وهي ترسمُ فيه حين يخترقُ ببصره الكتاب العتيد أبعادَ ارتياحه النفسي.

هكذا بدا، كأن لقاءَهُ بمدير دائرة (أمن شطّ العرب) ذلك الموظف الأنيق الذي احتل بذلة زرقاء تبرقُ تحت أشعة مصابيح النيون بشراهة، وحاصر عنقَهُ بربطة يتّشح فيها الاحمرار، وتراجعَ السّمائي منزويًا على هيئة دوائر صغيرة، تميلُ إلى النعومة والنحافة كلّما انحدرت باتجاه نهاية الربطة المدببة، الموظف الذي تشرنّق بعطر ثمين، يفصحُ عن نفسه من بعد ليس بقصير. كأن ذلك اللقاء ألبسَهُ رداءَ الحيوية، وعلّمه لغة التواصل فقد كان وديًا، هادئًا أزاح أتربة الخوف وأنعش وريدات الأمل في حنايا نفسه، خلاله، علمَ أنّهُ إنسانٌ تكنُّ له السلطة كل التقدير لذكائه، تمدُّ يد العون له كي يَصلَ إلى مراميه الدراسية.

سيحكي كل ما دار في هذا اللقاء إلى صديقه وزميله مخلص.

سيقول له: إنّه لقاءٌ وديّ، كان مغايرًا لما قلتُه لي عن هؤلاء الناس في أثناء خروجنا من الجامع الكبير بعد صلاة الجمعة. لقد كتب الموظف يقينًا في ورقة نفسي، أخرجَ إلى الأبد طردًا، ما كتبتَ فيها من ظنون بهؤلاء، فقد احترموني بلطف، أسئلة سلسلةٌ وبسيطة أجبتُ عنها ببساطة أيضًا، وكأسٌ من العصير المثلّجُ صافحَ دواخلي ببرودة كالغَبش تنفخ في روحه نسائمُ صبح جديد، عصيرٌ بارد ـ يذكرّني لونه الفاقع باصفرار البيض الطازج الذي كثيرًا ما تعدُّه شقيقتي في عمق الظهيرة لنا وجبةً غذائية يتسيدُها الرّغيف الساخن كقلوب العاشقين ـ قتل ما دار فيها من حرارة القلق، متى عرفت مخلص؟! لماذا تصليان في الجامع الكبير؟! هل كان أبوك عاملاً في معمل الثلج؟! يا للعجب لهذه الأسئلة العقيمة يستدعونني ويحتفون بي احتفاء المنتصرين؟! هل أنت ساعدي؟! متى رحَلتْ عائلتك من العمارة إلى بغداد؟! ما أتفه هذه المواجهة الجوفاء؟!... ألمْ يكف أن أكون عراقيًا؟! مالفرق بين الغصون والجذور؟! كلاهما يتنفسان في شجرة واحدة! أليست بغداد والعمارة مدينتين عراقيتين؟ قد يكون هذا الموظفُ البشوش، فتح لي بهذه الأسئلة الصغيرة بابًا للإطراء والمجاملة، لما يعرفونه عن ذكائي في أروقة الجامعة وخارجها!! هل مات أبوك متأثرًا بورم في ساقه اليُمنى، أثر سقوط جسم حديدي عليها؟! لعلّه هناك مساعدات ماليّة للطلبة الفقراء أو اليتامى! لقد كان متأثرًا، وهو يهمسُ لي بهذا السؤال كادت تريني عينُه سمة الحنو والإشفاق بعد أن أصغى لشفاهي، وهي تدفعُ الحروف بهدوء رومانسي.. إنها الأسئلة تحملُ في طياتها أجوبتها، والحقيقةُ كلُّها مدونةٌ لديهم، إننا

نعيش هناك مَعَهُم، نأكلُ، نشربُ، نضحكُ، نبكي، نحبّ، نحقد، كأنه وهو يستقبلني صادقني من زمن الطفولة. نعم، شدّ أزري ذلك الموظف، وهو يحتسي كأسَ العصير، يُفَرِقُ خديّه بابتسامة صافية حانية أسكنْت اضطرابي في زمن الامتحانات العصيب، كي أواصلَ مسيرتي الدراسية، أنا على يقين، أسئلته وسيلةٌ لمجاملتي ليس إلا. نعم سأقول له: لا يا مخلص، لا كما قلت لي، ونحن نتمشى على (الكورنيش) مقابل رئاسة الجامعة: يطاردون ظلنا يحصون أنفاسنا، يعدّون نبضنا، سيحطمون مستقبلنا بمعاولهم الحاقدة، إذا نُصرُّ على عدم الانضمام إلى حزبهم الشنيع. لا يامخلص لقد قال هذا الموظف الخجول: نظريتنا تقول: نحن ضد الإلحاد ومع الإيمان. كلُّ شيء بدا لي مناهضًا لما تقول، حاول أن تصحح معلوماتك عن هؤلاء الأبرياء.

وضعَ يده اليمنى على خدّه، أسندَ مرفقها بثقة على طاولته، فاستجاب ظهرُهُ لهذا الوضع بشيء من الانحناء، بعدَ أن هيأ مادة حواره مع زميله مخلص، وصاغ جملَهُ وتصوراته ليوم غد ـ عقب الامتحان الأخير سينزوي به في ركنٍ من أركان نادي الطلبة، أو به ينأى في إحدى حدائق الجامعة، سيجني بين أغصانها ثمار قناعاته الجديدة ويرميها في أحضان مخلص.

ـ غدا آخر امتحاناتي، سأختم مرحلة الجد الأول، والمثابرة الأولى، ستشرفُ رحلة من رحلات العمر العالقة حدّ التشبث بالذاكرة، على ضفاف الانتهاء، سأضع (البكالوريوس) في يميني، أشمّها باقة ورد تخرج من أكمام الربيع، أتنفسها مع الهواء، ستتوقف هذه القافلة العطشى في واحة التأمل، ثم تسير، نعم، ستسير تحت ظلال الآمال، سأختمها بعون الله، وأقف على قمة الرّاحة، أتأمّلُ قممًا أخر، وأنا بصري لا يلتفتُ سوى التفاتة عابر، إلى وديان الجوع، والفقر، السرمديين، ستكون سرابًا ليس إلاّ، كابوسًا يرحلُ حالما تنغزلُ خيوط الفجر. من يدري يا زيدون؟! فطاقتك تحفرُ لك نهرًا منيفًا من العلم، سأخطو إلى (الماجستير) باتزان يتربصُ به الحذر، سنين أيها الساعدي، يا من تطاحنت في روحك متاهة الألم، وضياع الزمن، وتدورُ في دمائك رُحى البقاء، سنين معدودات، فإذا أنت أستاذ كبير في كلية الطب جامعة الـ .... !! سأملأ مخيلتي بالمعلومات الطبية، أحقنُ كياني بالعقاقير، سأكون كتلةً مشتعلةً من الذاكرة، سأنجح بتقصّي آلام المرضى، أنا الأولى بسبْر غور هذا الإحساس القاتل، هذا الشعور الذي يتقاسمُ وروحي جسدي، سأجسُّ النبض تلوَ النبض، وأرسم علاقتي بالزمن شَفَةً أقبِّلُها كُلَّ ثانية، سأصغي بإمعان للصوت الآتي من أعماق الصدور، كأنه يناديني من ظلمات احتضار ـ المتعبين، ستكون رسائلي الدراسية: حولَ أمراض الشيخوخة في المناطق الفقيرة، سأكون، سيكون، سأكون، سيكون، سأكون، سيكون. هكذا تنطلقُ من أوكارها الأحلام بلا أجنحة، في حدائق نفسه، وتقفزُ في عيونه الصفر أحلام الإرادة. هكذا تُتمتم جوارحُهُ قُربَ ساقيته الواسعة: كتابه الطبي الفخم.

على الطاولة وضع كفّيه النحيفتين ونَهضَ متعبًا، خطا باتجاه شرفة الغرفة، أطلّ منها على حديقة القسم الخلفية. بدت قسماتُهُ كعائد من مدينة الأحلام ـ يلهث من عمق المسافات ـ إلى واقعة المركون في زاوية الألم: تُرى ماذا تعمل أمي الآن؟ هل رجعت من المدرسة؟ هل ساعدها (علي) بتنظيف غرف الدراسة؟ هل قامت (بلقيس) برش ساحة المدرسة بدلاً منها؟ أتمنى أن لاتنس سَقيَ الحديقة، قد تموت، أو تذبل أزهارها، فتلسعها تلك (المديرة) العانس بسياط اللسان. ربما تدلفُ البيت الآن غاضبةً، وتُخفي كعادتها تحت عباءتها أنينها ... ـ الشاي، أمَّ زيدون، حُلوٌ زيادة، يا أم زيدون، الشاي مُرٌّ. أمُّ زيدون، لمّعي الأواني جيدًا، اعتني بالملاعق، شُعَبُ الصف الأول، لم تكنْ نظيفة اليوم، يا أمَّ زيدون، لانقبل أن يقوم أولادُكِ بدلاً منك بالعمل.

أطلق حسراته، وهو يتذكر تلك العبارات، ذلك السيل اللاهب المفعم بالحَيرة ـ ينحدرُ من شفة أمّه، بعد أن تتوسّدَ فراشها، تلعنُ الدهرَ وخباياه، ومعمل الثلج الذي خطفَ زوجها، وهو يكتنز بطاقته الخرافية، ثم تخلط نذرها بشهقة خائفة راعشة: سأذبح ثلاث ذبائح في أولّ راتب يتسلّمه زيدون....

ـ متى ينطلقُ فرسُ همِّها من جسدها المحاط بسور من الوشم؟! هكذا لملمَ عبارتهُ، وسرحَ في الألم حدَّ الأنين وغارَ بالأمل حدَّ الأوهام.

اللّوحةُ تضجُ بأبصار الطلبة، أضحتْ جسدًا مقدّسًا تلتسق، تتقاطعُ بقية العيونُ، تشعُ بدرجات زيدون، تأنّقتْ حروف اسمه فيها، والامتياز يُشيرُ إليه بالبنان، والطلبةُ، يتزاحمون، يتأوّهون على حروف أرغفة (الدرجات) اليابسة، ليسدّوا هذا الجوع النفسي العميق الذي يسكن ثناياهم بدهشة وإعجاب، كتبتْ رئاسة الجامعة ثناءَها الأسيلَ، على طالبها المثابر: زيدونَ، ولمعّت قرارها بالإشادة الإلزامية، بالثورة وقائدتها: الأسطورة، ودعوة ندية بالأمنيات الخصبة والمستقبل الزاهر لطالبها النحيف الآتي من غابة الفقر والعناء، لتسلّم هدية رئيس الجامعة بعد مواجهة عميد الكلية لاصطحابه إلى الرئاسة....

رنَّ جرس الهاتف، في محل حلاقة الأنوار الكائن في الركن الأيمن للشارع المسكين، المرتدي سكونَهُ حزنًا، كأنَّ الذي يمرُّ به، يمرّ بمقبرة تغتسل بقاياها بتراتيل صامتةً واجمة، والنحيبُ الدّفين يخرجُ خلسةً متسترًا بعباءات سُعال الشيوخ والعجائزة الدكن، أسبغَ عليه سحنة القهر ولونَ الهوان بعدَ أن ضربَ (مخلص) الأرقام، قلقًا، خائفًا، فللبشرى التي يزُفها إلى زيدون سعيدًا، طقوسها النفسية.

بإيجاز مفيد دافَ جُملَهُ، يُخالطها اللّهاثُ المُسرعُ من صدره قبل أحرفها الساخنة. فكان السلكُ الممتد بين البصرة وبغداد ملتقى ضدين: الفجر بهمساته الرّاقصة السافرة، المتوحشة بلغة النور، والليل بخفاياه المعلنة، العقيمة وحروفه الخرس العابسة.

تَمازجَ الضدان في سلك يمتدُّ كالشريان، فللأصوات حفيفُ الدّماء، وهي تفرُّ من الثغور كالغربان. مُنذُ ساعات خُتمَ مجلس الفاتحة على روح الفقيد زيدون. حينها، أيقن مخلص: أنّ كؤوس العصير مشانق شفّافة رائقة وحبال ندية.، يترجّح بها الإنسان من أحشائه.

أدرك: ربما تُنصَبُ إطراءً لطيفًا ومصافحة ساخنةً، وابتسامة عريضة عندها: وَسعَ يقينُهُ، وسعَ البشاعة التي يحملون... بأنه على الطريق.

هوامش

(1) التّومة: مدينة عراقية واقعة جنوب البصرة تقع جامعة البصرة في جنوبها سابقًا.

(2) المحمّرة: مدينة إيرانية حدودية تبعد عن الحدود العراقية الجنوبية قرابة (15)كم.





روّاد الذهب الأسود

عبدالإله بوبكر السويلمي

في تاريخ البترول عامة، وصناعته خاصة، إنجازات عظيمة ومدهشة. ولعل أكثرها إدهاشًا اجتياز هذه الصناعة للمشكلات الكثيرة التي واجهتها في البداية.

ولم تكن هذه الإنجازات من عمل فرد واحد، بل كانت نتيجة أعمال عدد من الرجال خطوا بهذه الصناعة الوليدة، آنذاك، خطوات حاسمة إلى الأمام. إذ لولا عبقرية هؤلاء الرواد ومثابرتهم لتأخر ميلاد صناعة البترول سنوات كثيرة، لا بل إنه من الصعب أن نكوّن صورة صحيحة للعالم لولا ما قاموا به. ولنبدأ القصة من بدايتها..

في خريف عام 1853م عاد جورج بيسل G.H. Bissell إلى هانوفر (ولاية نيوهامشر). فهانوفر هي موطنه الأصلي، ففيها تعلم واشتغل بالتدريس والصحافة في بداية حياته، في الوقت نفسه الذي كان يتابع فيه دراسته القانونية. وبعد تخرجه في قسم القانون بكلية «دارتموث» ذهب إلى نيويورك حيث أسس بالاشتراك مع جوناتان ج. إفليث J.G.Evelgth مكتبًا للمحاماة.

زجاجة مضيئة

وفي أثناء إقامته في هانوفر، زار صديقه الكيميائي والطبيب ديكسي كروسبي Dixi Crosby، الذي أطلعه على زجاجة احتوت عينة من زيت الصخر(1) (البترول)، وقال له: إن هذا الزيت أفضل من الفحم لإنتاج زيت الإضاءة. وعلم منه أيضًا أن هذه العينة قد حملها إليه أحد معارفه، الطبيب فرنسيس بريوور F.B.Brewer، وأنه (هذا الأخير)، حصل عليها من ينابيع بترولية متدفقة في أراض تابعة لشركة الخشب والنجارة التي يديرها والده، في حوض «أويل كريك» جنوب تيتوسفيل (ولاية بنسلفانيا).

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي سمع فيها بيسل عن مزايا البترول. ولكنها كانت من دون شك المرة الأولى التي يقرر فيها، استغلال الإمكانات الهائلة الكامنة في هذا الزيت.

أول شركة

كانت الخطوة الأولى التي قام بها بيسل، بعد لقائه التاريخي بكروسبي، هي أنه كتب إلى بريوور الذي كانت له به معرفة سابقة، يطلب منه التفصيلات كل التفصيلات، عن زجاجته البترولية.

وبعد ذلك عمل على إقناع شريكه السابق جوناتان إفليث بالاشتراك معه في مشروعه الجديد. وفي 5 تشرين الثاني/نوفمبر 1854م حصل الشريكان على امتياز لمدة 99 سنة يسمح باستخراج البترول واستغلاله من جزء من الأراضي التي تمتلكها شركة بريوور وشركائه مقابل خمسة آلاف دولار.

ثم أرسل بيسل البراميل الثلاثة الأولى، التي جادت بها ينابيعهما البترولية، إلى البروفسور بنيامين سليمان (الابن) B.Silliman أستاذ الكيمياء المشهور بجامعة ييل Yale ليقوم بتحليلها وكتابة تقرير عنها.

وفي انتظار صدور تقرير الأستاذ سليمان، قرر الشريكان عدم إضاعة الوقت وسجلا في 30 كانون الأول/ديسمبر 1854م ميلاد شركتهما "شركة بنسلفانيا لزيت الصخر بنيويورك Pennssylvania Rock Oil Companyof N.Y"، فكانت أول شركة بترول في العالم.



النقل من أهم المشكلات التي واجهت الرواد الأوائل

تقرير ذهبي

وفي نيسان/أبريل 1855م، انتهى أستاذ الكيمياء من وضع تقريره الرائع الذي جاء فيه: "... يمكن القول، باختصار، إن شركتكما تمتلك مادة (خام) يمكن منها صنع منتجات قيمة للغاية، بعمليات بسيطة وقليلة الكلفة، ومن دون تبديد كثير في المادة الخام..". لم يكن الشريكان في حاجة لأكثر من هذا، لقد أصبح في ملكهما الآن وسيلة لإقناع كل متردد، لا بل إن المؤسسات العلمية كلها أضفت المصداقية على مشروعهما.

وطبع الشريكان التقرير في عدة نسخ، ووزعاه على رجال الأعمال وأصحاب المصارف، وكل المستثمرين المحتملين، وعملا، أيضًا، على نشره في الصحف. كما قاما بجولات كثيرة، للدعاية لشركتهما، حملتهما إلى الكثير من مدن الشرق الأمريكي.

وفي أثناء زيارتهما لمدينة "نيوهافن" (ولاية كونيكتكت)، قابلا أحد رجال الأعمال؛ يدعى جيمس تونسند James M. Townsend، صاحب ورئيس مجلس إدارة مصرف نيوهافن للتوفير"، وأطلعاه على التقرير، فأظهر اهتمامه بالمشروع، ووعدهم بشراء عدد من الأسهم، بل العمل على إقناع زبائنه وأصدقائه بالاشتراك في الشركة الجديدة، ولكنه اشترط عليهما مقابل ذلك مجموعة شروط، من بينها أن يعاد تنظيم شركتهما تحت قوانين كونيكتكت، التي لا تفرض على المسهمين الكثير من الالتزامات إزاء ديون الشركة. ولأن الشريكين كانا في حاجة إلى المال، وإلى خبرة رجل أعمال مثل تونسند وحنكته، فقد قبلا شروطه.

وهكذا تم تنظيم الشركة من جديد، وتم تسجيلها في كونيكتكت في 18 أيلول/سبتمبر 1855م تحت اسم "شركة بنسلفانيا لزيت الصخر بكونيكتكت" برأسمال قدره (300) ألف دولار.

إدوين دريك

تحمس تونيسند للشركة الوليدة، وبدأ يغري الناس بطرائق مباشرة وغير مباشرة، بالإسهام فيها. وكان من أوائل الذين دفعهم تونيسند للاشتراك في المشروع الجديد، سائق قطار متقاعد، في الأربعين من عمره، يقيم معه في الفندق نفسه، ويدعى إدوين لوزنتين دريك Ed-win.L. Drake.

لم يكن أي شيء في حياة دريك ولا حياة أسرته يدل على أن اسمه سيصبح مقرونا بصناعة البترول. لقد بدأ حياته العملية في مزرعة والده، ثم اشتغل خادمًا على ظهر سفينة بالبحيرات الكبرى، ثم كاتبًا في أحد الفنادق. وفي عام 1841م أصبح عميلاً لأشغال الشحن بنيوهافن ونيويورك سيتي. وفي عام 1847م أخذ يشتغل قاطعًا للتذاكر، وذلك قبل أن يستقر به المقام ابتداء من 1849م، وهو في الثلاثين من عمره، سائقًا للقطارات في شركة "نيويورك ونيوهافن للسكك الحديدية".

وفي أثناء عمله هذا اتخذ من إحدى غرف فندق "تونتين" في نيوهافن، مسكنًا له. وبدأ يدخر جزءًا من مرتبه، حتى إذا ما استطاع بحلول 1856م، أن يوفر مئتي دولار لجأ لصديقه تونيسند الذي كان يقيم معه في الفندق نفسه كما سلف الذكر، يطلب رأيه في كيفية استثمار هذا المبلغ، فحثه على شراء (10 أسهم) في شركة بنسلفانيا للبترول.

وفي صيف 1857م أصيب دريك بمرض مما أجبره على أخذ قسط طويل من الراحة والاستجمام والتخلي مؤقتًا عن عمله مع شركة السكك الحديدية، ولكنه مع ذلك ظل يحتفظ بتصريح مجاني لركوب قطارات هذه الشركة. ويقال بأن هذا أحد الأسباب الأساسية التي دفعت تونيسند لأن يستدعيه، بعد أن شفي من مرضه، ليتسلم منصب وكيل عام في شركة البترول الجديدة التي يترأسها.

وللحقيقة لم تكن هناك شركة جديدة كل الجدة. كل ما هنالك أن الاختلافات بين المسهمين في الشركة الأم، شركة بنسلفانيا، اضطرت تونيسند وبيسل وعدد من زملائهما للانسحاب، وتأسيس "شركة سينيكا للبترول" Saneca Oil Company (2) 23آذار/مارس 1858م برأسمال قدره نصف مليون دولار.

العم بيلي

وتركزت أفكار تونيسند أول ما تركزت، بعد ميلاد "سينيكا للبترول" حول معضلة زيادة الإنتاج. ومن ثم كانت مهمة الوكيل العام الجديد الأساسية هي استنباط وسيلة للحصول

على كميات أكبر من البترول، من الأراضي التي ورثتها "الشركة الجديدة" في "اديل كريك" قرب تيتوسفيل. ذلك أن أملاك بنسلفانيا وامتيازاتها انتقلت إلى سينيكا.

وهكذا، وفور وصوله إلى تيتوسفيل بدأ دريك يفكر ويعمل على إنجاح مهمته، ومن أجل ذلك قام بعدة تجارب. فلما أخفقت هذه المحاولات، صمم على «ثقب» الأرض بحثًا عن البترول كما يفعل الباحثون عن المياه المالحة. وهي فكرة كان قد اقترحها بيسل منذ 1857م، ولكنها لم تلق وقتئذ حماسة من حملة أسهم شركة بنسلفانيا.

ولما كان دريك لا يكاد يعرف شيئًا عن ثقب آبار الملح، فقد قرر الاستعانة بحفار أو ثقاب متخصص قادر على إنجاح التجربة.

وقطع عشرات الأميال قبل أن يتعاقد مع الرجل المناسب ليعمل عنده. وهو حداد من مدينة سالينا (بولاية بنسلفانيا)، هجر الحدادة وتخصص في حفر الآبار الملحية، ويدعى وليم (العم بيلي) سميث Williiam (Uncle Billy) Smith.

وفي نيسان/أبريل 1859م بدأ عمال دريك يبنون، تحت إشراف العم بيلي، برج الحفر والمستودع التابع له الذي سيخصص للمحرك البخاري وملحقاته.

لقد كان دريك ينوي استخدام الأسلوب المعتمد في حفر آبار الملح، في ذلك الوقت، وهو ما يعرف بأسلوب "الحفر بالطرق" -Le forage par pescussion. ويقوم هذا الأسلوب على مثقب معلق بحبل (من القنب) ترفعه وتخفضه عارضة Balancier ترددية في ذهاب وإياب عمودية يحركها محرك بخاري.

وبدأ الحفر في حزيران/يونيو، غير أن سلسلة من الانهيارات التي أحدثتها المياه الجوفية، وكذلك مياه الأمطار التي كانت تتسرب إلى داخل البئر، أودت بحياة المشروع الذي أطلق عليه الناس في تيتوسفيل "حماقة دريك" Drake's Folly. ولكن هل كان دريك مجنونًا حقًا؟

البترول!! البترول!!

وعكف دريك يفكر ويفكر كيف يمكن الحد من هذه الانهيارات؟ لابد من دعم جدران البئر وتقويتها من كل الجهات، لابد من تبطينه، ولكن كيف؟

إدوين دريك سائق القطار المتقاعد والعم بيلي الحفّار رفضا الاستسلام إلى اليأس، وجعلا أمريكا كلها تصيح: البترول!! البترول!!

وهنا واتاه إلهام مفاجئ، بل دعني أَقُلْ، فكرة من تلك الأفكار الثورية التي تغير العالم وتجعل أصحابها يسجلون أسماءهم في سجل التاريخ بمداد من الفخر والاعتزاز.

لقد فكر ببساطة أن يُدخل في الأرض أنبوبة (ماسورة) من الحديد حتى تصل إلى صخور القاع، ومن ثم يقوم بإجراء عملية الحفر داخل تلك الأنبوبة. أما حطام الصخور والتراب، فيتم رفعه إلى السطح دوريًا بوساطة مغرفة، ترفع برافعة. فكان هذا المبدأ المعمول به إلى اليوم، اختراعًا رائعًا وإيذانًا بافتتاح طريق النجاح أمام صناعة البترول.

وفي شهر آب/أغسطس 1859م، وعندما كانت عملية الثقب داخل أنبوبة الحديد تسير بحزم وهمة، وصلت إلى دريك رسالة من نوينسند، يطلب منه فيها أن يصفي حسابات المشروع ويكف عن مواصلة العمل فيه. ذلك لأن خسائر الشركة كانت قد بلغت حتى ذلك الحين 2500 دولار، ولكن دريك كان قد استدان قبل وصول تلك الرسالة إليه مبلغ 500دولار لحسابه الخاص. وهكذا، وبعد أن نفض المسهمون أيديهم من المشروع، مضى دريك في العمل على مسؤوليته الخاصة.

وفي أصيل يوم السبت 27 آب/أغسطس، وقد مالت الشمس إلى المغيب، وصل المثقاب إلى فجوة في جوف الأرض على عمق 25 مترًا. فسحب العم بيلي وابنه "سام" المثقب الحديد من فتحة البئر وأوقفا العمل.

وفي اليوم التالي، عاد العم بيلي لفحص الأنبوبة، ووجد لدهشته البترول داخلها، فارتفع صوته عاليًا: "البترول!! البترول!!" فسمعت أمريكا، ورددت، هذا الصوت.

جنون البحث عن البترول

كالنار في الهشيم انتشر الخبر في الولايات المتحدة. وسرت بين الناس حمى البترول التي أحدثت هوسًا وجنونًا جماعيًا، فاق ما أحدثه اكتشاف الذهب (الأصفر) في كاليفورنيا عام 1848م.

وخلال الأشهر الثلاثة التالية تحولت تيتوسفيل والمناطق المحيطة بها إلى خلية نحل بشرية، وبسرعة كبيرة دب النشاط في جنبات المدينة الخاملة. فقد أخذت الأموال تتدفق بسخاء على أعمال التنقيب، واختفى المنظر الطبيعي لتيتوسفيل تحت أكوام الصناديق والبراميل والمراجل والرافعات، وحتى الشوارع تشققت لكثرة مرور العربات الناقلة للبترول، وصار المارة يضطرون للخوض في الأوحال السود بكلمة واحدة، لقد صار البترول في كل مكان وفي كل عقل.

ولعل لغة الأرقام تكون هنا أكثر دلالة على ما نقول، ففي عام 1859م كان الإنتاج لا يتجاوز ألفي برميل (بئر دريك)، وفي عام 1860م ارتفع الإنتاج إلى 500 ألف برميل، ليصل بعد ذلك بخمس سنوات، إلى مليوني برميل ونصف المليون.

غير أن أمريكا لم تكن مستعدة لكل هذا البترول المستخرج "فجأة"، فلم تجد البراميل الكثيرة سوقًا ملائمة لصرفها، كما أن اندلاع الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب عام 1861م، لم يساعد على التصدير إلى أوروبا.

وإذا أضفنا إلى كل ذلك فوضى الحفر والإنتاج، وصعاب التخزين وغلاء أثمان البراميل الخشبية، فإن النتيجة المرتقبة تكون منطقية لا تفاجئ العارفين بأسواق البترول، وكانت النتيجة

الطبيعية هبوطًا هائلاً في الأسعار، ففي كانون الثاني/ يناير 1860م نزل السعر من 18دولار للبرميل إلى عشرة دولارات، ثم تدهور في عام 1861م إلى عشر سنتات للبرميل فقط.

حرب النقل

لم تكن فوضى الحفر والإنتاج وانخفاض الأسعار ومؤامرات المضاربين..الخ، هي المشكلات الوحيدة التي واجهت الرواد الأوائل، بل واجهتهم مشكلات أخرى كثيرة، لعل أهمها مشكلة تخزين الخام وتعبئته ثم نقله إلى معامل التكرير.. وطبيعي أن يكون لهذه المشكلة علاقات بـ "الإنتاج" و"الأسعار".. وما ينتج عن ذلك من مؤامرات.

ولقد كان إنتاج الآبار يخزن في بادئ الأمر في خزانات تحت سطح الأرض تبطن بالخشب والإسمنت، ثم ما لبث أن تطور الأمر إلى إنشاء مستودعات فوق سطح الأرض بنيت من الخشب، ولأن هذه كانت صغيرة الحجم وسريعة الاشتعال، فقد استبدلوا بها مستودعات ذات سعات أكبر منشأة من الحديد الزهر.

كان هذا عن التخزين، أما النقل فالجدير بالقول إن حقول البترول الأولى تمركزت بالأساس حول نهر "أويل كريك"، وهي منطقة تبعد زهاء 20 ميلاً عن أقرب خط للسكك الحديدية.

كذلك كانت مدينة "أويل سيتي" حيث يلتقي "أويل كريك" بنهر الليغاني تبعد عن مدينة "بتسبرج" (أهم مركز للتكرير) الواقعة على نهر الليغاني مسافة 132ميل، لذلك كان يتعين نقل الخام في براميل خشبية (سعة 159لتر) على عربات تجرها الجياد إلى حيث ينقل بالسكك الحديدية أو مائيًا (بالقوارب والعوامات) إلى بتسبرج.

وقد كانت عمليات النقل محفوفة بالمخاطر فعربات كثيرة كانت تظل غارقة في الأوحال السود الزلقة، بينما تكون البراميل مهددة بالانفجار في كل وقت. وكثيرًا ما كانت العوامات والقوارب تغرق أو الشحنات تلتهب بالنيران أو تتدفق في مياه النهر.

ولكن عمليات النقل من جهة أخرى، كانت تدر أرباحًا كبيرة وسريعة. ففي تيتوسفيل كان سائقو العربات يتلقون عن كل رحلة مبلغ ثلاثة دولارات للبرميل الواحد. أما أصحاب الزوارق والعوامات، فكانوا يتقاضون حسب المسافة، من سنتين إلى خمسة سنتات للبرميل الواحد.

ولقد تمت حركة النقل المائي على يد رجال مغامرين كان أبرزهم فاندر جريفت J.J.Vandergrift الذي كان ربّانًا في نهر أوهايو، ودفعته الحرب الأهلية إلى الشمال بعد أن عطلت (الحرب) حركة سفنه في نهر المسيسبي، ثم بدأ ينقل البترول سائبًا دون تعبئة في صنادل.

وكان فاندرجريفت يشتري الخام من مناطق الإنتاج ثم يبيعه في بتسبرج فجمع ثروة كبيرة، وصار له فيما بعد شأن في صناعة البترول.

فوضى الحفر والإنتاج وانخفاض الأسعار ومؤامرات المضاربين ومشكلة تخزين الخام وتعبئته من المعوقات التي واجهت الرواد الأوائل

فان سيكل

بعد انتهاء الحرب الأهلية ارتفع الطلب على البترول داخل الولايات المتحدة وفي أوروبا، وهو الأمر الذي دفع بشركات السكك الحديدية إلى مد خطوطها إلى مناطق الإنتاج مباشرة وربطها بمعامل التكرير. فبحلول سنة 1866م كانت تيتوسفيل، وغيرها من مدن البترول مثل "بتهول" Pithole، قد ربطت بشبكة السكك الحديدية الوطنية.

وفي بادئ الأمر كانت السكك الحديدية تستخدم لنقل الخام عربات مزودة بخزانات أسطوانية من الخشب. وبعد ذلك استخدم دونيس مور Denis More، عربات الصهاريج (1865م)، وفي الزمن نفسه تقريبًا ركبت صهاريج دائمة في السفن لنقل البترول، فكان ذلك إيذانًا بمولد ناقلات البترول. وكانت نتيجة كل هذا "النشاط" انخفاضًا محسوسًا في أسعار النقل إلى دولارين بالعربات ودولارين وربع الدولار بالقطارات. ولكن عمليات النقل مع ذلك بقيت مُربحة. وليس عجيبًا أن يتسابق العاملون في هذا الميدان إلى ابتكار تقنيات وأساليب جديدة في النقل. ولعل أبرز هؤلاء جميعًا هو صامويل فان سيكل S. Van Syckel، الذي كان من الرواد في إنتاج الكيروسين (زيت الإضاءة)، ثم جاء إلى تيتوسفيل في خريف عام 1864م للعمل في مجال نقل الخام. وفي 10تشرين الأول/أكتوبر 1865 أنشأ أول خط أنابيب ناجح، مما حدا به إلى القيام فورًا بإنشاء خط أنابيب آخر أتمه في كانون الأول/ديسمبر 1865، فكان ذلك ثورة حقيقية في مجال نقل البترول. إذ بفضل الأنابيب لم يعد البترول معرضًا لخسائر دائمة بسبب استخدام العربات المترجحة والطوافات الهزازة، بالإضافة إلى التعرض الدائم لخطر النار. كما أن الوسيلة الجديدة تتيح نقل كميات كبيرة في وقت قصير، وبسعر دولار واحد للبرميل.

وقابل أصحاب عربات النقل والسكك الحديدية هذا التحدي الجديد بالعنف، ولكن "فان سيكل" كان لهم بالمرصاد، فقد نصب حراسًا مسلحين للدفاع عن أنابيبه.

"القرصان" روكفلر

في عصر الملحمة والصراع هذا، دخل ميدان البترول شاب في العشرين من عمره، يدعى جون ديفيسون روكفلر J.D.Rockfeller، كان له فضل كبير في التطور الذي طرأ على صناعة البترول في العالم، لأنه أدرك قبل غيره أن الربح يجنى من تكرير البترول ومعالجته لا من استخراجه.

وبدأ روكفلر في عام 1862م يشتغل بشؤون البترول بالاشتراك مع بعض أصدقائه، من بينهم فلاجلر Flagler وأندروز An-drews والأخوان كلارك Clark وأسسوا

شركة تكرير في "كليفلاند" (ولاية أوهايو). وما هي إلا سنوات قليلة حتى اتسعت أعمال الشركة فأصبحت تكرر خمس البترول في كليفلاند.

وفي 1870م انضم "لجون" أخوه "وليم" ونفر من الرأسماليين، وأصبحت الشركة تعرف باسم "شركة ستنادار أويل بأوهايو" Standard Oil Company of ohio، وبعد تسجيلها في 10 كانون الثاني/ يناير 1870م برأسمال قدره مليون دولار، وهو مبلغ كبير جداً في ذلك الوقت، زيد بعد أربع سنوات من التأسيس ليصبح 3,5 مليون دولار.

واستغل "روكفلر" الفوضى التي سادت في أثناء العقود الأولى من صناعة البترول، فاستفاد من المنافسة بين شركات السكك الحديدية، ومنافسات صغار المنتجين، ومن خسائر حفر الآبار، ومن انعدام الرقابة على الإنتاج ونقله وتوزيعه. فتحكم في المنتجين الصغار وهاجم المنافسين له بطرق مشروعة وغير مشروعة، بل اشتهر بأساليبه الملتوية التي كانت تشبه أعمال القرصنة، واستعمل وسائل كثيرة غير نظيفة ولا شريفة في المضاربة على البترول. وبذلك ضمن التحكم في صناعة البترول من الإنتاج إلى التوزيع.

وبحلول أوائل الثمانينيات من القرن الماضي كان روكفلر قد أدخل في نطاق شركته ما يقارب 80٪ من الطاقة التكريرية و90٪ من خطوط الأنابيب في الولايات المتحدة.

رواد الجيل الثاني

لقد مات دريك عام 1880م قبل أن يعرف أن ما شاهده من إنجازات للبترول، لم تكن سوى البداية، إن الانتصارات الكبرى للبترول ستتحقق فيما بعد.

فالإنتاج في البداية لم يكن لتلبية الطلب على الجازولين ومئات المواد الأخرى التي تحتاج إليها صناعة البتروكيمياء.. مثلاً، بل كل الإنتاج من البترول خلال الستينيات وحتى الثمانينيات من القرن الماضي؛ كان يتحور حول الكيروسين ومواد التشحيم. ولذلك عندما علم الناس بأن أديسون اخترع عام 1881م مصباحًا كهربائيًا، لا يوازن بمصابيح البترول في قوته ونظافته وانتظامه، شرعوا في تصور المستقبل المخيف والمظلم الذي ينتظر كل المشتغلين في ميدان البترول.

لكن، وبعد أن ضاقت الدنيا برجال البترول.. جاء الفرج، ففي عام 1883م توصل المهندس الألماني جوتليب ديملر G. Daimler إلى اختراع محرك سهل، صالح للاستعمال في الصناعة والنقل.. ويدور بقوة البترول.

ومن ذلك الوقت أخذ الإنتاج يقفز بخطا واسعة، فقد دخل إلى ساحة السباق نحو الذهب الأسود، جيل جديد، جيل الشركات العملاقة، التي تعمل بنظام الاحتكار، متفقة فيما بينها على تقسيم مناطق النفوذ، غير عابئة بصراخ الدول النامية المنتجة للبترول، التي تطالب بالتوزيع العادل للأرباح الناتج عن الاستثمار.

فان سيكل أنشأ أول خط أنابيب لنقل البترول متحدياً أصحاب عربات النقل والسكك الحديدية ومؤامراتهم

البترول العربي

إذا كان ما سبق ذكره ملخصًا لقصة الإنسان مع البترول، فإن من المهم الإشارة إلى بدء إنتاج البترول في العالم العربي، فقد كانت مصر أول قطر عربي ظهر فيه البترول، عام 1869م. وظلت هي القطر العربي، الوحيد المنتج حتى عام 1927م حينما ظهر النفط في العراق بكميات تجارية. وفي عام 1934م تم تصدير أول شحنة من النفط البحريني. بينما صدرت العربية السعودية أول شحناتها من النفط في عام 1938م. وفي العام نفسه، ظهر البترول بالكويت. أما قطر فبدأت إنتاجها النفطي عام 1949. وبدأ الإنتاج في «أبوظبي» عام 1962م، ثم ظهر البترول بعد ذلك في سلطنة عُمان عام 1967م. وآخر قطر عربي في آسيا يظهر فيه البترول هو اليمن.

أما فيما يخص أقطار الشمال العربي الإفريقي، فقد كانت الجزائر أول قطر منتج، إذ بدأ الإنتاج عام 1951م. وفي عام 1961م بدأ الإنتاج في ليبيا. وكانت تونس آخر قطر عربي في الشمال الإفريقي ينتج النفط.

الهوامش:

1– ذلك أن اللفظ الإفرنجي Petroleum (Pétrol) مقطعه الأول بترا Petra معناها الصخر، ومقطعه الثاني أوليم Oleum ومعناه الزيت.
وسمى العرب هذا البترول، زيت الصخر، بالنفط، وكذلك سماه الرومان ومن قبلهم الإغريق Naphta، وكذلك سماه الآشوريون والبابليون.
راجع المرحوم أحمد زكي - الكيماويات البترولية - العربي العدد 145 ديسمبر 1970م، وكذا كتابه القيم "في سبيل موسوعة علمية" - دار الشروق - بيروت 1971 ص 358 وما يليها.

2– السينكا Senaca إحدى قبائل الإروكويز Iroquois، التي كانت تستوطن في أحواض نهر سان لورون Saint-Larent وبحيرات إيري، وهيرون وأونتاريو. وتعد هذه القبائل، بالإضافة لقبائل Osages، من أغنى قبائل الهنود الحمر بفضل تواجدها في مناطق غنية بالبترول.

المراجع:

- Giddens.P.H- Early days oil, Apicrorial History of the Biginning of Industry in Pennsylvania- Princeton University Press- New Jersey- 1948.
- Giddens.P.H- Birth Day of the Petroleum Industry- Puplished by the Commonwealth of Pensylvania- 1944.
- Giddens.P.H- Edwin L. Orke and the birth of the Petroleum Industry- Historic Pennsylvania leafleat No.21- Pensylvania Historial and Museum Comission, Harrisburg, 1975. Second Edition.
- Fanning M. L. E. L. Drake: Pére de l'industrie Pétrolifere, in "Capitaines d'industries" Traduction Monica Charlot-Nouveaux Horizons- Paris 1963.
- Rousseau. P - Découverte du pétrole- Historia (magazine) No. 52- Mars 19652. Edition Tallandier - paris.
- Lefevre G. Comment est né le pétrol- Historia No. 124- Mars 1957.
- Devaux p. Ily a cent ans.. la course au petrole - historia NO 153 Aout 1959.
- Tacconi. F. est Procofieff. N.- Drake pionnier de l'or noi- (volume10)- Collection: Historie de Far-West- Larousse- Paris 1982.
- Marcello c. et procofiff. N- rokfeller et la standard oil (vol.II) coll: hostoire du far - west. larousse. paris 1982.
- Borjeix. J. et Calval P. et autres-le pétrol et le gaz-Collection Encyclopoche larousse- Paris 1976.
– البراوي. ر – حرب البترول في العالم – مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة 1968م.
– جودة السحار. ع – صانعو الاقتصاد الأمريكي – مكتبة مصر – من دون تاريخ.
– بيرد. ش و م – تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، الجزء الثاني – الطبعة العربية، منشورات مكتبة أطلس – من دون إشارة للمترجم ولا التاريخ.
– عبدالقادر الفقي. م – البحث عن النفط – مجلة الفيصل العدد 56 – ديسمبر 1981م.

النظام الجنائي في الإسلام

مبدأ الشرعية والمسؤولية الجنائية

د. تماضر حسون

لإعطاء فكرة مبسطة وواضحة - إلى حد ما - عن النظام الجنائي في الإسلام، سنقوم بتقسيمه أربعة أقسام أساسية: يختص القسم الأول منها بمبدأ الشرعية والمسؤولية الجنائية، ويختص القسم الثاني بالعقوبات، أما القسم الثالث فيختص بالإجراءات الجنائية، بينما يختص القسم الرابع بتنفيذ العقوبات.

القسم الأول:

مبدأ الشرعية والمسؤولية الجنائية

أ- مبدأ الشرعية:

ومعنى هذا المبدأ أن جميع ما يصدر عن الإنسان من أفعال مباح في نظر النظام الجنائي الإسلامي، ولا يعد منها جرائم إلا ما ورد فيه نص قرآني، فلا جريمة ولا عقوبة إلا بنص قرآني.

إن هذا المبدأ يضمن حرية المواطن ويضعه بمأمن من الملاحقة الجنائية التعسفية، إذ يعرف كل فرد حدوده فيلزمها، ولا يمكن أن يتعرض للملاحقة فيما إذا أتى عملاً لا ينص على تجريمه.

وفي حال عدم وجود النص القرآني، لايرى الفقهاء مانعًا من الاسترشاد بالقياس والاستنباط بوصفهما وسائل تؤازره في إيجاد القاعدة الفقهية. إن التجريم في النظام الجنائي الإسلامي يرمي إلى مجابهة الجرائم التي تهدد أمن المجتمع، كما يرمي إلى حماية المصالح التي عدّها المشرع الأعلى جديرة بالحماية لتعلقها بحياة الإنسان وماله ونفسه وبحياة الجماعة ككل؛ فالمسوّغ للتجريم هو بالذات الحرص على حماية الإنسان والمجتمع من الاعتداء.

ومن هنا تُعدّ العقوبات التي تفرضها الأحكام التجريمية على من يعبث بتلك المصالح المحمية، وسيلة وقائية قائمة على التحذير والردع والزجر.

ويرتبط هذا المفهوم الوقائي للأحكام التجريمية بمفهوم أشمل يعرف بالمفعول الوقائي للقانون الجنائي. فالقانون الجنائي عُدَّ منذ البدء وسيلة واقية من الإجرام بما يحمله من وعيد بحق الجاني مما يفترض بأنه يؤثر في نفسيته فيردعها عن الإقدام على اتباع السلوك الإجرامي.

ويمكن من هذه الزاوية، فهم شدة العقوبات أحيانًا بقدر ما تكون المصالح المهددة مهمة للفرد والمجتمع. ونقف بصورة أوضح على المفعول الواقي للعقوبات الشديدة عندما نعلم أن إيقاعها على المذنب يفترض شروطًا يجب أن تتحقق حتى يصح إقرارها. وهذه الشروط صعبة التحقق - غالبًا - لما تستوجبه من فروض معينة، مما يجعل مضمون العقوبة هو الأهم بالنسبة لمفعوله الواقي.

إن الغاية الأساسية من العقوبة الشديدة ليست إيقاعها في حد ذاتها، ولكن التأثير في نفسية الأشخاص الذين تُسوِّل لهم أنفسهم الإقدام على ارتكاب أعمال تمس المصالح المحمية.

وبالنظر إلى أهمية المصالح المحمية وإلى الغاية التي توخاها المشرع من التجريم والعقاب، وهي غاية وقائية قبل أن تكون زجرية، صار تقسيم الجرائم حسب أهميتها ثلاثة أقسام:

١- جرائم الحدود. ٢- جرائم القصاص. ٣- جرائم التعزير.

ب - مبادئ المسؤولية الجنائية

لكي يكون الإنسان مسؤولاً عن أفعاله يجب أن يكون مدركًا لها، واعيًا، عاقلاً، راشدًا، حر الإرادة، غير مكره على ما يفعل، وإلا بطلت أفعاله وارتفعت عنه المسؤولية. فالمسؤولية الجزائية إذن تقوم على إتيان فعل محرَّم مع توافر الاختيار والإدراك.

فإقامة المسؤولية الجنائية على الإنسان تؤدي إلى إيقاع العقوبة عليه في حال أن ثبت ذنبه.

والعقوبة هي الوسيلة التي يخاطَب بها المجرم كي تؤثر في ذهنه ونفسه، فيرتدع وينصلح ويمتنع عن الانحراف مستقبلاً. فإذا كان فاقد الوعي والإدراك والإرادة فلا أهمية لإقامة المسؤولية عليه؛ لأن العقوبة ستبقى من دون أثر في ذهنه لعدم توافر المقدرة العقلية على فهم معناها ومرماها، ولأن الفعل الذي صدر عنه لا يشكل في الواقع ثمرة تفكير أو توجه ذهني؛ لأن المقدرة الذهنية مفقودة أصلاً.

فالوعي والإدراك والاختيار، شرط أساسي لإقامة المسؤولية الجنائية، وقد أكد ذلك الشرع الإسلامي فنفى المسؤولية عن المجنون. وقد ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم: «رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقل»(1). ومن ثم، يجب أن يكون فاعل الجرم متمتعًا بإرادة حرة عند إقدامه على ما فعل، أما المكره فإرادته مشلولة، ومن ثم تُرفع عنه المسؤولية، وكذلك يُرفع عنه العقاب.

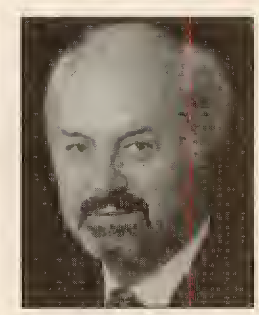
وقد رُوي عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله: «وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»(2) وقد ورد في الآية الكريمة: ﴿وقد فصَّل لكم ما حرَّم عليكم إلا ما اضطررتم إليه﴾ الأنعام:119.

فالإكراه وحالة الضرورة هما من موانع العقاب؛ إذ إن الانسان فيهما يكون معطل الإرداة غير باغ فلا ذنب عليه.

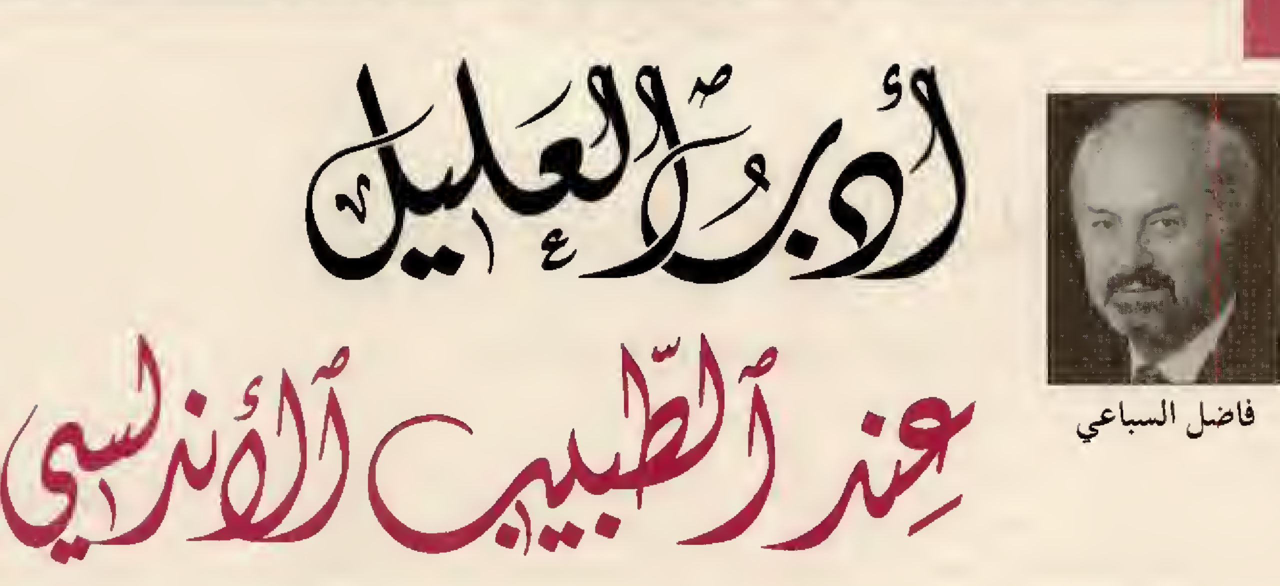
وكما هو ملاحظ، فإن المبادئ التي تقوم عليها المسؤولية الجنائية في التشريع الإسلامي تشكل تلك الخطوة المتقدمة في عصر كانت فيه محاكمة المجانين والصغار وحتى الحيوانات أمرًا شائعًا في البلدان الأوروبية التي كانت غارقة في جهالة القرون الأولى، بينما جاء التشريع الإسلامي ليقيم أسس المسؤولية الجنائية على الوعي والإرادة، وهما صفتا الإنسان العاقل المدرك، وهذا تقدير لقيمة الإنسان ومكانته وإعلاء لشأنه وتعزيز لكرامته ومكانته، مما يضفي على التشريع الإسلامي الطابع الإنساني، هذا الطابع الذي سعت إليه أجيال من المفكرين حتى توصلت إليه المجتمعات المعاصرة ابتداء من أواخر القرن الماضي.

الهوامش:

1- رواه أحمد وأبو داود والترمذي.
2 - رواه الترمذي.



فاضل السباعي



كتب الأطباء العرب في أدب الطبيب كثيرًا. ولكنهم كتبوا أيضًا في ما يجب أن يتحلى به المريض من الأدب في أثناء تلقيه العلاج، وبعد أن يتم له الشفاء، بل قبل أن يحلّ به المرض!(1).

وفي مطالعتي لكتاب الرُّهاوي الموسوم بـ «أدب الطبيب»، استطعت أن أنسُل، من تضاعيفه، «آدابًا» صغيرة متفرقة، نصح بها مرضاه ـ هذا الطبيب الذي جاء في وقتٍ مبكر من عمر الحضارة العربية الإسلامية ـ منها:

إن على المريض أن يأخذ بالتدابير الطبيّة التي ينصحه بها طبيبه المُعالج من دواء وغذاء، وسوى ذلك، وأن يمتنع عمّا ينهاه عنه.

وأنّ على الإنسان العاقل سواء أكان في حالات المرض أم في حالة الصحة أن يُقدر الأطباء، ويُجلّهم، ويوقّرهم.

وآداب أُخرى غير ذلك، مثل أن يتجنب المريضُ الكتمان عن طبيبه؛ ، ولا بأس في أن يستوثق من مدى علمه، إن أحبّ؛ وعليه أن يَبَرَّه ويحسن إليه ـ متى تيقّن أنه من أهل العلم على الحقيقة ـ في أيام مرضه حتى آخر العمر، فإنّ الطبيب بذلك ـ يُخاطب الرُّهاوي قارئ كتابه ـ «تصفو نفسُه، وتَصحّ أفكاره، ويتوفّرُ على درس علم الطبّ، ويُواظبُ على خدمتك بصحتك ومرضك».

وفي «كتاب التيسير في المداواة والتدبير» الذي ألفه الطبيب الأندلسي أبو مروان عبدالملك بن زُهر (المتوفى سنة 557 هـ/1162م، والذي وجدتُني، منذ سنوات معنيًا بطبّه وسيرة حياته)، وقفتُ على عدد من الحكايات ممّا وقع له في أثناء ممارسته الطبّ في الأندلس وفي المغرب.

وهي حكاياتٌ رأيتُها تتسم بـ «خصوصية» ملحوظة.. فطبيبُنا الأندلسي الإشبيلي أبو مروان، كان يَنشُد «الأنموذج» الطيّب المفتقد فيها، وذلك من خلال انتقاده للواقع «السلبي» الذي تقدّمه كل حكاية منها على نحو أو آخر.

ولعل هذا ما يُضفي عليها نكهةً خاصة!

وأحبّ ـ قبل أن أستعرض هذا الأدب الذي تُمثله هذه الحكايات المُرهفة ـ أن أعرب عن إعجابي بأسرة زُهْر الأندلسية التي تنتمي بأصولها إلى قبيلة إياد العدنانية في الجزيرة العربية، هذه الأسرة التي أنجبت من الأطباء العظام ـ سوى طبيبنا عبدالملك ـ أباه الطبيب «زُهرًا»، وجده سَمِيّه «عبدالملك».

وأُتابع التعريفَ فأقول: إنّ طبيبنا عبدالملك قد أنجب بدوره طبيبًا هو «أبو بكر محمد» (شاعر الموشحات الأندلسية الأشهر)، ولهذا ابنٌ طبيب هو «عبدالله» الذي خلّف آخرَ الأطبّاء الزُّهْريّين: «أبا العلاء محمدًا»؛ وذلك فضلاً عن طبيبتين هما: «أم عمرو» ابنةُ طبيبنا عبدالملك، والأخرى ابنتُها!(2).

في طاعة العليل لطبيبه:

من أول واجبات العليل، سعيًا إلى استجلاب الصحة المفقودة أن يُطيع طبيبه فيما ينصحه به، وأن يمتنع عمّا ينهاه عنه. ولكنّ بعض المرضى ينزعون إلى مخالفة الطبيب المُعالج، اندفاعًا وراء الشهوات، أو انخداعًا بمظاهر صحة يظنّونها الشفاء، وغير ذلك من الأسباب، فيحصدون بمخالفتهم عواقب وخيمة!

في حديث طبيبنا الإشبيليّ عبد الملك، عن «الدُّبَيْلة»(3)، يروي لنا خبر مريض ـ سمّاه «علي بن بدونيا»! ـ لم يكن «يُطيع الأطبّاء في التحفّظ في الأغذية، وكانت سنّه شبابًا متناهيًا، وكان أكلُه كثيرًا وتخليطه عظيمًا.

عبد الملك بن زهر

وقد أصابه ضعفٌ في جسمه، واضمحلال في لحمه؛ وكان يأكل مع ذلك أكلَه المعتاد، حتى سقط في المرض».

ويُتابع ابن زُهر حديثه:

«فأخبرني، وكان بيني وبينه معرفة، وبقي مدةً أعالجه، فمتى أطاع صَلَحْت حاله بعض الصلاح، ومتى خلّط اختلّتْ حاله. ثم عرَضَتْ له حرارةٌ زائدة، وكان نبضه فيه صلابة فظهر في أسفل معدته الورم، وبعد قليل من تخليطه رأيتُ الورم من قَدّ سَفَرجلة كبيرة ظاهرة لاتخفى. وأصابه إسهال. وبعد مدة تَبع تلك الحال الفُواق(4). ومات الرجل بالأعراض الشديدة اللاحقة لمثل هذه الحال: من انحلال القوة، وتعاهُد الغَشْي»(5).

فهذه مخالفةٌ تتعلق بالخضوع لشهوة الطعام. ولكن مخالفة العليل قد يكون مردّها إلى انخداعه بما تبدّى له من مظاهر الصحّة وهو لمّا يبلغ بعد تمام الشفاء.

يُحدّثنا طبيبُنا عبدالملك، وهو مستغرقٌ في ذكر أمراض القلب، عن أنّ القلب قد يبرأ من علّته ويعود على معتاده، ولكنّ العليل ينتابه في ذلك كسلٌ وتوان.

ثم يمضي، في فلسفته الطبيّة، فيقول:

«كما أني أقول: إنه متى جفّ (القلب) ـ أزيَدَ ممّا شأنُه أن يكون عليه من حيث إنّه قلبُ إنسان ـ جُفوفًا يسيرًا، فإنّ نشاطه يتزيّد وكذلك جَلَدُه».

«وأمّا إنْ أفرط ذلك، فإني لا أقول إنه تُصيبه فَتْرةٌ في شدّته(6)، ولكني أقول إنه يعرض للعليل ذبول».

«وقد رأيتُ ذلك مشاهدةً، والعليلُ في نهاية الذبول، ونشاطُه قويّ وجَلَدُه في حركاتٍ شديدة، أمثال ما كان يقتضيه حاله، وقد أقام على ذلك حتى مات».

«وكان موته أنْ حُبّب إليه دخولُ القَصْريّة الحارّة(7)، فخشيتُ منها عليه، فغلبني على دخولها، فدخلها وقد خرجتُ، فلم يكن ذلك إلا أن انفصل عنها خارجًا، ومات موتًا سهلاً سريعًا»(8).

هنا انخدع المريض في القلب والذي لم يبرأ من علّته، بما تبدّى له من نشاط عنده وجَلَد، فخالف طبيبَه المعالج بأن غافله ودخل «القصريّة الحارّة»، فمات!

بعض المرضى ينزعون إلى مخالفة الطبيب المعالج اندفاعًا وراء الشهوات، أو انخداعًا بمظاهر صحة يظنونها الشفاء

فطاعة العليل لطبيبه مفتقدةٌ في هاتين الحكايتين، اللتين كان ابنْ زُهْر فيهما شاهدًا، ممّا أدى بالمريضين إلى الهلاك(9).

في تقديره لطبيبه وتوقيره له:

ومن آداب العليل الأساسية، بل إنّ ممّا يتعيّن على كلّ إنسان عاقل أن يتحلّى به من الأدب، أن يُقدر الأطباء سواءٌ أكان في مرض أم في صحة، وأن يُجلهم ويُوقرهم، ويمتنع بالتالي عن الاستهانة بهم أو الإساءة إليهم.

ويُقدم لنا عبدالملك بن زُهر صورةً لما ناله ـ وهو الطبيب العظيم ـ من المهانة على يد مريض فظّ كان يُعاني من «داء الشوكة OSTEOMYELITE»!

ففي الفصل الذي تناول ما «يحدث في اليدين والرجلين» من الدواحس التي تكون في الأصابع PANARIS، وعن نوعٍ منها رديء، «يزلَع لحمَ طرف الأصابع(10) ويتراكم، ويرتفع ذلك، ويأكل، ويَدِبّ أكلُه في اللحم الصحيح دبيبًا، وربما انتهى إلى جزء كبير من اليد ومن الرجل، وهذا يُسمّيه الناس «داء الشوكة»، في هذا الزمان»، فإنْ مَيّزه الطبيبُ بادر إلى علاجه.. يقول مخاطبًا كلّ من يقرأ كتابه من الأطباء:

«وأما إن فاتك الأمرُ حتى يتقيّح وينفجر فإنّ الورم حينئذ يخبث، وقلمّا يُؤثّر العلاجُ فيه، وخاصّة إن اسودّت أجراف الورم وصَلُبت (11)، كما عَرَض للشقيّ سُنْقُور!

ويُفصّل الطبيب الأندلسيّ:

استقدمني سُنقور، «إثر سَراحي من عَقْلة عليّ بن يوسف. فوجدته وحوله أقوامٌ مُتطبّبون! فعرض عليّ أمره، وأخرج قدمه وكاد يضعها في حجري، على ما عودّه أولئك المتطبّبون، فانكمشتُ!»(12).

ولسنا، هنا، لنكتفي بتأمل ما أظهره هذا المريضُ ـ الوَجِعُ والفظّ في آن ـ من تجاوز لحدود الأدب، في دفْعه قدمَه إلى حجْر الطبيب العظيم... ولكنْ لنشهد ما وقع بعد هذا!

عند الطبيب الأندلسي عبدالملك بن زهر

يقول أبو مروان:

«ورأيته قد فَسَدت أجرافُ الموضع، فقلت له : ليس يُمكنكَ أن تبرأ حتى يُزيل صانعُ اليد هذه الأجراف السود(13)!

«فخارت طباعُه. وقال أطبّاؤه إرضاءً له وجريًا على هواه، ونَسُوا وصايا القدماء في ترك المداهنة ـ قالوا: وبالأدوية يُمكن إزالتُها!

«فقلت لهم: أمّا أنا، فلا أرى ذلك، ولا أفتي به، ولا أُغَرِّر فإنّ الدواء الذي يُزيل ذلك ويُذهبه، إنما يكون من الأدوية الحادّة، وليس يصل إلى إذابة هذا اللحم الفاسد إلا وقد غيّر ما وراءه فيعود فاسدًا!!

«فزعموا أنهم يفعلون ذلك !

«فقلت: أمّا أنا، فلا أقدر على هذا!

«وخرجتُ عنه.

«فلم يَعْدَم، ممّن كان حاضرًا، أن أغرَوْه (بي)، وقالوا: لم يَقدر أن يكتُم بُغضه!

«ومع أني كنت أُبغضه، فلم أقل إلا حقًّا!

«فهَمّ بضرب! فقام دفاعُ الله دون ذلك، ولم يزدْهم طبّهم إلا بُطلانًا وشرًّا»(14).

فأين هذا من تقدير الطبيب وتوقيره!!(15).

في صبره على تلقي العلاج الصعب:

وربما كان العلاج، الذي يتلقّاه العليل، شرابًا تعافه نفسه، أو قَطورًا يُسبب له حُرقةً في العين، أو كان شقًّا على الحصى.. فكيف يكون تقبل العليل لذلك وصبرُهُ عليه؟

. رأيتُ ابن زُهْر يتطلّب في العليل، لدى جبْر العظام خاصّة، أن يكون «من أهل الصبْر والجَلَد»، دون أن تُسعفه تجاربُه الخاصّة بحكاية يرويها لنا عن ذلك.

ففي الفصل الذي عقده الطبيب الأندلسي حول جبر العظام، يبيّن تفصيلاً ما يتعين على الطبيب فعلُه لدى معالجته كسرَ عضوٍ من الأعضاء.

يقول أبو مروان:

فـ «إن كان من الأعضاء العظيمة المقدار، فلا يُمكنك ـ يخاطب الطبيب ـ أن تمُدّ (العضو) بيديك كما أمكنك في الأعضاء الصغار: ولابدّ لك حينئذ من رجل آخر يكون له دُربةٌ يجتذب العضو من الجهة الواحدة، على اللوح باستواء، وأنت تجتذب من الجهة الأخرى، حتى يَتَبعّد الكسران، ثم تحُلان أيديكما برفق، فإنّ العضل يضمّ العظمين واحدًا إلى آخر..».

ويستدرك:

«هذا إن كان المريض من أهل الصبْر والجَلَد شجاعًا، وعنده علمٌ وأدب فيعرف ما له الخيرُ فيه فيحتمل.

«وأما إن كان خوّارًا ضعيف النفس، ولا شجاعة له، ولا هو من أهل النظر، فلابد أن تستعين على ذلك بخَدَمة حُذّاق، لهم جَلَدٌ وقوة، يغلبون عليه عندما يَجدّ الألم، فلا تُمكنه حركةٌ كيلا يُفسد عليك عملك..»(16).

يتعين على كل إنسان عاقل أن يقدر الأطباء وألا يستهين بنصائحهم أو يحاول الإساءة إليهم

تلك قبسات ممّا سمّيتُه «أدب العليل» وقفتُ عليها في مُصنّف عربيّ، هو «كتاب التيسير في المداواة والتدبير» للطبيب «عبدالملك بن زُهْر» الإشبيلي.

ولعلّ الباحثين يقبسون ملامح أخرى من هذا الأدب، ممّا يجدون في كتب الطبّ العربية، فتنتظم لنا بذلك «تقاليدُ» في الطبّ، أو في سلوك المرضى مع أطبائهم، قد تأصّلت في تاريخنا على مرّ الأجيال، جديرةٌ بأن تحمل عنوان: «آداب العليل في التراث الطبّي العربيّ»!

الهوامش

(1) أدب الطبيب ـ كما عرّفتُه في مقالتي السابقة: «أدب الطبيب عن الكحّال صلاح الدين الحموي» ـ هو: «جملةُ الواجبات المهنيّة الأساسية، والتقاليد العلميّة والعمليّة، والخصال الأخلاقية، التي ينبغي أن يتحلّى بها الطبيب في أثناء مزاولته صناعة الطبّ.. وذلك فضلاً عن تحصيله ابتداءً العلومَ والمعارف؛ والتأدّب، لغةً، هو: التعلّم»، انظر: فاضل السباعي، مجلة «الفيصل»، العدد 189، ربيع الأول 1413هـ.

(2) لي، في الإعداد، كتابٌ عنوانه: «أطباء بني زُهْر في الأندلس، أعرق الأسَر الطبيّة في التاريخ العربي».

(3) والدُّبَيلة هي الخُرَاج البارد المادة ABCES FROID حيث كان من البدن؛ أو هي النُّغْلة: التقيّح الغنغريني (أو الأكّالي) PYODERMIE GANGRENEUSE، وهو المرض الذي مات فيه «الطبيبُ» زُهْر والد طبيبنا عبدالملك (كما أفصح عن ذلك في كتابه «التيسير»، ص382)؛ ثم مات فيه هو أيضًا (كما ذكر ابن أبي أُصيبعة في كتابه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» ص520).

(4) الفُواق HOQUET: تقلصٌ فُجائي للحجاب الحاجز يُحدث شَهقةً قصيرة يقطعها تقلّصٌ في المزمار (في فُتحة القصبة الهوائية)؛ وهو في دارج الشام: حَزْقة وقَهْقة، وفي مصر: زُغطّة.

(5) عبدالملك بن زُهر: «كتاب التيسير في المداواة والتدبير» (تحقيق الدكتور ميشيل الخوري، من منشورات المنظمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم ـ أليكسو ، تونس، مطبعة دار الفكر بدمشق، 1983) ص:208و209.

والغَشْي (أو الغَشْية) DEFAILLANCE: الإغماء، ويُعرفه ابن سينا: «تعطّل جُلّ القوى المحرّكة الحسّاسة لضعف القلب واجتماع الروح كلّه إليه»؛ «القانون في الطب» ج2:272.

(6) يُقال: أصابته فترةٌ، أي: انكسارٌ وضعف.

(7) للقصريّة عدة معان، في معجم دوزي. وقد غلّب محقّق الكتاب (أو مراجعه) معنى: «الإناء فيه ماء» وأرى أن القصريّة، هنا، ربما تكون ما يُسمى «الجوّاني» في الحمّامات العامّة، لورود عبارة المؤلّف على هذا النحو: «دخول القصريّة الحارّة»، والدخول على الحقيقة يكون إلى مكان، ولا تظنّ أنه أراد دخول إناء على المجاز.

(8) كتاب التيسير..» 184و85.

(9) ويورد ابن زُهر لنا حكاية أخرى، كان انعدامُ الطاعة فيها تجاه أبيه الطبيب زُهر، وقد حذّر مَن اسمُه «ابن رزين»، المُصاب بالهُلاس (أو السُّلّ)، من التخليط بالغذاء والخلوة بالنساء وركوب الخيل العتاق، فلم ينتصح؛ فحَدَث أن سيقت إليه رَمَكةٌ (فرسٌ..)، فركبها.. فقذف، في نهاره، دمًا كثيرًا، ومات.. «كتاب التيسير..»:175و76.

(10) زَلعت الكفّ أو القدم: تشقّق ظاهرُها!

(11) الجَرْف (ويضمّ)، في «القاموس المحيط»: أن يُقشَر الجلدُ، فيُقتل، ثم يُترك فيَجف... ج أجراف.

ويبدو أنّ سُنقور هذا ـ الذي يصفه أبو مروان بـ «الشقيّ»! ـ كان من المتنفّذين في دولة المرابطين، المغربيّة، التي حكمت الأندلس منذ 484هـ (1091م).

(12) وبقوله: «أقوام منطبّبون!»، يريد أن يُزري على الأطبّاء الذين كانوا يُحيطون بسُنقور ساعة دخوله عليه!

(13) صانع اليد CHIRURGIEN (ج صنّاع اليد) هو: الجرائحيّ، أو الجرّاح بلغة عصرنا. وقد كان بعض الأطباء القدامى ـ ومنهم طبيبُنا عبدالملك وأبوه زُهْر ـ يأنفون من ممارسة هذا الجانب العمليّ من الطبّ. لذلك أشار على سنقور أن يقوم «صانعُ اليد» بهذا العمل الجراحيّ!

(14) «كتاب التيسير»: 386- 88.

(15) وليس يخفى ما في هذه الواقعة من عداء كامن في الصدور بين الطبيب الأندلسي، الذي كان قد غُيّب في سجون المرابطين سنين طويلة، وهذا «المتنفّذ»، الذي ينتمي إلى قوم السلطان المغربي!

وكان طبيبنا ابن زهر قد تعرّض قبل هذه المهانة، لأخرى تُماثلها في أثناء اعتقاله في سجن مراكش، وقد كان مكلّفًا ـ كما يبدو ـ القيام بأعمال «طبيب السجن»! ذلك أنّ أحد السجناء ـ وقد سمّاه لنا «بواذودين»، وكان ينتسب في الوقت ذاته إلى كبير من أسرة السلطان ـ مرض وهو في السجن، ودخل في ظنّه، مع تمادي مرضه، أن الطبيب «لم يجتهد له» فتوعّده بأن السلطان «قد عزم على ضربه!»، «كتاب التيسير..»: 206و207.

(16) «كتاب التيسير..»: 316 و17.



كبائر الذنوب

إعداد:
سلطان علي محمد المالكي



أكل مال اليتيم:

قال تعالى: *إنّ الذين يأكلون أموالَ اليتامى ظُلمًا إنما يأكُلون في بطونهم نارًا وسيصْلَوْنَ سعيرًا*. **النساء**: 10. وقال تعالى: *ولا تقربوا مالَ اليتيم إلاّ بالتي هي أحْسنُ حتى يبلُغَ أشُدَّه*. **الأنعام**:152، **والإسراء**:34.

يقول العلماء: فكل وليٍّ ليتيم إذا كان فقيرًا فأكل من ماله بالمعروف فلا بأس به وما زاد على المعروف فسُحتٌ حرام لقوله تعالى: *ومنْ كان غنيًا فليستعْففْ ومن كان فقيرًا فليأكلْ بالمعروف*. **النساء**:6. وفي الأكل بالمعروف أربعة أقوال هي:-

أ ـ أنه الأخذ على وجه القرض. ب ـ الأكل من غير إسراف بقدر الحاجة. جـ ـ أو أنه الأخذ بقدر إذا عمل لليتيم عملاً. د ـ أنه الأخذ عند الضرورة فإن أيسر قضاه.

الانتحار:

وهو أن يقتل الإنسان نفسه. قال تعالى: *ولا تقتُلُوا أنفسكم إنَّ اللّه كان بكم رحيمًا ومن يفعلْ ذلك عُدوانًا وظُلمًا فسوف نصليه نارًا وكان ذلك على اللّه يسيرًا*. **النساء**:29 ـ 30.

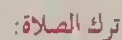
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: «من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا فيها أبدًا، ومن قتل نفسه بسُمٍّ فسُمُّه في يده يتحسّاه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن نزل من جبل فقتل نفسه فهو ينزل في نار جهنم خالدًا فيها أبدًا»، وفي الحديث الصحيح عن الرجل الذي آلمته الجراح فاستعجل الموت فقتل نفسه بذباب سيفه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هو من أهل النار».



البغي:

قال تعالى: *إنّما السبيلُ على الذين يظلمون الناسَ ويبغُون في الأرض بغير الحقّ أولئك لهم عذاب أليم*. **الشورى**:42. وقال المصطفى صلى الله عليه وسلم: «إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يبغي احد على أحد ولا يفخر أحد على أحد» وقال أيضًا: «ما من ذنب أجدر أن يجعل اللّه لصاحبه العقوبة في الدنيا مع مايدّخره له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم».

وقد خسف الله بقارون الأرض لبغيه على الناس، فقال عز وجل عن أمره: *إنّ قارونَ كان من قوم موسى فبغَى عليهم*؛ حتى قوله تعالى: *فخسفْنا به وبداره الأرضَ*. **القصص**:76-81.



ترك الصلاة:

قال جلّ من قائل: *فخلفَ من بعدهم خلْفٌ أضاعُوا الصّلاة واتّبعوا الشّهوات فسوفَ يلقوْنَ غيًا إلاّ من تاب وآمن وعمل صالحًا*. **مريم**:59 ـ 60. وقال تعالى في موضع آخر: *ياأيّها الذين آمنوا لا تُلْهِكُم أموالُكم ولا أولادُكم عن ذكْر اللّه ومنْ يفعلْ ذلك فأولئك هم الخاسرون*. **المنافقون**:9. يقول المفسرون في تفسير هذه الآية: إن المقصود (بذكر الله) في الآية هو: الصلوات الخمس في اليوم والليلة فمن تركها لشغل ما كبيع أو شراء أو لمعيشة فإنه من الخاسرين الخائبين. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر» وقال أيضًا: «بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة»، والصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام ومن تركها فقد نقض ركنًا من أركان الإسلام وبذلك يعدّ كافرًا.

قال النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة: «من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهانًا ونجاةً يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهانًا ولا نجاة يوم القيامة وكان يوم القيامة مع فرعون وقارون وهامان وأُبيّ بن خلف».

يقول العلماء: إنما يحشر تارك الصلاة مع هؤلاء الأربعة لأنه إنما يشتغل عن الصلاة بماله فيحشر مع قارون، أو يشتغل بملكه فيحشر مع فرعون، أو يشتغل بوزارته فيحشر مع هامان، أو يشتغل بتجارته فيحشر مع أُبيّ بن خلف تاجر الكفار بمكة.

التصوير:

وهو إيجاد صور تشبه خلق الله تعالى. قال تعالى: *إنّ الذينَ يؤذُون اللّهَ ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعدّ لهم عذابًا مُهينًا*. **الأحزاب**:57. قال عكرمة: هم الذين يصنعون الصور يُعذّبون بصورهم يوم القيامة لقول الرسول: «كل مصوّر في النار يجعل له بكل صورة صوّرها نفس يعذّب بها في جهنم». وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «يقول اللّه تعالى: ومنْ أظلَم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة»، ففي هذا الحديث القدسيّ يروي الرسول عن ربه أنه يقول لا أحد أشد ظلمًا ممن يصور على شكل خلق الله؛ لأنه يحاول مشابهة الله في فعله، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

والتصوير بجميع أنواعه ـ مجسمات، أو رسم باليد، أو نقوش، أو تصوير بآلة التصوير الفوتوغرافية ـ محرم ويجوز في حالة الضرورة كإثبات الشخصية مثلاً.



وبما يجب على المسلم نحو الصور إتلافها وإزالتها، فعن حيان بن حصين قال: قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا أبعثك على مابعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ أن لا تدع صورة إلا طمستها ولا قبراً مشرفاً إلا سويته.



الجدال:

قال تعالى: *ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على مافي قلبه وهو ألدُّ الخصام وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحبُّ الفساد*. **البقرة**:204 و 205.

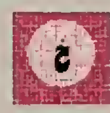
يقول الإمام الغزالي رحمه الله: «وأما الجدال فعبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها».

قال النووي رحمه الله: اعلم أن الجدال قد يكون بحق وقد يكون بباطل، قال الله تعالى: *ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن*. **العنكبوت**:46. وقال تعالى: *وجادلهم بالتي هي أحسن*. **النحل**:125. وقال عز وجل: *مايجادل في آيات الله إلا الذين كفروا*. **غافر**:4. قال: فإن كان الجدال للوقوف على الحق وتقريره كان محموداً، وإن كان في مدافعة الحق أو بغير حق كان مذموماً.



الحكم بغير ما أنزل الله:

وهناك أدلة كثيرة وواضحة تدل على أن الحكم بغير ما أنزل الله من الكبائر التي يجب أن تتجنبها، ومن هذه الأدلة قوله تعالى: *ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون*. **المائدة**:44. وقال أيضاً: *ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون*. **المائدة**:45. وقال أيضاً في موضع آخر: *ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون*. **المائدة**:47. فقد وصف الله الذين يحكمون بغير ما أنزل الله بأنهم كافرون وظالمون وفاسقون.



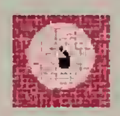
الخيانة:

قال تعالى: *يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون*. **الأنفال**:27. وقال صلى الله عليه وسلم: أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك». وقال أيضاً: «يقول الله تعالى: أنا ثالث الشريكين مالم يخن أحدهما صاحبه»، والخيانة من صفات المنافقين التي ذكرها الرسول صلى الله عليه وسلم حيث قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان».

الديّوث المستحسن على أهله:

والديّوث هو: الذي يعلم أن أهله - والعياذ بالله - يعملون الفاحشة من الزنا أو نحوها فيستحسن هذا أو يسكت عليه.

قال تعالى: *الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحُرِّم ذلك على المؤمنين*. **النور**:3. وقال المصطفى صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة قد حرّم الله عليهم الجنة: مدمن الخمر والعاق والديوث الذي يقر في أهله الخبث».



الذبح لغير الله عز وجل:

قال تعالى: *ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه*. وقال تعالى: *فصلّ لربك وانحر*. **الكوثر**:2 وقال تعالى: *قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له*. **الأنعام**:162. ففي هذه الآية دليل على أن أقوال المرء وأفعاله الظاهرة والباطنة لا يجوز صرف شيء منها لغير الله ومن صرف شيئاً لغير الله فقد أشرك؛ والذبح أحد أفعال المرء التي يتقرب بها إلى الله تعالى، فلذلك من واجبنا ألاّ نذبح لغير الله، ومن فعل ذلك فقد أشرك واستحق اللعن والطرد من رحمة الله. عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات «لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى محدثاً، لعن الله مَنْ غيّر منار الأرض».

وروي عن عائشة رضي الله عنها: أن قوماً قالوا: يا رسول الله إن قوماً يأتونا باللحم لا ندري أذُكر اسم الله عليه أم لا!! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سَمّوا عليه وكُلوا».



الربا:

وهو لغة: الزيادة. وشرعاً: زيادة في مال مخصوص منع الشرع من التفاضل فيه. وقال تعالى: *يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون*. **آل عمران**:130. وقال جلّ من قائل: *الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس*. **البقرة**:275.

وقال صلى الله عليه وسلم: «أربعة حق على الله أن لا يدخلهم الجنة ولا يذيقهم نعيمها: مدمن الخمر، وآكل الربا، وآكل مال اليتيم بغير حق، والعاقّ لوالديه إلاّ أن يتوبوا». وجاء في حديث طويل: أن آكل الربا يعذب من حين يموت إلى يوم القيامة بالسباحة في النهر الأحمر الذي هو مثل الدم، ويلقم حجارة من نار كما ابتلع الحرام الذي جمعه في الدنيا.

الرياء:

وهو تحسين العبادة من الظاهر بقصد كسب ثناء الناس.

قال تعالى: *يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً*. **النساء**:142. وقال تعالى: *فويلٌ للمصلّين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون*. **الماعون**:4-7.

وقد خاف الرسول على أصحابه وأمته من الرياء حيث قال: «أخوفُ ماأخاف عليكم الشِّركَ الأصغر. قيل: وماهو يا رسول الله؟ قال: الرياء».

وعن أبي سعيد مرفوعاً: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟ الشرك الخفيّ، يقوم الرجل فيصلي فيزيّن صلاته لما يرى من نظر رجل».

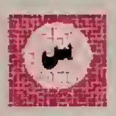


الزنا:

قال تعالى: *ولا تقربوا الزّنا إنّه كان فاحشةً وساءَ سبيلاً*. **الإسراء**:32. وقال تعالى عن عقوبة الزاني والزانية: *الزّانيةُ والزّاني فاجلدوا كلّ واحد منهما مئة جلدة*. **النور**:2.

قال العلماء: هذا عذاب الزاني والزانية في الدنيا إذا كانا عزبين غير متزوجين، فإن كانا متزوجين أو قد تزوجا ولو مرة واحدة في العمر فإنهما يرجمان بالحجارة إلى أن يموتا. كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في السنة المطهرة. فإن لم يُستوف القصاص منهما في الدنيا وماتا من غير توبة فإنهما يعذبان في النار بسياط من نار.

وجاء عن النبي إن إبليس يبث جنوده في الأرض ويقول لهم: أيكم أضل مسلماً ألبسته التاج على رأسه، فأعظمهم فتنة أقربهم إليه منزلة، فيجيء إليه أحدهم فيقول له: لم أزل بفلان حتى طلّق امرأته. فيقول: ما صنعت شيئاً سوف يتزوج غيرها. ثم يجيء الآخر فيقول: لم أزل بفلان حتى ألقيت بينه وبين أخيه العداوة. فيقول: ما صنعت شيئاً سوف يصالحه. ثم يجيء الآخر فيقول: لم أزل بفلان حتى زنى. فيقول إبليس: نعمَ ما فعلت فيدنيه منه ويضع التاج على رأسه.



السحر:

وهو لغة: ماخفي ولطُف سببه. وشرعاً: عقد ورقي وتمائم وكلام يتكلم به فيؤثر في القلوب وتمرض وتفرق بين المرء وزوجه والابن وأبيه. قال تعالى: *وما كفر سليمانُ ولكنّ الشياطين كفروا يُعلّمونَ الناس السحر*. البقرة:102. وغرض الشيطان من تعليم السحر هو الإشراك بالله. قال الله مخبراً عن هاروت وماروت: *وما يعلّمان من أحد حتى يقولا إنما نحنُ فتنة فلا تكفُرْ فيتعلّمون منهما مايفرِّقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارِّينَ به منْ أحد إلاّ بإذن الله. ويتعلّمون مايضرُّهم ولا ينفعهم. ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة*

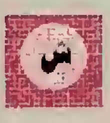
من خلاق. **البقرة**:102. أي: نصيب. وحدّ الساحر: القتل، لأنه كفر بالله، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «اجتنبوا السبع الموبقات» وذكر منها السحر.

السرقة:

قال تعالى: *والسارقُ والسارقةُ فاقطعُوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً منَ الله واللهُ عزيز حكيم*. **المائدة**:38. وفي هذه الآية دليل واضح على حدّ السارق وهو قطع اليد.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقطع يد السارق فيما دون ثمن المجن، قيل لعائشة: وما ثمن المجن قالت: ربع دينار».

وعنها أيضًا قالت: كانت مخزومية تستعير المتاع وتجحده فأمر النبي بقطع يدها فأتى أهلها أسامة بن زيد فكلّموه فيها فكلّم النبي، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «يا أسامة لا أراك تشفع في حدّ من حدود الله تعالى» ثم قام النبي خطيبًا فقال: «إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه، والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»، فقطع يد المخزومية.

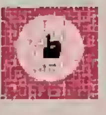


الشرك بالله:

وهو أكبر الكبائر، وينقسم قسمين:

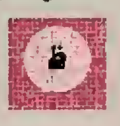
1- شرك أكبر: وهو عبادة غير الله مع الله تعالى أو صرف أي نوع من أنواع العبادة لغير الله مثل الذبح والدعاء وغيره من العبادات حتى وإن كان المشرك يعبد الله في الوقت نفسه قال تعالى: *إنَّ اللهَ لا يَغفر أن يُشركَ به ويَغفر مادون ذلك لمن يشاء*. **النساء**:48.

2 – شرك أصغر: ومنه الرياء بالأعمال. قال تعالى: *فويل للمصلّين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون*. **الماعون**: 4-7، وقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه».



الطعن في الأنساب:

قال صلى الله عليه وسلم «اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في الأنساب والنياحة على الميت»، وفي هذا الحديث الدليل الكافي على أن الطعن في الأنساب من الكبائر.



الظلم:

وهو وضع الشيء في غير موضعه وعدم القيام بحقوق الله تعالى. ويكون الظلم بأكل أموال الناس، وأخذها ظلمًا، وظلم الناس بالضرب والشتم والتعدي، والاستطالة على الضعفاء، وغيرها مما فيه ظلم للناس.

قال تبارك وتعالى: *وسيعلمُ الذين ظلموا أيَّ مُنقلب ينقلبُونَ*. **الشعراء**:227. وقال جل من قائل: *ولا تحسبنَّ اللهَ غافلاً عما يعملُ الظالمون إنما يؤخّرهم ليوم تشخصُ فيه الأبصار*. **إبراهيم**:42.

وقال المصطفى صلى الله عليه وسلم: «اتقوا الظلم فإنه ظلمات يوم القيامة....».

ومن جميل الكلام قول الشاعر:

لا تظلمنَّ إذا ماكنت مقتدراً

فالظلم يرجع عقباه إلى الندم

تنام عيناك والمظلوم منتبه

يدعو عليك وعين الله لم تنم



عقوق الوالدين:

قال تعالى: *وقضى ربُّك ألاَّ تعبُدُوا إلا إياهُ وبالوالدَيْن إحسانًا إمّا يبْلُغنَّ عندكَ الكبرَ أحدُهُما أو كلاهُما فلا تقُلْ لهما أفٍّ ولا تنهرهُما وقلْ لهما قولاً كريمًا واخفضْ لهما جناحَ الذُّلِّ منَ الرَّحمة وقلْ ربِّ ارحمْهُما كما ربَّياني صغيرًا*. **الإسراء**:23 و 24.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ثلاث آيات نزلت مقرونة بثلاث لا تقبل منها واحدة بغير قرينتها (الأولى) قوله تعالى: *أطيعوا الله وأطيعوا الرسول*. **النساء**:59، **النور** 54، **محمد** 33، فمن أطاع الله ولم يطع الرسول لم يقبل منه. (الثانية) قوله تعالى: *وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة*. **البقرة**:2، 83، 110، **النساء** 77، **النور** 56 **المزمل** 20. فمن صلى ولم يزكِّ لم يقبل منه. (الثالثة) قوله تعالى: *أن اشكرْ لي ولوالديك*. **لقمان**:14. فمن شكر لله ولم يشكر لوالديه لم يقبل منه.

وقد قال صلى الله عليه وسلم: «رضى الله في رضى الوالدين وسخط الله في سخط الوالدين». وقال أيضًا: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر» وذكر منها عقوق الوالدين.

ومن البر بالوالدين الإنفاق عليهما إذا احتاجا، فقد جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن أبي يريد أن يجتاح مالي فقال صلى الله عليه وسلم: «أنت ومالك لأبيك».

عدم التنزُّه من البول:

وهو شعار النصارى، عن ابن عباس رضي الله عنه قال مر النبيّ صلى الله عليه وسلم بقبرين فقال: «إنهما ليُعذَّبان وما يُعذَّبان في كبير (وفي رواية... بل إنه كبير) أما أحدهما فكان لا يستنزه من البول وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»، (والذي لا يتحرز من البول في ثوبه وبدنه فإنه نجس، والله سبحانه وتعالى يقول: *وثيابك فطهِّرْ*. **المدثر**:4.



الغدر:

وهو عدم الوفاء بالعهد، قال تعالى: *وأوْفُوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً*. **الإسراء**:34. قال الواحدي: قال ابن عباس في رواية الوالبي (العهود) يعني ما أحلّ وما حرّم وما فرض وما حدّ في القرآن.

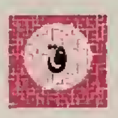
قال صلى الله عليه وسلم: «لكل غادر لواء يوم القيامة يقال: هذه غدرة فلان بن فلان» وقال أيضًا: «يقول الله عز وجل ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرًا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه العمل ولم يعطه أجره».



الفرار من الزحف:

قال الله تعالى: *ومنْ يُولِّهمْ يومئذ دُبُرَهُ إلاَّ مُتحرِّفًا لقتال أو متحيّزًا إلى فئة فقد باءَ بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير*. **الأنفال**:16.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اجتنبوا السبع الموبقات» أي المهلكات وذكر منها التولي يوم الزحف.



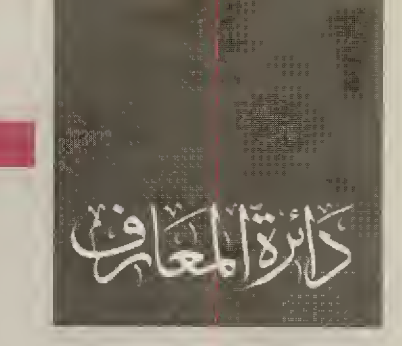
القمار:

قال تعالى: *يا أيُّها الذينَ آمنوا إنّما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رجْسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوهُ لعلكم تُفلحونَ. إنما يُريد الشيطانُ أن يُوقعَ بينكُمُ العداوةَ والبغضاءَ في الخمر والميسر ويصُدَّكُم عن ذكر الله وعن الصَّلاة فهلْ أنتم مُنتهونَ*. **المائدة**:90 و91.

والميسر هو القمار بأي نوع كان من نرد أو شطرنج أو فصوص أو كعاب أو حصى، وهو من أكل أموال الناس بالباطل الذي نهى عنه الله تعالى في قوله: *ولا تأكلوا أموالكمْ بينكم بالباطل*. **البقرة**:188. وقد قال صلى الله عليه وسلم: «من قال لصاحبه تعال أقامرك فليتصدق». فإذا كان مجرد القول يوجب الكفارة أو الصدقة فما بالك بالفعل؟!

قذف المحصنات:

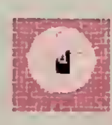
قال تعالى: *إن الذين يرْمُون المحصنات الغافلات المؤمنات*



لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذابٌ عظيم. يوم تشهدُ عليهم ألسنتُهم وأيديهم وأرجلُهم بما كانوا يعملون. **النور**23 و 24. وقال تعالى: والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدًا وأولئك هم الفاسقون. **النور**:4.

يبين الله تعالى في الآيتين السابقتين أن من قذف امرأة محصنة حرة عفيفة عن الزنا والفاحشة فإنه ملعون في الدنيا والآخرة وله عذاب عظيم وعليه في الدنيا الحد ثمانون جلدة، وتسقط شهادته وإن كان عدلاً. وروي عن النبي أنه قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» وذكر منها قذف المحصنات الغافلات المؤمنات.

والقذف هو أن يقول لامرأة حرة عفيفة مسلمة يا زانية أو يا باغية.



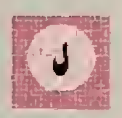
الكذب:

وهو الإخبار عن شيء بخلاف مايعلم فيه وينقسم قسمين:

1ـ الكذب على الله ورسوله: وقال الله تعالى عن هذا: ويومَ القيامة ترى الذين كذبوا على الله وُجُوهُهُم مسودَّة. **الزمر**:60. قال الحسن: هم الذين يقولون إن شئنا فعلنا وإن شئنا لم نفعل.

وقال صلى الله عليه وسلم: «من كذب عليّ بُني له بيت في جهنم». وقال أيضًا: «من كذب عليّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار». والكذب على الله وعلى رسوله كفر ينقل عن الملة.

2 – الكذب في غالب أقواله: قال تعالى: قُتل الخرّاصُونَ . **الذاريات**. 10. أي الكاذبون. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «... وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار ومايزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا»، وقال أيضًا: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب،...» وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت».



اللواط:

أجمع المسلمون على أن اللواط من الكبائر لقوله تعالى: أتأتونَ الذُكْرانَ من العالمين وتذرون ماخلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قومٌ عادُونَ. **الشعراء**:165- 166. أي مجاوزون من الحلال إلى الحرام. وقال تعالى عن لوط عليه السلام: ونجّيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائثَ إنَّهم كانُوا قوم سَوْءٍ فاسقينَ. **الأنبياء**:74. وقال المصطفى صلى الله عليه وسلم: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به» وقال أيضًا: «لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة في الدبر». وروي أنه إذا ركب الذكر الذكر اهتز عرش الرحمن خوفًا من غضب الله تعالى، وتكاد السماوات أن تقع على الأرض فتمسك الملائكة بأطرافها وتقرأ قل هو الله أحد إلى آخرها حتى يسكن غضب الله عز وجل.

اللعن:

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»، وقال أيضًا: «إن العبد إذا لعن شيئًا صعدت اللعنة إلى السماء فتغلق أبواب السماء دونها ثم تهبط إلى الأرض فتغلق أبوابها دونها ثم تأخذ يمينًا وشمالاً فإذا لم تجد مساغًا رجعت إلى الذي لُعن. فإن كان لذلك أهلاً، وإلاّ رجعت إلى قائلها».

ولعن المسلم المعيَّن حرام مهما كانت الأسباب، ويجوز لعن الأوصاف المذمومة كقول: لعن الله الظالمين، لعن الله الكافرين وقد قال تعالى: ألا لعنةُ الله على الظّالمين. **هود**:18.



منع الزكاة:

قال تعالى: ولا تحسبنَّ الذين يبخلون بما آتاهُم اللهُ من فضله هُو خيرًا لهم بل هو شرٌّ لهم سيُطوّقُونَ مابخلوا به يومَ القيامة. **آل عمران**:180. ولقد نهانا الله عن منع الزكاة وبيّن عذاب من فعل ذلك في عدد من الآيات منها قوله تعالى: والذينَ يكنزُون الذهبَ والفضةَ ولا يُنفقُونها في سبيلِ الله فبشّرْهُمْ بعذابٍ أليم. يوم يُحمى عليها في نار جهنّم فتُكوى بها جباهُهُم وجُنُوبُهم وظُهُورُهم هذا ماكنزتُم لأنفسكم فذوقُوا ماكنتم تكنزون. **التوبة**:34 و35. وقال المصطفى صلى الله عليه وسلم: «مامن صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلاّ إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنم فيكوى بها جبينه وجنباه وظهره كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي الله بين الناس».

المنّ:

قال تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تُبطلُوا صدقاتكُمْ بالمنّ والأذى. **البقرة**:264. وقال صلى الله عليه وسلم: «ثلاثةٌ لا يكلّمهم اللهُ ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم». وذكر منهم المنان، والمنّ بالمعروف يبطل الشكر ويمحق الأجر لذلك قال الشاعر:

فلا تك منانًا بخير فعلته
فقد يفسدُ المعروفَ بالمنّ صاحبُه

وقال آخر:

أفسدتَ بالمنّ ماقدّمتَ من حسن
ليس الكريمُ إذا أعطى بمنّان



النميمة:

وهي نقل الحديث بين الناس لغرض الإفساد وإيقاع الخلاف. وحكمها حرام بإجماع المسلمين، ودليل ذلك من الكتاب قوله تعالى: ولا تُطعْ كلَّ حلاّفٍ مهين همّازٍ مشّاءٍ بنميم. **القلم**:10و11. أما من السنة فروي في الصحيحين عن النبي أنه قال: لا يدخل الجنة نمام.

وعن ابن عباس قال: مر النبي صلى الله عليه وسلم بقبرين فقال: إنهما ليعذّبان ومايعذّبان في كبير (وفي رواية... بل إنه كبير) أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة...».

قال الحسن البصري: من نقل إليك حديثًا فاعلم أنه ينقل إلى غيرك حديثك، وهذا مثل قول الناس (من نقل إليك نقل عنك فاحذره). ومن حُمل إليه نميمة لزمته ستة أحوال هي:

أن لا يصدقه لأنه نمام، أن ينهاه عن ذلك وينصحه، أن يبغضه في الله عز وجل، أن لا يظن في المنقول عنه السوء لقوله تعالى: اجتنبُوا كثيرًا من الظن إنَّ بعضَ الظنّ إثم. **الحجرات**:12، أن لا يحمله ماحُكي إليه على التجسس والبحث عن الحقيقة، أن لا يرضى لنفسه مانهى النمام عنه فلا يحكي نميمته.



هجر الأقارب والأرحام:

قال تعالى: فهل عسيتُم إن توليّتم أن تُفسدُوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم أولئكَ الذين لعنهُمُ اللهُ فأصمَّهُمْ وأعمى أبصارهُم. **محمد**:22 و 23. وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنة قاطعُ رحم» فمن قطع أقاربه وهجرهم وتجبّر وتكبّر عليهم ولم يصلْهُم ببرّه وإحسانه وكان غنيًا وهم فقراء فهو في داخل هذا الوعيد محرومٌ من دخول الجنة.



اليأس من روح الله:

أي القنوط من رحمة الله، قال تبارك وتعالى: إنه لا ييْأسُ من روح الله إلاّ القومُ الكافرون. **يوسف**:87. وقال المصطفى صلى الله عليه وسلم: «لا يموتنّ أحدُكم إلاّ وهو يُحسن الظن بالله».

المصادر:

1 – كتاب الكبائر للإمام شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان ابن قايماز الذهبي.
2 – مختصر «كتاب الكبائر» ـ دار ابن المبارك للنشر والتوزيع.
3 – كتاب «التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» للإمام محمد بن عبدالوهاب.

من هدي الحج

د. محمد بن لطفي الصباغ

الحجُّ ركن من أركان الإسلام فرضه الله على القادرين المكلفين من عباده المسلمين مرّة في العمر، ليشهدوا منافع لهم دنيويّة وأخرويّة:

عن عبدالله بن عمر، رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلاّالله وأنّ محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحجّ البيت، وصوم رمضان»

رواه البخاري ومسلم وأحمد والنّسائي والترمذي وابن حبان وغيرهم(1) وهو أمنيّة غالية لكل مسلم، تتمثل في قلبه حلمًا عذبًا، وتتراءى في خياله منحة كريمة قد تكون أثمن من عطايا الدنيا كلّها، ومن أجل ذلك يهون في عينه المال، ويضعف عنده أثر الروابط التي تشدّه إلى بلده ومتاعه وأهله، ويسهل عليه تحمّل المتاعب وتخطّي المصاعب.

إنّ حبّه لله هو الذي يدفعه دفعًا إلى هذه الرحلة الممتعة الحلوة، التي يرى فيها بيت الله العتيق، ويكحل عينيه برؤية تلك البقاع المقدسة، وبمشاهدة تلك الأماكن التي يحبها الله ورسوله، فمكة أحب البقاع إلى الله ورسوله.

عن عبدالله بن عديّ قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته واقف بالحَزْوَرة(2) يقول: «والله إنك لخير أرض الله، وأحبُّ أرض الله إليّ.. والله لولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت». رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وغيرهم(3). وهو حديث صحيح.

ولا يتم إسلام المسلم ما لم يأت بهذه الفريضة إن كان مستطيعًا قال تعالى: *ولله على الناس حجُّ البيت مَن استطاع إليه سبيلاً ومَن كفَرَ فإن اللهَ غنيٌ عن العالمين*. **آل عمران**:97 وفي هذه الآية وعيد لمن يعرض عن أداء هذا الركن جحودًا.

قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: أي ومن جحد فريضة الحج فقد كفر والله غني عنه(4). وعن عبدالرحمن بن غَنْم أنه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: من أطاق الحج فلم يحجّ فسواء عليه مات يهوديًا أو نصرانيًا. قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح إلى عمر رضي الله عنه(5). وعن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «أيها الناس: قد فُرض عليكم الحجّ فحجّوا» فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم» ثم قال: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه» رواه أحمد ومسلم(6).

ـ وأنواع النسك التي تؤدّى عليها هذه الفريضة ثلاثة، وردت عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعرفت عند الفقهاء بالعناوين الآتية: التمتع، الإفراد، والقران. وأفضل هذه الأنواع التمتع كما تشهد بذلك النصوص الصحيحة الثابتة.

والتمتع: هو أن يحرم الحاجّ بالعمرة متمتّعًا بها إلى الحجّ، فإذا أدّى مناسكها تحلّل وبقي في مكّة حتى اليوم الثامن من ذي الحجة، حيث يحرم بالحجّ من منزله في مكّة، ويذهب مع المسلمين إلى منى، ويؤدي بقية المناسك على نحو ما سنذكره في هذه الكلمة الموجزة، وعليه ما استيسر من الهدي.

والإفراد: هو أن يحرم المسلم بالحجّ، وفي هذه الحالة يبقى على إحرامه في مكة، ويخرج في اليوم الثامن من ذي الحجة مع المسلمين، ويؤدي بقية المناسك على نحو ما سنذكره، ويتوجب عليه ـ إن لم يكن قد أدّى العمرة سابقًا ـ أن يأتي بالعمرة بعد الانتهاء من مناسك الحج، وذلك بالخروج إلى أدنى الحلّ، والإحرام من هناك بالعمرة، ولا شيء عليه في هذه الحالة إلا أن يتطوع.

والقران: هو أن يحرم المسلم بالحجّ والعمرة معًا مقترنين، وعمل القارن كعمل المفرد سواء، إلا أن عليه هديًا، والمفرد لا شيء عليه.

وسأورد المناسك من خلال حديث جابر رضي الله عنه الذي أخرجه مسلم وغيره(7) بالأسانيد الصحيحة مقتصراً على ما يتصل بالمناسك.

قال جابر: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لخمس بقين من ذي القعدة أو أربع وساق هديًا، فخرجنا معه، معنا النساء والولدان حتى أتينا ذا الحليفة.. فصلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد وهو صامت، ثم ركب القصواء حتى إذا استوت به ناقته أهلّ بالتوحيد، لبّيك اللهمّ لبيك. لاشريك لك لبيّك. إنّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك... حتى إذا أتينا البيت معه صبح رابعة مضت من ذي الحجة دخلنا مكة عند ارتفاع الضحى، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم باب المسجد، فأناخ راحلته، ثم دخل المسجد، فاستلم الركن ثم مضى عن يمينه، فرمل حتى عاد إليه ثلاثًا، ومشى أربعًا على هينته.

ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام فقرأ. *واتَّخذُوا من مقام إبراهيم مُصَلّى*. **البقرة**: 125. ورفع صوته يُسمع الناس، فجعل المقام بينه وبين البيت ، فصلّى ركعتين، فكان يقرأ في الركعتين *قل يا أيها الكافرون* و*قل هو الله أحد*. ثم ذهب إلى زمزم فشرب منها، وصبّ على رأسه، ثم رجع إلى الركن فاستلمه ثم خرج من باب الصفا إلى الصفا، فلما دنا من الصفا قرأ *إن الصفا والمروة من شعائر الله*. **البقرة**: 158. أبدأ بما بدأ الله به، فبدأ بالصفا، فرقي عليه حتى رأى البيت، فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره وحمده ثلاثًا وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير. لا إله إلا الله وحده أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده... ثم نزل ماشيًا إلى المروة حتى إذا نصبت قدماه في بطن الوادي سعى، حتى إذا صعدنا الشق الآخر مشى حتى أتى المروة فرقي عليها حتى نظر إلى البيت... حتى إذا كان آخر طوافه على المروة قال: يا أيها الناس لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي ولجعلتها

عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدي فليحلّ وليجعلها عمرة...

فحلّ الناس كلّهم وقصّروا إلا النبيّ صلى الله عليه وسلم ومن كان معه هدي... فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى، فأهلّوا بالحجّ، وركب رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلّى بمنى الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر.

ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس، وأمر بقبّة له من شعر تضرب له بنمرة.. وسار حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنمرة. فنزل بها، حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرُحلت له، فركب حتى أتى بطن الوادي فخطب الناس... ثم أذن بلال بنداء واحد، ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلّى العصر، ولم يصلّ بينهما شيئًا، ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى الموقف... واستقبل القبلة فلم يزل واقفًا حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص وقال: وقفت هاهنا وعرفة كلّها موقف.. ودفع رسول الله حتى أتى المزدلفة فصلى بها فجمع بين المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين.. ثم اضطجع حتى طلع الفجر، وصلى الفجر.. ثم ركب القصواء حتى المشعر الحرام، فرقي عليه، فاستقبل القبلة فدعا الله وكبره وهلله ووحده.. فلم يزل واقفًا حتى أسفر جداً.. فدفع قبل أن تطلع الشمس وعليه السكينة.. ثم سلك الطريق التي تخرج على الجمرة الكبرى فرماها ضحًى بسبع حصيات يكبر مع كلّ حصاة منها، ورمى بعد النحر في سائر أيام التشريق إذا زالت الشمس. ثم انصرف إلى المنحر، فنحر ثلاثًا وستين بدنة بيده، ثم أعطى عليًا فنحر ما بقي.. ثم أخذ من كل بدنة ببضعة فجعلت في قدر فطبخت. فأكلا (أي النبي وعلي) من لحمها وشربا من مرقها.. ثم ركب رسول الله فأفاض إلى البيت فطافوا فصلّى بمكّة الظهر.

هذا عرض سريع لأعمال الحج أوردتها بألفاظ حديث جابر معتمداً رواية مسلم للحديث أصلاً مع بعض الإضافات اليسيرة من الروايات الأخرى للحديث.

ـ وهذا الركن العظيم من أركان الإسلام عبادة أذّن بها سيدنا إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه في الناس استجابة لأمر الله تبارك وتعالى: *وإذْ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت أن لاتشرك بي شيئًا وطهِّرْ بيتي للطّائفين والقائمين والركّع السجود. وأذّن في الناس بالحجّ يأتوك رجالاً وعلى كلّ ضامرٍ يأتينَ من كلِّ فجّ عميق، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسمَ الله في أيّام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوامنها وأطعموا البائس الفقير، ثمّ ليَقْضُوا تَفَثَهُم وَلْيُوفُوا نذورهم وليَطَّوَّفوا بالبيت العتيق ذلك ومَن يُعظم حرمات الله فهو خيرٌ عند ربه.* **الحج**: 26 - 29.

إن هذه الفريضة تذكّرنا بالوحدة بين رسالات الله، أساسها واحد وهو توحيد الله ونفي الشرك، وتذكرنا بالصلة الوثيقة بين الإسلام وإبراهيم خاصة:

قال تعالى: *شرع لكم من الدين ما وصّى به نُوحًا والذي أوحينا إليك، وما وصَّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه.* **الشورى**:13.

وقال تعالى: *إنّ هذا لفي الصحف الأولى. صُحُف إبراهيم وموسى.* **الأعلى**: 17- 18. وقال سبحانه: *وما جعل عليكم في الدين مِن حرج مِلّةَ أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبلُ.* **الحج**:78. وقال: *ثم أوحينا إليك أن اتّبعْ ملة إبراهيم حنيفًا.* **النحل**:123

فالحّج من ديانة إبراهيم عليه السلام، أمره الله أن يؤذن في الناس: أن حجّوا، وكان جواب ذاك النداء شعاراً يردّده كل حاجّ ومعتمر: لبيّكَ اللهمّ لبيك، لبيّكَ لاشريك لك لبيّك، إن الحمد والنعمة لك لاشريك لك.

وهكذا فإن الأسس التي دعا إليها الإسلام هي الأسس التي دعا إليها أنبياء الله جميعًا. فالمسلم عندما يدين بهذا الدين يدرك عمليًا صلته العميقة الوثيقة بما أنزل الله من الهدى منذ عهد آدم ونوح إلى محمد صلى الله عليهم أجمعين، وكذلك فإن كثيراً من أحكام الإسلام دعا إليها رسل الله، كما دل على ذلك كتاب الله الكريم(8)، ومن ذلك فريضة الحج.

ـ وإذا كانت العبادات على نوعين: بدنية ومالية، فإن الحجّ عبادة بدنية ومالية ......، ففي هذه العبادة سفر وارتحال، وإحرام وطواف وسعي، ووقوف في مكان معين، ومبيت في مكان آخر، ورمي وحلق ونُسُك.. وكل ذلك يقتضي أعمالاً بدنية، وهي في الوقت نفسه بذل وإنفاق.

ـ لقد ذكر الله تعالى أنّ من حكم الحجّ شهود المنافع فقال: *لَيَشهدُوا منافع لهم.* **الحج**: 28. وإنّ من أعظم هذه المنافع أن نعي واقعنا، ونتدبّر أحوالنا الراهنة، ونقف على العلاج الناجع.



إنّ المسلمين اليوم هدفٌ للغزو الكافر، تعاونت قواه لتنال من الإسلام وأهله، وقد تجمع هؤلاء الكفار في معكسرات متعددة منها الصهيونية، والصليبية، والاستعمار، والإلحاد والإباحية... يريدون استئصال جذور الإسلام من النفس المسلمة، واستخدموا لتحقيق أغراضهم الهدامة وسائل فعّالة، جاءت بها هذه الحضارة المادية، فوضعوا وسائل الإعلام الكثيرة في خدمة تلك الأغراض، وكانوا قبل ذلك قد تولوا وضع مناهج التعليم في بعض بلاد المسلمين.

فمن أهم المصالح التي يجب أن نهتم بها في هذا الموسم العظيم توعية أبناء أمتنا، وتحميلهم المسؤولية في مواجهة مخططات الأعداء هذه، ودعوتهم إلى أن يتعاونوا على البر والتقوى، وأن يجتمعوا على كلمة التوحيد والدعوة للإسلام.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه ثوبان رضي الله عنه: «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكَلَةُ إلى قَصْعَتها»

فقال قائل: ومنْ قلّة نحن يومئذ؟

قال: «بل أنتم يومَئذ كثير ولكنكم غُثَاء كغُثَاءِ السيل. ولَيَنزِعَنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفَنَّ في قلوبكم الوهن»

فقال قائل: يا رسولَ الله وما الوهن؟

قال: «حبُّ الدنيا وكراهية الموت» رواه أحمد وأبو داود وأبو نعيم(9). إن

المسلمين يملكون طاقات كثيرة، وقوى كبيرة، ومادة الخير فيهم ضخمة أصيلة، ولكن هذه الطاقات والقوى معطلة، مصروفة عن العمل المجدي ومواجهة أولئك الأعداء بسبب ظروف اقتصادية واجتماعية. فمن أهم الواجبات أن تتعارف هذه القوى وأن توظف تلك الطاقات لمصلحة الأمة وأن تنسق بينها الجهود.

إن المسلمين أمة واحدة، وقد شبههم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجسد الواحد. عن النعمان بن بشير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضوا تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى» رواه مسلم بهذا اللفظ، ورواه البخاري بنحوه ورواه أحمد وأبو داود الطيالسي(10).

ـ والحج دورة تدريبية تعوّد المسلمين على حياة الرجولة والجد والجهاد، ففي هذه الدورة يُدَرَّبون على ألوان من الحياة قد تكون على كثير منهم جديدة يرونها أول مرة، كالعيش في الخيام في زحمة الناس، والنوم في العراء، والمسير في الليل حينًا وفي الشمس حينًا آخر، والهرولة والرمي.

إنها دورة تذكر بحياة الجند في مخيمات التدريب، وتنقل المسلم من جوّ الترف والإخلاد إلى الراحة والملذات إلى جوّ الجدّ والتدريب العسكري، وليس أضرّ على الأمة من شيوع الترف والميوعة في أبنائها، لأن ذلك يذهب بالرغبة بالجهاد، ويذهب بقدرة الأمة على حماية نفسها من عدوان المعتدين.

ـ والحجّ وسيلة تهذيبية تسمو بنفس المسلم إلى أفق سام كريم، وتبلغ بها مستوًى عاليًا من الإشراق الروحي.

ففيه ينقطع الإنسان عن علاقاته الكثيرة المتشابكة التي تشغله عن أهله ونفسه وربه وعن المثل العليا التي يؤمن بها. فيكون الحجّ مناسبة طيبة يخلو المسلم بنفسه، ويلتجئ إلى ربه، ويلتفت إلى أهله، ويحيا تلك المثل حينًا من الدهر.

إنه خلال أدائه لهذه المناسك لايتعلق من الدنيا إلا بما يقيم أوده، ولايشتغل بسفاسف الأمور، ويذر الرفث والفسوق والجدال والشجار، ولاتسيطر على مشاعره إلاّ روح العبادة من صلاة وطواف وتلاوة وذكر لله وأداء للنوافل والسنن.

إنه عندما خلع ملابسه المخيطة يتصور أنه خلع حياته البعيدة عن الإسلام، فلم تعد هناك من صلة تربطه بحياة الغفلة والإعراض والمعصية، إنه يستعدّ بذلك لهذه العبادة التي ستصوغه من جديد ليعود كما ولدته أمه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من حجّ فلم يَرفُث ولم يفسُق رَجَعَ كيوم ولدته أمُّه» رواه البخاري ومسلم والترمذي(11) بلفظ: «من حجّ فلم يرفث ولم يفسق غفر له ما تقدم من ذنبه».

إنه بهذه العبادة استعاد من جديد إنسانيته صافية نقية مجردة من كل الاعتبارات التي كانت تكبلها وتقيدها.. إنه يرى نفسه إنسانًا ليس بينه وبين الآخرين أي فرق. إن أسباب الكبر ومظاهره قد نحّاها هذا المظهر الموحد، وهذا العيش الموحد أجل.. لقد توارت الفوارق من حياة هؤلاء الحجاج، فلم يعد هناك غني وفقير، ولا وجيه وحقير، وامّحت من دنياهم الفاضلة هذه التي يعيشونها في رحاب الله كل الامتيازات الطبقية البغيضة، ولم تبق إلا معايير الشرع في التفاضل بين الناس وهي المعايير التي دلت عليها الآية الكريمة *إن أكرمكم عند الله أتقاكم*. **الحجرات**:13 وهذا أمر لا يعلمه إلا الله.

إن هذا التجرد الإلزامي من الملابس تحرير للإنسان من كل تلك الأغلال التي تفرضها المظاهر الفارغة الخادعة، والاعتبارات التي تظهر القزم عملاقًا وتخفي مزايا الموهوب بغبار الفقر والضعف.

وعندما يعود الإنسان إنسانًا فقط لا خادعًا ولا مخدوعًا، يبدأ حياة جديدة بعيدة عن الغرور والخداع، ويعرف واقعه وقدْره، ويعترف بضعفه وعجزه أمام قوة الله، ويقبل على الله بهذه الحالة من التذلّل يسأله المغفرة والمعونة. وإنّه عندئذ لجدير بأن يتلقى رحمة الله وعونه ومغفرته. ويحقّق المسلم العبودية لله سبحانه تحقيقًا تامًا يتجلّى بهذا الامتثال المطلق لأوامر الله، يهرول حيث أمر بالهرولة، ويمشي حيث أمر بالمشي، يفعل ذلك دون تردد، ثم يزيل شعره أو يقصره تذللاً لله وخضوعًا لأمره. وهكذا غدا عبدًا مطيعًا يحقق عبوديته لله وحده، ويستأنف حياة جديدة يكون فيها متحرراً من كل عبودية لغير الله، فلا يذل لطاغية أو شهوة أو مصلحة أو خرافة إن هذه العبودية صيانة لكرامة الإنسان.

وأختم هده الخواطر بإيراد خطبة النبي كما جاءت في حديث جابر في صحيح مسلم(12): قال جابر:

[.. حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنمرة، فنزل بها، متى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له، فأتى بطن الوادي، فخطب الناس وقال:

«إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا كلّ شيء من أمر الجاهلية تحت قدميّ موضوع. ودماء الجاهلية موضوعة، وإنّ أولّ دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعًا في بني سعد فقتلته هذيل. وربا الجاهلية موضوع، وأوّل ربا أضع رِبَانا، ربا عبّاس بن عبدالمطلب فإنّه موضوع كله.

فاتقوا الله في النساء، فإنّكم أخذتموهنّ بأمان الله، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله. ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه. فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرح. ولهنّ عليكم رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف. وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله»]

الحواشي

1- صحيح البخاري (المطبوع مع فتح البخاري) 1/ برقم 8، وصحيح مسلم (طبعة محمد فؤاد عبدالباقي) 1/ برقم 16 ومسند أحمد 26/2 و 93 و 120و 143وسنن النسائي 107/8 والإحسان في تقريب صحيح ابن حبان 374/1.
2- الحزورة: موضع في مكة جاء في المسند 305/4: قال عبدالرزاق: والحزورة عند باب الحناطين.
3 - مسند أحمد 4 / 305 وجامع الترمذي 5 / برقم 3925 وابن ماجه 2 / 3108.
4 - تفسير ابن كثير 1/ 386.
5 - المصدر السابق 1/ 386.
6 - مسند أحمد 2 / 508 وصحيح مسلم 2 / برقم 1337.
7- أخرج حديث جابر عدد من أصحاب مدونات السنة منهم مسلم وأبو داود والدارمي وابن ماجه وابن الجارود والبيهقي. وانظر رواية مسلم للحديث 2/ برقم 1218.
8 - من نحو قوله تعالى: *يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون*. البقرة:183. وقوله: *واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبيًا. وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيًا*. مريم 54 - 55.
9 - مسند أحمد 278/5 وسنن أبي داود 4 برقم 4297 والحلية 182/1.
10- مسند أحمد 70/4 وصحيح البخاري 10/ برقم 6011 وصحيح مسلم برقم 2586 ومسند الطيالسي برقم 790.
11 - صحيح البخاري 3/ برقم 1521 وصحيح مسلم 2/ برقم 1350 وجامع الترمذي 3/ برقم 811.
12- صحيح مسلم، ص 889 ـ 890.

السعودية

سمو النائب الثاني
يرعى حفل توزيع جوائز الملك فيصل العالمية


سمو النائب الثاني وسمو رئيس هيئة جائزة الملك فيصل العالمية يستمعان إلى كلمات الفائزين بالجائزة



جائزة للجهود السعودية في مكافحة الأمية

وفاة الكاتب والمؤرخ د. حسين مؤنس

ندوة تاريخ العلوم عند العرب في رأس الخيمة

مهرجان للفن القصصي العربي في لندن

نيابة عن خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز - حفظه الله - رعى صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام، مساء الأحد 21 شوال 1416هـ الموافق 10 مارس 1996م، الاحتفال الثامن عشر لتسلم جائزة الملك فيصل العالمية للفائزين بها لهذا العام. وهم كل من: الدكتور عبدالرحمن حمود السميط «كويتي الجنسية» ومنح جائزة خدمة الإسلام، والأستاذ الدكتور أكرم ضياء أحمد العمري «عراقي الجنسية» ومنح جائزة الدراسات الإسلامية، والشيخ حمد بن محمد الجاسر «سعودي الجنسية» ومنح جائزة الأدب العربي، وكل من الأستاذ بنجيت روبرتسون «سويدي الجنسية» والأستاذ الدكتور تسورو فيو جيوارا «ياباني الجنسية» ومُنحا جائزة الطب مناصفة، والأستاذ الدكتور جنتر بلويل «أمريكي الجنسية»، والدكتور هيو ريجينالد بلام «بريطاني الجنسية»، والدكتور جيمس روثمان «أمريكي الجنسية» ومنحوا بالاشتراك جائزة العلوم.

وعقب رعاية حفل تسليم الجائزة الذي أقيم في قاعة الاحتفالات بمركز الخزامى التابع لمؤسسة الملك فيصل الخيرية في مدينة الرياض، نوه صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز بأعمال المؤسسة، والدور الذي تؤديه جائزة الملك فيصل العالمية في مجالاتها المختلفة، وقال: «إن

توثيق المؤلفات النادرة عن المملكة والجزيرة العربية

أقامت مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض من 28 شوال إلى 11ذي القعدة معرض «المؤلفات النادرة عن المملكة العربية السعودية والجزيرة العربية». وافتتح فعاليات المعرض الذي يُعد الأول من نوعه محليًا وإقليميًا صاحب السمو الملكي الأمير بدر بن عبدالعزيز نائب رئيس الحرس الوطني، وتم عرض 640 مؤلف نادر تقدم بها 33 مشاركًا من أنحاء المملكة. وقد واكبت فعاليات المعرض نشاطات أخرى ثقافية تمثلت في إقامة ندوة علمية تناولت مفهوم المؤلفات النادرة، وإصدار كتابين، الأول: ببليوجرافيا كتب المعرض، والإصدار الآخر: ببليوجرافيا (نماذج مختارة) من المؤلفات النادرة العربية والأجنبية عن المملكة والجزيرة العربية، مع تعريف موجز بمضامينها ونبذة عن مؤلفيها. وقد اشتمل هذا الإصدار على كتب الرحلات، والحرمين الشريفين، والمؤلفات الخاصة بالملك عبدالعزيز

تكريم العلم والعلماء يدل على أن هذه المؤسسة الخيرية العلمية الإسلامية تقدم أعمالاً ترفع رأسها في البلاد بما يكرم أهلها وشعبها».

وأكد صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل أمير منطقة عسير ومدير عام مؤسسة الملك فيصل الخيرية ورئيس هيئة جائزة الملك فيصل العالمية، «أن الجائزة تؤصل منهج المملكة العربية السعودية بقيادة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز إزاء تكريم العلم والعلماء، حيث قاد علماء هذه الأمة مسيرتها وحملوا معنى القدوة التي نستضيء بمشعلها في مسعانا الجاد نحو غد أفضل إن شاء الله»، وجدد سموه تأكيد أن الجائزة ملتزمة الحياد والموضوعية والمنهجية والإنصاف، ومنسجمة مع رؤية مستقبلية تتحسس محاور التقويم، وأكد أن رعاية خادم الحرمين الشريفين وسمو ولي عهده الأمين وسمو النائب الثاني أسهمت في إيصال المؤسسة عامة والجائزة خاصة إلى العالمية وتبوئها مكانه عالية وسمعة مرموقة بين علماء دول العالم ومثقفيها.

وقال سمو الأمير خالد الفيصل في كلمته التي خاطب بها الحفل: «الفائزون اليوم ثلاثة، الفائز الأول قيادتنا الحكيمة التي تضرب المثل الأعلى والقدوة الحسنة لرعاية العلم وأهله وتبني مؤسساته وفعالياته، والفائز الثاني: هؤلاء العلماء الأفاضل الذين أثروا الساحة العلمية والفكرية بأعمالهم القيمة خدمة للإنسانية وإسعاد البشرية، والفائز الثالث هذا الحشد الكبير من رجال الفكر والأدب والثقافة الذين تسابقوا لساحة العلم هذه إجلالاً للعلم وتقديراً للعلماء».

وقد أكد الفائزون بجائزة الملك فيصل العالمية أن حصولهم على هذا التقدير العالي من شأنه أن يكون حافزاً لهم للمزيد من العمل، وقال د. السميط الحاصل على جائزة خدمة الإسلام، إنه يذكر بالخير ذكرى وفاة الملك فيصل الذي قام برحلة الخير المعروفة في إفريقية، وكان - رحمه الله - من الرواد السياسيين في إعادة بناء العلاقات وجسور التعاون مع القارة الإفريقية المنسية، ثم جاء من بعده من حمل اللواء من إخوانه ليواصلوا العطاء من أرض النبوة لأعمال الخير في مجاهل هذه القارة، وتناول السميط أوضاع الأمة الإسلامية قائلاً: «إنه لأمر مذهل حقًا أن تذوق العديد من المجتمعات الإسلامية الثمرات المرة للحضارة المعاصرة أكثر من أن تذوق حلوها، وتقتبس سلبياتها قبل إيجابياتها».

وألقى د. أكرم العمري كلمة تناول فيها أهمية دراسة السيرة النبوية قائلاً: «إن الدراسات الجادة في حقل السيرة النبوية توثيقًا وتحليلاً تقربها إلى أجيال القرن المقبل ليغترفوا من قيمها ويبنوا أنساق عالم القيم الذي يهيئ المناخ للحوار الحضاري والتعاون العلمي والثقافي بين البشر في أنحاء الأرض»، وأشار د. العمري إلى أن الجائزة حققت الأهداف التي أنشئت من أجلها في دفع عجلة التنمية الثقافية.

وعدّ الشيخ حمد الجاسر الحاصل على جائزة الأدب العربي «الجائزة حافزاً للاستزادة» من جوانب المعرفة مما به تسعد البشرية وتتجه في سيرها نحو العزة والكمال، لاتختص بفرع من فروع العلم ولا يخص بها أحد دون غيره، بل هي عامة شاملة كل من استحقها دون محاباة أو تمييز، مما كان له الأثر الحميد في مجالات رهيبة من هذا العالم لا تخفى.

وقال د. روبرتسون: «إنني فخور جداً بنيلي للجائزة وأود أن أشكر هيئة جائزة الملك فيصل العالمية ولجنة الاختيار على تسليط الضوء على هذا الجانب المهم في البحوث الطبية. إن فوزي بهذه الجائزة تشريف لجامعتي ولمعهد كارولينسكا في استوكهولم، ولي شخصيًا بوصفي أول عالم سويدي يحظى بهذا التقدير».

ثم ألقى د. فيوجيوار كلمة قال فيها: «إن من دواعي فخري واعتزازي أن أتسلم جائزة الملك فيصل العالمية في الطب لهذا العام. فهذا التقديرالرفيع ليس شرفًا لي وحدي، بل إنه أيضًا تشريف لوطني اليابان». وجاء في كلمة د. جنتر: «إن جائزة الملك فيصل العالمية امتداد لتقليد عظيم من تقاليد المسلمين وهو تكريم العلم والريادة فيه. وهذا أمر قد بدأه الخلفاء المسلمون منذ قرون عدة. وبينما كانت أوربا تعيش عصورها المظلمة حقق العلماء المسلمون إنجازات هائلة في الرياضيات والفيزياء والكيمياء». ثم ألقى د. بلام كلمة قال فيها: «إنه لشرف عظيم أن أنال جائزة الملك فيصل العالمية في العلوم. فقد عُرف الملك فيصل بحبه للخير وحرصه على ما ينفع الإنسانية، ونحن العلماء تدفعنا الرغبة في فهم العالم الذي نعيش فيه ويحدونا الأمل، بل الإيمان بأن نقود المعرفة التي نكتسبها إلى تحقيق المنفعة للإنسان، وبالتالي فإن تقدير أعمالنا يدفعنا إلى بذل المزيد من الجهد ويشجعنا إلى حد كبير».

وقال د. جيمس روثمان في كلمته: «إنه لشرف عظيم أن أختار ضمن الفائزين بجائزة الملك فيصل العالمية للعلوم هذا العام، فبقدر ما تبعثه هذه الجائزة من شعور غامر بالبهجة في نفسي إلا أن ما يسعدني أكثر هو أن الجائزة قد تناولت هذه المرة جانبًا من جوانب الإبداع والجمال الأخاذ الذي يحدث داخل أعماق الخلايا».

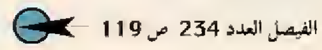
وبالدولة السعودية في أطوارها الثلاثة، والمؤلفات المتعلقة بالدعوة السلفية وبواكير الطباعة في المملكة، والكتب التي طبعت على نفقة المحسنين من المملكة.

وحددت مكتبة الملك عبدالعزيز العامة الأهداف من وراء تنظيمها هذا المعرض، بالإضافة إلى التعريف بالكتب النادرة المتعلقة بالمملكة والجزيرة العربية، في الإسهام في مضاعفة الاهتمام بموضوع الكتاب النادر من الناحية العلمية، وإبراز الجوانب التاريخية والاجتماعية للمملكة والجزيرة العربية، وتشجيع الدراسات والبحوث في موضوع الكتب النادرة، وتحقيق المزيد من التعاون بين المؤسسات العلمية المختلفة التي شاركت في المعرض، وأخيراً الوصول إلى المزيد من المعلومات حول المؤلفات النادرة عن المملكة والجزيرة العربية وأماكن حفظها.

موسوعة لأعلام المملكة

تُعدُّ دارة الملك عبدالعزيز بالرياض لتنفيذ عمل موسوعي متخصص لأعلام المملكة العربية السعودية الذين أسهموا إسهامًا كبيرًا في صياغة تاريخها بعناصره المختلفة.

تغطي الموسوعة - في المرحلة الأولى - مدة زمنية تبدأ بقيام الدولة السعودية الأولى، وتنتهي بوفاة الملك عبدالعزيز آل سعود - طيّب الله ثراه -، وتقتصر الموسوعة على بيانات الأعلام من تاريخ الميلاد والوفاة والمؤلفات - إن وجدت - والأعمال التي قاموا بها وغير ذلك، من دون التعرض للآراء، وتشمل أمراء وحكامًا وعلماء، ودبلوماسيين وإداريين .. إلخ...



جائزة لجهود المملكة في مكافحة الأمية

تسلمت المملكة العربية السعودية ـ ممثلة في وزارة المعارف ـ جائزة محو الأمية الحضاري في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تقديراً لخططها في مجالي محو الأمية وتعليم الكبار.

يأتي هذا التقدير تتويجًا للسياسة التعليمية الحكيمة التي بدأها خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز بوصفه أول وزير للمعارف عام 1372هـ /1953م، حين أرسى دعائم التعليم بالمملكة، وواجه الأمية بسياسة «المواجهة الشاملة» الأمر الذي أدى إلى انخفاض نسبة الأمية العام الحالي إلى 14,87٪ بين الذكور و35,5٪ بين الإناث.

المسابقة السادسة لنادي مكة الثقافي الأدبي

أعلن نادي مكة الثقافي الأدبي تنظيمَ مسابقته الأدبية السنوية السادسة في الشعر والقصة القصيرة والدراسة (مفتوحة للأدباء والناشئة من الجنسين). وحدد النادي شروط المشاركة في المجالات الثلاثة، وهي: إرسال ثلاث قصائد ـ على الأقل ـ من الشعر العربي الفصيح، وثلاث قصص قصيرة ـ على الأقل ـ على أن تكون غير مترجمة أو مقتبسة، أما الدراسة الأدبية فمخصصه لأحد موضوعين: (أحمد السباعي أديبًا)، أو (حسين عرب شاعراً)، مع اعتماد المنهج العلمي، والتوثيق في كتابة الدراسة، وذكر المصادر والمراجع.

ومن الشروط العامة، أن تكون المشاركات جديدة، ولم يسبق نشرها أو الفوز بها في مسابقات أخرى، وأن تكون مطبوعة أو مكتوبة بخط واضح، وأن ترسل في موعد أقصاه نهاية شهر ذي الحجة 1416هـ إلى عنوان نادي مكة الثقافي الأدبي (مكة المكرمة ـ ص.ب 6586).

وقد خصص النادي ثلاث جوائز مالية لكل فرع من فروع المسابقة، الجائزة الأولى: ألفا ريال، الجائزة الثانية: ألف وخمسمئة ريال، الجائزة الثالثة ألف ريال.

مجلة المعرفة تعاود الصدور

تعد وزارة المعارف ـ حاليًا ـ لإعادة إصدار دوريتها «مجلة المعرفة» التي كان أول صدور لها إبان تولي خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز ـ يحفظه الله ـ حقيبة وزارة المعارف (1953– 1962م)، ثم توقفت عن الصدور بعد 15عدداً.

وبدأت الوزارة في استجلاء آراء منسوبيها من مختلف المناطق التعليمية حول أبواب المجلة وزواياها المقترحة، ومواصفات طباعتها.

معرض للكتاب الإسلامي

نظمت عمادة شؤون المكتبات بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة «معرض الكتاب الإسلامي الثالث عشر» من 15 إلى 30 شوال الماضي.

شارك في المعرض 52 داراً سعودية للنشر، قدّمت نحو خمسين ألف عنوان في شتى فنون العلم والمعرفة.

الفائزون بجائزة الملك فيصل العالمية للطب والعلوم عام 1416هـ/1996م

أ.د. بنجت أندريس روبرتسون: الفائز بجائزة الملك فيصل العالمية للطب (بالاشتراك)

ولد في العاصمة السويدية استوكهولم عام 1935م، وتخرج في معهد كارولينسكا عام 1960م. وخلال العقد التالي لتخرجه قام وفريقه البحثي، ببحوث رائدة أجريت على الحيوانات في مجال وظائف الجهاز التنفسي في الصحة والمرض وعلاقته «بمتلازمة ضيق التنفس» في الأطفال الخدج. وقد أظهر هؤلاءالباحثون، للمرة الأولى، أن مادة «السيرفاكتانت»، وهي المادة التي تقلل من التوتر السطحي داخل الحويصلات الهوائية في الرئة، حين توضع في المجرى التنفسي في الثديات ناقصة النمو قبل حدوث التنفس الأول بعد الولادة يمكن أن تقي من «متلازمة ضيق التنفس»، وتم فيما بعد إظهار الفائدة الأكيدة من إعطاء هذه المادة للأطفال الخدّج.

ولقد قام الدكتور روبرتسون وزملاؤه بنشر ثلاثين ومئتي بحث، إلى جانب ما يربو على سبعة عشر ومئة مرجع ومقالات شاملة وفصولاً في كتب، ويعمل الدكتور روبرتسون حاليًا أستاذاً ومديراً لوحدة أمراض الأطفال في معهد كارولينسكا في استوكهولم.

أ.د. بنجت أندريس روبرتسون:

د. تسورو فيوجيوارا

الفائز بجائزة الملك فيصل العالمية للطب (بالاشتراك)

ولد في مدينة موريوكا اليابانية، وتخرج في جامعة أبويت الطبية عام 1956م، قام بإجراء بحوث عن التمثيل الغذائي للغازات عند الخدج، وعكف سنوات طويلة على البحث في مجال تحسين وسائل علاج «متلازمة ضيق التنفس»، وقد قاده اكتشاف أن هذه المتلازمة تحدث نتيجة نقص مادة «السيرفاكتانت» إلى البحث عن مادة مصنعة، ومن ثم استنباط مركب مستحدث. وهو أول من نشر نجاح استخدام هذه المادة في علاج الأطفال الخدج، إذ قام بإحلال هذه المادة بحقنها داخل القصبة الهوائية وتمكن ـ بإذن الله ـ من إنقاذ حياة ثمانية من بين عشرة من الأطفال الخدج المصابين «بمتلازمة ضيق التنفس» في أول تجربة له. كما أن دراساته حول إيجاد فحص للتشخيص المسبق لاحتمال الإصابة «بمتلازمة ضيق التنفس» من طريق فحص السائل «الأمنيوني» من الأم قبل الولادة أو محتويات المعدة من الطفل عقب الولادة، أضاف إنجازاً آخر لتحسين علاج هذه المتلازمة، وقد استخدمت نتائج دراساته السريرية في مراكز متعددة علاجًا وقائيًا لذلك المرض، ويعمل الدكتور فيجيوارا رئيسًا وأستاذًا بقسم طب الأطفال بجامعة أبويت. وقد نشر، ومجموعته، خمسة عشر ومئتي بحث وثمانين كتابًا أو فصلاً في كتاب أو مقالات شاملة. وقد أصبح استخدام مادة «السيرفاكتانت» المصنعة علامة بارزة في علاج الخدج في مختلف أنحاء العالم.



أ.د. جنتر بلوبل

أ.د. جنتر بلوبل: الفائز بجائزة الملك فيصل العالمية للعلوم (بالاشتراك)

أمريكي الجنسية، ولد في ألمانيا في العام



مؤتمر للأدب الشعبي

نظمت ديوانية الأدب الشعبي والتراث في مدينة عنك بالمنطقة الشرقية المؤتمر الثالث للأدب الشعبي في منطقة الخليج في مطلع شهر ذي القعدة المنصرم.

شارك في المهرجان شعراء وأدباء وكتاب ممن لهم اهتمامات بالأدب الشعبي من المملكة والبحرين، وأقيمت على هامشه ندوة للمسامرة شارك فيها أبرز شعراء «القلطة» بالديوانية.

كتب جديدة

مشاعر أمة، (مختارات لما نشر في الصحافة لبعض الكُتّاب في إثر الوعكة التي ألمت بخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز).

ملف الواحات المشمسة، أعمال قصصية لمجموعة من القاصين مصحوبة بدراسات نقدية، صدر عن نادي القصة.

صدر الكتابان السابقان عن الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون.

كشاف مجلة أبوللو، ط.ج، إعداد أمين سليمان سيدو، تقديم أبي عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، صدر عن نادي الرياض الأدبي.

المسلمون والتربية العسكرية، تأليف خالد أحمد الشنتوت، صدر عن دار المطبوعات الحديثة في جدة.

الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري، تأليف محمد إبراهيم أبا الخيل، صدر عن مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض.

الأدب، اللغة والفضاء، تأليف مجموعة من الباحثين الفرنسيين، ترجمه إلى العربية أحمد عثمان، وصدر ضمن سلسلة «كتاب الرياض» عن مؤسسة اليمامة الصحفية.

أيام رمضان: ثلاثون كلمة في الصيام، تأليف د. صالح بن عبدالكريم الزيد، صدر عن مكتبة المعارف للنشر والتوزيع.

حي ميري، أول عمل روائي للأديب أبي عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، صدر عن دار ابن حزم للنشر والتوزيع.

الإمارات

ندوة تاريخ العلوم عند العرب

تعقد في رأس الخيمة الندوة العالمية السادسة لتاريخ العلوم عند العرب، خلال شهر شعبان المقبل (ديسمبر 1996م).

ينظم الندوة مركز الدراسات والوثائق بدولة الإمارات العربية بالتعاون مع معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب السورية، ويشارك فيها علماء ومتخصصون من مختلف الشعب العلمية.

ندوة كتابات الرحالة عن دول الخليج

بدأت ندوة «كتابات الرحالة والمبعوثين عن

1936م، ودرس العلوم والطب فيها وفي الولايات المتحدة الأمريكية.

انتخب عام 1983م عضواً في أكاديمية العلوم القومية في الولايات المتحدة، ومنح جائزة ألبرت لاسكر في الطب الأساسي في العام 1993م.

يعد من رواد دراسة فرز البروتينات وانتقالها داخل الخلايا، ومن الذين أسهموا في ذلك إسهامًا عظيمًا. وقد أقامت بحوثه الهيكل الفكري في هذا الموضوع، والطرائق التجريبية اللازمة لدراسته. وقاده ذلك إلى أكثر من اكتشاف كبير. له دور في توضيح طريقة انتقال البروتينات داخل الخلايا، عابرة الأغشية، أو مندمجة فيها، كما أفادت منه أيضًا دراسة تركيب حبيبات الخلية وأغشيتها، وقد توصل إلى أن هناك عناصر متسلسلة متميزة تملكها كل البروتينات المتجهة إلى الموقع نفسه في الخلية، وأن هذه العناصر تحدد انتقال البروتينات، ومن ثم فرزها عبر الأغشية الخلوية الداخلية، واندماجها فيها.

وجود سلسلة قصيرة مشتركة في النهاية الكربوكسيلية للبروتينات المحلولة في الشبكة الواقعة داخل الخلية. وبرهنوا أن السلسلة المشتركة والجزيء المستقبل في جهاز غولغي مسؤولة عن وضع هذه البروتينات في الشبكة واستبقائها فيها، وأسهمت هذه الدراسات في زيادة فهمنا لكيفية قيادة حركة البروتينات في طريق الإفراز.

د. هيوم بلام
الفائز بجائزة الملك فيصل العالمية للعلوم (بالاشتراك)


د. هيوم بلام

ولد في بريطانيا في العام 1954م، ودرس في جامعة كمبردج. وقد انتخب عضواً في الجمعية الملكية في لندن عام 1988م، ومنح جائزة لويس جانتيه في الطب عام 1991م. نشر ما يقرب من مئة نشرة علمية في مجال انتقال البروتينات. وقد مكنته دراساته وبحوثه من كشف بعض الآليات الحيوية التي يستند إليها طي البروتينات في الخلايا ذوات النواة، وفي بناء هذه البروتينات وإنضاجها، وقد بيّن مع زملائه أن بروتينات صدم الحرارة هي مركبات العملية الطبيعية التي تحفظ للكائن الحي توازنه. واكتشف فريقه أيضًا

د. جيمس روثمان
الفائز بجائزة الملك فيصل العالمية للعلوم (بالاشتراك)

أمريكي الجنسية، ولد في عام 1950م، ودرس في جامعتي يل، وهارفارد، وفي معهد مساتشوسش للتقنية. ونشر ما يقرب من خمسين ومئة نشرة علمية، وحصل على جائزة إلاي ليلي للبحث الأساسي في الكيمياء الحيوية في العام 1986م، وانتخب عضواً في أكاديمية العلوم القومية في الولايات المتحدة الأمريكية عام 1993م.

وقد اخترع طريقة في استخدام كتلة خالية من الخلايا مثّل فيها في المعمل ظروف انتقال البروتينات، فتمكن بذلك من النظر نظرًا دقيقًا في انتقال البروتينات الوليدة. وسمحت هذه الطريقة بدراسة انتقال البروتينات السكرية بين أقسام جهاز غولغي الخلوي المتعاقبة؛ وأعان ذلك في تفسير كيفية نقل الخلايا بروتيناتها إلى مواقعها الصحيحة وإبقائها فيها. وقد أوجد الدكتور روثمان أيضًا فكرة السريان الكتلي التي توحي بأن البروتينات لا تحتاج إلى إشارة لبلوغ سطح الخلية، بل تسعى إليه من تلقاء نفسها، وإنما تحتاج إلى إشارة لكي تحول عن مسارها؛ أو لتحتفظ بها في مكانها أو لتعاد إلى مصدرها.


د. جيمس روثمان

منطقة الخليج العربي عبر العصور» أعمالها في الثلاثين من شهر ذي القعدة المنصرم (18أبريل 1996م).

نظم الندوة مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي بالتعاون مع جامعة الإمارات والمجمع الثقافي بأبو ظبي، وشاركت فيها أكثر من خمسين جهة ثقافية ومراكز وجامعات عربية وأجنبية.

وتضمنت الندوة مناقشة أربعة عشر محوراً تلقي ضوءاً على كتابات الرحالة والمبعوثين الذين زاروا المنطقة منذ عصور الإسلام الأولى وحتى عام 1960م، ورافق الندوة تنظيم معرض متخصص لأعمال الرحالة والمبعوثين يضم مجموعة من الكتب والصور والخرائط.

ملتقى حول ثقافة المرأة الخليجية

تنظم أندية الفتيات في الشارقة ملتقى ثقافياً تحت عنوان «ثقافة المرأة في الخليج» من 16إلى 19ذي الحجة الجاري (4 – 7مايو 1996م).

تشارك في الملتقى أديبات وكاتبات من مختلف دول الخليج العربية، وفيه تتم مناقشة الأفكار التي تسهم في تشكيل شخصية المرأة الخليجية بما يمكنها من مواكبة الحدث الثقافي في العالم.

معرض أبو ظبي الدولي للكتاب

شاركت خمسمئة دار نشر عربية وأجنبية بمئة ألف عنوان في معرض أبو ظبي الدولي السادس للكتاب الذي افتتح في النصف الأول من شهر ذي القعدة الماضي في المجمع الثقافي.

صاحب المعرض نشاطات ثقافية وفنية متنوعة من بينها أمسيات شعرية، وقراءات ومناقشات، ومسرحيات، وأمسيات موسيقية وسينمائية، ومباريات للشعر النبطي، إضافة إلى بعض الورش ذات الطابع الثقافي.

الكويت

ندوة التنمية في إطار تجديد الفكر الإسلامي

نظمت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في الكويت الندوة الأولى لملامح المشروع الحضاري الإسلامي المعاصر، التي عقدت تحت عنوان «التنمية في إطار تجديد الفكر الإسلامي» بمشاركة علماء وباحثين من مصر، الكويت، السعودية، الإمارات، قطر، عمان، لبنان، المغرب، إيران، بريطانيا، والولايات المتحدة الأمريكية في النصف الثاني من شهر شوال الماضي.

ناقشت الندوة ثماني ورقات خليجية حول موضوعها، من خلال محاور رئيسية شملت التنمية الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وأقيم على هامشها معرض للصور الفوتوغرافية والكتب العربية والأجنبية التي تتناول موضوع التنمية.

جوائز سعاد الصباح

أعلنت دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع عن موضوعات جائزة سعاد الصباح للإبداع العلمي والفكري والأدبي لعام 95/1996م.

وتحدد مجال الإبداع العلمي في الموضوعات التالية: ابن ماجد في تاريخ الملاحة البحرية، أزمة المياه في العالم العربي، علم الفلك عن العرب، والتلوث البيئي وسبل مواجهته.

أما موضوعات الإبداع الفكري والأدبي فتحددت في مجالات: الشعر، القصة القصيرة، مدارس النقد في الأدب العربي المعاصر، وتاريخ القدس الشريف.

وتحدد يوم الثالث عشر من محرم 1417هـ (30 مايو 1996م) موعداً نهائياً لاستقبال المشاركات على عنوان الدار ص.ب 27280 الصفاة ـ الكويت.

بينالي الكويت

افتتح بينالي الكويت الثاني عشر للفنون الجملية في الحادي والعشرين من شهر ذي القعدة الماضي (9 أبريل 1996م).

شارك في المعرض فنانون من 21 دولة عربية وأجنبية بإبداعات تشكيلية تنوعت ما بين رسم وتصوير ونحت.

كتب جديدة

التصوير الشعبي العربي، تأليف أكرم قانصو.

محاضرات وندوات

«أصل الحضارة الفرعونية وصلتها بالحضارة الإفريقية»، عنوان ندوة نظمها في القاهرة معهد البحوث والدراسات الإفريقية، وتحدث فيها د. زاهي حواس، وأدارها د. السيد إبراهيم.

«ازدواجية شخصية المفكر العربي القديم، الأندلس أنموذجاً»، عنوان محاضرة ألقاها في نادي القصيم الأدبي في بريدة د. عبدالله ثقفان.

«معوقات الأمن الاجتماعي لدى المرأة الكويتية»، عنوان محاضرة ألقتها في مؤتمر رابطة الاجتماعيين الكويتيين د. عالية شعيب.

«الجراحة بالمنظار: تطور علمي أم خطر صحي؟»، عنوان محاضرة ألقاها في دار الندوة في بيروت د. أسامة حيدر.

«صفحات لم تقرأ من التاريخ»، عنوان محاضرة ألقاها في جامعة الملك سعود بالرياض الشيخ حمد الجاسر.

«الجهاز العصبي»، موضوع محاضرة ألقاها في نادي الصيد بضاحية الدقي في القاهرة الكبرى د. خيري السمرة.

«الإسلام والطب»، موضوع ندوة أقيمت في دار الأوبرا بالقاهرة تحدث فيها د. إبراهيم بدران.

«دعوة القرآن الكريم إلى وحدة المسلمين»، عنوان ندوة أقيمت في جامعة القاهرة، تحدث فيها د. أحمد عمر هاشم.

«الإسلام والمعرفة»، عنوان محاضرة ألقاها في دار الأوبرا المصرية د. مصطفى الشكعة.

«الرنين المغناطيسي والالتهابات العصبية»، عنوان محاضرة ألقاها في الكلية الطبية الملكية البريطانية عميد د. صالح محمد الذيب.

«حقوق المرأة المسلمة»، عنوان محاضرة ألقاها في جامع الرين القديم في الرياض الشيخ عبدالعزيز بن زيد العميقان.

«إشكالية ترجمة النصوص المسرحية»، عنوان ندوة نظمها في مكتبة القاهرة الكبرى المجلس الأعلى للثقافة، وشارك فيها كل من: ألفريد فرج، ود. جابر عصفور، ود. فاطمة موسى، وفتحي العشري، والشريف خاطر، ود. هدى وصفي، ود. رضا الجمل، وسلامة أحمد سلامة، ود. محمد العناني، وآخرون.



شعرنا القديم والنقد الجديد، تأليف د. وهب رومية.

صدر الكتابان السابقان ضمن سلسلة «عالم المعرفة» عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

اليمن

جائزة للبحوث السياسية والفكرية والاقتصادية

يعتزم مركز دراسات المستقبل ومقره صنعاء إنشاء جائزة علمية في مجال الدراسات والبحوث السياسية والفكرية والاقتصادية.

الجائزة مقدمة من رجل الأعمال اليمني توفيق الخامري، وتعد أول جائزة من نوعها في اليمن، ولم تعلن حتى كتابة هذه السطور تفصيلات الجائزة وشروطها.



مصر

انهيار جديد في مسجد عمرو بن العاص

انهار عمود رخامي أثري وجزء من سقف مسجد عمرو بن العاص رضي الله عنه، أول مسجد يقام في مصر وإفريقية، ورابع مسجد في العالم الإسلامي، إذ بني عام 21 هـ (642م)، وكان أول جامعة إسلامية عرفتها مصر وإفريقية.

حدث الانهيار في أثناء عملية ترميم تجري في المسجد، واختلفت الأقوال حول سبب الانهيار ما بين إرجاع السبب لضعف الصلبات التي وضعتها الشركة المرممة، وبين الإشارة إلى مخالفة الشركة للاتفاق مع المجلس الأعلى للآثار وقيامها بتنفيذ عمليات الترميم ليلاً في غياب الأثريين.

وأصدرت السلطات المختصة قرارًا بمنع الصلاة في الجزء الذي تعرض للانهيار خشية حدوث انهيارات أخرى.

وقد مر مسجد عمرو بن العاص منذ إنشائه وإلى اليوم بأكثر من مرحلة، إذ أعيد بناؤه عام 711م في عهد الوالي مسلم بن مخلد الذي أضاف إليه المحراب المجوف، وبنى له أول مئذنة، وفرشه بالحصر بعد ما كان مفروشًا بالحصى، ثم وسعه الخليفة العباسي المأمون عام 837 م فأصبحت مساحته 3400 م2. والانهيار الذي حدث وأصاب جزءًا من سقف المسجد ليس أول انهيار يتعرض له، إذ كانت المرة الأولى عام 1168م حين تصدعت جدرانه في إثر حريق، وقام الناصر صلاح الدين الأيوبي بإصلاحه بعدها بأربعة أعوام، كما سقط سقفه إبان الحكم المملوكي عام 1797م؛ وتولى مراد بك أحد أمراء المماليك بترميمه وإعادة زخرفته، وبنى له منارتين جديدتين، كما سقط قبل عامين جزء من سور المسجد وتبرع خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز بتكلفة ترميمه عام 1994م.

وضع التصور النهائي لأول مركز للموسوعات الإسلامية

انتهت اللجنة المكلفة بوضع التصور النهائي لإنشاء أول مركز علمي للدراسات والموسوعات الإسلامية بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية من أعمالها بعد اجتماعات استمرت ثلاثة أسابيع.

يرمي المركز إلى إصدار عدد من الموسوعات في مختلف التخصصات، والمجلات الإسلامية، والدراسات التي توضح المفهوم الصحيح للإسلام، وترد على الاتهامات والدعايات المغرضة الموجهة له.

من ناحية ثانية بدأ المجلس في إصدار ملفات متكاملة شهريًا عن علماء الإسلام ومشائخه، وفي مقدمتهم الراحلون: الشيخ جاد الحق علي جاد الحق، الشيخ محمد الغزالي، الأستاذ خالد محمد خالد - تغمدهم الله برحمته - وترمي هذه الملفات إلى إطلاع النشء على نتاج هؤلاء العلماء والتعريف بهم، وبما قدموه للإسلام من فكر صحيح معتدل.

أحيت الشاعرة الكويتية سعاد الصباح أمسية شعرية في قاعة أروين هول بالجامعة اللبنانية في بيروت.

«الولايات المتحدة الأمريكية ومراكش 1784- 1912م»، عنوان محاضرة ألقاها في الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالقاهرة د. حسن صبحي.

«الدراسات الإسلامية: ماضيًا وحاضرًا ومستقبلاً»، عنوان محاضرة ألقاها في جاليري بروناي في جامعة لندن د. سيد حسين نصر.

«الطفل المعاق وكيفية الاهتمام به»؛ موضوع محاضرة جماعية ألقاها بدعوة من مؤسسة الخدمة الاجتماعية لسلامة الطفولة (سيسوبيل) في لبنان الدكاترة: منصور حجيلي، كمال كلاب، وجوزيف حداد.

«الصحافة المصرية والحوار السياسي: قيم غائبة ودور ضروري»، عنوان محاضرة ألقاها في المكتب الثقافي المصري في لندن د. عمرو عبدالسميع.

«فلسفة الإبداع والتعليم»، موضوع ندوة نظمتها رابطة التربية الحديثة بالقاهرة، تحدث فيها د. مراد وهبة، وأدارها د. محمود أبو زيد.

«أهمية النشاط الطلابي»، عنوان محاضرة ألقاها في مركز النشاط الطلابي بثانوية الملك عبدالعزيز بمكة المكرمة، د. محمد الأحمد الرشيد.

«الإمام الأوزاعي»، موضوع محاضرة ألقاها بدعوة من اتحاد الشباب الوطني في بيروت د. حسان حلاق.

«الهوية وأسئلة الحداثة»، عنوان محاضرة ألقاها بدعوة من مركز البحث السلوكي بالجامعة الأمريكية في بيروت الشاعر أدونيس.

«نقد الحداثة.. ما له وما عليه»، عنوان محاضرة ألقاها في الجامعة الأمريكية في بيروت د. جابر عصفور.

«دعوة لإعادة النظر في تاريخ الحضارة العربية قبل الإسلام»، عنوان ندوة أقيمت في مركز الدراسات اللغوية والأدبية المقارنة في كلية الآداب بجامعة القاهرة، تحدث فيها د. فتحي الريس، وأدارها د. أحمد عثمان.

«دور التلفزيون في المجتمع اللبناني»، عنوان محاضرة ألقاها في دار الندوة في بيروت نبيل الدجاني.

«مكة المكرمة في قصص أبنائها المبدعين»، عنوان محاضرة ألقاها في نادي مكة الثقافي الأدبي د. منصور الحازمي.

«نظَّم نادي أبها الأدبي، أمسية حول الشعر وفنونه المختلفة، شارك فيها الدكاترة: علي سعد آل موسى، وعلي الحجري، وأحمد علي النهاري.



دعوة لتشريع خاص لحماية المخطوطات

دعا رئيس دار الكتب والوثائق القومية د. محمود فهمي حجازي إلى إصدار تشريع خاص لحماية المخطوطات، ومنع تهريبها إلى الخارج، مشيرًا إلى أن القانون الحالي لايعدالمخطوط أثرًا إلا بعد مرور مئة عام على صدوره.

تجيء هذه المطالبة بعد تكرار ضبط مخطوطات يتم تهريبها إلى خارج مصر مع مسافرين.

أول متحف في العالم للتحنيط

يعد حاليًا لتحويل مركز الزوار بمدينة الأقصر إلى متحف للتحنيط هو الأول من نوعه في العالم.

ينتظر أن يشتمل سيناريو العرض في المتحف على قصة التحنيط في مصر القديمة منذ إعلان وفاة الميت وإلى دفنه، مرورًا بمرحلة التحنيط في المعبد المخصص لذلك، والطقوس التي كانت تصاحب عملية التحنيط والدفن.

كما يضم المتحف الأدوات التي استخدمت في عملية التحنيط، والقطع الأثرية المرتبطة بالآلهة والكهنة التي كانت توكل إليهم هذه المهمة، إضافة إلى حجرة دفن مشابهة لتلك التي كانت تستخدم.

ندوة قومية لبيرم واحتفالية لأمين الخولي

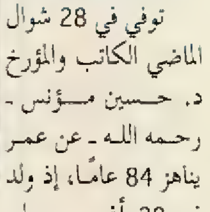
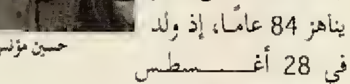
أمين الخولي

نظم المجلس الأعلى للثقافة ندوة قومية بعنوان «قضايا شعر العامية وآفاقه» بمناسبة الذكرى الخامسة والثلاثين لوفاة الشاعر بيرم التونسي في الرابع من شهر ذي القعدة الماضي (23مارس 1996م) استمرت يومين، وأقام المجلس احتفالية للمفكر الراحل أمين الخولي تحت عنوان «أمين الخولي.. الأصالة والتجديد» في الثامن عشر من الشهر نفسه (6أبريل 1996م) استمرت ثلاثة أيام.

ناقشت ندوة بيرم محورين أساسيين، أولهما عن الشاعر نفسه ودراسات عن خطابه الشعري والنثري ومكانته بين سابقيه ولاحقيه، والتفاعل بين الثقافة الشعبية والثقافات الأخرى، ودار المحور الثاني حول شعر اللهجات العربية.

فيما تضمنت احتفالية شيخ العربية أمين الخولي مناقشة جهوده عبر خمسة محاور هي: الدراسات اللغوية والنحوية، الدراسات الأدبية، البلاغة والنقد وفن الترجمة، الفكر الديني، والأدب والتفسير.

وفاة الكاتب والمؤرخ د. حسين مؤنس

حسين مؤنس

توفي في 28 شوال الماضي الكاتب والمؤرخ د. حسين مؤنس - رحمه الله - عن عمر يناهز 84 عامًا، إذ ولد في 28 أغسطس 1911م في محافظة السويس.

وقد تخرج في قسم التاريخ في كلية الآداب جامعة القاهرة عام 1934م، ونال درجة الماجستير من الجامعة نفسها عام 1937م، والدكتوراه في الآداب من جامعة زيورخ عام 1943م.

عمل أستاذًا للتاريخ الإسلامي في جامعة القاهرة، ومديرًا عامًا للثقافة بوزارة التربية والتعليم، كما شغل - إلى جانب عمله بالجامعة - منصب مدير معهد الدراسات الإسلامية في مدريد بين عامي 1957م و 1969م. وعمل أستاذًا ورئيسًا لقسم التاريخ في جامعة الكويت (1961- 1977)، ورأس تحرير مجلة الهلال وروايات الهلال وكتاب الهلال، وكان عضوًا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، وبالمجالس القومية المتخصصة والمجلس الأعلى للثقافة.

وله كثير من المؤلفات التاريخية والروايات والقصص القصيرة والكتب المترجمة، كما حصل على جائزة الدولة التقديرية عام 1986م.

كتب جديدة

خطاب الهزائم المعلقة: قراءة في رواية محمد البساطي (صخب البحيرة)، تأليف عماد الحيني، صدر ضمن سلسلة «الثقافة الجديدة» عن هيئة قصور الثقافة.

مستويات الحوار في فنون النثر العباسي، تأليف د. عبدالله التطاوي، صدر عن مكتبة غريب بالقاهرة.

آباء الستينيات: جيل لجنة النشر للجامعيين، تأليف محمد جبريل، صدر عن مكتبة مصر.

البيبليوجرافيا أو علم الكتاب، تأليف د. شعبان عبدالعزيز خليفة، صدر عن الدار المصرية اللبنانية.

لا إله إلا الله محمد رسول الله: تسلية المصاب عند فقد الأحباب، تأليف محمد عبدالسلام المنير، صدر عن مكتبة التراث الإسلامي.

مصر القادمة بين التغريب والتكفير، تأليف د. رفيق حبيب، صدر عن دار الشروق.

الأدب في العصر المملوكي، جزءان، تأليف د. محمد زغلول سلام، صدر عن دار منشأة المعارف للنشر.

نوادر المخطوطات، تحقيق وتصنيف د. يوسف زيدان، صدر عن مكتبة الإسكندرية.

أهالي حلايب على الحياد، تأليف محمد حسن، صدر عن دار النديم للنشر.

الدولة السعودية فخر التكوين وآفاق الإسلام، تأليف أحمد رائف، صدر عن دار الزهراء للإعلام العربي.

قواعد الشعر. تأليف أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب، تحقيق د.رمضان عبدالتواب، صدر عن مكتبة الخانجي.

 العراق

وفاة الخالدي الأصغر

توفي - مؤخرًا - المؤرخ والبحاثة ميخائيل عواد عن عمر يناهز 84 عامًا.

ولد ميخائيل عواد الملقب بـ «الخالدي الأصغر» عام 1912م في الموصل. وبها تلقى علومه الأولية ثم واصل دراسته في بغداد، وتخرج في دار المعلمين الابتدائية عام 1943م، وعمل بالتدريس ثم في أعمال إدارية بوزارة المعارف حتى تقاعده.

وترك الفقيد تراثًا كبيرًا حيث شملت كتاباته وبحوثه مختلف أوجه الحضارة، فله أربعة عشر كتابًا، وثمانية نصوص محققة، ونحو 170دراسة في التراث العربي.

من مؤلفاته «المآخذ في بلاد الروم والإسلام»، «صور من حضارة العراق في العصور السالفة»، «الموسيقى والغناء في العصر العباسي»، «صور



مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي» وكتب أخرى.

سورية

كتب جديدة

مهاجر في زمن الورد ـ مجموعة شعرية
خواطر مرحة ـ الكتابان للأديب الشاعر ممدوح الفاخوري ـ صدرا عن دار شراع للدراسات والنشر والتوزيع ـ دمشق.

الغابة النائمة، مجموعة قصصية لنادر السباعي.

أسطوريات، الجزء الثاني من الأعمال الكاملة للناقد الفرنسي المعاصر رولان بارت، ترجمه إلى العربية د. قاسم مقداد.

صدر الكتابان السابقان عن مركز الانماء الحضاري

جلجامش: الإنسان والخلود، تأليف عبدالحكيم الذنون، صدر عن دار المنارة في دمشق.

ثمار القلوب في المضاف والمنصوب، تأليف أبي المنصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، تحقيق إبراهيم صالح، صدر عن دار البشائر للطباعة والنشر.

ذاكرة مقام نهاوند، تأليف ماهر اليوسفي، صدر عن دار الأهالي.

لبنان

مؤتمر دولي للفرنكوفونية

نظمت شبكة التفاعل الثقافي والتنمية التابعة لجمعية الجامعات الناطقة باللغة الفرنسية، وجامعة شبكات التعبير باللغة الفرنسية أول مؤتمر دولي فرنكفوني في بيروت بعنوان «التنوع اللغوي والتفاعل الثقافي ورهان التنمية» من 2 إلى 4 ذي القعدة الماضي (21 – 23 مارس 1996م).

شارك في المؤتمر باحثون وأكاديميون لبنانيون ونحو ثلاثين باحثًا من 14 بلدًا فرنكوفونيًا، وناقشوا الموضوع عبر ثلاثة محاور هي: التفاعل الثقافي وسياق الاندماج الوطني، تأثير التنوع الثقافي ومفهوم الاستثناء الثقافي، وأشكال اعتماد اللغة الفرنسية والنظم التربوية.

تكريم لأعلام الثقافة

نظمت الحركة الثقافية في انطلياس معرضًا للكتاب شاركت فيه 56 دارًا للنشر، ومهرجانًا لتكريم أعلام الثقافة في لبنان، الرعيل الحادي عشر 1996م.

كرم المهرجان سبعة من رجال الثقافة البارزين وخصص لكل منهم يومًا للاحتفاء به، والمكرمون هم: بشير البيلاني، جميل جبر، صلاح ستيتة، سامي مكارم، رينيه عجوري، وأميلي نصر الله.

كتب جديدة

محاضرات في علم الإعلام العام: المديولوجيا، تأليف ريجيس دوبريه، ترجمه إلى العربية فؤاد شاهين وجورجيت الحداد، وصدر عن دار الطليعة للنشر.

المستشرق الألماني فولفد بترش فيشر، تأليف مجموعة من الباحثين، صدر عن دار نشر جروس برس في طرابلس.

محطات في حياتي الدبلوماسية، تأليف نديم دمشقية، صدر عن دار النهار للنشر.

سادة الاستفهام، رواية لعلي سرور، صدرت عن دار العلم للملايين.

الحياة الروحية في بابل، تأليف إ. كلشكوف، ترجمه إلى العربية عدنان عاكف حمودي، وصدر عن دار المدى للثقافة والنشر.

من آثار أمير البيان شكيب أرسلان في الشعر والنثر، تأليف نجيب البعيني، صدر عن الدار الجامعية.

لوحات من القرن التاسع عشر: لبنان، فلسطين، وسيناء، تأليف سير شارلز ويلسون، ترجمه إلى العربية محمد شيا، وصدر عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر.

الجامع في العروض والقوافي، تأليف أبي الحسن أحمد بن محمد العروضي، تحقيق زهير غازي زاهد، وهلال ناجي.

ديوان الأخطل، شرح مجيد طرد.

صدر الكتابان السابقان عن دار الجيل.

الأردن

بحث إنشاء حاسوب عربي

يعقد مجمع اللغة العربية الأردني موسمه الثقافي الرابع عشر تحت عنوان «التقنيات الحديثة في خدمة اللغة العربية» من 16ذي الحجة الجاري إلى 28 محرم 1417هـ (4 مايو إلى 15 يونيو 1996م)

من أهم المناقشات التي يشهدها الموسم بحث إقامة دراسات علمية متخصصة لإنشاء حاسب آلي باللغة العربية ليحل محل تطويع الجوانب الموجودة حاليًا باللغات الأجنبية للغة العربية، كما يتم عرض بحوث علمية حول اللغة والثقافة العربية في عصر الإنترنت، والمعاجم العربية العلمية المتخصصة، وبحوث حول التقنيات الحديثة ونظم المعرفة، وموضوعات أخرى.

وينتظر أن يتم تجميع البحوث المشاركة في كتاب يحمل عنوان الموسم نفسه ليوزع على العالم العربي عبر التبادل أو الشراء أو الإهداء.

استعدادات لإقامة مهرجان جرش

تجرى حاليًا استعدادات لإقامة مهرجان جرش الخامس عشر للثقافة والفنون من 1 إلى 18ربيع الأول 1417هـ (17يوليو ـ 3 أغسطس 1996م).

ويشمل المهرجان ندوات ومحاضرات وأمسيات شعرية وقصصية ونقدية، ومعارض فنية، وعروض شعبية.

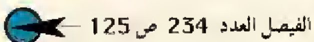
مسابقة أدب الطفل العربي

حددت مؤسسة نور الحسين يوم الرابع عشر من شهر صفر 1417هـ (30 يونية 1996م) آخر موعد لتسلم نتائج الأدباء والكتاب العرب الراغبين في المشاركة في مسابقة أدب الطفل التي أعلنتها للعام الحالي.

ترمي المسابقة إلى تشجيع الكتابة الأردنية للطفل العربي بين سن 4 – 16عامًا، وهي مفتوحة لأدباء الوطن العربي وكتّابه عبر محورين: القصائد الشعرية والأناشيد، والأدب العلمي للطفل.

كتب جديدة

أوركسترا، مجموعة قصصية لسميحة خريس، صدرت عن دار الكندي في إربد.



خيوط الزعفران، مجموعة قصصية لمحمد طلال الرشيد، صدرت عن دار البشير في عمان.

الصور الجميلة، مجموعة قصصية لنبيل عبدالكريم، صدرت عن دار أزمنة.

ليبيا

جوائز الدولة لخمسة أدباء

علي المصراتي

أنشأت الجماهيرية الليبية ـ مؤخراً ـ خمس جوائز تقديرية جرى منحها في مطلع شهر شوال الماضي لخمسة من كبار المشتغلين بالأدب والفن هم: حسن السوسي، وخليفة التليسي، وعلي المصراتي، وخديجة الجهمي، ومحمد قنبص.

وحسن السوسي شاعر بارز على أنه مقل، إذ لم يصدر سوى ثلاثة دواوين، إلا أنه أحد الذين انتصفوا للتراث ورفضوا دعاوى الحداثة الغربية، وبقوا أوفياء لأوزان الخليل بن أحمد الفراهيدي وبحور الشعر.

أما خليفة التليسي، فهو مثقف موسوعي، جمع بين كتابة الشعر والنقد والترجمة والتأريخ ووضع الموسوعات، وكان وزيراً للإعلام والثقافة في الستينيات الميلادية، وله العديد من الكتب والمؤلفات منها: «معجم معارك الجهاد»، «قاموس التليسي العربي ـ الإيطالي»، و«رفيق شاعر الوطن».

ويعد علي المصراتي من أعلام الثقافة والأدب المعاصرين في ليبيا، وهو أزهري حاصل على درجة العالمية من الأزهر، وصدر له قرابة 40 كتاباً ما بين تاريخ الأدب والتراث الشعبي والتراجم والقصص القصيرة والمقالات الساخرة، وتميز بجهود كبيرة واضحة في إنشاء المنابر الصحفية وتأسيس الأندية الأدبية، كما أسس دار المصراتي للنشر، وأسهم في تأسيس جمعية الفكر. ومن أبرز مؤلفاته: «أعلام من طرابلس»، «لمحات من ليبيا»، «الشاعر إبراهيم الأسطى»، «جحا في ليبيا» و«صحافة ليبيا في نصف قرن».

وخديجة الجهمي شاعرة غنائية ومذيعة وصحافية وقائدة نسائية بارزة، من جهودها قيادة حركة تعليم المرأة الليبية ومشاركتها في الحياة السياسية، وإلى جانب عملها الإذاعي ترأست في الستينيات الميلادية مجلة «المرأة»، كما ترأست تحرير مجلة «البيت».

ويعد الشيخ محمد قنيص أحد أبرز المهتمين بالتراث الأندلسي والموشحات تحديداً في القطر الليبي، وقد اعتنى بالموسيقى الأندلسية، وتعد فرقته «فرقة محمد قنيص للموسيقى العربية» أكثر الفرق الموسيقية شعبية في ليبيا.

كتب جديدة

المثقف العربي والتحديات، تأليف عبدالله مليطان، صدر عن الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع في بنغازي.



المغرب

كتب جديدة

لسان آدم، تأليف عبدالفتاح كيليطو، ترجمه إلى العربية عبدالكبير الشرقاوي

غيمة أو حجر، ديوان الشاعر محمد بنطلحة، صدرت طبعته الثانية.

صدر الكتابان السابقان عن دار توبقال بالدار البيضاء.

أنطولوجيا القصة المغربية القصيرة، (ترجمة قصص مجموعة من القصاصين المغاربة إلى اللغة الإنجليزية) قام بالترجمة مالكوم وليامز، وكافن واترسون، وصدرت عن مدرسة الملك فهد العليا للترجمة في طنجة.

قصة انتشار الإسلام في أوغندا، تأليف عبده

رسائل جامعية

«وعاء الزكاة ووعاء الضريبة على أرباح الشركات»، عنوان رسالة ماجستير، نوقشت في كلية الاقتصاد والإدارة بجامعة الملك عبدالعزيز في جدة، تقدم بها عتيق صالح الغامدي.

«التأويل النحوي حتى نهاية القرن الثالث الهجري» رسالة ماجستير نوقشت في قسم اللغة العربية وآدابها ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعة حلب، تقدم بها الطالب محمود الجاسم.

«العناصر التراثية في الشعر اليمني المعاصر»، رسالة ماجستير، نوقشت في كلية الدراسات العربية بالقاهرة، تقدم بها محسن سيد يونس.

«تطور البحث اللغوي عند علماء أصول الفقه حتى نهاية القرن السادس الهجري»، رسالة دكتوراه نوقشت في كلية التربية بجامعة جنوب الوادي في قنا بمصر، تقدم بها مصطفى محمد أحمد رجب.

«النظام القانوني لمشاركات التحكيم في ضوء أحكام القانون الدولي»، رسالة ماجستير نوقشت في كلية الحقوق بجامعة أسيوط، تقدم بها خالد محمد القاضي.

«أثر المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية على علاقة المخرج بالإبداع المسرحي في مصر»، عنوان رسالة ماجستير نوقشت في المعهد العالي للفنون المسرحية بالقاهرة، تقدم بها سيد خاطر.

«التركيبة الأثنية والاستقرار السياسي في موريتانيا»، عنوان رسالة ماجستير نوقشت في معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة، تقدم بها يعقوب محمد.

«الصور الفنية في شعر بيكر»، عنوان رسالة دكتوراه، نوقشت في كلية الألسن بجامعة عين شمس، تقدم بها مصطفى فتحي أحمد جنيدي.

«مهام تقدير الاحتياجات الاجتماعية في لجان التنمية المحلية»، عنوان رسالة دكتوراه في الخدمة الاجتماعية والتخطيط الاجتماعي، نوقشت في كلية البنات بالرياض تقدمت بها كوثر محمود عباس قطان.

«مدى شمول نظام الضمان الاجتماعي للفئات المحتاجة له في المملكة العربية السعودية. دراسة تقويمية»، عنوان رسالة ماجستير، نوقشت في كلية الآداب للبنات بجامعة



كاسوزي، ترجمه إلى العربية د. عبداللطيف سعيد، وصدر عن المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة في الرباط بالتعاون مع جامعة إفريقية العالمية.

أدب الدين والدنيا، تأليف أبي الحسن الماوردي (ت 450 هـ)، ترجمته من اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية د. ثريا مهدي علام.

فن النحت والتماثيل من وجهة نظر إسلامية، تأليف د. عمر مختار القاضي.

صدر الكتابان السابقان عن المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.

الإصلاح التعليمي في المغرب 1956 - 1994م، تأليف المكي المروني، صدر عن مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء.

بريطانيا

مهرجان للفن القصصي العربي

ينظم ديوان الكوفة في لندن مهرجانًا ثقافيًا عن الفن القصصي العربي عامة، والعراقي خاصة بالتعاون مع عدد من المثقفين العراقيين من 8 إلى 10 ربيع الأول 1417هـ (24 - 26 يوليو 1996م).

يتم في أثناء المهرجان عرض دراسات حول الأدب القصصي العربي والعراقي، ومداخلات وحوارات ثقافية حول الفن القصصي في العراق عبر محورين هما: التجربة القصصية والدراسات النقدية.

قراءة الشعر أو كتابته تعالج الاكتئاب

أكدت دراسة أجراها باحثون من جامعة بريستول أن الاستماع إلى قراءة الشعر أو محاولة كتابته تعطي تأثيراً مهدئًا لمرضى الاكتئاب فهي تمد الشخص بالهدوء النفسي، وتوجه تفكيره بعيداً عن مشكلاته، وتعطيه إحساسًا بالتأمل والتعقل.

وقال 70٪ من الذين شملهم البحث إن قراءة الشعر ومحاولة كتابته كان لها تأثير كبير في تقليل إحساسهم بالضغط العصبي والاضطراب، فيما أوضح 6٪ آخرين أن الاستماع إلى قصيدة شعرية كان مؤثراً لدرجة أنهم توقفوا عن تناول العقاقير المهدئة.

رحيل مناصرة قضايا العرب

توفيت - مؤخراً - الكاتبة والنائبة البريطانية مرجريت ماكاي عن عمر يناهز 85 عامًا.

وعرفت ماكاي التي كانت عضواً في البرلمان البريطاني بمواقفها المؤيدة للعرب، حتى إنها أقامت عام 1968م نموذجًا لمخيم اللاجئين الفلسطينيين في ميدان الطرف الأغر في لندن، مما جعلها تدفع الثمن عام 1970م إذ رفض حزبها (العمال) إعادة ترشيحها لخوض الانتخابات، وبعد ذلك بقليل دعاها سمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان للإمارات حيث ذهبت إلى هناك واستقرت في أبو ظبي.

ومن أبرز كتبها «بلاد العرب الخالدة»، «قصة الخليج»، و«التركة الشرق أوسطية».

أحدث الكتب

فرانسيس دريك: حياة بطل، تأليف جون كامينز، صدر عن دار نشر سانت مارتين.

كم من شعب يمكن للأرض أن تتحمل؟! تأليف جويل كوهين، صدر عن دار نشر نورتن.

الإمبراطورية المغولية، تأليف جون ريتشاردز، صدر عن مطبعة كامبردج.

المنظور الأوروبي العفوي: التعدد الحضاري ووسائل الإعلام، تأليف روبرت ستام، وإيلا شوهات، صدر عن دار نشر روتليدج.

فهرس مخطوطات مكتبة المسجد الأقصى، إعداد خضر إبراهيم سلامة، صدر عن مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي.

الملك سعود بالرياض، تقدمت بها منيرة بنت عبدالرحمن بن عبدالله آل سعود.

«الضبط الببلوجرافي والتحليل الببليومتري في علم المكتبات والمعلومات.. دراسة تطبيقية على مجلة (شعر)»، موضوع رسالة دكتوراه، نوقشت في جامعة كازاخستان الوطنية، تقدم بها أمين سليمان سيدو.

«طرق ومناهج تدريس الرياضيات»، رسالة ماجستير، نوقشت في كلية التربية للبنات في الرياض، تقدمت بها نوال محمد عبدالرحمن الراجح.

«الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في خلق الأرض»، رسالة ماجستير نوقشت في كلية العلوم بجامعة القاهرة، تقدم بها حاتم عبدالحميد.

«اسم الفاعل وما يشابهه في القرآن الكريم والتوراة»، رسالة دكتوراه، نوقشت في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، تقدم بها حسن علي حسن.

« صحافة المعارضة في مصر من خلال الحقبة الليبرالية من 1924- 1954م»، عنوان رسالة ماجستير نوقشت في كلية الإعلام بالقاهرة، تقدم بها حسن نصر.

«نهاية الفلسفة في أعمال الفيلسوف الألماني هيجل»، موضوع رسالة دكتوراه، نوقشت في جامعة السوربون في باريس، تقدم بها وائل غالي شكري.

«السياسة الخارجية للعراق على المستوى الإقليمي بين عامي 79-1990م»، موضوع رسالة ماجستير نوقشت في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، تقدمت بها علا سيد إسماعيل.

«الصحافة اليومية العربية في قطر بين عامي 83 - 1993م»، رسالة ماجستير نوقشت في كلية الآداب بجامعة الزقازيق في مصر، تقدم بها إبراهيم إسماعيل عيسى.

«الصحافة العربية للجماعات الإسلامية في أوروبا.. دراسة وتحليل مضمون» عنوان رسالة دكتوراه، نوقشت في كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر تقدم بها محمد شعبان.

«التشريعات المنظمة للعمران في مصر»، رسالة ماجستير، نوقشت في كلية التخطيط الإقليمي والعمراني بجامعة القاهرة، تقدم بها أيمن هاشم عبدالرحمن.

«الانزياح بين النظريات الأسلوبية والنقد العربي القديم» رسالة ماجستير نوقشت في قسم اللغة العربية وآدابها - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة حلب - تقدم بها الطالب أحمد محمد ويس.



إسبانيا

سلسلة كتب عن الإسلام المعاصر

بدأت دار نشر بياترا في تنفيذ مشروع إصدار سلسلة من الكتب عن العالم الإسلامي المعاصر معظمها مترجم إلى الإسبانية تحت عنوان «مكتبة الإسلام المعاصر».

وصدر عن الدار في إطار السلسلة كتب: «الإسلام وجهًا لوجه» لفرانسو بورجات، و«الإسلام الشيعي» ليان ريتشارد، و«الإسلام السياسي» لنزيه أيوبي و«الثورة تحت الحجاب: المرأة الإيرانية والنظام الإسلامي» لفريدة عبدالحق.

أحدث الكتب

عالم ليس لنا، تأليف غسان كنفاني، صدرت ترجمته الإسبانية ضمن سلسلة «الكلمة» عن دار نشر ليبيرتاريas.

الولايات المتحدة

استراتيجية دولية للمكتبات في القرن المقبل

تنظم مكتبة نيويورك العامة المؤتمر الدولي للمكتبات من 7 إلى 9 ذي الحجة الجاري (25 - 27 إبريل 1996م).

يرمي المؤتمر إلى وضع خطة (استراتيجية) دولية لدور المكتبات في القرن الحادي والعشرين، وتشارك في أعماله 25 شخصية عالمية ممن يقودون عمليات تطوير المكتبات في بلادهم.

وفاة عالم النفس وان كيلي

توفي - مؤخرًا - عالم النفس والكاتب الأمريكي وان كيلي، في إثر أزمة قلبية عن عمر يناهز 54 عامًا.

ويعد كيلي من أبرز المهتمين بمشكلات انحراف الحدث، وله مجموعة آراء متميزة بهذا الصدد ضمنّها كتابه « أعراض بيتربان» الذي صدر عام 1983م.

أحدث الكتب

شخصية فوق جميع الشخصيات، تأليف روبرت ويلسون، صدر عن دار نشر سيمون وشوستر.

الفرق، رواية لميشيل باي، صدرت عن دار نشر فايكنج.

إبراهام لنكولن، تأليف هربر دونالد، صدر عن دار نشر كاب.

السلاح والخبر، تأليف إيرفنج برنستاين، صدر عن دار نشر أكسفورد برس.

فرنسا

الجنسية الفرنسية لأديب روسي

منح الكاتب الروسي المقيم في فرنسا أندريه ماكين الجنسية الفرنسية بموجب مرسوم صدر مؤخراً.

وكان ماكين الذي نال عام 1995م جائزتي جونكور ومديسيس عن كتابه «الوصية الفرنسية» قد غادر بلاده قبيل نحو تسع سنوات، عُدّ بلا هوية.

معرض الكتاب السادس عشر

شاركت 905 دار نشر فرنسية و 288 دار نشر أجنبية بنحو 350 ألف كتاب في المعرض السادس عشر للكتاب في باريس، خلال شهر ذي القعدة الماضي.

أقيمت على هامش المعرض أكثر من 95 ندوة ومحاضرة وأمسية شارك فيها أدباء ومفكرون من شتى أنحاء العالم أبرزهم شيموس هيني، الحاصل على جائزة نوبل للأداب لعام 1995م.

وفاة أشهر روائية فرنسية

توفيت الروائية مرجريت دوراس عن عمر يناهز 82 عامًا، التي تعد من أشهر روائيي فرنسا المعاصرين.

وُلدت دوراس في الهندالصينية عام 1914م، وتوفي والدها وعمرها 4 سنوات ، وعادت إلى بلادها وهي في الثامنة من عمرها، وتخرجت في كلية الحقوق، ونشرت أول رواياتها وهي في التاسعة والعشرين من عمرها عام 1943م، وانخرطت في حركة المقاومة البشرية ضد الألمان في خلية سرية يرأسها فرانسو ميتران (الرئيس ميتران فيما بعد). وجسدت حياة دوراس الطويلة تناقضات مثقفي القرن العشرين وأفراحه وأتراحه وأوهامه، من خلال أكثر من عشرين رواية و 15 مسرحية، و 15نصًا مرويًا وقصصيًا، ونالت شهرة عالمية واسعة حين فازت روايتها «العاشق» بجائزة جونكور أعلى جوائز فرنسا الأدبية. ومن أبرز أعمالها «بحار جبل طارق»، «رجل الأطلانطيك»، «الألم»، «مرض الموت»، «العيون الزرق»، «إميلي» «عاشق شمال الصين»، و«مطر الصيف».

جائزة المنتدى الثقافي اللبناني لأدونيس

منح الشاعر أدونيس جائزة المنتدى الثقافي اللبناني الأدبية لأفضل إبداع مكتوب باللغة العربية لعام 1995م عن مؤلفه «الكتاب.. أمس، المكان الآن» الصادر عن دار الساقي.

جاء فوز أدونيس من بين تسعة أسماء ومؤلفات عرضت على لجنة التحكيم التي اجتمعت في معهد العالم العربي في باريس.

يذكر أن جائزة العام 1994 خصصت لأفضل إبداع لبناني مكتوب بالفرنسية، ونالها سمير قصير عن كتابه «الحرب اللبنانية».

وفاة مورياك

توفي - مؤخرًا - الصحافي والروائي كلود فرانسو مورياك عن عمر يناهز 81 عامًا.

وكلود مورياك من أسرة عريقة في الأدب، فوالده هو الروائي فرانسو مورياك عضو الأكاديمية الفرنسية، وقد مارس كلود إلى جانب كتابة العديد من الروايات الكتابة الصحفية من خلال كبريات صحف فرنسا مثل: «لوفيجارو» و«لوموند»، و«الإكسبريس»، و«لوماتان».

أحدث الكتب

مغطس أرشميدس، (كتاب علمي)، تأليف سين أورتولي ونيكولاس فيتكوفسكي، صدر عن دار سوى في باريس.

البحر المكتوب، رواية لمرجريت دورا، صدرت عن دار نشر مارفال.

الظل وقرينه، تأليف دلال البزري، صدر عن دار نشر سيرموك.

قاموس بيكاسو، إعداد بيير ديه، صدر عن دار نشر لافون.

العرب من الرسالة إلى التاريخ، تأليف دومينك شوفاليه، وأندرية ميكيل، صدر عن دار فايار.

الجزائر: قصة غرق، تأليف حسان، صدر عن دار سول.

القومية العربية بديلاً للأصولية، تأليف شارل سان برو، صدر عن دار نشر إيليس.

الديمقراطية، تأليف كيفن بويك، صدر عن منظمة اليونسكو.

النمسا

معرض لبدايات فان جوخ

يقام حاليًا في فيينا معرض يضم زهاء مئة عمل من أوائل أعمال الفنان الهولندي فنسنت فان جوخ، يحمل عنوان «فان جوخ ومدرسة لاهاي»، ويستمر حتى التاسع من شهر محرم 1417هـ (27 مايو 1996م).

وتؤرخ المعروضات التي أنجزت بين 1881-1886م تطور أسلوب جوخ.

كذلك ضم المعرض 70 لوحة لعدد من رسامي مدرسة لاهاي للفنون التشكيلية.

ألمانيا

وفاة الشاعر الإيراني الأصل سيروس أتاباي

توفي - مؤخرًا - في مدينة ميونيخ الشاعر الإيراني الأصل الألماني اللغة سيروس أتاباي عن عمر يناهز 67 عامًا.

وُلد أتاباي بالقرب من طهران عام 1929م، ودرس المرحلة الإعدادية في برلين، وأكملها بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية في سويسرا، وأنهى دراسته الجامعية في ميونيخ، وعاش متنقلاً ما بين طهران ولندن، حتى قامت الثورة الإيرانية فأسقطت عنه الجنسية مع عدم ممارسته لأية نشاطات سياسية، ورفضت ألمانيا منحه تأشيرة دخول لأنه من أقرباء الشاه السابق، ولم يستطع دخولها إلا عام 1983م، وانتخب عضوًا في أكاديمية الفنون الجميلة بمقاطعة بافاريا.

وقد بدأ أتاباي كتابة الشعر في مرحلة مبكرة من شبابه، فنشر باللغة الألمانية عام 1956م مجموعته الشعرية الأولى «بعض ظلال» بعدها توالت مجموعات شعرية ونثرية أخرى، وينسب إليه فضل تعريف الألمان بالأدب الإيراني الحديث إذ ترجم في بداية السبعينيات مختارات من الأدب الإيراني إلى اللغة الألمانية ونشرها في المجلات الأدبية، ثم جمعها في كتاب، كما قدم مختارات لحافظ الشيرازي وجلال الدين الرومي وأبي العلاء المعري وترجم رباعيات الخيام.

أحدث الكتب

سيرة حياة توماس مان، تأليف كلاوس هاربرشت، صدر عن دار نشر زفولت.

مهمة الشاعر في الحياة، تأليف سيد قطب، صدر في طبعة جديدة عن منشورات الجمل.

الإسلام مولدنا الحق والطريق إلى الله، صدر عن مؤسسة الأخوات المسلمات في مدينة زلتاو.

روسيا

وفاة الكاتبة آنا لارينا

توفيت الكاتبة الروسية آنا لارينا عن عمر يناهز 82 عامًا.

وتعد آنا لرينا من أبرز كاتبات روسيا المعاصرات، وقد تميزت بشجاعة نادرة، دفعتها إلى تحدي الحكم الشيوعي وانتقاد سياسته في كبت الحريات، ودفعت لمعارضتها هذه ثمنًا غاليًا. إذ قضت قرابة عشرين عامًا في السجن ومعسكرات العمل، والمنفى. وقد نشرت مذكراتها بما حوت من أحداث جسام عام 1988م في روسيا وإنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية.

أحدث الكتب

تعلم قراءة القرآن الكريم باللغة العربية، تأليف فلاديمير ليبيديف، صدر عن قسم الأمير نايف بن عبدالعزيز للدراسات الإسلامية والعربية بجامعة موسكو.

هولندا

معرض ماستريخت للفن التشكيلي الأوروبي

أقيم - مؤخرًا - معرض ماستريخت للفن التشكيلي الأوروبي، في عامه التاسع.

شارك في المعرض 160تاجر فن من أوروبا والولايات المتحدة واليابان، ودمج فيه حدثان فنيان هما: معرض العاديات، ومعرض الأساتذة الكبار، وزاره قرابة 60 ألف زائر.

إيطاليا

نهاية مأساوية لإميليا روسيللي

أنهت الشاعرة الإيطالية إميليا روسيللي (66عامًا) حياتها نهاية مأساوية، إذ ألقت بنفسها من نافذة مسكنها في روما لتلقى حتفها فورًا.



وتعد إميليا من أبرز الشواعر الإيطاليات المعاصرات، وهي ابنة المناضل الإيطالي كارلو روسيللي الذي عرف بمحاربته الفاشية، واغتيل مع شقيقه في فرنسا عام 1937م بإيعاز من ديكتاتور إيطاليا الأسبق موسيلليني.

أحدث الكتب

رياح السنين، مجموعة شعرية لراضي صدوق، صدرت عن دار كرمة للنشر في روما.

البرتغال

وفاة أكبر روائيي البرتغال

توفي الكاتب والروائي فرجيليو فريرا، أحد أبرز كُتّاب الحركة الوجودية في البرتغال عن عمر يناهز 80 عامًا.

بدأ فريرا حياته الأدبية متأثرًا بتيار الواقعية الجديدة، فجاءت روايته الأولى «الطريق البعيد» صدى لهذا التيار، فيما مثلت روايته «المنعطف» التي نشرت عام 1949م بداية القطيعة بينه وبين ذلك التيار، وتأثره بالوجودية الفرنسية في مؤلفاته التي تلتها مثل: «ظهور»، «صباح ضائع»، «الفرح الصامت»، «إلى الأبد» و «باسم الأرض». وقد نالت روايته «ظهور جائزة فيمينا الأدبية الفرنسية»، وجائزة «ايروباليا» التي منحتها له في بروكسل لجنة تحكيم أوروبية تضم متخصصين في الأدب البرتغالي.

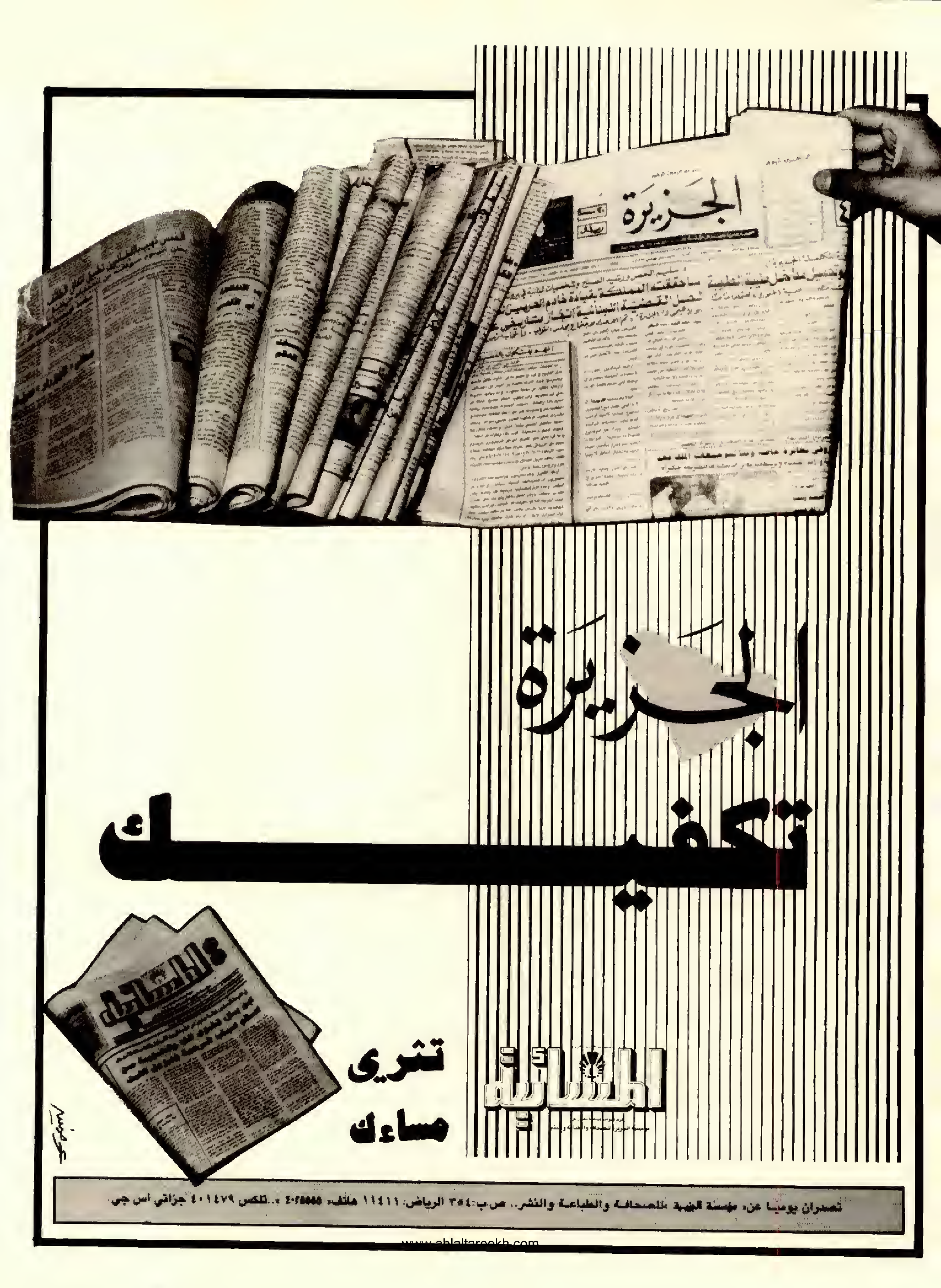
الصين

أحدث الكتب

الإسلام والحضارة الصينية، تأليف عدد من الباحثين، صدر عن دار النشر بمقاطعة لينجشيا.

حقول الرماد، رواية الأديب الليبي أحمد إبراهيم الفقيه، ترجمها إلى اللغة الصينية المستعرب رونج جيان، وصدرت عن دار الآداب الأجنبية في بكين.




الجزيرة
تكفيك
المسائية
تثري
مساءك
تصدران يوميا عن مؤسسة الجزيرة للصحافة والطباعة والنشر.. ص.ب: ٣٥٤ الرياض: ١١٤١١
تلكس ٤٠١٤٧٩ جزائي اس جي

ديوان أبي بكر الصديق

كتاب يتضمن شعر أبي بكر الصّدّيق أول الخلفاء الراشدين ـ رضي الله عنهم ـ، والشعر المنسوب إليه قام بتحقيقه وشرحه محمد شفيق البيطار من مخطوطة نادرة موجودة في المكتبة الظاهرية التي انتقلت إلى مكتبة الأسد الوطنية بدمشق. اشتمل الكتاب على مقدمة للمحقق شرح فيها عثوره على المخطوطة، والخطوات التي اتبعها في التحقيق، ومن ثم أورد الديوان وألحق به بعض الأبيات التي نُسبت إلى الصّدّيق في مصادر أخرى، ولم ترد في المخطوطة، وأسماها: «المستدرك على الأصل المخطوط»، ثم أتبع ذلك بفهرس للقوافي، وحدد بحور الشعر التي نظمت عليها قصائد الديوان.

يذهب المحقق إلى أن بعض الناس ممن ليست له صلة قوية بكتب التراث قد يسأل ويستغرب أن يُنسب الشعر إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه، وأن يفرد له ديوان، ولكن نقول: إن هذا الاستغراب يزول بالوقوف على حقيقة أنه كان معروفًا معرفة لاتشوبها شك في القرن الأول الهجري، أن لأبي بكر شعرًا قاله في هذه المناسبة أو تلك، وأقوالهم تدل على ذلك، فمن هذا ما نقله أبو زيد القرشي عن المفضل الضبي: «ولم يبق أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وقد قال الشعر أو تمثل به، فمن ذلك قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه يرثي النبي صلى الله عليه وسلم:

أجدّك ما لعينك لاتنام

كأنّ جفونها فيها كلام

وكذلك نقل ابن عبد ربه عن سعيد بن المسيب والأبيودي عن الشعبي، أنهما قالا: «كان أبو بكر شاعرًا، وكان عمر شاعرًا، وكان علي أشعرهم الثلاثة رضي الله عنهم»

فيما يختص بموضوعات الديوان يقول المحقق: إنها صورت جوانب مختلفة من حياة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وتاريخه، كهجرته مع النبي صلى الله عليه وسلم وجهاده مع سائر الصحابة، وموقفه من حادثة الإفك وحزنه لوفاة النبي عليه السلام. وأما الناحية الفنية لقصائد الديوان فأجمل المحقق تقويمه لها في قوله: «إنها أشعار فيها الكثير من المواقع التي يتجلى فيها جمال الشعر وسحره، وفيها بعض مواضع لاتعدو أن تكون في مقاييس النقد نظمًا من النظم الذي يفتقر إلى جمال الشعر، وفيها مواضع هي نظم لمعاني بعض آيات القرآن الكريم.

يقع الكتاب في 143 صفحة من القطع المتوسط وقد صدر عن دار شراع للدراسات والنشر والتوزيع ـ دمشق.

الكشاف الوطني الراجع للدوريات السعودية

إصدار من إعداد إدارة التكشيف والببليوجرافية في مكتبة الملك فهد الوطنية، ويوثق الكشاف في مجلده الأول المقالات والمواد المترجمة والمراجعات والملخصات للكتب والمراجع والأطروحات، بالإضافة إلى المواد الببليوجرافية والوثائق في المجلدات المتغاة من سبع مجلات سعودية هي: بحوث كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى والتعاون، وحولية المكتبات والمعلومات، والدارة، وعالم الكتب، والعرب، ومجلة جامعة الملك عبدالعزيز، والأدب والعلوم الإنسانية.

وقد صدرت أعداد المجلات المكشّفة ما بين 1386هـ/ 1966م – 1412هـ/1992م.

وقد اشتمل الكشّاف على مقدمة توضح المجالات التي يغطيها وحدودها ومداخل الكشاف من حيث بياناتها واستاديتها وترتيبها واسترجاعها.

ويضم الكشّاف 3941 مادة مرتبة هجائيًا وفق عنواناتها، ومتبوعة بمسردين: أحدهما لمؤلفي المواد المكشّفة، والآخر لموضوعاتها، ويحيل المدخل في كل من المسردين إلى رقم أو أرقام التسجيلات ذات العلاقة في متن الكشاف. يؤمل أن يوفر هذا الكشاف أداة مفيدة للقراء وموظفي الخدمة المرجعية للمكتبات ودارسي الضبط الببليوجرافي وممارسيه.

الاتجاهات الجديدة في أدب الطفل

دراسة تناقش الجوانب العلمية في الاتجاهات الجديدة لأدب الأطفال والأثر الكبير للمحيط الاجتماعي في عملية الانتماء وتشكيل الهوية الذاتية للطفل.

يعرض بهاء الدين الزهوري في دراسته هذه الخصائص التي تسبغها طبيعة الأطفال أنفسهم على أدب الطفل وأن البساطة والسهولة اللتين يتسم بهما هذا الأدب لا يعني بأي حال أنه يُعد تصغيرًا لأدب الكبار، «فليس كل عمل أدبي مقدم للكبار يصبح بمجرد تبسيطه أدبًا للأطفال».

تتألف الدراسة من مقدمة وعشرة فصول وخاتمة تتضمن أهم النتائج التي انتهت إليها الدراسة، اشتمل الفصل الأول على تناول أدب الأطفال، ومفهومه، وأهميته، وخصائصه الأساسية، وأدب الأطفال والمجتمع ووسائل تنميته.

وفي الفصل الثاني عالج موضوع النشاط الأدبي والترويحي للطفل: مفهومه، وأسسه، وأهدافه، وأنواعه. وفي الفصل الثالث ناقش قضية رعاية الموهبة الفنية عند الطفل وتحدث عن الموهوبين، وأسس كشف الموهبة، وأساليب رعايتها. أما الفصل الرابع فحمل عنوان: الحكايات الشعبية في قصص الأطفال، وفيه ناقش مصطلح الحكاية الشعبية، وأهميتها، وتوظيف الحكاية الشعبية في قصص الأطفال.

وتضمن الفصل الخامس كشفًا لمغزى استخدام الحيوان في حكايات الأطفال والقيمة التربوية لذلك.

الفصل السادس يحمل عنوان: شعر الأطفال، وقد تحدث فيه الدارس عن قصيدة الطفل في الكتاب المدرسي وعرض تجربة الشاعر سليمان العيسى في ذلك، وناقش خصائص شعر الأطفال، وفي الفصل السابع سلط الضوء على «تنميته الذوق اللغوي عند الطفل». وخصص الفصل الثامن لمناقشة مشكلات قصص الأطفال في سورية، وفي الفصل التاسع قدم موازنات نظرية وتطبيقية في أدب الأطفال، وناقش حال أدب الأطفال في العالم العربي، وفي الفصل العاشر والأخير تحدث بإسهاب عن تجربة أدب الأطفال في سورية.

تقع الدراسة في 183 صفحة من القطع المتوسط وقد صدرت عن دار المعارف بحمص ـ سورية.

الواقع الاستهلاكي للعالم الإسلامي

كتاب يناقش ظاهرة حمّى الاستهلاك، أو النهم الاستهلاكي، ويعطي لمحة عن السلوك الاستهلاكي للعالم الإسلامي المعاصر، وفيه يبرز بُعد السلوك عن القواعد الإسلامية الحاكمة له، وتبعيته للنماذج الغربية. يقول المؤلف زيد بن محمد الرماني: «إن إنسان اليوم أصبح مجرد أداةاستهلاكية لا همّ له إلا أن يقتل نفسه جهدًا ليزيد دخله ويحصل على ما يشتري من أدوات استهلاك مادية غير ضرورية تعرضها على تفكيره وسائل الإعلام وفنون الإعلان، برغم أنها مقاييس للمكانة الاجتماعية ومصادر للهناء الفردي»، ويشير إلى أن هذا التكالب على شراء غير الضروري أدى إلى تداعي القيم الخلقية والقلق، وتزايد العنف، وارتفاع معدلات الانتحار، فضلاً عن شيوع أسلوب البذخ وأعراض التخمة والسمنة، وكل هذا ضياع للفائض وتبديد للثروة.

تناول الكتاب بتوسع مظهرين من مظاهر الواقع الاستهلاكي في العالم الإسلامي، الأول: ظاهرة الفقر وإهمال الحاجات الأساسية. والثاني: ظاهرة الإسراف والتبذير.. وعالج المؤلف موضوع الكتاب في مقدمة وتمهيد وستة أقسام، فقد قدم توضيحًا لمفهوم العالم الإسلامي والأسباب التي تدعو إلى دراسة أوضاعه. ثم أورد صورًا مما يعانيه العالم الإسلامي المعاصر في واقعه مثل ما أسماه بـ «المأزق الاستهلاكي»، وبعض الظواهر الاستهلاكية السائدة، وأشار إلى بعض الدراسات التطبيقية للإنفاق الاستهلاكي في بعض دول العالم الإسلامي، وفي الختام، أوجز المؤلف بعض الملامح العامة لما يرى أنه «الحل الإسلامي» الذي يعالج مشكلات الواقع الاستهلاكي خاصة، والسلوك الاستهلاكي عامة، للعالم الإسلامي المعاصر.

الكتاب يقع في 96 صفحة من القطع الصغير، وقد صدر عن سلسلة «دعوة الحق» في رابطة العالم الإسلامي.

مسابقة مجلة الفيصل

١- جوائز المسابقة :

جوائز كثيرة تقدمها المجلة لأصحاب الحلول الفائزة على النحو التالي:

أ- ثلاث جوائز مالية تمنح لثلاثة فائزين (٥٠٠ ريال، ٣٥٠ ريال، ١٥٠ ريال)

ب- خمس جوائز اشتراك مجاني في المجلة لمدة عامين (٢٤ عدداً).

ج- عشر جوائز اشتراك مجاني في المجلة لمدة عام واحد (١٢ عدداً).

د- خمس جوائز عبارة عن مجموعات من إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض، قيمة كل مجموعة في حدود مائة ريال.

٢- شروط المسابقة :

أ- الإجابة عن جميع الأسئلة، وإرفاق القسيمة الأصلية - وليس نسخة مصورة - للمسابقة مع ورقة الإجابات التي يوضح فيها الاسم ثلاثياً أو رباعياً - إن أمكن - وعنوان المراسلة.

ب- ترسل الإجابات على العنوان التالي:

مسابقة، مجلة الفيصل،
ص.ب. (٣) الرياض (١١٤١١)
المملكة العربية السعودية

(مع ضرورة ذكر رقم المسابقة على المظروف)

جـ- أية إجابات تصل بعد ٤٥ يوماً (حسب التقويم الهجري) من صدور العدد لن يلتفت إليها.

د- من حق القارئ أن يشترك باسمه في المسابقة الواحدة أكثر من مرة شرط إرفاق قسيمة المسابقة مع كل رسالة.

تنبيه: نرجو من الإخوة المشاركين عدم لصق القسيمة على ورقة الإجابات أو قص أجزاء منها، وإنما يكفي وضعها مع ورقة الإجابات داخل المظروف.

أجوبة مسابقة العدد 231

ج 1: من الآيات الكريمات التي وردت في تحريم الربا:

قول الله تعالى: *يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافًا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون.* **آل عمران**:130.

وقوله عز وجل: *يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين. فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تُبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون.* **البقرة**: 278، 279.

ج 2 – من الآيات الكريمات التي حضَّت المسلمين على التصدق على إخوانهم المحتاجين:

قول الله تعالى: *مَثَل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبَّة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم.* **البقرة**:261.

وقوله عز وجل: *لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيءٍ فإن الله به عليم.* **آل عمران**:92.

وقوله عز من قائل: *وأنفقوا مما جعلكم مُستخلَفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير.* **الحديد**:7.

أما الأحاديث الشريفة التي حضّت على التصدق، فمنها:

- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو القائم الليل، الصائم النهار» رواه البخاري.
- وقال عليه أفضل الصلاة وأتمّ السلام: «ما من يوم يصبح العباد فيه، إلا وملَكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا» رواه مسلم.
- وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الصدقة تُطفئ غضب الرب، وتدفع ميتة السوء» رواه الترمذي وحسّنه.

ج 3 - من الأدعية التي سنّها رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلمين عند توجههم إلى المساجد:

- ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى الصلاة وهو يقول: «اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي

نتائج مسابقة العدد 231

أ- فاز بالجائزة المالية الأولى، وقدرها 500 ريال سعودي، ناصر صالح حسين، الظهران - المملكة العربية السعودية.

وفاز بالجائزة المالية الثانية، وقدرها 350 ريال سعودي، التجاني إبراهيم صالح عبد الكريم، الخرطوم - السودان.

وفاز بالجائزة المالية الثالثة، وقدرها 150ريال سعودي، لطيفة قائد أحمد العلمي، صنعاء - اليمن.

ب- فاز بجائزة الاشتراك المجاني في المجلة لمدة عامين (24 عددًا)، كل من:

1 - شيخة يوسف سعيد عبدالله البلوشي، العين - الإمارات العربية المتحدة.
2 - بسام عمر الحنفي، الكويت - الكويت.
3 -إيمان عبدالفتاح قناوي، الدقهلية - مصر.
4 - قمر بنت عبدالإله نبهان، حمص - سورية.
5 - غياث عبدالباقي محمد، جدة - المملكة العربية السعودية.

ج- وفاز بجائزة الاشتراك المجاني في المجلة لمدة عام واحد (12 عددًا)، كل من:

1 - روان خالد عبدالرؤوف، البقعة - الأردن.
2 - أدبلا محمد بن عمر، تزنيت - المغرب.
3 - هاشم محمود أحمد محمد، أسوان - مصر.

للاشتراك املأ هذه القسيمة
(عنوان الاشتراك من الخلف)

الاسم: ....

العنوان: ....

بصري نوراً، وفي سمعي نوراً، وعن يميني نوراً، وخلفي نوراً، وفي عصبي نوراً، وفي لحمي نوراً، وفي دمي نوراً، وفي شعري نوراً، وفي بشري نوراً». وفي رواية لمسلم: «اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي لساني نوراً، واجعل في سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، واجعل من خلفي نوراً، ومن أمامي نوراً، واجعل من فوقي نوراً، ومن تحتي نوراً، اللهم أعطني نوراً».

- ما رواه أحمد وابن خُزيمة عن أبي سعيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا خرج الرجل من بيته إلى الصلاة فقال: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا، فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة، خرجت اتقاء سخطك، وابتغاء مرضاتك، أسألك أن تنقذني من النار، وأن تغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت؛ وكّل الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له، وأقبل الله عليه بوجهه حتى يقضي صلاته».

ج 4 - الزوراء: أسسها مدحة باشا في العراق سنة 1869م، وكانت باللغتين العربية والتركية، واستمرت حتى 1917م.

- كوكب إفريقيا: أصدرها محمود كحول في الجزائر سنة 1907م، فكانت أول جريدة عربية يصدرها جزائري في بلاده. وهناك مراجع ذكرت أنها صدرت في تونس.

- السفير: هناك صحف متعددة صدرت بهذا الاسم؛ فهناك السفير التي أصدرها مصطفى ثاقب وحسن شمسي (مصر 1882م)، وهناك السفير التي أصدرها محمد حسين (مصر 1897م)، وهناك السفير التي أصدرها عبدالرحمن شرف (الإسكندرية 1924م)، كما أن هناك السفير التي صدرت أسبوعية في بيروت 1951م لصاحبها إلياس الحويك، ثم تحولت إلى يومية في 1974م، ومازالت تصدر حتى الآن..

ج 5 - رؤبة بن العجاج السعدي: (ت 762م)، راجز. ولد ومات بالبادية. نزل مع أبيه بالبصرة، وتنقّل بينها وبين الشام وخراسان، ومدح ولاتها وكبراءها والخلفاء الأمويين والعباسيين. طوَّر هو وأبوه الرجز، فأطالاه إطالة قصائد الشعر، وعالجا فيه ما كان ينفرد به الشعر، وعُنيا بما كان يمتاز به من غريب، فأكثرا منه، وقصدا إليه. واستخدما حسهما اللغوي في الابتكار والاشتقاق، فصار رجزهما متوناً لغوية يحافظ عليها المشتغلون باللغة، ويكثرون الاستشهاد بها، وديوانه مطبوع.

4 - ياسين أحمد فاعور، دمشق - سورية.
5 - أحمد محمد محمد عجلان، صنعاء - اليمن.
6 - محمد سيدي بابا، أغادير - المغرب.
7 - هدى محمد عبدالرحمن محمد طه، الدقهلية - مصر.
8 - جلال الدين محمود محمد، أربد - الأردن.
9 - حسام عبدالوهاب زمان، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.
10 - هيفاء بنت عادل صباغ ، حلب - سورية.

■ كما فاز بجائزة مجموعة من إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض، كل من:

1 - حوراء عبدالعزيز مهدي، عالي - البحرين.
2 - فؤاد بن عزالدين بن حسن، سوسة - تونس.
3 - طه عمر أحمد يعقوب، أم درمان - السودان.
4 - إبراهيم الزنفلي إبراهيم علي، الدقهلية - مصر.
5 - هدى مصطفى الشريقي، جدة - المملكة العربية السعودية.

أسئلة مسابقة العدد 234

السؤال الأول:

أمر الشارع الحكيم بتحريم الخمر؛ ولكنه جعل ذلك على مراحل لما كان من شدة تعلُّق الناس بها. اذكر أول آية نزلت في تحريم الخمر، وآخر آية نزلت في ذلك.

السؤال الثاني:

كره الإسلام المغالاة في المهور عند الزواج، وعلّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المهر كلما كان قليلاً كان الزواج مباركًا. اذكر حديثين شريفين في ذلك.

السؤال الثالث:

عندما انتشر الإسلام، واتسعت رقعة العالم الإسلامي؛ ظهرت ملل كثيرة، اقتضى ظهورها من علماء الأمة التصدي لها لبيان خطلها وزيفها. اذكر عالمين مسلمين ممن ألّفوا في الملل والنِّحَل.

السؤال الرابع:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا
فجاءك العيد في «أغمات» مأسورا

هذا البيت قاله شاعر ملك في محبسه بعد أن ضاع منه ملكه وتفرّق عنه أشياعه. فمن هو؟

السؤال الخامس:

لبعض الشعراء ألقاب يُعرفون بها، مثل: صريع الغواني، والملك الضِّلّيل، ورهين المحبسَيْن، وغيرهم. ما لقب الشاعر «غيلان ابن عقبة»؟

ويأتيك بالأمثال

وجدانُ الرِّقين يغطي أفن الأفين

يضرب هذا مثلاً في فضل الغنى والجِدَة.

والرِّقة: الورق (أي الفضّة)، والأَفْن: الحمق، والأفين: المأفون وهو الأحمق، والأَفْن - بالتحريك - ضعف الرأي، وقد أفن الرجل وأفنه اللهُ، يأفنُه أفْنًا، وأصله النقص. يقال: أَفَن الفصيل ما في ضرع أمه، إذا شربه كلّه.

أسوؤهم حالاً

روى ابن المبارك: جئت يومًا إلى سفيان الثوري عشية عرفة وهو جاث على ركبتيه، وعيناه تهملان، وقلبه يئز كخلية نحل، فقلت له: مَنْ أسوأ من هذا الجمع حالاً؟! قال: الذي يظن أن الله لايغفر له.

رؤوس النعم:

قيل رؤوس النعم ثلاثة: أولها: نعمة الإسلام التي لاتتم النعم إلا بها. ثم نعمة العافية، فنعمة الغنى.

الزمن أستاذه

سئل المليونير المصري أحمد عبود عن أستاذه في عالم الاقتصاد والأعمال، فقال: كان لي أستاذ واحد تعلمت منه الكثير، ذلك هو الزمن الذي تعلمت منه أن أكون أكثر حرصًا على إسعاد الآخرين.

عبدالملك والمنافقون

كان بعض المنافقين جالسين في مجلس عبدالملك بن مروان، وتكلموا في سيرة مصعب بن الزبير زاعمين أنه كان يسكر حتى يغيب عن الوعي، في محاولة منهم لكسب ود عبدالملك، فرمقهم عبدالملك بنظرة ازدراء قائلاً في عدوه المقتول: خسئتم، والله لو علم مصعب أن الماء ينال من مروءته لما ورد الماء.

يشعر بأنه مخطئ

سأل أحد الصحافيين الكاتب أوسكار وايلد: لماذا يحب الناس الاستماع إلى نصائحك وأحاديثك ويتفقون معك في كل شيء؟ فردَّ وايلد: إن هذا الأمر يسوءني إلى حد ما، فعندما يكون الناس متفقين معي يداهمني شعور قوي بأنني مخطئٌ.

أقصر خلايا الجسم وأطولها عمراً

أقصر خلايا الجسم عمرًا هي خلايا الجهاز الهضمي، إذ تستبدل بها كل ثلاثة أيام خلايا جديدة، أما أطولها عمرًا، فهي خلايا مخ الإنسان، فهي تظل معه طوال حياته، ولا يستبدل بها غيرها أو تتغير أبدًا.

أيهما أكثر ذكاءً

تروي كتب التراث أن واليًا وقف أمام باب طحان، فرأى حمار الطحان يدور بالرحى يطحن القمح، وفي عنقه جرس. فسأل الوالي الطحان: لماذا وضعت الجرس في عنق الحمار؟ قال الطحان: حتى أعرف أنه توقف عن الدوران إذا لم أسمع صوت الجرس، فرد الوالي: لكن ربما يتوقف الحمار ويهز رأسه بالجرس. فقال الطحان على الفور: وأين الحمار الذي له عقل الوالي؟

لك لا عليك؟

دخل أعرابي على الخليفة الأموي سليمان بن عبدالملك وقال: يا أمير المؤمنين: إني مكلمك بكلام فاحتمله وإن كرهته، فإن وراءه ما تحب إن قبلته، فدهش عبدالملك من جرأة الأعرابي وقال له: هات ما عندك. قال الأعرابي: لقد أحاط بك وزراء اشتروا دنياك بدينهم ورضاك بسخط ربهم،

الكُتَّاب أهم معالم القرية القديمة، صورة في الذاكرة يستدعيها مهرجان الجنادرية

استراحة العدد

خافوك في الله ولم يخافوا الله فيك، فلا تصلح دنياك بفساد آخرتك.

فقال عبدالملك: أما أنت فقد نصحت، إلا أنك جردت لسانك فهو سيفك. قال الأعرابي: هو لك لا عليك.

هكذا كانوا

ذهب الخليفة الراشد أبو بكر الصديق رضي الله عنه، إبان مدة خلافته ذات يوم إلى السوق ليتاجر ويقوت بيته، فلقيه الصحابي الخليفةُ الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال له: إلى أين يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال أبو بكر: إلى السوق، قال عمر: وما تصنع وقد وليت أمور المسلمين؟ قال: ومن أين أطعم أولادي وأهلي؟ فقال عمرك عجبًا، انطلقْ يفرضْ لك أبو عبيدة من بيت المال، فذهب أبو بكر إلى أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه فقال الأخير له: سأفرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا أوكسهم، وكسوة الشتاء والصيف، فإذا أبليتَ شيئًا رددتَه إلى بيت المال وأخذتَ غيره.

أغرب قاضٍ

كان القاضي غصيني (1825–1871م) أحدَ قضاة مدينة أبهال الهندية يشكو من قصر بصر معكوس، لهذا كان يترأس الجلسات وهو واقف على رأسه!

قرأه شعراً

سأل أحد الأدباء الناشئين الشاعر الراحل كامل الشناوي أحد ظرفاء الأدب في مصر: ما رأيك يا أستاذ كامل هل أكتب شعراً أم قصة؟ فقال كامل الشناوي: اكتب قصة. رد الأديب الناشئ مزهواً: لا ريب أنك قرأت لي قصصًا؟ قال الشناوي: لا يا أخي لقد قرأت لك شعراً!

اختبار

قال حكيم لابنه: هل أدلك على عمل تحفظه؟ قال: نعم، قال الحكيم إذا أردت أن تؤاخي أحداً فأغضبه، فإنْ أنصفك وهو غضبان فهو أخ كريم، وإلا فاحذره.

تفصل بينهما لغة واحدة

سئل الكاتب الإيرلندي الساخر برنارد شو يومًا عن الصلة بين بريطانيا وأمريكا، فقال: إنجلترا وأمريكا بلدان تفصل بينهما لغة واحدة!

لبن الماعز الأفضل

يؤكد علماء التغذية والاقتصاد أن لبن الماعز أفضل أنواع الحليب صحيًا وغذائيًا، وبخاصة للأطفال، ذلك أنه يحتوي على نسبة عالية من المعادن والفيتامينات، كما يعد غذاء كاملاً ونافعًا لأصحاب (الريجيم)، إذ يتميز باحتوائه على كميات أقل من السكر مقارنة ببقية أنواع الحليب.

أول مائدة

يروي التاريخ أن السومريين هم أول من عرفوا المائدة واستخداماتها المتعددة، وعنهم نقلها البابليون والأشوريين والمصريون القدماء. ونقلها الرومان ـ بعد ذلك ـ إلى مختلف أنحاء العالم.

يهوديان

جلس يهوديان يتحدثان عن النكت التي تروي في العالم عن بخل اليهود وحبهم للمال، فقال الأول: الحق أن هذا غبن فاحش لنا. وقال الآخر: لا أدري لماذا يصرُّ العالمُ على تصويرنا بهذا الشكل. وبالمناسبة هل سمعت آخر نكتة، قال الأول: قلْها، ردّ الآخر: كم تدفعُ لأرويها لك!

لحظة من العمر

قال بعض الحكماء: كل ما يبهج الإنسان ما هو إلا لحظة سريعة الزوال تمر وهو لا يدري، وكل ما يحزن قلب الإنسان ما هو إلا لحظة سريعة الزوال مهما طال الزمن ولا يبقى خالداً من لحظات عمر الإنسان إلا لحظةُ لقائه مع الله.

من عجائب الخلق

تستخدم الأرانب آذانها الطويلة في التكيف مع ظروف البيئة التي تحيا فيها، فهي تغطي بها جسمها في المناطق القطبية الباردة بحثًا عن الدفء، وتفرشها في الهواء في المناطق الحارة.

كاذب

قال الأصمعي يومًا لأعرابي عُرف بالكذب: أصدقْتَ يومًا؟ فقال الأعرابي: لولا أني أخاف أنْ أصدقَ في هذا لقلت لا!

القرع المضيء

يستخدم المزارعون في جزائر الهند الغربية ثمار القرع العسلي (اليقطين) بعد تجويفها مصابيح مضيئة، إذ تستمد تلك الثمار طاقتها الضوئية من حشرات الحبحب المضيئة التي تحوم حولها.

من طقوس الزواج

من طقوس الزواج بجزيرة جاوة الإندونيسية قيام العروس بغسل قدمي زوجها وتقبيلهما، دلالة على استعدادها لخدمته وطاعته بتفانٍ وإخلاص طوال حياتهما معًا.

قالوا:

أدنى أخلاق الشريف كتمان سره، وأعلى أخلاقه نسيان ما أُسرَّ إليه: المهلب بن أبي صفرة.

إن نفوس الناس معادن، ومن المعادن ما يعلو كل صدأ، ومن المعادن ما يعلو عليها الصدأ.

د.طه حسين

ليس هناك جميل ولا قبيح، وإنما تفكيرك يصور لك أحدهما.

الشاعر وليم شكسبير

الرضا حالة خاصة بكل إنسان، فإذا لم نجده في نفوسنا، فمن غير المجدي البحث عنه في مكان آخر: الفيلسوف.

فرانسيس دي لارو شفوكولد

العبقرية واحد في المئة إلهام، وتسع وتسعون في المئة عَرَق.

المخترع توماس إديسون

الثقة ثروة تأتي من وفرة الحب.

طاغور

إني أرثي لحال هذا الأب، فهو بطل في عيون الغرباء، وغريب في عيون أطفاله!.

الرئيس الأمريكي الأسبق إبراهام لنكولن.

العقول الكبيرة تبحث الأفكار، والعقول المتفتحة تناقش الأحداث، والعقول الصغيرة تتطفل على شوون الناس.

د. محمد حسين هيكل



يهدف الباب إلى تشجيع المواهب الناشئة التي تتلمس لها سبيلاً إلى الإبداع الفني والكتابة الأدبية، ولذلك تقوم تباشير باختيار عمل أدبي أو أكثر وفق معايير فنية محددة وحسب المساحة المتاحة، ومن ثم يُعرض على أحد النقاد المعروفين الذي يتناوله بالمتابعة النقدية أو التعليق أو التوجيه لتكون خطوة ثابتة لهذه المواهب في طريق الإبداع.

<u>وهذه دعوة للمواهب الأدبية الناشئة للمشاركة في هذا الباب، علماً بأن هناك مكافأة رمزية تشجيعية للعمل الذي يحظى بالنشر.</u>

حنين

أمل عبدالعزيز ـ الرياض

يَحـيـدُ الدَّمْعُ مني والكلامُ ... ويهطل مِثْلَمَا هَطَل الغَمَامُ
ويلفحُ خاطري شوقٌ لرؤيا ... حنونٍ مثل عَطْفك يا هُمَامُ
عِمَادُ الروح يا أبتِ هنيئًا ... يفوحُ شذًى يعطِّرُه السَّلامُ
بِبعدك تستبدُّ بنا هموم ... تُفَتِتُ خافقًا وكذا احتدامُ
ولكني اتَّأدتُ بُعيد هذا ... فقصدُكَ بيتُ خالقنَا الحَرامُ
أبي يا نبضَ قلبي يا حياتي ... لأنتَ العينُ مني والمرَامُ
أسَاهرُ بالدجى نفسي ليومٍ ... أراك يَعُمُّني منك الوئَامُ
يَتُوقُ القلبُ لُقياكم ويهفو ... لذكرى لا تَملُّ ولا تَنَامَ
ويغزو القلبَ أوهامٌ وسلوى ... ويعروني لذكراك انسجام
وتنجمُ في الحشا نارٌ فتكوي ... فؤادًا ينثني منه ابتسامُ
ويغزوني بذكر «أبي» منامي ... فأمضي اليومَ يحْدو بي الظلامُ
وقيدُ اليأس طوَّقني وأرْخى ... زمام البين فاتَّضحَ الوِسَامُ
فَيَعْذلُني الأنامُ أسىً لحالي ... لأن الشوق في قلبي ضِرَامُ
أيهدأُ خاطري والبعد يجفو ... وآمالي تزعزعها السِّهَامُ
أيهدأُ خاطري والقلبُ يرنو ... لطَيفِ أبي ويقتلني انصرامُ
صمتنا وانثنى سؤل الحيارى ... فَبادرتُ السؤالَ: ألا ألامُ
لأنّي أُخْطِئُ الأفكارَ حينًا ... وقصدُ أبي ارتضاءٌ لا حُطَامُ
فسَلْني عن حنين الشوق أُبْدِي ... حنينًا أستلذُّ ويُسْتَدامُ
ولكني أصُدُّ جوًى بنفسي ... فكان لدفع ما أشكو ارتِطَامُ

ـ أطلقت هذه القصيدة بل الشاعر بعد سفر والدي لأداء فريضة الحج.

التعليق:

أبيات حنين لأمل جاءت على بحر الوافر وقافية المتواتر ورَويّ الميم. استهلّت أبياتها بالبكاء وانهمار الدّمع، وبدأ الشّوق يساورها لرؤية أبيها الذي ذهب لأداء فريضة الحجّ وتدفق شعورها وفاضَ واحتدم وصوّرت هذا الحنين والشّوق الفائضين. واستمرت أبياتها مؤجّجةً بالشّوق ممتلئة بالأمنيات وتفيض رقّةً.

ولكنها وإنْ أرادت أنْ تصدقَ في شعورها وذكر ما ألمَّ بها لسفر وَالدها لمكّة للحج فقد ذهبت مذهبًا بعيدًا حين قالت وقيد اليأس طوّقني...

ثمّ ذكرت في البيت الذي يليه حين تبينت أن الأنام قد عذلها أسى لحالها. والشوق ضرامة مشتعلٌ. قالت : وقيد اليأس قيدني. فممّ تيأسين؟ اطْرُدي اليأسَ فالبينُ سينطوي، وسيجمع اللّهُ الشتيتين، ثم سارت ديباجةُ الأبيات كبدايتها إلى أن ختمتها بحنين الشّوق من جديد وارتطم دفعها لشكواها في محاولتها صدّ هذا الجوى وإبعاده.



النسر الجريح

رسمية العيباني - الرياض

حلّق النســـر بطرفٍ دامعٍ ... وفـؤادٍ بقـيـودٍ رَسَـفَـا

ثائر الجـرح عنيـدٌ يـبـتـغي ... نيلَ ثأرٍ، من لشـمسٍ كـسـفـا

رفع الطرف وفي القلب عـويل ... وتسلّى، بجناحٍ رفـرفـا!

حـاول النسـر يُداري جُرحـه ... فرماه الجرح قاعًا صفصفا

هل يدوم الجرح - ياذا - نازفًا ... يُغرق القلب فيغدو مُتلَفا؟

أيُّها المجروحُ ما الحيلةُ في ... خاطرِ صبٍّ تولّى مُدنفا؟

أيُّها المجروح تُصلي مهجتي ... مظلمات من جروحي كِسَفا

فاستدار النسر يُخفي دمعهُ ... قائلاً قولاً حزينًا مُنصفًا:

إنّما الدنيا سرابٌ كاذبٌ ... يُنهبُ الظالم نهبًا سَرفا

ويدور المُتعب المسكينُ في ... حلقات ضاع فيها واختفى

والظلوم نائمٌ مِلء الجفون ... وتعيسُ الحظِّ يبكي وَجفَا

وجُروحٍ.. ومآسٍ قد غدا ... قلبيَ المسكينُ منها مُرجفا

قال: أيضًا إنّني.. قلتُ كفى ... قال: جُرحي من مصابي نزفا

قلتُ: يا نسرُ تمهّل إنني ... صاحبي قلبٌ معنًّى.. وكفى!

التعليق: قصيدة صيغت في بحر الرّمل وقافية المتراكب ورَويّ الفاء. وللفاء في هذه الأبيات بُعد واضح أضفاه عليها مُخرج الفاء وصفتها. فمخرج الفاء كما قال سيبويه: من باطن الشّفة السُّفلى وأطراف الثّنايا العُلى، (الكتاب بولاق 405/2)، وصفتها مهموسة والحرف المهموس هو حرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه: ولعلي أن أتلمس هذا البعد للفاء متّحدًا مع ما جاء في الأبيات من معان.

إذ ألبَسَتْ رَسميّة أبياتها حزنًا عميقًا منذ بدايتها حين طار النّسرُ الجريحُ وَطرفه دامعٌ وفؤاده رسف في قيود محكمة، وجرحه ثائر يطمعُ في الثّأر. ونظر والعويلُ يكتنف قلبه. وحاول مداواة جرحه فرمى به الجرح في قاع صفصف.

قال الشاعر:

إذا ركبتْ داويّةً مدلهمّةً
وَغرّدَ حاديها لها بالصّفاصف

واتصلت صورها الحزينة وذكرت الجرح النازف ويتلف القلب، ثم الصّب المدنف، وأخفى النسر دمعه وقال قولاً حزينًا.

وأبدّت أنَّ الدنيا سرابٌ كاذب، ويدور المتعب المسكين ثم يكون الظّلوم نائمًا ملء جفونه والجروح تكتنف وتُحيط والنزيف مستمر دمه يقطر.

هكذا جاءت صور رسمية حلقة متصلة، ألم يخترقها سهمٌ لأمل، لشدّة الآلام. ثم تأتي الصورة التي تزيد الألم اشتعالاً وهي صورة الظّلوم الذي ظلّ غارقًا في نومه لايهتم بما يليه، وبائس الحظ يطول بكاؤه صائمًا. وطال نزيف جرحه وبدأ الطلب والرجاء يُقدم للنسّر لأن الصاحب قلبٌ منهل صريعٌ موتور.

هكذا طالعتنا صور النسر الجريح، وهكذا سارت إلى خاتمتها. ولكنني كنتُ آملُ أن لا تجري رسميّة في أبياتها هذا المجرى الذي جعل النسر ضعيفًا منذ مطلع الأبيات إلى نهايتها. فيا حبّذا مادام موضوعك هو النسر فليكن في بعض الأبيات شامخًا متحدّيًا لا يأبه بجراحه ولا تضويه آلامه فيكفيه أنّه نسر يضمُّ جراحه، وعليه أن يعيش برغم ذلكم فوق قمّة شمّاء لايعرف الخور.

د. محمد أحمد سليمان إدريس



الأخ جمال بن الصغير ـ قسنطينة ـ الجزائر:

القسائم البريدية التي أرسلتَها لا تصلح، وقد سبق أن نبهنا الإخوة القرّاء على أن قيمة الاشتراك يجب أن تكون بالريال السعودي أو ما يعادل تلك القيمة بالدولار الأمريكي؛ لذا فإننا نعيد إليك تلك القسائم، وقد أوعزنا إلى القسم المختص كي يرسل إليك بعض الأعداد السابقة.

الأخ زينال بن سعيد ـ كوالا لامبور ـ ماليزيا:

نشكر لك حماستك لدينك، وحرصك على تعلم العربية والتحدث بها، وسوف تصل إليك قريبًا إن شاء الله بعض أعداد الفيصل الأخيرة، داعين الله لك بالتوفيق.

الأخ إذثنين عمر ـ أغادير ـ المغرب:

ستصل إليك الأعداد التي طلبتها من مجلة «الفيصل»، أما الموضوع الذي طلبت معلومات عنه، فإننا بصدد إعداد ملف عنه ستطالعه قريبًا إن شاء الله في صفحات المجلة.

وقد أحلنا الجزء الخاص من خطابك بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية إلى القسم المختص للبتّ فيه.

الأخ عادل العبيدي ـ معهد قتيبة بن مسلم ـ صنعاء ـ اليمن:

أحيلت رسالتك إلى القسم المختص الذي سوف يتولى الرد عليك. ونأمل لمعهدكم التوفيق في أداء دوره في تنمية مهارات الطلاب وزيادة ثقافتهم.

الأخ واهي بوعلام ـ المسيلة ـ الجزائر

نفيدك أنه حين تنشَر مقالة لأي كاتب من الكتاب في المجلة ترسل إليه نسخة من العدد الذي يضم مقالته، وعدم وصول هذه النسخة إلى الكاتب يعني أن مقالته لم تنشر بعد، وستأخذ دورها مادامت قد أجيزت للنشر.

الأخ زين العابدين محمد ـ كراتشي ـ الباكستان:

نقدر لك اهتمامك بالاطلاع على الثقافة العربية والإسلامية، وحرصكم على زيادة حصيلتكم منها، ومانستطيعه في مجلة «الفيصل» أن نرسل إليك بعض الأعداد من المجلة، لعلها تكون عونًا لك في تحقيق مبتغاك.

الأخ سعد إسماعيل ـ بانياس الساحل ـ سورية:

نشكر لك إطراءك للمجلة، وكذلك نبلغك شكر الدكتور حسن ظاظا على إعجابك بمقالاته، أما الأعداد التي طلبتها فهي قديمة وقد لا تتوافر لدى المجلة، ولكن سيقوم القسم المختص ببحث إمكان إرسال بعضها إليك.

الأخ فيصل حسن محمد رحمة ـ جامعة وادي النيل ـ بربر ـ السودان:

يسرنا كثيرًا أن تجد مبتغاك في «الفيصل» كما تشير في رسالتك، ونأمل أن تصل إليك بانتظام في مدينة بربر، والعدد الذي طلبته في الطريق إليك إن شاء الله.

الأخ محمد سنوسي عبدالله ـ أندونيسيا:

نأمل أن تبعث بالرسائل التي وجهتها إلى المجلة إلى الجهات المختصة بموضوعاتها، ومساعدة لك ولغيرك من الإخوة القراء سنعيد نشر عنوان مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. فطالع زاوية عناوين في هذا العدد.

الأخ سيلا شيخنا ـ مالي

ستصل إليك رسالة خاصة توضح لك طريقة الاشتراك في المجلة، علمًا بأن قيمته سنويًا كما هو واضح في الصفحة قبل الأخيرة ما يعادل 150ريال سعودي للأفراد، وما يعادل 250 ريال سعودي للمؤسسات. وسوف نرسل إليك بعض الأعداد السابقة من المجلة على سبيل الإهداء، آملين من أمثالك في قارة أفريقيا أن يتواصلوا مع المجلة، وأن يكتبوا إلينا بعض قضاياهم، لعل في نشرها فائدة لهم وللإخوة قرّاء المجلة.

الأخ راشد بن حمدان بن راشد المسعودي ـ العقبة ـ الأردن، الأخت د. رفاه محمد كامل ـ حلب ـ سورية:

نخبر كما أن بعض الاستطلاعات الملونة التي ترسل إلى المجلة تكون في كثير من الأحيان مفتقدة إلى الصور الجيدة التي تبرزها، لذا نبذل جهدًا كبيرًا في توفير الصور اللازمة، ومن ثم يتأخر نشر الاستطلاع الملون المرسل بعد إجازته للنشر، كما أن بعض الاستطلاعات التي سبق نشر مثيل لها منذ مدة قريبة يتأخر نشرها في حالة عدم احتوائها على معلومات جديدة لإتاحة الفرصة لموضوعات لم تنل نصيبها من النشر. لذا نأمل من الإخوة الكتّاب متابعة ما ينشر في المجلة حتى لايبذلوا جهدًا في موضوع لن ينشر أو سيتأخر نشره، كما نود إرفاق صور جيدة مع الاستطلاعات الملونة التي تُرسل.

الأخ ممدوح إبراهيم الطنطاوي ـ الدقهلية ـ مصر:

سيأتي إليك رد بريدي عن موقف مقالتيك من النشر، كما سترسل إليك الأعداد التي طلبتها، وبوصفكم من المهتمين في مجال الحضارة الإسلامية، نأمل أن نتلقى مقالات ودراسات حولها.

الأخ داودي محمد ـ الجلفة ـ الجزائر:

التنويع في موضوعات المجلة أمر نحرص عليه كثيرًا، ونشكر لك الإشادة به. أما أسئلتك الفقهية فقد أحيلت إلى الجهة المختصة التي سيرد عليها على صفحات المجلة قريبًا. وفي الطريق إليك بعض الأعداد السابقة، والاشتراك كما هو موضح في المجلة بالدولار الأمريكي والريال السعودي.

الأخ م. هشام الشباك ـ عمان ـ الأردن:

نشكر لك إهداءك الكريم، ملصق الرسم البياني الذي يوضح تاريخ الإسلام في 14 قرنًا، وسيتم دراسة مدى إمكان نشره مع الجهة المختصة التي ستوافيك بردها بريديًا. شاكرين لك مابذلته من جهد كبير في إعداده.

بين القارئ والقارئ

توجد لديَّ أعداد زائدة من مجلات «العربي»، و«الفيصل»، و«نهج الإسلام»، أود مبادلتها بأعداد ليست موجودة لديَّ من «الفيصل» أو بيعها.

سمير جقميري

محل نصوح جقميرة - مقابل مدرة بسام حمشو

دمشق ص.ب 22573 سورية

أرجو من الإخوة قراء «الفيصل» الكرام تزويدي بصورة من ترجمة كتاب «الاستعارة» للكاتب الأمريكي ماكس بلاك، وأعتقد أن الترجمة قد نشرت في مجلة «الفكر العربي المعاصر»، بيروت عدد «30» عام 1984، مع شكري وامتناني لمن سيقدم لي هذه الخدمة الفكرية.

وسام عايش

صنعاء ص.ب 3220 اليمن

أرغب في الحصول على هذه الكتب: «الحلال والحرام»، «الناس والحق»، «الحل الإسلامي»، من مؤلفات د. يوسف القرضاوي. و«المسلمون والعصر - حوار لا مواجهة» لأحمد كمال أبو المجد.

محمود بن تركي الداود

قرية جوباس - أدلب - سوريا

لديَّ أعداد من الصحف والمجلات الجزائرية «النبأ» ، و«النصر»، و«الشعب»، و«مجلة الإرشاد»، و«الوحدة»، و«الأصالة». أرغب في مبادلتها بمجلات «الناقد» و«المعرفة» و«الجيل»، و«المجلة العربية»، و«عالم المعرفة».

فوزي مصمودي

بسكرة 7000 حي سيد بركات - الجزائر

أرغب في الحصول على مجلات وجرائد عربية أدبية وثقافية خاصة، فأرجو من قراء «الفيصل» الكرام تزويدي ببعض الصحف والمجلات التي تصدر في بلدانهم، وإبدالها بإصدارات مغربية من مجلات وجرائد وجديد الإبداع، وإني لكم من الشاكرين.

مسعود بوكرن

حي السلام - درب الصاكة رقم 22 - مراكش - المغرب

ملحوظة:

تهدف هذه الزاوية «بين القارئ والقارئ» إلى إيجاد قناة مباشرة بين القراء أنفسهم لتبادل المعلومات عن الكتب النادرة أو المجلات التي توقفت عن الصدور أو نفدت أعدادها.

عناوين

الأخ هادي حلاص القحطاني:

العقيق: ملف ثقافي أدبي محكم غير دوري - يصدر عن نادي المدينة المنورة الأدبي، والعنوان ص.ب 750 المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية

الهاتف 8471905 ، الفاكس 8474913.

الأخ محمد إدريس العقبي - تونس:

عنوان مجلة «علوم وتكنولوجيا»: ص.ب 24885 الصفاة - 131109 الكويت

الهاتف 4818630 ، الفاكس 8430643

الأخ سمير حسنين - أسوان - مصر:

عنوان مجلة القوات الجوية الإماراتية:

أبو ظبي ص.ب 3231

القوات الجوية والدفاع الجوي

الإمارات العربية المتحدة

الأخ محمد سعد الأسمري - أبها - المملكة العربية السعودية:

عنوان نادي القصيم الأدبي

بريدة ص.ب 872

هاتف 3811440 - 3815302 ، فاكس 3814148

عنوان مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية

هاتف 8474476 – 8473275

إيضاحات

تعتذر المجلة سلفاً عن عدم تقديم اشتراكات مجانية، وعن عدم التجاوب مع طلبات للحصول على إصدارات أخرى (كتب ومجلات) لاعلاقة لها بها.

المسائل الشخصية كطلب وظائف أو مساعدات مالية أو إعانة على زواج، أو ماشابه ذلك والتعارف بين هواة المراسلة، ليست من اختصاصات المجلة ولا اهتماماتها، ومن حقها عدم الالتفات إلى رسائل تختص بهذه الأمور أو الرد عليها.

يتعذر على المجلة الرد الشخصي البريدي على جميع القراء الذين يراسلونها وذلك لكثرة الرسائل، وتكتفي بالرد عليهم من خلال «ردود خاصة»، أو بنشر مشاركاتهم في الصفحات المخصصة لذلك.

الرسائل ذات العلاقة بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية أو بأي نوع من خدماته، يُرجى توجيهها إليه مباشرة على عنوانه: ص.ب ٥١٠٤٩ الرياض ١١٥٤٣ المملكة العربية السعودية.

عند مراسلة الصفحات المخصصة للقراء (مناقشات وتعليقات، بريد، المسابقة، تباشير، ردود خاصة - بما في ذلك زواياها الجديدة: بين القارئ والقارئ، عناوين) يرجى ذكر اسم الباب أو الزاوية على المظروف، مع شكرنا للجميع.





الصورة البيانية للروائح والعطور في شعرنا العربي

لقد دار ملف مجلة الفيصل الغراء في عددها (231) الصادر في رمضان 1416، الموافق يناير/فبراير1996م حول: (العطور على مر العصور) فاستنشقنا من خلال سطوره وصوره شذا المسك والعنبر والريحان. ووقفنا على قصة الإنسان ورحلته الطويلة في اكتشافه لهذه العطور واستفادته منها بذكاء وإمعان في كل مجال وميدان، في الدين والطب والنظافة والجمال، ثم تعرّض الملف لحاسة الشم ـ وهي آلة الاستمتاع بالعطور ـ بأسلوب علمي قريب التناول مدعمًا بصور توضيحية أثْرَتْه وأغنتهُ إلى حد كبير، فأجاب عن سؤالين مهمين هما: كيف تتمّ عملية الشم؟ وكيف يستفيد منها الإنسان والحيوان كلٌ في حياته؟ ثم تعرض أيضًا للعطور في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والأدب العربي.

ولعل هذا السيل من المعلومات حول العطور قد جعل الخواطر والأفكار تترى وتتزاحم في ذهني ولكنني عزمت بعد تدبر وتأمل أن أوجّه هذه الخواطر نحو: (الصورة البيانية للروائح والعطور في شعرنا العربي) ورأيت أنْ سجل بعضها في هذا التعقيب.

جاء ضمن مقالة: (العطور صناعة لها تاريخ) ومقالة: (العطور الحيوانية والحشرية):

(أن المسك يستخرج من أحد أنواع الأيائل الذي كاد ينقرض لجدّ الناس في صيده) وربما (الأيّل) بضم الهمزة وكسرها ضرب من الغزلان الجبلية، إذ يقول أبو الطيب المتنبي مادحًا:

فإن تفق الأنامَ وأنت منهم
فإنّ (المسك) بعض دم الغزال

فالمسك ـ وهي لفظة فارسية مُعرَّبة إذ كانت العرب تسمِّيه (المشموم) وتعني لونًا من الطيب ـ يستخرج من موضع بعينه في صدر الغزال، والمتنبي في بيته يشبه الممدوح المفهوم من ضمير المخاطب (أنت) بين الناس بالمسك في دم الغزال، ووجه الشبه التميز في صفات الممدوح وطيبه، وأداة التشبيه محذوفة، ويسمى هذا النوع من التشبيه (التشبيه الضمني) لأنه يفهم من سياق الكلام.

وجاء أيضًا تحت عنوان (عطر الدخان): «ومن أنواع العطور الجافة التي تفوح رائحتها عند حرقها، بخور «العود» المستمد من أشجار الصندل، فقفز إلى ذاكرتي ما قاله أبو تمام في الحكمة:

وإذا أراد الله نشر فضيلة
طويت، أتاح لها لسان حسودِ
لولا اشتعال النار فيما جاورت
ما كان يُعرفُ طيبُ عَرفِ (العود)

شبَّه أبو تمام ههنا فضيلة ممدوحة وما كان من لسان الحسود من أثر في إظهارها بالعود (خشب الصندل) وما يكون من النار سببًا في إظهار طيب رائحته. ولعله من المناسب أن أذكر ما كان عليه العرب القدماء من (كرم جمّ) فألفينا بعضهم يبالغ في ذلك مبالغة فيشعل النيران (بعود الصندل) على قمم الجبال كي يهتدي الأضياف لديارهم ولاسيما العميان منهم يشمون رائحة العود فيقصدونه فيتعهدهم العربي بالإكرام والإعزاز والاحتفال.

ومن طريف ما يتصل بالعطور ما كتبه الصاحب بن عباد إلى القاضي أبي الحسن وقد أهدى له الصاحب عطرًا:

يا أيها القاضي الذي نفسي له
مع قرب عهد لقائه مشتاقه
أهديتُ (عِطرًا) مثل طيب ثنائه
فكأنما أُهدي له أخلاقه

فقد شبه العطر من قبيل التوهم والمبالغة بالثناء والأخلاق كأن أخلاقه أصل في الطيب وأحق به من العطر وتخيل أن لها رائحة طيبة ذكية مثله.

ويقول أبو تمام يصف قصائده:

(عَبِقاتٌ) بالمسمع تُبدي وجوها
كوجوه الكواعب الأتراب

والعَبَقُ: مصدر (عَبِقَ) به الطيب. لزق وظهرت فيه رائحته، وقد استعار أبو تمام العبق ومجاله حاسة الشم للدلالة على قصائده ومجالها حاسة السمع.

ويقول البحتري في أقاحي الرياض وزينتها:

ولعمري لولا (الأقاحي) لأبصر
ت وأنيقَ الرياض غير أنيق

والأقاحي: في مختار الصحاح جمع (للأقحوان) أي البابونج وهو نبت طيب الريح حواليه ورق أبيض ووسطه أصفر.

ويقول أبو العلاء المعري في أزهار الرياض وحسنها:

والشيب (أزهار) الشباب فمالَهُ
يُخفى، وحسنُ الرَّوضِ في الأزهار

فالشيب يزين الشباب كما تزين الأزهار الرياض بلونها ورائحتها فعقد مشابهة بين الشيب والأزهار، وثمة نكتة بلاغية أخرى في هذا البيت فقد استعار (الأزهار) للشباب.

ويقول ابن المعتز في (الآزريون) وهو زهر أصفر في وسطه خمل وهدب أسود:

كأن (آزريونها)
غِبّ سماءٍ هاميه
مداهنٌ من ذهب
فيها بقايا غاليه

مداهن: مفردها (المُدْهُنُ) آلة الدُّهْن، غالية: المسك، فالشاعر يشبه زهرة (الآزريون) في لونها ورائحتها بمداهن صنعت من ذهب وفاحت منها رائحة المسك.

د. بهاء الدين سليم عايش
جامعة صنعاء ـ مركز اللغات ـ اليمن

المرأة العربية والمرأة الأمريكية.. والموازنة بينهما



يسعدني سعادة غامرة أن أبعث برسالتي المتواضعة هذه المرة إلى «فيصلنا الغراء» تعليقًا على مقال للأستاذ/حسن بن حسين المهنا بعنوان «المرأة تدير الشركات من منزلها» وقد نشر في العدد رقم (227) جمادى الأولى 1416هـ/ سبتمبر1995م.

وقد رأيت نقاطًا يجب أن تذكر تجاه هذا المقال:

وأقول بادئ ذي بدء إن الإسلام أعلى من شأن المرأة، ونالت في ظله من الحقوق ما لم تنله المرأة في أي عصر من العصور.. بل لقد انتشلها من وطأة الجاهلية الجهلاءالتي كانت فيها البنت توأد وتدفن في ثرى الأرض وهي على قيد الحياة.. لأنهم كانوا ينظرون إليها نظرة العار والنقيصة مصداقًا لقول المولى سبحانه وتعالى: *وإذا بشّر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودًا وهو كظيم*

أتى الإسلام وقرر للمرأة حقوقًا كثيرة منها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية إلى غير ذلك من الحقوق، ومن هذه الحقوق حقها في التعليم، إذ التعليم حق لكل مسلم ومسلمة.. وأيضًا حقها في العمل داخل البيت وخارجه مصداقًا لقوله سبحانه *وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون*. وهو خطاب موجه إلى الرجل والمرأة.

ومما لا موضع للجدال فيه أن الرسالة الطبيعية والوظيفة الأساسية للمرأة إنما هي الأمومة. وأن المرأة لايكتمل نضجها ونموها النفسي إلا بالأمومة، وهي بقيامها بهذه الوظيفة الأساسية إنما تؤدي دورًا عظيمًا في رفع المستوى الحضاري للمجتمع، وفي توفير أسباب الاتزان النفسي لدى رجال الغد. فالأمومة هي الرسالة الأولى التي يجب على الأم تأديتها، ولكي نضمن جيلاً يمتاز بالاتزان والنضج العقلي..

هذه نقطة أردت أن أدخل بها على ملاحظاتي على مقال الأستاذ المهنا الفاضل..

وتأتي ملاحظتي الأولى في الآتي:

أولا: إن عمل المرأة ليس مُحَرَّمًا إلا في تجاوز حدود العفاف والحشمة والخروج على ما أمره الدين الحنيف من الوقار والسترة وعدم التبرج والزينة وغير ذلك من المنهيات.. هذه نقطة، وبقاء المرأة في المنزل ليس نقيصة على الإطلاق. وهذا ما تقتضيه الفطرة التي خلق الله المرأة عليها، وليس كلامنا هذا مفهومًا على أنه ردة إلى الماضي على الإطلاق والرجوع بالمرأة إلى عهود سحيقة مضت.. فالفطرة تأبى أن ترى المرأة التي اختصها الله سبحانه وتعالى بمهمة تكثير النوع الإنساني وتربيته، تتكلف فوق ما تعانيه من المشاق مشاطرة الرجال أعمالهم المرهقة، وأن تهجر دارها ساعات طويلة، وأن تترك أولادها يهيمون على وجوههم في الشارع والأزقة وهم في أشد الحاجة إلى رعايتها وحمايتها!!

لكن الملاحظ في المقال أن كاتبه يركز على عمل المرأة في المنزل. في عمل يدر دخلاً ماليًا. ويقول بأن هذا النوع من العمل موجود في منطقة الخليج لكنه ليس شائعًا للخصوصية الثقافية المحافظة والمجال هنا ليس كافيًا لاستقصاء الأسباب.. وينبهني على القول بأن «في الولايات المتحدة وحدها يعمل 26 مليونًا في منازلهم أي (10٪) من الشعب الأمريكي. والرد على أن هذا غير ممكن في منطقتنا العربية وبالذات في بلد كمصر بأن المساكن ضيقة للغاية وليس فيها منفذ للعمل به لكي يدر دخلاً إضافيًا على صاحبه.. ولعلنا جميعًا نعاني من أزمة إسكان طاحنة مما جعل الشباب يحجم عن الزواج، وكل ذلك يولد مشكلات معقدة يعاني منها الجميع. فكيف يكون هنا المكان الذي يتخذه أي إنسان أو أية امرأة لكي تمارس فيه العمل الذي يدر الدخل؟

وأيضًا فإننا هنا وفي منطقتنا العربية نعاني من الأمية البغيضة التي تنتج عن الفقر والتسرب من التعليم الأساسي إلى غير ذلك من الأسباب حتى بلغت نسبة أمية المرأة العربية والمصرية نسبة مخيفة مما كان له أكبر الأثر في عدم العمل الذي يدر الدخل..

ونقطة جديرة بالتسجيل أن ما يحدث في الولايات المتحدة بعيد كل البعد عن مجتمعنا.. إذ البيئة هناك والعوامل المهيأة لتطور المجتمع.. غير البيئة والظروف التي يمر بها مجتمعنا العربي، وأيضا قلة الدخول والأموال وضآلتهما مع الأفراد يمنع من الاستثمار في أي شيء سواء كان في المنزل أو خارجه.. إذ المال عصب الحياة وعدم وجوده يجعل الإنسان كثيرًا ما يُحجم عن عمل أي مشروع اقتصادي وإن كان هذا حادثًا، إلا أن هناك وفي مصرنا الحبيبة قرى كثيرة تعمل في الاستثمار بالمنازل وفي إتاحة العمل في مشاريع كثيرة منها قرى محافظة دمياط بالكامل وبعض القرى في محافظة الدقهلية ومنها قريتي سلامون القماش وطوخ الأفلام والتي تعمل في صناعة التريكو والسجاد و«الكليم» وتربية النحل وتعدّ من القرى الرائدة في مجال العمل الريفي ـ لكنها ليست الظاهرة التي يمكن أن نتحدث عنها..

وكاتبنا الأستاذ حسن المهنا يركز على النساء اللاتي لهن نشاط بارز في الولايات المتحدة واللاتي يعملن في المغازل وكوّنّ شركات أجملها في الجدول المرفق بمقاله.. وأنا بدوري أرد على هذه النقطة بدراسة عن سؤال «هل يجب أن تلتحق المرأة بالعمل أو يجب أن تبقى مع الأولاد»؟

SHOULD MOTHER TAKE A JOB,
OR STAY HOME WITH THE KIDS

انتهى الباحثون إلى هذه النتيجة:

مع أنه يوجد في أمريكا 15٪ تقريباً من النساء اللاتي لديهن أطفال دون السادسة في العمل، إلا أن المرأة غير ناجحة في الجمع بين العملين ـ خارج المنزل وداخله ـ فهي في صراع نفسي دائم لتحقيق النجاح في كلا الدَّورين بوصفها أمًّا وعاملة..

والوضع الأفضل أن تظل الأم مع أطفالها ماداموا دون السادسة ولا مانع من أن تعمل قبل الإنجاب أو قبل الزواج وبعد بلوغ الأطفال هذه المرحلة.

وفي دراسة أخرى وجد أن هناك اختلافًا بين تكيف أبناء المشتغلات وغير المشتغلات، وجد أن الفتيات المراهقات ضمن بنات العاملات يفقدن حب أمهاتهن ويشعرن بسعادة أقل من بنات غير العاملات..

وقد دلت دراسات حديثة في الولايات المتحدة الأمريكية على أن النساء العاملات أبعد عن الاتزان الانفعالي من الرجال، كما دلت على وجود مؤثرات خاصة شديدة الوطأة في شخصياتهن، وهي مؤثرات لا وجود لها البتة عند الرجال..

ونحن من جانبنا لانهاجم عمل المرأة من خلال المنزل.. بل نهيب بكل امرأة عربية أو مسلمة أن تعمل من خلال منزلها وذلك عندما تكون المنازل فيها من الاتساع والانبساط ما يُمكِّن المرأة أن تباشر عملاً ما يدرّ عليها دخلاً.. والمسألة في اعتقادي مسألة وقت ومال وظروف مواتية لإبراز مثل هذه الأعمال إلى حيِّز الوجود لكنها في الوقت الراهن غير ميسرة وغير سامحة بهذا، وحين تأتي الظروف بكل المتطلبات من منازل واسعة وأموال وغيرها.. تجد المرأة العمل في المنزل والذي به يمكن أن تحصل على المردود من دون الحاجة إلى الاختلاط بالرجال.

إبراهيم عبدالوهاب شرف
جامعة المنصورة
مدير الإدارة القانونية ـ المنصورة ـ مصر



تعليم القيم وظيفة تربوية متوازنة

كم نحن بحاجة إلى مثل هذه الموضوعات التي كان منها موضوع الأستاذ أحمد الحسن الخميسي في العدد 232، تاريخ شهر شوال 1416هـ، تحت عنوان «نظرات في غرس القيم».

في البداية أوجه شكري وتقديري للأستاذ الكاتب للجهد الذي بذله في كتابة هذا الموضوع، لأن الخوض في هذا المجال يحتاج حقًا إلى جهود عظيمة ومضنية، إنه موضوع مهم؛ لأنني أعده من الحاجات الضرورية لكل أب وأم وأسرة ومجتمع في هذا الزمن الذي تتجاذبه كثير من المشكلات، ومن ثم يكون لها المردود العكسي على أبنائنا.

ولابد لي ـ بعد اطلاعي على الموضوع بدقة ـ والرجوع إلى بعض المراجع من تدعيم وإضافة توضيحية، متمنيًا إفادة القارئ العربي في ذلك.

أقول إن القيم يختارها الفرد بذاته من خلال تفاعله مع نفسه ومع محيطه، ويتمسك بهذه القيمة، ويدافع عنها؛ لأنها وليدة المكون العقلي والمكون الوجداني اللذين يدعمها السلوك الإنساني، عند ذلك تكون قيمة كاملة لتكون بالتالي موقفًا إنسانيًا ورغبة إنسانية ذاتية مرتبطة بمعايير تتحكم بعملياتها، وصنفت هذه المعايير وفق ما يلي: (الانتقاء ـ التقدير ـ الشروع بممارسة القيمة) فالإنسان يختار قيمته بحرية كاملة، ويقرر ـ بنفسه ـ مدى الشعور بالسعادة عند اختياره لها مقدرًا قيمة التعلق بها للإسراع بممارستها وتطبيقها، وتكون الممارسة في أوضاع مختلفة وباستمرار من دون انقطاع.

ووجدت أن طريقة تعليم القيم من أهم ما يواجهه المربون، لذلك أرى أن الانطلاق من السهولة والتيسير يجعل من عملية تعليم القيم شيئًا ميسرًا ومفيدًا، فيمكن البدء بالطرائق التقليدية مبتدئين بالمواعظ، واستخدام أسلوب الثواب والعقاب، واستخدام القوانين والأنظمة، إضافة إلى دور (القدوة الصالحة) في ذلك والانطلاق بعد ذلك إلى الطرائق الراقية والحديثة، وأعتقد أنه يأتي دور القرآن والحديث الشريف بالنسبة لنا ـ نحن المسلمين ـ لما لدين من دور فعّال كما هو دور الأديان الأخرى، لأنه يركز على طريقة الحياة من جميع النواحي، وبالتالي يجعلنا نعتمد تعاليم القرآن والحديث الشريف معايير للحكم على أفعالنا وسلوكنا وأقوالنا والتركيز على تطبيق القيم الإسلامية في حياتنا الواقعية لتكون وثيقة الصلة، بمتطلبات حياتنا وشؤونها.

وقد أولى ـ علماء النفس ـ الخبرات الدور المهم في تعلم الأطفال للقيم، ويأتي هنا دور المدرسة في تقديم المساعدة للطلاب والتمهيد لاكتساب القيم بعد اكتشافها من الطلاب فيلجأ الطالب إلى ممارسة أفعال تهيئه لاكتساب هذه القيمة أو تلك.

أعود مرة أخرى لأبيّن قيمة هذه المقالة لأستاذنا الخميسي وأشاركه تأكيده أهمية القيمة لنا ـ نحن العرب ـ وضرورة تعلمها بعد التسارع والتطور الاجتماعي والتقني والتحديات التي تتعرض لها الأمة العربية الآن، فنجد أبناءنا تحت كابوس القيم المتصارعة و(التكنولوجيا) الحديثة من غير تدريبهم على التكيف معها وفق قيمنا الصالحة، مما أدى إلى تضاؤل الثقة بالقيم من دون توفير أي بديل مناسب.

ومن هنا أستطيع ختم مقالتي بقول للأستاذ عبدالملك الناشف: «لايستطيع أي مجتمع الاستمرار والبقاء ومواصلة العمل بصورة فعالة إذا لم يعتنق ويمارس مجموعة من القيم التي يقبلها المجتمع على وجه العموم، والتي تساعد على تكامل سلوك الأفراد في هذا المجتمع، وتشكل هذه المجموعة مصدر قوة للمجتمع، كما أن انتقالها إلى الجيل الجديد من الأطفال قد أصبح من أهم وظائف العملية التربوية المتوازنة».

مع شكري وتقديري

صلاح مفلح أسعد
دمشق ـ سورية

تصحيحات حديثية



في أثناء اطلاعي المعتاد على مجلة الفيصل لفت نظري بالعدد (231) ما يلي:

أولاً : ـ في زاوية «دائرة المعارف» «العطور في السنَّة النبوية الشريفة» ورد في تخريج الحديث رقم 12 مانصه «رواه ابن عربي عن ابن عباس»، وهذا خطأ لاشك فيه لأن المقصود هو العلامة ابن العربي الفقيه المفسر المحدث المؤرخ وهو شارح سنن الترمذي وهو عمل جليل جداً في ميزان علوم الحديث. أما ابن عربي فهو الصوفي القائل بوحدة الوجود والاتحاد ولا علاقة البتة بين ابن عربي الصوفي والحديث وعلومه.

ومن الأخطاء الشائعة جداً الخلط بين ابن العربي المفسِّر الفقيه المحدِّث المؤرِّخ وابن عربي الصوفي القائل بالعقائد الباطلة مثل وحدة الوجود والاتحاد. ولذا يجب أن يتنبه لذلك الكتاب والمؤلفون والخطباء والمحاضرون.

ثانيًا: ورد في مقال «رمضان شهر الإيمان الكامل والصلاح الشامل» ورد حديث «الصبر نصف الإيمان» وجاء في هامشه رقم (7) قال الحافظ العراقي في «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار» رواه أبو نعيم في «الحلية» والخطيب في «التاريخ» من حديث ابن مسعود بسند حسن.

ولكن الشيخ الألباني يذكر غير ذلك في «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيّئ في الأمة» فهو يحكم على الحديث بالأدلة العلمية أنه منكر ويذكر ما نصه: قال أبو نعيم والخطيب: «تفرد به المخزومي عن سفيان بهذا الإسناد».

قلت ـ والقول للعلامة الألباني: ـ «والمخزومي هذا، قال الذهبي في الميزان قال ابن الجوزي: مجروح، قلت له عن الثوري... مرفوعًا: اليقين الإيمان كله وهذا المتن ذكره البخاري تعليقًا في كتاب الإيمان ولم يقل فيه: قال النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال الحافظ في «اللسان»: «قال أبو علي النيسابوري: هذا حديث منكر لا أصل له من حديث زيد ولا من حديث الثوري»

وقال في الفتح: «هذا التعليق طرف من أثر وصله الطبراني بسند صحيح، وبقيته «والصبر نصف الإيمان»، وأخرجه أبو نعيم والبيهقي في الزهد من حديثه يعني ابن مسعود ولا يثبت رفعه قلت ـ والقول للعلامة الألباني ـ ويعقوب بن حميد فيه ضعف من قبل حفظه وبه أعل الحديث المناوي وهو قصور بين ثم ذكر عن البيهقي أنه قال: «والمحفوظ عن ابن مسعود من قوله غير مرفوع»(1).

ثالثا: ورد في مقال: «نعم الطعام التمر» ما نصه عن سلمة بن قيس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أطعموا نساءكم في نفاسهن التمر فإنه من كان طعامها في نفاسها التمر خرج ولدها حليمًا فإنه كان طعام مريم حين ولدت، ولو علم الله طعامًا خيرًا من التمر لأطعمها» انتهى بنصه.

وهذا الكلام طيب من حيث المعنى ولكنه لايصح من كونه من الأحاديث الصحيحة.

وهذا بيانه:

رواه الخطيب عن مسلم بن قيس مرفوعًا. وفي إسناده سليمان النخعي وداود بن سليمان كذّابان(2). كما ذكره الشوكاني وذكره أبو الحسن علي بن محمد بن عراق الكناني في

الهوامش

1– انظر «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة» حديث رقم 499 بالمجلد الأول للعلامة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني.

2 – انظر «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للإمام الشوكاني حديث رقم 64 كتاب الأطعمة والأشربة.

3 – انظر «تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة» لابن عراق الكناني حديث رقم 24 كتاب الأطعمة الفصل الأول المجلد الأول.



كتابه «تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة. بالعلل السابقة نفسها(3).

وختامًا

فإني أود من إخواني الكتاب تحري الدقة عند الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف حتى تكون في منأى عن مغبة الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم «والله يقول الحق وهو يهدي السبيل».

محمد نجيب لطفي
الفيوم ـ العدوة ـ مصر



المستقبل المشترك في القرن القادم

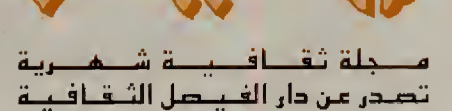
في العقدين الأخيرين كثر الحديث عن الصحوة الإسلامية والحل الإسلامي، بعد إخفاق المشروع القومي والأنظمة الشمولية وتطبيقها الاشتراكي. وقد سعى المفكرون الإسلاميون المعاصرون إلى إثبات قدرة الإسلام ـ عقيدة وشريعة ـ على حلّ المشكلات التي تواجه المجتمع العربي المعاصر الذي انحسر ظل الإسلام عن مراكز القرار فيه، والذي مازالت البدع والتقاليد والخرافات منتشرة بين أبنائه. وضمن هذه الجهود التي تُبرز عظمة الإسلام نظامًا شاملاً للحياة يقوم على بناء الإنسان بناءً روحيًا وعقليًا صحيحًا، ضمن هذه الجهود يأتي مقال الكاتب «سعيد شبار» الذي تحدث عن مظاهر تكريم الإنسان في الحضارتين الإسلامية والغربية، الذي نشرته «الفيصل» في العدد 230، وأنا أشكر الكاتب الفاضل على مقاله الذي اتسم بالموضوعية، وسأقف عند نقطة وردت في نهاية مقاله (ص 43) حيث يقول: «فحتى المفاهيم الأشد ارتباطًا بكرامة الإنسان كالحرية والديمقراطية والتعددية وحقوق الإنسان لاتجد لها تطبيقًا حقيقيًا إلا في المجتمعات الغربية.. أما خارج هذه المجتمعات (فإنها) تتحول إلى نقيضها تمامًا!» ألا يحق لنا أن نتساءل عن السرّ في عدم تطبيق هذه المفاهيم على أرضنا العربية؟ إن الادّعاء بأن هذه المفاهيم مستوردة أو هي ضرب من الغزو الثقافي ـ كما يدّعي بعضهم ـ ضرب من السخف لا يليق التفوه به في نهاية القرن العشرين.

إن النظام الإسلامي الشامل قد أكد التعددية والشورى وحقوق الإنسان وصون كرامته منذ خمسة عشر قرنًا، وما زالت هذه المفاهيم مجرد شعارات جوفاء لا ظل لها على أرضنا العربية.

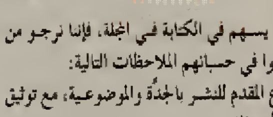
لقد أضاع العرب نصف قرن من عمر هذه الأمة في التجريب، الاشتراكية والرأسمالية والانغلاق والانفتاح، وقِلة هُمُ الذين عرفوا طريق الحق وساروا عليه. إن إصلاح هذه الأمة لن يكون إلا بما صلح به أولها وبناء الانسان المسلم الجديد بناءً صحيحًا هو أول هدف يجب السعي إليه؛ لأن الإنسان هو الركيزة الأولى في البناء الحضاري، والإنسان المقموع والمسلوب الإرادة والكرامة هو بالضرورة إنسان غير فاعل في بناء وطنه وخدمة أمته. ولقد آن الأوان لندرك العلاقة الجدلية بين الحرية والديمقراطية والتنمية. لقد أثبتت تجربة نصف قرن إخفاق السياسات التغريبية العلمانية في تحقيق العدالة الاجتماعية وتأمين الاستقرار المادي والمعنوي للإنسان العربي الذي صام وصبر كثيرًا وأفطر على الفاجعة!

لقد طالت رحلة التّيه العربي حين استبدلنا الذي هو أدنى بالذي هو خير. نعم الإسلام هو الحل،

الفيصل



مجلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار الفيصل الثقافية



ملاحظات عامة

مع تقديرنا لكل من يسهم في الكتابة في المجلة، فإننا نرجو من كتّابنا الكرام أن يضعوا في حسبانهم الملاحظات التالية:

١ـ أن يتسم الموضوع المقدم للنشر بالجدّة والموضوعية، مع توثيق المراجع إذا اقتضى الأمر ذلك.

٢ـ ألا يكون الموضوع منشورًا من قبل، أو مرسلاً إلى أي جهة أخرى ناشرة.

٣ـ حين تردّ المجلة على كاتب ما بأن موضوعه «غير مناسب للنشر» فإن هذا لا يعني أنه «غير صالح للنشر» في غيرها، وإنما يعني عدم مناسبته لسياسة النشر فيها.

٤ـ أن يرفق الكاتب (الذي لم يسبق له الكتابة في المجلة) مع موضوعه، الاسم والمؤهلات العلمية والإنتاج الفكري ـ إن وجد ـ وعنوان المراسلة، في ورقة مستقلة.

٥ـ الموضوعات المنشورة في هذه المجلة تعبّر عن آراء أصحابها. ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

وهو قادر على حل المشكلات التي تواجهنا أفرادًا ومجتمعات، وهذا يحتاج إلى عمل جادّ ومخلص لصياغة الشريعة الإسلامية صياغة معاصرة تحقق مصالح الأمة في النهضة والعيش بحرية وكرامة من دون قهر أو تبعية. إن صياغة المشروع الحضاري الإسلامي أمانة في أعناق الجميع حكامًا ومحكومين وعلماء، وليس لأحد الحق في التفرد بصياغة هذا المشروع. ونؤكد أن العدل والتوحيد من الخطوط الرئيسة لهذا المشروع الذي يحتاج إلى الحوار بين قادة الأمة ومفكريها وعلمائها. إن قومًا أرادوا العزة بغير الإسلام لن ينالوها. إن القرن القادم هو قرن التكتلات وإذا أردنا ضمان مكان لنا بين الكبار فينبغي نسيان العداوات والصراعات القبلية والتركيز على المستقبل المشترك.

أما إذا كنا نحبّ أن نبقى صغارًا وأقزامًا بين العمالقة فإن هذا الكلام مضيعة للوقت.

محمود بن تركي الداؤد ـ قرية جوباس إدلب ـ سورية

اليهودية والمسيح المنتظر!



قرأت في مجلتكم العزيزة عدد (227) صفحة (19) مقالة للدكتور حسن ظاظا، بعنوان (الصهيونية والمسيح المنتظر) وأعقّب على نقطتين جاءتا في المقال:

النقطة الأولى:ـ

ص (19) ـ العمود الثاني ـ السطر الأخير ـ الذي يقول «إن المسيح نسخ عقيدة اليهود ونسفها من جذورها؛ لأن دعوته كانت (للناس كافة) وليس لبني إسرائيل كما يزعمون.» وأريد أن أقول بأن دعوة عيسى عليه السلام لم تكن للناس كافة، وإنما كانت لبني إسرائيل خاصة، ولكن مع دعوة الناس لعبادة الله، وذلك ما جاء في صحيح البخاري ـ المجلد الأول ـ باب ما جاء في التيمم ـ كتاب التيمم ـ قال أخبرنا جابر بن عبدالله أن النبي صلّى الله عليه وسلّم، قال: «أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ، وأحلّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة».

النقطة الثانية:ـ

ص (23) ـ العمود الثاني ـ الأسطر الأخيرة قبل عنوان (ظاهرة سياسية في خدمة الصهيونية) ـ قال: «إننا خصوصًا منا ـ نحن العرب من مسلمين ومسيحيين ـ والمسيحيون في أمن وعافية لأنه ـ عيسى عليه السلام ـ بعث إليهم فآمنوا به، وينتظرون عودته من السماء في آخر الزمان «فيملأ الأرض عدلاً بعد أن مُلئت جورًا» ويتفق معهم المسلمون في ذلك». وأقول إن المسلمين يعتقدون اعتقادًا راسخًا بأن عيسى عليه السلام سوف يأتي في آخر الزمان ويقتل الأعور الدجال كما أنه سيكسر الصليب ويقتل الخنزير، وبذلك لن يبقى سوى الإسلام والعقيدة الصحيحة بأن الله عز وجل إله واحد لا شريك له وأنه لن يكون هناك من يدّعي بأن عيسى عليه السلام هو ابن الله أو ثالث ثلاثة تعالى الله عمّا يقولون علوًا كبيرًا.

وأخيرًا أودّ أن أشكر الكاتب الأستاذ الدكتور حسن ظاظا على مقالته التي أوضحت بعض ملامح الفكر الصهيوني وجوانبه.

صلاح الدين خالد بالي
جدة ـ المملكة العربية السعودية.

العنوان

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ ـ
المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٦٥٣٠٢٦ ـ ٤٦٥٣٠٢٧ ـ
ـ ٤٦٤٧٨٨٤
فاكسملي: ٤٦٤٧٨٥١

ردمد ١١٤٠ ـ ٠٢٥٨ رقم الإيداع ١٤/٠٥٤٢

الأسعار:

السعودية ٨ريالات ـ الكويت ٦٥٠ فلس ـ الإمارات ٧دراهم ـ قطر ٧ريالات ـ البحرين ٧٥٠ فلس ـ عُمان ٧٥٠بيسة ـ الأردن ٥٠٠فلس ـ اليمن ٤٠ريالاً ـ مصر جنيهان ـ السودان ١٥٠ جنيه ـ المغرب ٨دراهم ـ تونس ٦٠٠مليم ـ الجزائر ٩١دنانير ـ العراق ٤٠٠فلس ـ سورية ٣٠ليرة ـ ليبيا ٨٠٠درهم ـ موريتانيا ١٠٠أوقية ـ الصومال ٢٠٠٠شلن ـ جيبرتي ١٥٠فرنك ـ لبنان مايعادل ٤ريالات سعودية ـ الباكستان ٢٠ روبية ـ المملكة المتحدة جنيه استرليني واحد.

الاشتراكات السنوية:

للأفراد ١٥٠ريال سعودي، للمؤسسات ٢٥٠ ريال سعودي.

الإعلانات:

يتم الاتفاق عليها مع إدارة المجلة.

مستقبل العرب بين العلم والأدب



ياسر الفهد

منذ ما يربو على عشرين عامًا، نشرت أكثر من مقال، في الصحف العربية، مثل صحيفة (الرأي العام) الكويتية وصحيفة (الثورة) السورية، حول ضرورة منح العلم الأولوية على الأدب، أو على الأقل، إقامة التوازن بينهما، في شتى مجالات الحياة، ولاسيما في ميدان الإنتاج الثقافي.

وقد كنت أرى في ذلك الوقت، أن السبب الأساسي في تدهور أوضاع العرب يعود إلى تقصيرهم في الميادين العلمية والثقافية والطبية، وأنحيت باللائمة على أولئك الذين يبالغون في النشاطات الأدبية والفنية، فقد كانت المطبوعات العربية آنذاك تزخر بالمجموعات القصصية، والمعارض تطفح باللوحات الفنية، ودواوين الشعر تلقى بلا حدود في منابر الخطابة؛ في حين لم تكن المؤسسات الثقافية وأجهزة الإعلام تعنى بالعلوم والثقافة (التكنولوجيا) عنايةً مماثلة.

والآن: وبعد مرور زهاء عقدين أو أكثر، تغير الحال، وتبدلت الأمور، إلى حد ما، وأصبح للعلوم شأنٌ مرموق، إلى جانب الآداب، في دنيا العرب، ليس استجابة لمقالاتي بالطبع!، وإنما بحكم تطور الزمن، والحاجة إلى مواكبة العصر، ومجاراة الأمم الأخرى التي ضربت بأسهم وافرة في رعاية العلوم.

ونحن اليوم نجد معاهدنا ومؤسساتنا ومنظماتنا المختلفة، وكذلك أجهزة إعلامنا تهتم اهتماما ملحوظًا بالحقول العلمية، مثل الحاسوب (الكومبيوتر) واللايزر والصواريخ والأقمار الاصطناعية والتلوث والمفاعلات الذرية والفضاء وجراحة التنظير والهندسة الوراثية وتحلية المياه والإلكترونيات وغيرها.

أضف إلى ذلك الأعداد الهائلة من العلماء والأطباء والمهندسين والجراحين الذين تخرجهم الجامعات العربية.

والسؤال البالغ الأهمية الذي يستحق أن نطرحه، هو: هل تقدَّمَ العرب في مجمل أوضاعهم وأحوالهم، بعد أن أخذ العلم الكثير من استحقاقه في سلم الاهتمام العربي؟ للأسف أقول: لا! فأحوال العرب اليوم، بشكل عام أسوأ مما كانت عليه منذ عقدين من الزمن.

وعلى كل ما حققوه في المجالات الاقتصادية والعلمية والعمرانية والصناعية والطبية وغيرها، فإن الخسائر أفدح وأجسم، على الصعد القومية والسياسية والأخلاقية والمعنوية والإنسانية. فهل نستطيع من خلال ما عرضنا، أن نستنتج أن تقصير العرب في المجال العلمي ليس هو السبب الأول في تراجعهم وإخفاقهم؟ إن الإنسان كثيرًا ما يبدي رأيًا ما، في شأن من شؤون الحياة، ويكون موقنًا من صحته، ثم يضطر إلى تغيير هذا الرأي مع مرور الزمن، بفعل التجربة والخبرة.

وأنا اليوم أرى أن التقصير العلمي، ليس هو العامل الأول في تراجع العرب، بل إني بدلاً من ذلك، أشير بإصبع الاتهام إلى العناصر الأخلاقية والقيمية عند الإنسان العربي، فهنا يكمن السبب الأول في تدهور أوضاعنا.

وحتى نسد الثغرة الأخلاقية ونرأب الصدع القيمي، لابد لنا من تنشيط الأدوات والوسائل التي تحقق ذلك، وهي أدوات الأدب والفن.

فعلى عاتق الأدباء والشعراء والمفكرين اليوم تقع مهمة سامية تتمثل بتنمية الجانب الأخلاقي والوجداني عند الإنسان العربي، وبشن حرب شعواء على الأنانية وحب الذات والنزعة الفردية والميل إلى الغش والخداع والنفاق والتلاعب والكذب. فهذه كلها مظاهر يجب مواجهتها بإنتاج أعمال أدبية وفنية تساعد على صقل النفس وتنقية الذات وتنمية الوجدان، وترقى من الناحية النوعية إلى مستوى التحدي الأخلاقي، الذي نواجهه.

إن مستقبل العرب يعتمد الآن على مدى عنايتهم بالعلوم المادية من جهة، وبالتنمية الأخلاقية، من جهة أخرى، وفي هذه الحقبة التاريخية من حياتنا بالذات، أعتقد أن الجانب الثاني هو الأكثر أهمية، فإذا كانت الأمم ترقى بالعلوم، فإنها تسود بالأخلاق. ورحم الله الشاعر الذي قال:

وإذا أصيبَ القومُ في أخلاقهم

فأقم عليهم مأتمًا وعويلا